المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

مكة المكرمة

الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس الهجري

حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ-١٢٥٨م

إعداد الطالبة

جيهان سعيد الراجحي

إشراف

أ.د. مريزن سعيد عسيري

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

فهذا موجز للتعريف برسالة الماجستير في التاريخ الإسلامي المقدمة لقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وعنوانها : " الحياة الاجتماعية في بغدد من بداية القرن السادس الهجري حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م " وقد أنتظم البحث في مقدمة وعرض لأهم مصادر البحث ، وثلاثة أبواب وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع ، وفهرس المحتويات .

وبينت المقدمة أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، أما عرض المصادر فقد تناول أهم المصادر التي استقى منها البحث معلوماته .

وتناول الباب الأول البنية الاجتماعية لسكان مدينة بغداد من بداية القرن السادس حتى سقوطها بيد المغول وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول : عن الفئة الحاكمة ، وهم الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء ، والعلماء.

أما الفصل الثاني : فقد أفرد لدراسة فئات المجتمع العامة وهم الجند ، جند الخلفاء والسلاطين، العمال، التجار ، الباعة ، الفلاحون الرقيق ويشتمل على الخدم والجواري ، والخصيان ، الصوفية الشطار والعيارين ، وأهل الذمة من اليهود والنصارى ، وفي هذا الباب ركزت الدراسة على طبقات المجتمع كطبقة اجتماعية .

وتناول الباب الثاني دور فئات المجتمع في الحياة العامة ، وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول : تناولت الدراسة الفئة الحاكمة ودورها في الحياة العامة ومدى إسهام الخلفاء ووزرائهم والسلاطين والأمراء وجهودهم المبذولة لخدمة المجتمع .

الفصل الثاني : فئات العامة ودورها في حياة المجتمع .

وفي الباب الثالث تناولت الدراسة حياة الأسرة في المجتمع البغدادي وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول : تناولت الدراسة المنازل والدور .

أما الفصل الثاني : أختص بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية في بغداد ، وتناولت الدراسة المظاهر الاجتماعية لحياة الناس وحياتهم اليومية .

واختتم البحث بدراسة موجزة لأهم ما توصلت إليه من نتائج وثبت بالمصادر والمراجع ..

وبالله التوفيق...

الطالبة	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جيهان بنت سعيد الراجحي	أ.د. مريزن بن سعيد عسيري	د. سعود بن إبراهيم الشريم

Abstract

Title : Social life in Baghdad from the beginning of the sixth Hejri century until the downfall of Baghdad in 656H / 1258 AD. The research consists of an introduction, the most important resources of the research, three chapters, the conclusion, references and an appendex.

In the introduction, I explained the importance of the topic and reasons for selecting it . I mentioned the most important references of details and information.

The first chapter deals with the social structure of population in Baghdad from the beginning of the sixth Hejri century until its downfall . It is divided into two sections.

Sections (1) is abont the rulers; caliphs, sultans, princes, ministers and scholars.

Section (2) deals with the individuals in the society such as soldiers, workers, merchants, sellers, farmers and slaves such as servants, ascetics, rovers, wanderers and people of religious minorities such jews and Christians. I focused on the society classes as a social class.

Chapter 2 deals with the role of people in all classes of the society. It has two sections :

Section (1) deals with the rulers and their roles in the general life and how caliphs, ministers, sultans and princes contributed in the welfare of the society.

Section (2) deals with other classes of the society and their roles in society .

Chapter(3) deals with family life in the society in Baghdad. It is divided into two sections.

Section (1) deals with houses and buildings. Section (2) deals with life aspects in Baghdad especially the social aspects of people and their daily life.

The conclusion contained a brief study of the most important results and an appendex.

Dean of the Faculty of	Supervisor Prof.	Prepared by
Saudi Ben Ebrahim AlShoraim	Meraizan Ben said Asseeri	Gehan Bent said AlRajhy.

إهداء

أهدي خلاصة جهدي وثمرة عملي إلى والدي الحبيبين وإلى أخي

ثامر سعيد منصور الراجحي الذي وجدت منه الحنو والمساعدة .

ولا أنسى في غمرة الإهداء أن أهديها إلى من علمني كيف

أكتب التاريخ

أستاذي أ.د. مريزن بن سعيد عسيري

أستاذي ممتنه لك بكل شيء

وإليك يا من تقرأ هذه السطور

شكر وتقدير

الحمد لله على نعمه التي لا تحصى ولا تنتهي على ما تفضل به علي وتيسيره إتمام هذا العمل

وأتقدم بخالص الشكر والثناء والامتنان العميق والإدانة بالفضل إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور مريزن بن سعيد عسيري أستاذ الدراسات العليا التاريخية والحضارية الذي لم يأل جهداً في توجيهي وإرشادي ، وما عرفته إلا مثالاً للأمانة والإخلاص ، وإعانتي بآرائه السديدة وتزويدي بعلمه الواسع ، وبالمصادر النادرة من مكتبته الخاصة حتى أتممت هذا البحث ، فجزاه الله خير الجزاء، وأمد الله في عمره وأن يديمه ذخراً للعلم وطلابه .

شكر وتقدير

أسجل شكري وتقديري لوالدي حفظهما الله لما قدماه لي من حسن رعاية واهتمام ، والدعاء بالتوفيق ، ولوالدتي الكريمة داعية لها بأن يلبسها الله لباس العافية .

ثم أسجل عظيم الشكر والامتنان لأخي ثامر سعيد منصور الراجحي ، والعم يوسف بن منصور الراجحي اللذان لم يألا جهداً في مساعدتي ومساندتي إلى يومنا هذا .

وأسطر خالص الشكر والثناء والامتنان العميق والإدانة بالفضل إلى أستاذي المشرف أ.د. مريزن بن سعيد عسيري أستاذ الدراسات العليا التاريخية والحضارية فما عرفته إلا مثالاً للأمانة والإخلاص ، وإعانتي بآرائه السديدة وعلمه الواسع وبالمصادر النادرة من مكتبته الخاصة منذ أن كان البحث فكرة إلى أن خرج للنور في حلته النهائية فجزاه الله خير الجزاء .

والشكر موصولاً لجامعة أم القرى ذلك الصرح الشامخ ممثلة في معالي مدير الجامعة د. ناصر الصالح ، ود. وفاء المزروع وكيلة عمادة الدراسات الجامعية بفرع الطالبات والشكر موصولاً لعميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية د. سعود الشريم ،

ورئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية أ.د. عبد الله بن سعيد الغامدي

ووكيلة رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية د. أميرة مداح التي كانت بمثابة الأم الحانية لنا بالقسم بنصحها لنا وإرشادها .

والشكر موصولاً للمكتبة المركزية وجميع منسوبيها بفرعيها ،

كما أشكر معهد البحوث والتراث العلمي بجامعة أم القرى على ما وفره لنا من مخطوطات .

والشكر موصولاً لمكتبة الحرم المكي الشريف ذلك الصرح العلمي الذي ما يزال بحاجة للفتة من الاهتمام والرعاية لما يحويه من كنوز علمية .

وأخص بالشكر المكتبة المركزية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة والقائمين عليها خاصة الأخ حسان بن حامد الراجحي .

كما أسطر الثناء والشكر لمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض وما وفرته من مصادر نادرة أثرت البحث كثيراً ، وأخص بالشكر بها الأخت رقية الصقير في القسم النسائي .

والشكر موصولاً لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية وأخص بالشكر بها د/ صالح بن ناصر الخريجي مدير الإدارة العامة للمكتبات والمعلومات .

كما أتقدم بالشكر الجزيل من الأعماق لمن ساهم معي وأعانني في انجاز هذا البحث وإخراجه .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضلين عضوي المناقشة على ما بذلاه من جهد في قراءة الرسالة وتقويمها وما سيتفضلان به من ملاحظات وتوجيهات ستكون مثرية للبحث وتكون موضع تقديري وامتناني فجزاهما الله خير الجزاء .

الباحثة ،،

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على الهادي الأمين إمام الغر المحجلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

إن التاريخ لا ينحصر في المجال السياسي والاقتصادي ولكنه تاريخ الأمة بكافة فئاتها وشرائحها المختلفة ، ولا يخفى على المرء أن حقل دراسة التاريخ الاجتماعي بدء الاهتمام به منذ سنوات وهو ينبئ عن توجه ملحوظ لهذا النمط من الدراسات التاريخية ، إذ كان التركيز على الجانب السياسي والاقتصادي أكثر من الجانب الاجتماعي في بعض الدراسات على الرغم من أن القيم الاجتماعية والعادات والتقاليد التي ألفها الناس ما تزال قائمة بين ظهرانينا وبعض جذورها لقرون خلت ، لذا فإن الكشف عنها والمساهمة في إزالة الغموض منها يكون من الأهمية بمكان في وقت نحتاج فيه إلى أن نراجع أنفسنا ونعاود تقييم تراثنا العلمي والحضاري الذي ضاع أغلبه تحت وطأة الصراعات السياسية ، ونحاول أن نبين للأمة مجدها الحضاري والعلمي .

إن التلاحم ظل بين بغداد والعلم والحضارة الإسلامية والمدنية ، فقد اجتمع ببغداد عناصر عرقية مختلفة مما جعلها موضوعاً لدراسة الحياة الاجتماعية ، ولأنها كانت عاصمة الدنيا والخلافة الإسلامية وبلغت عظمة ومكانة راسخة لم تستطع حاضرة إسلامية أخرى أن تنافسها فيه خاصة في عصرها الذهبي العباسي الأول ، فقد لقيت اهتماماً كبيراً من الباحثين والدارسين من العلماء في الوطن العربي ، فهناك العديد من الرسائل والدراسات التي كتبت عن الحياة الاجتماعية " في العراق عامة سوزان حسين ياغي التي كتبت دراسة بعنوان " الحياة الاجتماعية في بغداد منذ تأسيسها حتى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م ، وفهمي عبد الرزاق الذي صنف كتابه عن " العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين " ولعل خير من كتب عن هذا

الموضوع هو بدري محمـد فهد صاحب الدراسات المستفيضة عن الحياة الاجتماعيـة في العراق منها كتابه " العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري " .

وإنه إكمالاً للفضل وإتماماً للمعرفة كان من ضمن أهم الأسباب التي دعتني إلى استكمال ما بدأه من قبلي من الفضلاء الباحثين ، وما حملني على اختيـار موضـوع الحياة الاجتماعية ببغداد من بداية القرن الـسادس الهجـري حتـى سـقوطها سـنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وبعد أن تأكدت حسب علمي من عدم تناول البـاحثين هـذه الفتـرة بالدراسة ، ازدادت رغبتي في خوض هذا الموضوع لكونه يتناول بالبحث والدراسـة المجتمع البغدادي بكافة فئاته الخاصة والعامة ، خاصة وأن هذه الفترة تميـزت بأنهـا فترة امتزاج واختلاط بكافة الأعراق والثقافات بعد المائة الخامسة إضافة إلى أنها فترة تميزت بنهوض الخلافة لاسترجاع هيبتها المفقودة من سيطرة الحكام الأجانب بتـوالي جهود الخلفاء لتحقيق سيادة الخليفة العباسي والتي بدأت بخلافـة الخليفـة المـسترشد (٥١٢هـ-٥٢٩هـ/١١١٨م-١١٣٥م) حتى تكللت تلك الجهود بجهود الخليفة الناصر (٥٧٥هـ-٦٢٢هـ/١١٨٥م-١٢٢٥م) وتمكنه من إزالة سلطان السلاجقة وسـيطرتهم على الخلافة العباسية ، فالخلفاء يمثلون الصفوة وهم أكثر الفئات تأثيراً فـي المجتمـع سلباً أو إيجاباً .

إضافة إلى الرغبة في التعرف على واقع المجتمع البغدادي آنذاك ومدى تـأثره وتأثيره في الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية والفكرية والإدارية ، خاصـة وأن هذه الفترة تميزت بانتعاش فكري وحضاري غدت فيه بغداد المركز العلمي الذي يجذب الطلبة والعلماء والأدباء والمفكرين فقد كانت مرتعاً خصباً لذلك ، وقد طرقت في هـذا البحث ثلاثة أبواب :

اختص الباب الأول منه بالبنية الاجتماعية لسكان مدينة بغداد من بداية القـرن السادس حتى سقوطها وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول : يتحدث عن الفئة الحاكمة وهم الخلفـاء والـسلاطين والأمـراء والوزراء ، والعلماء ، وهم يكونون الفئة الخاصة والتي تمتلك وبيدها مقاليـد الأمـور كطبقة اجتماعية عليا تميزت بميزات اجتماعية يستوجبها المنصب السياسي في الدولة .

أما الفصل الثاني فقد أفرد لدراسة فئات المجتمع العامة وهم الجند جند الخلفاء والسلاطين ، العمال ، التجار ، الباعة ، الفلاحون ، الرقيق ويشتمل على الخدم والجواري والخصيان ، الصوفية ، الشطار والعيارين ، وأخيراً أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس ووضعهم الاجتماعي داخل المجتمع البغدادي .

أما الباب الثاني فقد أختص بدور فئات المجتمع في الحياة العامة ، وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول تناول بالبحث الفئة الحاكمة ودورها في الحياة العامة ومدى إسهام الخلفاء ووزرائهم والسلاطين ، والأمراء وجهودهم المبذولة لتقديم أفضل الخدمات الاجتماعية والتعليمية كبناء المدارس ودور الضيافة ، وخدمات الحج ، والصدقات .

أما الفصل الثاني فقد تناول البحث فيه فئات العامة ودورهم في حياة المجتمع : وهم نقابة الأشراف والدور الاجتماعي لها من خلال اهتمامها بفئة الأشراف وما تقدمه لهم من خدمات اجتماعية ، التنظيمات النقابية لأصحاب المهن ، الشطار والعيارين ودورهم في الحياة العامة ودور العامة في قيادة الرأي العام . ثم أهل الذمة ودورهم في الحياة العامة .

وفي الباب الثالث تناول البحث دراسة حياة الأسرة في المجتمع البغدادي وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول تناول المنازل والدور وطريقة بناء قصور الخلفاء وحياة الأسرة داخل قصور الخلفاء وعلاقاتهم الاجتماعية ، كذلك تناول دور الوزراء والأمراء وأعيان الناس وأحوالهم المعيشية ، ثم دور العامة وطراز المعيشة بها .

أما الفصل الثاني فقد اختص بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية في بغداد ، ويتناول البحث فيه صور حياة المجتمع البغدادي في المناسبات ، وعادات الطعام واللباس ، إضافة إلى اهتمامهم بالصحة العامة ونظافة البيئة وتصريف المياه ، ووسائل التسلية والترفيه والمنتزهات التي يقضون بها أوقات فراغهم ، والمجالس المختلفة منها مجالس العلم ومجالس الوعظ والتذكير ، وأخيراً تناول العادات المختلفة التي كانت في المجتمع واعتاد عليها الناس .

وأختتم البحث بدراسة موجزة لأهم ما توصلت إليه من نتائج .

ولقد حاولت الباحثة جاهدة تحري الدقة فـي المعلومـات وإيـراد النـصوص للوصول إلى أفضل النتائج ، وما هو جدير بالملاحظة هو أننا اضطررنا إلى تكـرار بعض النصوص في أكثر من موضع في البحث وذلك تبعـاً لتعـدد جوانـب البحـث وإمكانية توظيف المعلومة في عدة جوانب حيث أن أهداف البحث ومقتضياته تستوجب ذلك ، وعلى الرغم من أن موضوع دراسة الحياة الاجتماعية من الموضوعات المحببة والجميلة إلا أنه يكتنفه الكثير والكثير من الصعوبات خاصة في فترة كفترتنـا هـذه ، فالمعلومات قليلة جداً وتكاد تكون نادرة في بعض الجوانب ، مع أن المصادر التاريخية أعطت كثيراً الجانب السياسي والاقتصادي حقه إلا أن الجانب الاجتمـاعي لـم يكـن موضع اهتمام الكثير من المؤرخين ، إضافة إلى الصعوبة البالغة في تقـصي حقـائق غالبية فئات المجتمع البغدادي مما تطلب إحاطة شاملة بمصادر كثيرة ومتنوعة القديمة منها والحديثة ، حتى اضطرت الباحثة للبحث في كلٍ من الجامعة الأردنيـة بعمـان ، والدار العربية للموسوعات ببيروت ، ومركز الملك فيصل للبحوث ، ومكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لتدعيم البحث بالمعلومـات من مصادر نادرة ، فوجدت فيها نتفاً لا تمثل أكثر من إشارات قليلة جداً ومشتتة بـين ثنايا الكتب يصعب على المرء جمعها كما يصعب فهم الحقيقة منها لما يكتنفهـا مـن غموض .

ولقد بذلت ما استطيع من جهد من خلال ما توفر لي من مصادر فـي دراسـة الموضوع ولم أدخر وسعاً في البحث ولا أحسب أني أوفيت الموضوع حقه ، فهذا هو جهدي ومقدار عملي ، كما أنني واثقة بأنه قد فاتني الكثير ولكني أحسب أني طرقـت باباً في ميدان دراسة التاريخ الاجتماعي ، وأخيراً آمل أن تكون عثراتـي أقـل ممـا توقعت فالكمال لله وحده فهو نعم المولى ونعم النصير .

عرض لأهم المصادر :

إن موضوع دراسة الحياة الاجتماعية في أي زمان يعتبر من أمتع الموضوعات دراسة ، لما للموضوع من جوانب عديدة ومتشعبة تركز على حياة المجتمـع وتطـور اتجاهاته وأحواله الاجتماعية والحيوية ، وعاداته ووسائل معيشته ، مما أدى إلى تعذر توفر المعلومة وشموليتها بمصدر من المصادر مما عانته الباحثة من مصاعب جمة في جمع المعلومات من مضانها المختلفة التي كانت تشح أحياناً حتى تبلغ القطـرات فـي جانب من جوانب البحث وتغزر أحياناً في جانب آخر مما أدى إلـى تنـوع مـصادر البحث وتعددها سواء الخطية منها أو المطبوعة ، تاريخية وغيـر تاريخيـة لبلـورة موضوع البحث في وحدة متكاملة ، وأنه من الصعوبة بمكان تناولها جميعاً بالتفصيل ، وإنما سوف أشير إلى أهمها والتي كانت أساسية لا غنى للبحث عنها حيث أنها زودت البحث بمعلومات نادرة في جوانب معينة منه وفيما يلي الإشارة لبعضها :

مـن المصـادر الخطيـة كان كتاب " **إنسان العيون فـي مـشاهير سـادس القرون** " [1] لمؤلف مجهول مـن رجال القرن الـسادس الهجـري / الثـاني عـشر الميلادي ، وهو يدخل ضمن النطاق الزماني للبحث ، وأختص بتقديم معلومات واسعة عند تقديمه تراجم لمشاهير رجال القرن السادس الهجري ، وعن حياتهم وآثارهم .

وقد كان جل اعتماد البحث على المصادر المطبوعة والتي من أهمهـا : كتـب التاريخ العام والحوليات التي اعتمدنا عليها الطبري ؛ محمـد بـن جريـر الطبـري (ت٣١٠هـ/٩٢٣م) في " **تاريخ الرسل والملوك** " ، والمسعودي ؛ أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) " **مروج الـذهب ومعـادن الجـوهر** " وابـن مسكويه ؛ أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) وكتابه " **تجارب الأمم** " وقد أفاد البحث من هذه الكتب بمعلومات عن حياة المجتمع البغدادي في العهود التي سبقت فترة البحث .

---

(1) لمؤلف مجهول من رجال القرن السادس الهجري ، مخطوط مصور بمركز البحث العلمي وإحيـاء التـراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم (١٣١٠) تاريخ عن مصور مكتبة جامعة بغداد ، دراسات عليا رقم (٢٤٨).

هذا وقد استفاد البحث كثيراً من مؤلفات أبـي الحـسن هـلال بـن الـصابئ (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) وهو كاتب ومؤرخ من أهل بغداد ولي ديـوان الإنـشـاء فـي بغداد زمناً وله التصانيف عن الأمراء والوزراء والأعيان كـان كتابـه " **رسـوم دار الخلافة** " [١] قدم معلومات مهمة عن تطور رسوم دار الخلافة وعن الخلفاء وعـاداتهم الاجتماعية داخل دار الخلافة وعلاقتهـم بالأمراء والـوزراء ، كذلـك كتابه الموسوم " **بتحفة الوزراء** " [٢] خدم البحث كثيراً فيما يتعلق بالوزراء ودورهم الاجتماعي وعن دور الوزراء وحياتهم الداخلية الخاصة .

كما أفاد البحث كثيراً من رسالة " **شرى الرقيق وتقليب العبيد** " [٣] للمختار بن الحسن المعروف بابن بطلان (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م) وهو من مشاهير أطبـاء القـرن الخامس الهجري والمخطوطة منشورة ضمن كتاب نوادر المخطوطات لعبـد الـسلام هارون ، وقد قدمت معلومات قيمة عن الرقيق والجواري ودورهم الاجتمـاعي كفئـة اجتماعية من فئات المجتمع العامة التي أثرت كثيراً على حياة الخلفاء خاصة والمجتمع البغدادي عامة .

كذلك اعتمد البحث كثيراً على كتاب " **تاريخ بغداد مدينة السلام** " [٤] ، للحافظ أحمد بن علي بن الخطيب البغدادي (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م) أشهر مؤرخي بغداد وأحـد الحفاظ ، صنف ما يزيد على خمسين مصنفاً يعد كتابه تاريخ بغداد من أشـهر الكتـب التاريخية التي أرخت لبغداد فقد احتوى على معلومات مهمة عن تاريخ المدينـة فقـدم وصفاً لطبوغرافية مدينة السلام ومساجدها وجوامعها ، وقصور الخلفاء وما احتوته من أثاث وخدم وحواشي ، فضلاً عن دور العامة وعادات أهل بغداد في الطعام والـشراب واللباس ، فما أتى به من معلومات في ثنايا تراجمه كان يمثل مادة ثرية أثرت البحـث في بعض جوانبه .

---

(1) تحقيق ميخائيل عواد ، ونشر دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م .

(2) دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

(3) منشورة ضمن المجموعة الرابعة من نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هـارون ، الطبعـة الثانيـة ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

(4) تحقيق عبد القادر عطا ، ومنشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

ويعد كتاب " **سياسية نامة** "[1] لنظام الملك قوام الدين أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) من المصادر المهمة التـي أمـدت البحـث بمعلومات عن الجوانب الاجتماعية للسلاطين السلاجقة ورسومهم داخل دار الـسلطنة وعن مجالسهم الخاصة وذلك في الفصل الأول من الباب الأول .

كما كانت مصنفات أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمـد بـن الجـوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) العلامة الحافظ عالم العراق في التاريخ والسير والحديث ، مـن المصادر الأساسية التي قدمت معلومات مهمة للبحث ، فمن خلال معاصـرته لفتـرة البحث يعد أفضل من كتب عن الأوضاع الاجتماعية لبغداد من خلال تناوله لعدد مـن الموضوعات ذات العلاقة المباشرة بالمجتمع : منها كتابه " **المنتظم في تاريخ الملـوك والأمم** "[2] من أبرز مصادر البحث فقد تميز بتتبع مظاهر الحياة الاجتماعية قـل مـا نجدها في المصادر الأخرى ، فهو تاريخ إسلامي عام سار فيه على أساس السنين يذكر أخبـار كل سنة ، فضلاً عن تزويدنا بتراجم وافية بذكر وفيات أعيان وعلمـاء تلـك السنة ، وبجانب كتاب المنتظم لابن الجوزي كان كتابه " **مناقب بغداد** "[3] وهـو مـن الكتب الصغيرة الهامة اشتمل على دراسة رائعة لمدينـة بغـداد جغرافيـاً وسياسـياً واجتماعياً واحتوى على معلومات نادرة استطعنا من خلاله أن نصل إلى كيفيـة بنـاء دور العامة وتفصيلاتها وكذلك دور الوزراء والأمراء ، وما له علاقة بحياة الأسـرة في المجتمـع البغدادي كما أفاد البحث كثيراً من مؤلفات أخرى لابن الجـوزي منهـا " **صيد الخاطر** "[4] وكتـاب " **تلبيس إبليس** "[5] و " **القـصاص والمـذكرين** "[6] و " **أخبار الحمقى والمغفلين** "[7] و " **ذم الهوى** "[8] فما جاء في هذه الكتب عن المجتمع

(1) ترجمة مرتضى السيد العزاوي ، دار الرائد العربي ، بيروت .
(2) نشر دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م ، منه الأجزاء من السادس إلى العاشر .
(3) نشر بتحقيق محمد زينهم محمد ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
(4) نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
(5) نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
(6) نشر بتحقيق لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
(7) نشر دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
(8) نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

البغدادي في عصر مؤلفها كان له عظيم الفائدة للبحث وعن عاداته وتقاليده وأعرافه لما دونه من خلال ما يشاهده في أيامه من أوضاع اجتماعية ودينية إضافة معالجته بعض الموضوعات مثل حديثه عن بعض الفرق المنحرفة ولاسيما مـا لـه صـلة بالفئـات الاجتماعية العامة كالصوفية والشطار والعيارين ، إضافة إلى تفنيده لمجالس الوعـاظ ومجالس العلم في كتابه " القصاص والمذكرين " .

ومن أهم مصادر البحث كتاب " **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولـة السلجوقية** " [(١)] لمحمد بن علـي بـن سـليمان بـن محمـد بـن أحمـد الراونـدي (ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م) وهو ينتسب إلى أسرة أغلب أفرادها من العلمـاء ، وقـد نـال الحظوة لدى سلاطين السلاجقة حتى أصبح من أشهر مؤرخيهم ، يعتبر كتابه مـصدراً أساسياً من مصادر البحث فيما يتعلق بالتاريخ السياسي والاجتماعي للسلاطين السلاجقة في بغداد وعلاقتهم بالخليفة العباسي .

كما كان من أهم مصادر البحث كتاب " **الطبيخ** " [(٢)] لمحمد بن الحسن بن محمد بن الكريم الكاتب البغدادي ، ألفه سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م قبل سقوط بغداد بـ ٣٣ سـنة وقد زود البحث بمعلومات نادرة عن ألوان الطعام وبيانه لـصورة تهيئـة كـل لـون بعبارات متقنة . وهو كتاب فريد في بابه حوى جميع ألوان الأطعمة التي كانت متداولة في عهد العباسيين ومن خلاله استدلت الباحثة على مدنية ورقي المجتمع البغدادي ، وقد أتى بأسماء غريبة لبعض الأطعمة لم يسمع بها ولم يرد لها ذكر في كتـاب ولا فـي معاجم اللغة وبذلك يكون له فائدة لغوية أيضاً .

ويعتبر كتاب " **الكامل في التاريخ** " [(٣)] لمؤلفه عز الدين علي بن محمد الشيباني بن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) المؤرخ المشهور الذي عاش حياته منقطعـاً للعلم والتأليف ، وكان معاصراً لفترة البحث ، وقد اهتم في كتابه هذا بتصوير الحيـاة الاجتماعية وإبراز مظاهرها العامة ، متحرياً للدقة في كتاباته ، وكتابه هذا جعله مرتباً

---

(1) ترجمة إبراهيم السوارني وآخرون ، طبع سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

(2) حققه داود الجلسي وطبع بالموصل سنة ١٩٣٤م ثم أعيد نشره سنة ١٩٦٤م ، وذيل عليه بكتاب معجم المآكل الدمشقية ، نشر دار الكتاب الجديد .

(3) طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت .

حسب السنين ويختم أحداث كل سنة بذكر حوادث موجزة أفـادت البحـث فـي تتبـع التطورات العامة للأوضاع الاجتماعية والدينية للعراق ولبغداد خاصة ، وهـو يـذكر وفيات أعلام العصر ، وما أسهموا به في ميادين تخصصاتهم أفاد البحث بشكل خاص فيما يتعلق بالدور الاجتماعي لفئات المجتمع .

وكتاب " **الفتوه** " [(١)] للشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم المعروف بـابن المعمار (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م) من المصادر الأساسية التي أمدت البحـث بمعلومـات نادرة عن حركات الفتوة والشطار والعيارين والدور الاجتماعي لتنظيمات الفتوة منـذ بداية القرن الأول الهجري .

كما أفاد البحث من كتاب " **الجامع المختصر في عنوان التواريخ والـسير** " [(٢)] لابن الساعي أبي طالب علي بن انجب تاج الدين المعروف بـابن الـساعي الخـازن (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) والساعي عداء يعدوا في مصالح غيره من التجار والأعيـان ، سمع الحديث ودرس النحو والأدب وألف الكثير من المؤلفات في التفـسير والحـديث والتواريخ ، كتابه الجامع جعله مرتباً حسب السنين في خمسة وعشرين مجلداً بلغ فيـه إلى آخر سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م والجـزء التاسـع منـه يبـدأ مـن حـوادث سـنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وينتهي في حوادث سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٦م ، وقد أفاد البحث في تتبع بعض المعلومات المتعلقة به على الرغم من اختصاراته .

أمـا كتابـه " **نساء الخلفاء المسمى بجهات الأئمـة الخلفـاء مـن الحرائـر والإماء** " [(٣)] فقد كان عظيم الفائدة فيما يخص معلومات مهمة ونادرة عن نساء الخلفاء وربات القصور ودورهن الاجتماعي بما ذكره من تراجم لهن ، كما أضاف إليه مـن نساء السلاطين السلاجقة وحياتهن داخل القصور .

---

(1) تحقيق مصطفى جواد وآخرون ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٥٨م .

(2) طبع المطبعة الكاثولوكية ، بغداد ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م .

(3) تحقيق مصطفى جواد ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .

ومن المصادر التي زودت البحث بكثير من المعلومات كتاب " **مختصر الدول من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس** " [١] لابن الكازروني ؛ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) وهو من المصادر المهمة التي اهتمت بذكر بعض الجوانب الاجتماعية والحضارية ، كذلك كتابه " **مقامة في قواعد بغداد** " [٢] يعد من المقامات الأدبية التي تناولت بغداد خاصة بالدراسة وهو كتاب قيم بمعلوماته عن عادات المجتمع البغدادي خاصة في عادات الأعياد والمناسبات والاحتفالات وقد أفاد البحث في كافة فصوله خاصة في الفصل الثاني من الباب الثالث .

ويعتبر كتاب " **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة** " [٣] المنسوب لابن الفوطي ؛ كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق أحمد الشيباني البغدادي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) من المصادر المهمة والأساسية في البحث ، قدم معلومات تاريخية وحضارية في حوادث السنين ووفيات الأشخاص كان له عظيم الفائدة في كافة فصول البحث .

كما كانت كتب التراجم والطبقات من المصادر المهمة للبحث والتي أمدت البحث بالكثير من المعلومات ذات الصلة بحياة المجتمع فضلاً عن أنها أمدت البحث بتراجم الأشخاص ونخص بالذكر منها :

كتاب " **معجم الأدباء أو إرشاد الأديب** " [٤] لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، المؤرخ الأديب الجغرافي من علماء اللغة والأدب صنف الكثير من التصانيف في كل فن ، كان معاصراً لفترة البحث لذا اعتبر مؤلفه من أهم مصادر البحث ، بما ذكره من معلومات في ثنايا تراجم العلماء والأدباء وأعيان العصر.

---

(1) تحقيق مصطفى جواد ، ونشر وزارة الأعلام ضمن سلسلة كتب التراث .

(2) تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٢م .

(3) تحقيق مهدي النجم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

(4) مطبعة دار المأمون ، القاهرة .

كما أفاد البحث كثيراً من كتاب " **ذيل تاريخ مدينة السلام بغـداد** " [1] لمؤلفـه محمد بن سعيد بن يحيى بن علي الدبيثي (ت٦٣٧هـ ـ/١٢٣٩م) وهـو مـن ثقـات المؤرخين المعاصرين لفترة البحث ويعد كتابه من أهم مصادر البحث التي استعان بها في تراجم المشاهير والعلماء ببغداد .

كذلك كتاب " **التاريخ المجدد لمدينة السلام المعروف بذيل ابـن النجـار** " [٢] للإمام الحافظ محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود ابن الحسن بن هبـة الله بـن محاسن المعروف بابن النجار البغدادي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وهو كذلك من المصادر القيمة في التراجم ، كما أفاد كذلك البحث من كتاب " **تلخيص مجمع الآداب في معجـم الألقاب** " [٣] لابن الفوطي .

وقد اعتمد البحث فيما يتعلق بحياة العلماء الاجتماعية ودورهم الاجتماعي علـى عدد من كتب طبقات العلماء منها كتاب " **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** " [٤] لابـن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ ـ/١٢٦٩م) وهو من الأطباء الأدباء المشهورين ، كتابه هذا يحوي تراجم لأطباء العرب والعجم في العراق والشام ومصر والمغرب ، وقد أفاد البحث كثيراً فيما يتعلق بأطباء الخلفاء مـن أهل الذمة وحياتهم الاجتماعية وعلاقتهم بقصور الخلفاء .

كما اعتمد البحث كثيراً على المصادر المتخصصة بتراجم رجال المذاهب مثـل كتاب " **طبقات الشافعية الكبرى** " [5] لتاج الدين عبـد الوهـاب بـن علـي الـسبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) وكتاب " **الذيل على طبقات الحنابلة** " [٦] لأبـي الفـرج عبـد الرحمن بن أحمد البغدادي الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) ، وكتاب " **شـذرات**

---

(1) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

(2) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

(3) نشر الجزء الرابع منه بتحقيق مصطفى جواد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مطبوعات مديريـة إحيـاء التراث القديم ، بغداد .

(4) منشورات دار الحياة ، بيروت ، تحقيق د. نزال رضا ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

(5) نشر بتحقيق عبد الفتاح محمد الحلـو ، ومحمـود الطنـاحي ، ط١ ، مطبعـة عيـسى البـابي الحلبـي ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

(6) دار المعرفة ، بيروت .

الذهب في أخبار من ذهب " [1] للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العمـاد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) جميع كتب الطبقات هذه إفادة البحث كثيراً فيما يتعلـق بالعلماء كفئة اجتماعية لها نشاطها الاجتماعي إضافة إلى ما حوته من معلومـات ذات الصلة بتربية الأبناء داخل القصور ، وما له صلة بالمجتمع .

ومن كتب الجغرافيا والرحلات اعتمدت الدراسة على كتب الرحالة وما حوتـه من معلومات قيمة ومفصلة لمظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية ، ولولا مـا دونـه هؤلاء الرحالة مما شاهدوه ببغداد من مظاهر اجتماعية ، وتحديد الأماكن لما اسـتطعنا أن نعطي صورة مفصلة عن واقع الحياة الاجتماعية لمدينة بغداد ومن أهمها :

كتاب " **رحلة بنيامين** " [2] للرحالة بنيـامين بـن يونـه التطيلـي الأندلـسي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) وكانت رحلته خلال فترة البحث . كذلك " **رحلة ابن جبيـر** " [3] للرحالة ابن جبير ؛ محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) ، وكتاب " **معجم البلدان** " [4] لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، كان مصدراً مهماً في تعيين الأماكن والمواضع ببغداد وغيرها . كذلك " **رحلة ابن بطوطة** " [5] للرحالـة محمد بن عبد الله بن محمد ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٧٨م) .

كما كان لكتب الحسبة الفضل في توضيح مسئوليات الدولة تجاه المجتمـع فـي الاهتمام بالمرافق العامة والحيوية كالطرق والأسواق والحمامات ، إضافة إلى إعطـاء صورة مفصلة عن التنظيمات الحرفية والمهنية ودورها الاجتماعي ، وكان من أهمهـا " **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** " [6] للشيزري عبد الـرحمن بـن نـصر الـشيزري (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) وكتاب " **معالم القربة في أحكام الحـسبة** " [7] لابـن الأخـوة

(1) منشورات دار المسيرة ، ط٢ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
(2) ترجمة عزرا حداد ، دار ابن زيدون ، بيروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
(3) دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
(4) دار صادر ، بيروت .
(5) المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
(6) دار الثقافة ، بيروت .
(7) عني بنقله وتصحيحه روبن لوي ، مطبعة دار الفنون ، كمبرج ، ١٩٣٧م .

(ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م) . وهذه المصادر كونت في جملتها كيان البحـث ومـستلزماته العلمية .

الباب الأول

البنية الاجتماعية لسكان مدينة بغداد

من بداية القرن السادس حتى سقوطها

ويشمل فصلين :

الفصل الأول : الفئة الحاكمة .

الفصل الثاني : فئات المجتمع .

الفصل الأول

- المبحث الأول : الخلفاء .
- المبحث الثاني : السلاطين .
- المبحث الثالث : الوزراء والأمراء .
- المبحث الرابع : العلماء .

الفصل الأول

الفئة الحاكمة

منذ نشوء الدولة العباسية ارتبط تكوينها الاجتماعي بتكوينها السياسي ، فالبنيـة الاجتماعية للفئة الحاكمة في المجتمع العباسي ، والتي تمثل طبقـة الخاصـة فـي المجتمع ، اختلفت كل الاختلاف عما كانت عليه فـي المجتمـع الأمـوي ، فـالثورة العباسية السياسية ما هي إلا نتاج ثورة اجتماعية ، اتخذت من التباين الطبقي وسـيلة لتحقيق غاياتها السياسية والتخاص من الأمويين الذين يمثلون عدم المساواة بين العرب وغيرهم من حيث وجهة نظر الثورة ، فأصبح النفوذ الفارسي هو الغالب في المجتمع العباسي ، كما كان للاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي انتابت الدولة العباسية في أواخر عصرها ، وخضوع الخليفة العباسي لسيطرة كُلا من البويهين ومن ثم السلاجقة من بعدهم كان له أثر كبير في تكوين الفئة الحاكمة نفسها والتـي تمتلـك زمام الأمر في الدولة ، فأصبح لها تكوين جديد يخالف تكوين الفئـة الحاكمـة فـي العصور العباسية الأولى والتي تسبق فترة البحث فأصبحت تضم كلاً مـن الخلفـاء ، والسلاطين ، الأمراء و الوزراء ، وما كان لهؤلاء من تأثير نلمـسه فـي المظـاهر الاجتماعية لكل طبقة من طبقات الفئة الحاكمة .

المبحث الأول : الخلفاء .

الخلافة هي المصدر من الخلفُ ، بالتحريك ، وهي الولد الصالح يبقى بعد أبيه ، وهي ما استخلفت من شيء وخلفته خلفاً حيث جئت من بعده .

واسم الفاعل خليفة ، وجمعها خلفاء ، مثل ظريف وظرفاء ، يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه لقوله تعالي ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (1) .

وقال الفراء في قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (2) أي جعل أمة محمد ﷺ خلائف الأمم ، والخليفة هو السلطان الأعظم ويقال خلف فلان فلاناً أي خلفه في قومه خلافة (3) .

فالخلافة هي خلافة النبوة في " حراسة الدين وسياسة الدنيا " (4) فعلى ضوء ذلك أطلق لقب الخليفة على من يقوم بأمور الأمة الإسلامية في كافة شؤونها الدينية والدنيوية ، و يتم اختيار الخليفة إما ببيعة من أهل الحل والعقد ، وإما بعهد فالخلفاء هم رأس الفئة الحاكمة في المجتمع ، فلا يحكم الدولة سوى خليفة واحد يقوم بأمور رعيتها كإقامة الصلاة ، وجباية الخراج ، وحماية الدولة من أي عدوان خارجي ، ولكي يقوم الخليفة بتلك المهام عليه أن يتصف بالعقل ، والعدالة ، والعلم ، وسلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ، كذلك سلامة الأعضاء ، وأن يكون ذا رأي

---

(1) سورة ص ، آية : ٢٦ .

(2) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .

(3) الجوهري : إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح في اللغة ، تحقيق عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ج٤ ، ص ١٣٥٦ ؛ السيد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، مصطفى مجازي ، التراث العربي ، الكويت ، ١٤٠٦هـ /١٩٦٦م ، ج٣ ، ص٢٤٤-٢٦٤ مادة خلف .

(4) الماوردي : أبي الحسن بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥ .

يسوس رعيته ويدبر شؤونها ، وبعض العلماء اشترط شرطاً أن يكون الخليفة من قريش بناء على قول الرسول ﷺ " الأئمة من قريش " [(1)] .

وفي اجتماع الناس على خليفة واحد يجمع كلمتهم ويقوم بحقوقهم ، فيه وحدة للمجتمع ومدعاة لعدم التنازع وانتشار الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع ، وكما أن على الخليفة حقوقاً لرعيته ، فان له الطاعة والنصرة في أمور الدين والدنيا قال تعالى ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ" ﴾ [(2)] .

وتبعاً للحوادث السياسية والتغيرات الاقتصادية في الدولة الإسلامية ، كان هناك تغيرات اجتماعية طرأت على مجتمع الخلفاء وعاداتهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية ، فحين انتقلت الخلافة من أيدي الأمويين إلى العباسيين تبعه تغير في البنية السكانية للمجتمع العباسي فلم يعد المجتمع كما كان عليه في العهد الأموي عربياً ، تظهر عليه السمات العربية سواء في عادات الخلفاء ورسومهم فأصبح للخلفاء زيهم الخاص ، إذ اتخذ الخلفاء العمائم والقلانس [(3)] ، وكان ذلك الاختلاف في عادات الخلفاء واضحاً في هبات الخلفاء وعطاياهم ، فالخلفاء الأمويون كانت جوائزهم الإبل تبعاً لذلك المجتمع العربي ، أما في العصر العباسي فكانت عطاءات الخلفاء العباسيين الذهب والخيل بمراكبها [(4)] .

وكون المجتمع العباسي كان يضم عناصر بشرية من أمم متعددة سواء من الفرس ، أو الروم ، أو الأرمن الترك أو الأحباش ، أثروا في المجتمع العباسي بشكل ملحوظ ، فقد كانت قصور الخلفاء مليئة بالرقيق وخاصة الجواري ، وهذا ما يوضح لنا كون اغلب خلفاء بني العباس هم من أمهات الأولاد ، و ليس ذلك قاصراً على خلفاء العصر الأول بل كان خلفاء القرنيين الرابع والخامس أيضاً أبناء أعجميات ، ومنذ بداية القرن السادس الهجري حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م

---

(1) مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : الجامع الصحيح ، دار القلم ، بيروت ، ج١١-١٢، كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ، ص ٤٤١ .
(2) سورة النساء ، آية : ٥٩ .
(3) انظر الباب الثالث ، الفصل الثاني الألبسة والأزياء .
(4) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٦ ، القاهرة ، ج١ ، ص ١٠٣ .

تولى خلافة بغداد عشرة خلفاء جميعهم أبناء أعجميات ابتداء من الخليفـة المـستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م) [1] .

أمه أم ولد وانتهاء بالخليفة المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ ـ/١٢٤٢م –١٢٥٨م) [2] فإنه كان من أم ولد أسمها هاجر ، فالخليفـة المقتفـي لأمـر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ ـ/ ١١٦٠م) [3] كانت أمه أم ولد حبشية ذكر ابن الأثير أنها تدعى ياعي [4] أما الكازروني فيذكر أنها يقال لها نزهة وتدعى ست السادة حبشية [5] .

---

(1) هو أبو العباس احمد بن المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بـأمر الله أبـو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبو العباس احمد بن الأمير الموفق بن المتوكل على الله أبو جعفر بن المعتصم أبو إسحاق بن محمد الرشيد أبو جعفر هارون بن المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور أبو جعفر عبـد الله بـن محمد بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، ولد سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ببغداد أمه أم ولد ، أختلف المؤرخين حـول أسمها فلابن الجوزي يقول إن أمه أم ولد فقط ، أما ابن الكازروني والاربلي فاتفقـا علـى أن اسـمها (كليبهار) . ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي : المنتظم في تـاريخ الأمم و الملوك ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٦م ، ج٨ ، ص ٣١٣ ؛ ابن الكـازروني ظهير الدين علي بن محمد البغدادي : مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العبـاس ، تحقيـق مصطفى جواد ، وزارة الإعلام ، سلسلة كتب التراث ، ص٢١٥ ؛ الاربلي : عبد الـرحمن قنيتـو الاربلـي : خلاصة الذهب المسبوك من سير الملوك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص٢٧٠ .

(2) المستعصم ، أبو احمد عبد الله ابن الخليفة المستنصر بالله ، آخر الخلفـاء العباسـيين العـراقيين ، أجمعـت المصادر على وصفه باللّين والضعف والعكوف على اللهو وعدم الاهتمام بكبار الأمور . ابـن الكـازروني : التاريخ المختصر ، ص ٢٦٦ ؛ السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن بكـر : تـاريخ الخلفـاء ، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي ، ومحمد العثماني ، دار القلم ، بيروت ، ص ٣٦٤ .

(3) المقتفى محمد بن احمد ، المقتفي بن الإمام المستظهر ابن المقتدي العباسي ، ولد سـنة ٤٨٩هـ ـ/١٠٩٦م ، وبويع بالخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حيث تحكم المماليك بالخلفاء من عهد المستنصر إلى أيامه ، دام في الخلافة أربعة وعشرين سنة وثلاثة أشهر توفي ببغداد سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م . ابن الأثير : عـز الـدين أبـي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ ، تحقيق خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، ط الأولى ١٤٢٢هـ ـ/٢٠٠٢م ، ج٩ ، ص ١٤٨ ؛ الـسيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٤٣ .

(4) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٤٨ .

(5) الكازروني : مختصر تاريخ الدول ، ص٢٢٨ .

وكذلك الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥هـ -٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م) [1] أمه أم ولد رومية تسمى طاووس ، أيضاً الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) [2] كان من أم ولد تركية أسمها زمرد ، ومما لاشك فيه أن الاختلاط والامتزاج في العادات والتقاليد نتج عنه عادات اجتماعية جديدة للخلفاء سواء من الفرس أو الروم .

فنجد أن حياة الخلفاء الاجتماعية قد اختلفت عما كانت عليه في العصرين الراشدي والأموي ، فنجد أنهم بعد ما كانوا يعيشون حياة البساطة والبعد عن البذخ ، أصبح الخليفة العباسي يتميز بمظاهر الترف والأبهة التي أخذها عن الفرس ، فأوقف على بابه حاجب أو أكثر وانحجب الخلفاء عن الناس وراء الستر [3] وبالغ الخلفاء في القرن السادس في الاختفاء عن أنظار العامة ، فالتسلط الإداري والنفوذ القوي من الوزراء والقادة إضافة إلى كثرة المشاكل الاقتصادية واختلال الأمن وكثرة الجرائم بأنواعها أدى إلى اختفاء الخليفة عن أكثر الناس قال أبو الفرج ابن الجوزي : " وأحتجب الخليفة المستضئ بأمر الله [4] عن أكثر الناس فلم يركب إلا مع الخدم و لم

(1) المستنجد بالله يوسف محمد المقتفي بن المستظهر أبو المظفر العباسي ، ولد سنة ٥١٠هـ/١١١٦م من أم ولد رومية ، إلا أن جلال الدين السيوطي يذكر أنها كرجية تولى الخلافة بعد وفاة أبيه (٥٥٥هـ/١١٦٠م) توفي ببغداد ٦٢٢هـ/١١٧٩م مخنوقاً في الحمام . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص١٩٩ ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٣٣ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٧ .

(2) الناصر احمد بن المستضئ بأمر الله الحسن بن المستنجد ، أبو العباس ، الناصر لدين الله ، ولد سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) من أم ولد تركية ، طالت أيام خلافته حيث لم يلي الخلافة من بني العباس أطول مدة منه ، حيث أن خلافته ستة وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً ، و قد بقي مدة ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة بالكلية ، وذهبت إحدى عينية ، توفي بمرض الدوسنطاريا ، في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م . انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص٧٤٥ ؛ ابن الدبيثي أبو عبد الله علي بن أبي المعالي سعيد الفقيه : المختصر المحتاج إليه ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص ٣٤٣ ، ص١٧٩ .

(3) الستر جمعها ستور والستر السجف والسجف جمعها سجوف أي هو الثوب الرقيق . انظر : ابن السيدة : أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي : المخصص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، السفر الأول ، ص٧٥ .

(4) الخليفة المستضئ بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن محمد المقتفي بن احمد المستظهر ، ولد سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م من أم ولد أرمنية أسمها غضه تولى الخلافة من سنة ٥٦٦هـ-٥٧٥هـ/١١٧٠- =

يدخل إليه غير قايماز [١] " فالخليفة كان محاطاً بالحجاب ويندر ما يظهر أمام الناس ، وكان المستضئ يحضر صلاة الجمعة [٢] في جامع القصر [٣] أي جامع سوق الغزل [٤] ، وعلى عادة الخلفاء قبله ، ويمر في السرداب الذي بين دار الخلافة [٥] وهذا الجامع فلما ضرب السرب بالماء والتراب خرج إلى الجامع ظاهراً باضطرار[٦].

وقد لاحظ الرحالة ابن جبير اختفاء الخلفاء عن أنظار العامة وذلك عند زيارته لبغداد في صفر سنة ٥٨٠هـ آيار حزيران ١١٨٤م فقد أتيح له أن يشاهد الخليفة الناصر لدين الله مرتين أثناء عبوره ، فقال : " وظهوره على حاله اختصاراً تعميه لأمره على العامة ، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهاراً ومع ذلك يحب الظهور للعامة ، و يؤثر التحبب إليهم وهو ميمون النقية عندهم " [٧] .

ومن الملاحظ أن احتجاب الخليفة عن الأنظار لم يكن عن العامة فقط بل كان عن الخاصة أيضاً ، فقد اعتاد الخليفة محادثة الناس من خلف الستر ، فعندما زار الملك الناصر [٨] الخليفة المستنصر

=١١٨٠م احتجب عن الناس ولم يركب إلا مع الخدم . ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص ٢٣٣ .

(1) أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيتي الملقب مجاهد الدين الخادم كان ، عتيق زين الدين ابن سعيد على يكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل ، هو من أهل سنجار . مجهول : إنسان العيون في مشاهير سادس القرون ، ورقة ٨٨ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص ٢٣٤ .

(3) جامع القصر ، هو بمثابة الجامع الرسمي للدولة العباسية فيه تقام صلاة الجمعة ، وتقرأ عهود القضاة ، ويصلى فيه على جنائز الأعيان ، بناه الخليفة المكتفي خلال سنوات حكمه (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠١-٩٠٧م) بنيت فيه في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م مئذنة تسمى بمنارة سوق الغزل . الصابئ : أبي الحسين هلال بن المحسن الصابئ : رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، طبعة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م ، ص١٣٣ .

(4) سوق الغزل : إحدى محال بغداد بها داراً لبيع الغزل . الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٧٦ .

(5) دار الخلافة سيأتي ذكرها بالتفصيل في الباب الثالث الفصل الأول في قصور الخلفاء .

(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص ٢٤٩ .

(7) ابن جبير : أبو الحسن محمد بن احمد الكناني البلنسي : رحلة ابن جبير ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ص١٨٢ .

(8) الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن محمد بن أيوب ، الملك الناصر صلاح الدين : صاحب الكرك، ولد بدمشق سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ، ونشأ في دمشق ملكها بعد أبيه ، و أخذها منه عمه الأشرف متحول إلى=

بالله [1] سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م فأنه آثر أن يجتمع بالخليفة ويقبل يديه وأن يعامل كغيره من الكبراء فنظم قصيدة عرض فيها مطلوبه ، وبعد أن وقف الخليفة المستنصر علـى تلك القصيدة استدعاه سراً وأجابه لسؤاله ، فمما حكاه الملك الناصر قال : " واستدعاني الخليفة بعد شطر من الليل ، فدخلت من باب السر إلى إيوان فيـه سـتر مـضروب والخليفة من ورائه ، فقبلت الأرض بين يديه فأمرني بالجلوس فجلـست ، ثـم أخـذ الخليفة يحدثني من خلف الستر ، ويؤنسني ثم أمر الخدم فرفعوا الستر فقبلـت ثانيـاً وتقدمت فقبلت يده " [2] .

وكان للخلفاء رسوم وترتيب خاص بهم ، سواء في خروجهم في المواكب أو أثناء مبايعتهم بالخلافة ، فمن تلك الرسوم جلوس الخليفة على سرير الخلافة في المواكب ، فذكر المؤرخون أن أول من أتخذه هو معاوية بن أبي سفيان لما بدن أستأذن أصـحابه في اتخاذ شيء يجلس عليه للاستراحة ، فأذنوا له في ذلك ، وكان يفرش للخليفة على سرير الخلافة فرش مرتفعة وهي التي يعبر عنها بسدة الخلافة [3] .

وكان ذلك الكرسي مرتفعاً في دست أرميني أوخز ، ويكون فرش مجلس الخلافة أرمنياً في الصيف أو الشتاء [4] .

أما مبايعة الخليفة ومراسيم تتويجه بالخلافة ، فقد اختلف ذلك في القرن الـسادس الهجري عما كان قبله من القرون ، فقد كان الخليفة في القرن الرابع الهجري يجلـس

= " الكرك " توفي بقرية البويضاء بظاهر دمشق سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٦ ؛ العماد الحنبلي : الشذرات ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٤ .

(1) المستنـصر بالله ، منصور ابن محمد الظاهر بأمر الله ، ابن الناصر ابن المستضي ولى بغداد بعد وفاة أبيـه (٦٢٣هـ-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٢م) وهو باني " المدرسة المستنصرية " ببغداد أو على شـط دجلـة مـن الجانب الشرقي ، جاء في أيام تراجع الدولة وفي عهده استولى المغول على كثير من البلاد حتى كادوا يدخلون بغداد . ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ١٧٧ ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص ٢٥٨ .

(2) اليونيني : محمد قطب الدين موسى بن محمد اليونيتى : ذيل مرآة الزمان ، دار الكتاب الإسلامي ، القـاهرة ، م١ ، ص ١٣٦ .

(3) القلقشندي : أحمد بن عبد الله القلقشندي : مآثر الأناقة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ،عالم الكتب ، بيروت ، ج٢ ، ص ٢٢٨–٢٢٩ .

(4) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص ٩٠ . وأرمنياً نسبة إلى أرمينية .

على كرسي ، ثم يحضر الناس بأسرهم ويبايعونه وذلـك علـى الطريقـة العربيـة البسيطـة [1] .

إلا انه في القرن السادس الهجري ، أصبح الخليفة يتلقى البيعة في ثلاثة أيـام ، فهناك بيعة للخاصة ، وبيعة للعامة ، ففي اليوم المخصص لبيعـــة العامـــة كـان الخليفـة يجلـس في التاج [2] وكان جلوسه في شـباك القبـة ، وعليـه البـردة [3] والطرحة [4] والقضيب [5] ، وكان القضيب والبردة عند خلفاء بني العباس ببغداد إلـى أن انتزعهما السلطان سنجر السلجوقي [6] من المسترشد بالله [7] ، ثم أعادهمـا إلـى المقتفي عند ولايته ، والذي يظهر أنها بقيت عندهم إلى انقضاء الخلافة في بغداد [8] .

وتلك نستطيع أن نسميها شارات الخلافة ، فيجلس الخليفة في الشباك وقد نـصب تحت الشباك كرسي ذو درج يرقى الناس عليه للمبايعة ، ويكون الوزير على أعلـى

---

(1) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد أبو ريدة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج١ ، ص ٢٥٦ .

(2) التاج هو قصر التاج ، أول من بناه جعفر البرمكي ، ثم صار للمأمون ، و نزله الحسن بن سهل فسمي بالقصر الحسني ، و قد التهمته النار إلى الأساس و تحول إلى رماد في خريف سـنة ٥٤٩هـ ـ/١١٥٤م وأن الخليفـة المستضئ أعاد بناءه بناءاً جديداً في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . ابـن الجـوزي : المنـتظم ، ج١٠ ، ص١٦٩ ؛ ياقوت : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ج٢ ، ص ٣ .

(3) البردة هي بردة النبي ﷺ كان الخليفة يلبسها في المواكب . القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنـشاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٢ ، ص ٢٦٩ .

(4) الطرحة : طمار مصنوع من الشال الموصلي الذي يلف على العمامة ويطرح على الكتفـين فيتدلـــى علـى الظهر . الزبيدي : تاج العروس ، ج٢ ، ص١٨٩ .

(5) القضيب : عود كان النبي ﷺ يأخذه بيده . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ٢٧٠ .

(6) سنجر السلجوقي سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان ولد بسنجار من ديار الجزيرة في سنة ٤٧٩هـــ/١٠٨٦م سكن خرسان وأستوطن مدينة مرو ، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد زمن الخليفة المستظهر بـالله وولـى عهد محمد فلما مات خوطب له بالسلطان بقي حوالي أربعين سنة بالـسلطنة مـن (٥١١-٥٥٢هـ ـ/١١١٧-١١٥٧م) . الراوندي : محمد بن علي بن سليمان الراوندي : راحة الصدور وآية السرور في تـاريخ الدولـة السلجوقية ، ترجمة إبراهيم الشواري وآخرون ، ص٢٥٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٢٢ .

(7) الخليفة المسترشد بالله الفضل بن أحمد والمستظهر ابن المقتدي عبد الله بن محمد العباسي ، تولى الخلافة مـن سنة ٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٩ .

(8) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ٢٧٠ .

درجات الكرسي ، وأستاذ الدار [1] قائماً دونه يأخذ البيعة على النـاس ويلقـنهم لفـظ المبايعة ، فيفتح باب العامة [2] فيدخل منه من استدعي للدخول ويبايعون الخليفة علـى اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم ، ثم يسبل الستار على الشباك ، وفي اليوم الثـاني يجلس الخليفة للبيعة الخاصة ، فيفتح باب الخاصة [3] ويدخل منه الأمراء والماليـك ويبايعون على اختلاف طبقاتهم ، وفي اليوم الثالث تكون البيعة العامة فيحضرها مـن تخاف مـن الأمـراء ، والغرباء وضروب التجار الغربـاء وغيرهم ، ثم إنهم يقفون صفوفاً بين يدي الشباك وبين أيديهم العارضان وهما عارضا الجيش [4] ، ثـم ترفـع الستارة ويقبل الجميع الأرض [5] .

ومظاهر الأبهة والترف كانت ظاهرة في مواكب الخلفاء وأول من أظهر الركوب بحلية الذهب هم الخلفاء العباسيون ، فالخليفة المعتز [6] وهو الخليفة الثالث عـشر أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب [7] .

---

(1) أستاذ الدار ، وصاحبها ، تولى شؤون دار الخلافة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية المقصورة في دار الخلافـة وله الحكم في غلمان الخليفة وباب داره . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠ .

(2) باب العامة ، ويدخل منه عامة الناس ، انظر : جورج مقدسي : خطط بغداد في القرن الخـامس الهجـري ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ص ٤٨ .

(3) باب الخاصة ، أحد أبواب دار الخلافة ، ويدخل منه الخاصة من الأمراء وغيـرهم . الـصابئ : رسـوم دار الخلافة ، ص ٧٦-٨٥ .

(4) عرض الشيء عليه وهو من عرض الجند بين يدي الخليفة لإظهارهم واختبار أحوالهم ، عارض الجيش هـو المتولي لشؤون عسكر الخلافة . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٧ .

(5) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٧ ، ٢٦٦ ؛ ابن الفوطي : كمال الدين أبي الفـضل عبـد الرزاق أحمد الشيباني البغدادي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق مهدي الـنجم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص١٣٠-١٣١ .

(6) المعتز محمد بن جعفر المتوكل على الله ، بن المعتصم ولد في سامراء عاش ما بين (٢٣٢-٢٥٥هـ ـ/٨٤٦-٨٦٨م) . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٨١ .

(7) وليم الخازن : الحضارة العباسية ، منشورات الجامعة اللبنانيـة ، بيـروت ، ١٩٨٤م ، المكتبـة الـشرفية ، ص٢٧.

وعندما ركب الخليفة المقتدر [1] في عام ٣٢٠هـ/٩٣٢م لقتال مؤنس الخادم وهي الحادثة التي قتل فيها ، خرج من داره في أكمل لباس وموكب ، فكان عليه قباء ديباج فضي ، وعمامة سوداء ، وعلى كتفه وصدره وظهره البردة النبوية ، ومتقلـداً بـذي الفقار سيف الرسول ﷺ ، وحمائله [2] أدم أحمـر ، وفـي يـده اليمنـى الخاتـم والقضيـب [3] .

إذ كانت عادة الخلفاء العباسيين في القرنين الرابع والخـامس الهجـريين ، ولـم يختلف القرن السادس عنهما فقد كان الخليفة يلبس قلنسوة محددة وقباء كلاهما أسـود اللون [4] ، ويلبس خفاً أحمر ، وكان ينكر على الداخل إلى دار الخلافة بنعل أو خـف أحمر ولكه [5] حمراء لأنه لباس الخليفة ، ويعده خارجاً عن طاعته ، وكان يجعل بين متحدثـي الدست [6] عن يسـاره سيفاً ، ويضع بين يديـه مـصحف علـى الرسـم العثمانـي [7] .

وقد بالغ الخلفاء العباسيون في الظهور بالثيـاب المطـرزة بالـذهب ، واقتنـاء الجواهر ، فحين وصل رسل الروم إلى الخليفة المقتدر بالله كان جالساً في التاج بعـد أن لبس الثياب الديبقية المطرزة بالذهب ، ومن يمنة السرير تسعة عقود معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة ، شديدة اللمعان لها ضوء كضوء

---

(1) المقتدر جعفر بن أحمد بن طلحة ، أبو الفضل (٢٨٢-٣٢٠هـ/٨٩٥-٩٣٢م) ، ولد في بغداد وبويع بالخلافة بعد أبيه . ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص ٣-٧٥ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٩٧ .

(2) حمائل هي جراب السيف أو غمره . ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص١٦٠ .

(3) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص ٢٥٥ .

(4) سيأتي تفصيل لباس الخليفة في الألبسة والأزياء الباب الثالث الفصل الثاني .

(5) لكه : ضرب من الأحذية ، الك صبغ أحمر يصبغ به جلود المعزى للخفاف وغيرها . ابـن منظـور : أبـي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي : لسان العرب ، م٥ ، دار صادر ، بيروت ، الطبعـة الأولي ١٩٩٧م ، ص٥١٩ .

(6) الدست : مجلس الخلافة ويعني صدر المجلس . الزبيدي : تاج العروس ، ج٤ ، ص٥١٨ .

(7) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص ٧٥-٩٠ .

النهار [1] ، وقد ازداد ولع الخلفاء باقتناء الجواهر في هذه الفترة واستمر ذلك إلى سقوط بغداد ، ولعل ذلك من أسباب سقوطها .

فحين دخل هولاكو بغداد ، دخل بنفسه ليشاهد دار الخليفة ، فأحضر الخليفة المستعصم بين يديه وقدم جواهر نفيسة ، ولآلئ معبأة في أطباق ، وأواني من الذهب والفضة ، ثم أمر هولاكو الخليفة بأن يفرز جميع النساء اللاتي باشرهن هو وبنوه ويعزلهن عن غيرهن فكن سبعمائة جارية ومعهن ثلاثمائة خادم خصي [2] .

ومن علامات السيادة لدى الخلفاء أن يضرب على باب الخلافة بالنوبة والدبادب ، قبل وقت الأذان إعلاماً لموظفي دار الخلافة بأن وقت الصلاة قد قرب ، ولا يوقف ذلك إلا أيام العزاء ، وقد استمر هذا الرسم إلى سقوط الخلافة في بغداد ، إذ حاول الخليفة أن يتميز وحده بهذه الميزة دون أن يتخذها غيره من الأمراء إلا أن ذلك لم يطل ، ففي عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م أمر الخليفة بأن تضرب الدبادب على باب عضد الدولة البويهي [3] ، في أوقات الصلوات الثلاث الغداة والمغرب والعشاء ، وفي عام ٤٣٦هـ/١٠٤٤م ضرب الطبل أمام دار الأمير خمس مرات كما كان يضرب للخليفة [4] ، أما في القرن السادس الهجري فقد أصبحت الطبول تضرب في كل وقت على أبواب الأمراء [5] .

---

(1) الخطيب البغدادي : الحافظ أبي بكر علي : تاريخ بغداد ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ج١ ، ص١١٩ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٣٣ ؛ ابن العبري غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، .١٤٢١هـ/٢٠٠١م ، ص ٢٧١ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٣٣ ؛ ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٧١ .

(3) عبد الدولة فناخسرو ابن الحكم (٣٢٤هـ-٣٧٢هـ/٩٣٦-٩٨٣م) لقب ركن الدولة البويهي الديلمي ، وهو أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق . ابن خلكان شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد : وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٢م ، ج١ ، ٤١٦ ؛ ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي : البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٨هـ-١٣٥١هـ/١٩٢٩م-١٩٣٢م ، ج١ ، ٢٩٩ .

(4) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، م١ ، ص٢٥٨ .

(5) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٢م ، ص ٢٤ .

وكثيـراً ما أحـاط الخلفـاء أنفسهـم بالجلـسـاء والنـدماء ، مـن العلمـاء والشعـراء وأصحـاب الفكاهـة مـن السمـار والمضحكين وأصـحاب النـوادر ، ففـي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، أمـر الخليفـة الناصـر لديـن الله إحضار جماعـة من الندمـاء والجلساء ، إذ كان كثيراً ما يميل إلى الندماء ويؤثر الجلـوس معهـم ، وكان من جماعة ندمائه أبو الحسن ابن الكرخي [١] ، كما كان الـشاعر نـور الـدين الإسعردي [٢] الذي حضر يوماً مجلس لدى الناصر فخلع عليه الناصر قباء وعمامـة بطرف مذهب [٣] ، ولم تكن مجالـس الخلفاء تقتصر على الشعراء بل كانـت تـضم المغنين ، فقد كان الخليفة المستعصم ميالاً للغناء ، فكان مجلسه لا يخلو من ذلك ساعة واحدة ، إذ كانوا ندماءه وحاشيته ، فمن ما أشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ [٤] صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب ، وفي أثناء ذلك وصل رسـول السلطان هولاكو يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار ، فقال بدر الدين لؤلؤ " انظروا إلى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله " فاشتغال المستعصم في تلك الفترة بالمغنيين واللهـو والمتعة كـان اكبر عامـل فـي سـقوط بغـداد فـي يـد المغـول سـنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م [٥] .

---

(1) علي بن المبارك بن محمد بن أبي شجاع أبو الحسن البغدادي ، كان حاجب الحجاب في أيام الخليفة الناصـر وكان أديباً فاضلاً وشاعراً ظريفاً ، توفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م . مجهول : إنسان العيون في مشاهير سـادس القرون ، ١٧٥ .

(2) الإسعردي محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد بن رستم ، أبو بكر ، نور الدين الاسعردي شـاعر فيه مجانة وظرف ، اتصل بالخليفة الناصر . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص ١٢١ ؛ الـصفدي : صلاح الدين خليل بن ايبك : نكت الهميان في نكت العميان ، المطبعة الجمالية ، مصر ، ١٣٢٩هـ/١٢٤٥م ، ص ٢٥٥ ؛ ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الطبعة الثالثـة ، دار المسرة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ج٥ ، ص ٢٨٤ .

(3) الصفدي : نكت العميان ، ص٢٥٥ .

(4) بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ملك الموصل خمسين سنة ، وهو الذي أنشأ مدرسة البدرية علـى أنقـاض مسجد بناه الحمدانيون في القرن الرابع الهجري ، ثم شيد بدر الدين مشهداً للإمام يحي بـن القاسـم فـي هـذه المدرسة توفي و عمره ثمانين سنة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بعد وقعة بغداد . ابن الفوطي : الحوادث الجامعـة ، ص ٢٤١-٢٤٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص ٢٨٩ .

(5) ابن الطقطقى : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي : الفخري فـي الأدب الـسلطانية ، حققـه عبدالقادر مايو ، الطبعة الأولى ، دار القلم العربي ، حلب ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص ٥١-٥٢.

المبحث الثاني : السلاطين .

يعتبر العصر السلجوقي عصراً ذهبياً في المشرق الإسلامي ، إذ جرى توحيـد أغلب المناطق والدويلات في المشرق الإسلامي تحت إمرة واحدة ، فاتحدت البلاد بعد أن كانت مجزأة ، فعندما بسط سلاطين السلاجقة نفوذهم على الأجزاء الـشرقية مـن العالم الإسلامي أصبحت بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري / الحـادي عـشر الميلادي جزءاً من مملكتهم ، ودخل الخليفة العباسي في إطار نفوذهم السياسي [(١)] .

وبدخول السلاجقة بغداد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل ضعف الخلافة العباسـية وخضوعها لسيطرة الأتراك ، على أنها أفضل بكثير من أيام الحكم البـويهي الـشيعي (٣٣٤هـ-٩٤٦م/٤٤٧هـ-١٠٥٥م) الذي سلب الخليفة وجرده من أملاكـه الخاصـة ومن سلطاته ، ولم يتركوا له إلا بعض الاسم في الأمور الدينية ، كـإعلان الجهـاد ، وإقرار المساجد التي تقام فيها الجمع ، وإقامة الصلاة ، وإقرار تعيين القضاة [(٢)] .

ففي عهد السلاطين السلاجقة الذين كانوا يدينون بالمذهب السني الحنفي ، ارتفع شأن الخلافة مجدداً ، لأنهم كانوا يرون في الخليفة العباسي مصدر شرعيتهم ويعتبرون أنفسهم خدماً وحراساً لأمير المؤمنين ، وهم يضربون بسيفه وينفذون أمره ، لذلك بالغ السلاطين الكبار في احترامه ، فكان طغرلبك [(٣)] لا يتورع في تقبيل الأرض بين يدي

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٠٨ .

(2) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٤٩ ، ج٨ ، ص١٦٣ ؛ ابن الأثيـر : الكامـل ، ج٦ ، ٥٢٤ ، ج٨ ، ص١٥٨ ؛ محمد حسين الزبيدي : العراق في العصر البويهي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص٣٣ .

(3) طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، الملقب ركن الدين ، أول سـلاطين الدولـة الـسلجوقية ، (٣٨٥-٤٤٥هـ/٩٩٥-١٠٦٣م) ، خطب ابنه القائم بأمر الله فزوجه بها ، وكان العقد بتبريز وزفت إليه ببغداد، كان مريضاً وتوفى بالري . الراوندي : راحة الصدور ، ص١٥٩ ؛ ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم : وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ج٥ ، ص٦٣ .

الخليفة القائم [١] ، وتقبيل يده رغم قوة السلطان وضعف الخليفة . كما عمد هؤلاء السلاطين إلى زيادة الإقطاع المعين لنفقات الخلفاء عما كان عليه زمن البويهيين [٢] .

كل هذا كان من الناحية الشكلية فقط ، أما من الناحية العملية ، فقد اقتصر عمله على تعزيز دوره القيادي في المجتمع ، من خلال المراسيم الدينية ، وأن يخطب له على المنابر كتعبير عن الولاء الديني للخلافة العباسية ، التي ترمز إلى استمرار الخلافة الإسلامية .

وكانت حفلة تنصيب السلطان السلجوقي تتم في احتفال ضخم ، حيث يدخل عليه الأمراء ، وأركان الدولة والأعيان ، وتنثر الجواهر والدنانير من ذهب وفضة ، وتوزع على المدعوين الكؤوس المذهبة المملؤة بالعسل الممزوج بحليب الخيل ، وقد غلبت التقاليد الفارسية على حفلات التتويج هذه التي تأثرت أيضاً بعادات البيزنطيين كالاحتفالات [٣] . وبتعيين السلاجقة لسلطانهم يبايعه الجند وقوادهم ، وحكام الأقاليم والأطراف والوزراء ، ولكن بهذا التعيين وهذه المبايعة لا تكتمل الحقوق الشرعية للسلطان السلجوقي فلا بد من موافقة الخليفة العباسي خليفة المسلمين .

فعندما تولى طغرلبك السلطنة سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م شرع في مراسلة الخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٧م في بغداد للحصول على اعتراف منه بسلطانه على السلاجقة ، فهو في حاجة إلى تفويض شرعي من الخليفة العباسي لحكم البلاد [٤] .

---

(1) القائم بأمر الله ، عبد الله بن أحمد القادر بالله ابن الأمير إسحاق بن المقتدر (٣٩١-٤٦٧هـ/١٠٠١-١٠٧٥م) ولي الخلافة بعد وفاة أبيه ، كان عادلاً ، كثير الرفق بالرعية ، حدثت في أيامه فتنة البساسيري . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٣٤ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٢٧ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٧ .

(3) شبارو : عصام محمد : السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص٤٢ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٣١ ؛ الراوندي : راحة الصدور ، ص١٦٨-١٦٩ .

فتفويض الخلفاء السلطنة للسلاطين ، تتم بحضرة الخلافة حيث جرت العادة أن يجلس الخليفة بمجلسه العام على كرسي عال ، ويحضر السلطان الذي تـولى فـيجلس على كرسي لطيف أمام سرير أو كرسي الخليفة ، ويحضر أعيان المملكة ورؤسـاؤها ويخاطب الخليفة السلطان بالولاية على لسان الوزير ، ثم يخلع على الـسلطان خلعـة الخلافة ويحمل على مراكب من اصطبلات الخليفة ويذهب السلطان إلى داره فيرسـل الهدايا إلى الخليفة [1] .

وكان الذي يوليه الخليفة السلطنة من ملوك الأطراف ، يعد له التـشريف مـن بغداد وهي تعرف بالخلع السبعة ، وهي جبة أطلس أسود بطراز مذهب ، وطوق مـن ذهب ويجعل في عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان في يديه ، وسيف قرابـه ملـبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسـم الخليفـة ينشر على رأسه ، وربما جهز مع خلعة السلطان خلع أخرى لولده أو وزيره أو أحـد أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ [2] .

ونجد أن النزعة البدوية كانت عنصراً بارزاً فـي مختلـف حيـاة الـسلاطين السلاجقة حتى بعد استقرارهم وإقامة دولتهم ، وقد انعكس هذا في سياسـتهم ، ونظـم حكمهم وسائر مظاهر حضارتهم ، وكان من مستلزمات هذه النزعة قوة الشعور القبلي عندهم ، وهذا ما دفع بهم إلى الاعتماد على القبائل التركية اعتماداً كبيراً فمنها كانـت تتألف جيوشهم . وكان للحياة القبلية تأثيرها الواضح على السلاطين الأولين الذين كانوا " بداة لا علم عندهم بأخبار الملوك " [3] فنجد أن من أهم شارات السلطنة لديهم وآلات الملك الخيمة التي يتنقل السلطان بها سواء في سفره أو إقامته ، أو خروجـه للـصيد والنزهة ، فكانت الخيمة تضرب في الصحراء في أثناء خروج السلطان للصيد ، فقـد

---

(1) البنداري : الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص١٦-١٧ ؛ القلقشندي : مآثر الأناقة ، ج٢ ، ص٢٣٧-٢٣٨ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيـان ، ج٥ ، ص٧١-٧٢ ؛ القلقـشندي : مآثر الأناقة ، ج٢ ، ص٢٣٩ .

(3) النظامي العروضي السمرقندي : جهار مقالة ، ترجمة عبد الوهاب عـزام ويحيـى الخـشاب ، القـاهرة ، ١٩٤٩م ، ص٣٢ .

كان السلطان ملكشاه [1] محباً للصيد فكان إذا خرج إلى الصيد ضربت له الخيمة فـي الصحراء [2] .

ومن رسوم السلطنة والملك مظلة الحرير التي تحمل فوق رأس السلطان فتعطي شعوراً بالرهبة والاحترام ، كذلك الجواد المسرج بسرج أحمر وفيـلٌ عليـه هـودج مرصع بالجواهر [3] .

واعتبر السلاجقة أن حكمهم مستمد مـن الله وهـم ظـل الله علـى الأرض ، ويحظون بالتأييد الإلهي ، طبقاً لنظرية " الحق الإلهي في الحكم " والتي ذكرها نظـام الملك [4] في أن الله قـد اختار السلطان وميزه على عباده ، وجعلهم جميعاً خاضـعين له ، لذلك تلقب السلاطين السلاجقة بألقاب لكي يعرف أن حكمهم ونفوذهم مستمد مـن الله ، مثل ركن الدين ، غياث الدين ، وعز الدين . فمن وجهة نظرهم أن كنية الإسلام والشريعة والعلم متعلقة بالعلماء والأئمة ومن لم يكن عالماً ثم لقب نفـسه بأحـد هـذه الألقاب عاقبه السلطان . أما قواد الجند والأمراء فقد كانوا يلقبون بما فيـه " الدولـة " كسيف الدولة ، وجمال الدولة ، وغيره . أما العمال والعمداء فكانوا يلقبون بمـا فيـه الملك كشرف الملك ، وعميد الملك ونظام الملك [5] .

ويذهب محمد أبو النصر إلى أن السلاجقة لم يعتادوا على عادات أهل بغـداد ، لذلك اتخذوا نواباً عنهم لإدارة شؤونها ، ثم يذكر بعد ذلك في صفحات أخرى من كتابه أن السلاجقة لم يتخذوا بغداد مقراً لهم حيث كان مقرهم فـي الـري ، ليبتعـدوا عـن

---

(1) ملكشاه : السلطان ملكشاه أبو الفتح جلال الدولة بن السلطان ألب أرسلان محمد بن داود السلجوقي التركي كان ذا غرام بالعمائر والصيد ، توفي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . الراوندي : راحة الصدور ، ص١٩٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٤١ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٧٦ .

(2) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٧٠ .

(3) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٥٩ ؛ عصام شبارو : السلاطين في المشرق العربي ، ص٤٢-٤٣ .

(4) نظام الملك الطوسي : سياسة نامة ، ترجمة السيد محمد العزاوي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ص٣٤-٣٥.

(5) المصدر نفسه ، ص١٩٦ ؛ الراوندي : راحة الصدور ، ص١٧٥ .

المشكلات السياسية والمذهبية التي كانت تتعرض لها الخلافة ، أو يمنع السلطان جنـده من النهب والسلب [(١)] .

غير أن ما تراه الباحثة أن عدم تعود السلاجقة على عادات أهل بغداد ليس دافعاً في عدم اتخاذ بغداد مقراً لهم ، فإذا لم يعتادوا على عادات أهل بغداد لماذا يأتون إلـى زيارتها بين فترات تكون متقاربة . فقد أعتاد سلاطين السلاجقة علـى قـضاء فـصل الشتاء في بغداد ، ففي سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م رحل السلطان مسعود [(٢)] إلى بغداد رحلة الشتاء وأقام أشهر الشتاء الأربعة فيها [(٣)] ، حيث أن أهل الحضارة أكثر تـأثيراً فـي الأمم البدوية .

فكان للحياة القبلية تأثيرها الواضح على سلاطين السلاجقة إذ لم يكن لديهم علم برسوم السياسة والملك لهذا استعانوا بالأكفاء من أبناء البلاد الخاضعة لسلطانهم ، فكان هؤلاء نواة طبقة خاصة ، تختلف منزلة الواحد منهم عن الآخر حسب أهمية منـصبه وقربه من السلطان السلجوقي ، وطبيعي أن يكون من ألمع شخصيات هـذه الطبقـة ، الحجاب والوزراء ، والعمداء الذين كان لهم نفوذ كبير فـي الدولـة ، والعميـد مـن المناصب التي استحدثها السلاجقة في العراق فهو يعتبر نائباً عن السلطان الـسلجوقي في بغداد والعراق ويكون مقره بغداد ، لينوب عن السلطان في حاضرة الخلافة ، ولأنه من عادة السلاطين السلاجقة اتخاذ حواضر خاصة بهم في بلاد المشرق الإسلامي التي خضعت لسلطانهم ، فلم يتخذوا بغداد مقراً لإقامتهم كما فعل بنو بويه ، ولكنهم أرسلوا نوابـاً عنهـم [(٤)] ، وكـان السلطـان السلجوقي طغرلبك أول من أنشأ هذه الوظيفة ،

---

(1) أبو النصر : محمد عبد العظيم يوسف : السلاجقة تاريخهم السياسي والعـسكري ، الطبعـة الأولـى ، عـين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص١٤٣ ، ص٢٩٦-٢٩٧ .

(2) السلطان مسعود بن محمد ملكشاه بن ألب أرسلان تولى السلطنة سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م ، عاش خمسة وأربعين عاماً وتوفي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م ، كان منهمكاً في اللعب واللهو . ابن خلكـان : وفيـات الأعيـان ، ج١ ، ص٢٥٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٤٥ .

(3) الراوندي : راحة الصدور ، ص٣٣٧ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٧٧ .

(4) النظامي العروضي : جهار مقاله ، ص٣٢ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٦٢-٦٣ ؛ محمـد مفيـد آل ياسين : الحياة الفكرية في العراق في القرن الـسابع الهجـري ، ط١ ، الـدار العربيـة للطباعـة ، بغـداد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص١٥-١٦ .

ثم حذا حذوه من جاء بعده من السلاطين والذي دفعهم في عدم اتخاذ بغداد مقراً لهم هو وجود الخليفة فيها .

أما فيما يتعلق بابتعاد السلاجقة عن المشكلات السياسية والمذهبية ، وفي منع جندهم من النهب والسلب ، فنحن نوافقه الرأي ، فحينما دخل السلطان طغرلبك بغداد لأول مرة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م دخل جند السلطان مثيرين الاضطراب ببغداد ، وذلك رجوعاً لأصلهم القبلي فقد اعتدوا على الأسواق والبيوت ونهبوها [1] ، لذلك آثر السلاطين أن يتخذوا قراراتهم بعيداً عن الصراعات المذهبية والسياسية التي كانت تميز هذه الفترة من تاريخ بغداد .

إلا أن ذلك لم يمنع تأثرهم بعادات المدن التي كانت خاضعة لهم وكان ذلك واضحاً جداً ، كونهم أنهم انتقلوا من بيئة بدوية إلى بيئة حضرية لذلك شغفوا بالأبنية والقصور والمنشآت الفخمة ، وما فيها من نقوش وزخارف وكتابات ولوحات مزخرفة وخط منمق وأثاث جميل ، سواء في فارس أو العراق ، فانصرفوا إلى العناية بهذه الفنون وكانوا يرعونها ويشجعونها [2] .

رسوم السلطنة :

كان للسلطان السلجوقي مكانته الخاصة بين رعاياه ، وكانت له رسومه الخاصة به في قصره ، فمن رسوم السلطان أن يقف على باب قصره غلمان عددهم عشرون غلاماً بيدهم السلاح الخاص المرصع ، وهم مهيأون في حال بهية ، يحفون عرش السلطان السلجوقي ومهمتهم الاحتفاء بالرسل القادمين من الأطراف ، وكان ذلك من زينة الملك ورسوم السلطنة ، كما يوجد في القصر السلجوقي مائتا رجل من المختارين المسلحين الذين يختارون عادة من التركمان ، ويسمون غلمان القصر ، ويتعلمون آداب السلاح والخدمة ، ويتصفون بالمظهر ، الحسن والطول الفارع ، وكانوا يطلون بألبسة

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٤ .
(2) شبارو : السلاطين في المشرق ، ص٤٣ .

جميلة ، وكان لكل خمسين منهم نقيب يتولى شؤونهم والأشراف عليهم وإسناد المهـام إليهم [1] .

وكان مجلس السلطان مرتباً ، حيث يقف الكبراء حول سرير الملـك ، فيقـف خاصة السلطان من حملة السلاح ، والسقاة ، وأترابهم بالقرب مـن سـرير الملـك ، ويلتفون حوله ، ويقف حاجب البلاط على بعد منهم لكي يبعد كل غريب يندس وسـط الحاشية ، كما كان بالدركاه [2] مماليك صغار للسلطان السلجوقي ينشئهم على القيام بها في الخدمة ، وهناك مغنيات مخصصات بالدركاه مـن الجـواري والإمـاء مـرحبين بالداخلين [3] .

المجالس السلطانية :

من رسوم السلطان السلجوقي تخصيص يوم أو يومين أسـبوعياً ، يعقـد فيهـا مجلسـه للمقابلات والنظر في أحوال الخاصة والعامة ، فمقابلة الخاصة تختلف عـن العامة ، فبالنسبة للخاصة ، فقد كان يدخل عليه ذوي القربى أولاً ، فـالمعرفون مـن الحشم ، فالناس من الطبقات الأخرى كولاة الثغور والأمراء والأئمـة ، وكـان مـن علامات انعقاد المجلس السلطاني لمقابلة الخاصة رفع الستارة أما أسدالها فيعني أنه لا يسمح لأحد بالدخول ما لم يستدعى ، حتى إذا ما أرسل الأكابر وأمراء الجـيش إلـى الدركاه أحداً كانت الستارة تعني انعقاد المجلس ذلك اليوم ، وكان شرط الدخول هو أن يرجع الأكابر جميعاً إذا رأو السلطان ، ويرجع معهم رجالهم جملة حتـى لا يبقـى إلا الخواص ، وكان لابد أن يستدعي الغلمان القائمون على خدمـة الـسلطان ، كحامـل السلاح ، والسقاء ، ومنظم المحفل [4] .

أما بالنسبة لرسوم مقابلة العامة فيخصص يوم لمقابلتهم ، بحيث يكون الـسلطان في أوج انبساطه ، وأن يخبر العامة بأن هذا اليوم يومهم فلا يأتون فـي الأيـام التـي

(1) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٥٦-١٥٧ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١١٧-١١٨ .

(2) الدركاه : باب السلطنة السلجوقية . نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٢٩ .

(3) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١١٠-١١٤ .

(4) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٥٦ .

تخصص للخاصة ، فيمتنعون عن القدوم من تلقاء أنفسهم ويجتمعون في القـصر ، ولا يكون هناك فرق بين شريفهم ووضيعهم [١] .

وسار سلاطين السلاجقة في رسومهم بفتح دار السلطنة للمتظلمين ، فكان لابـد من جلوس السلطان للمظالم يومين من كل أسبوع ، لأخذ حقوق المظلومين وإنصافهم ، والبت في شكواهم وإصدار حكمه فيها ، فكان يقف على باب الـسلطنة الكثيـر مـن المتظلمين ، وكانوا لا يغادرون حتى ينظر في شكواهم فلم يستطع أحداً أن يقترف ظلماً خشية عقاب السلطان ، وكان من عادة السلطان أن يقف للمرأة والضعيف ولا يبرح إلا بعد أن ينصفهم [٢] .

أما مجالس السلطان الخاصة والتي تعقد لأنسه ومنادمته ، فقـد خلـط بعـض المؤرخيـن بينها وبين المجالس التي تعقد لمقابلة الخاصة والعامة للبت فـي شـؤون الناس ، فقد ذكر محمد أبو النصر أن من رسوم السلطان السلجوقي في مقابلته للخاصة أنه يشترط أن يكون برفقة كل واحد منهم غلام فقط ، إما حاملاً للـسلاح ، أو ذائقـاً للطعام [٣] . حيث التبس عليه الأمر ، ذلك أن حضور الخاصة وبرفقة كل واحد مـنهم غلاماً يحمل السلاح ، لا يمكن حدوثه لأن فيه خطورة على أمن السلطان في مجلسه ، والثابت لدينا من المصادر التاريخية ، أن مجالس السلطان الخاصة بأنـسه ومجـالس شرابه كان لا يحضرها إلا الخواص الذين ألفوا المجلس الخاص بالـسلطان ، وكـان يجب أن يكونوا محدودين ومقربين ، والشرط أنه إذا قدم المجالس أحد منهم فلا يقدم إلا بصحبة غلام واحد ، لخدمته ، ولا يجوز أن يحضر كل واحد منهم ساقياً ، فلـم يكـن ذلك من عادات مجالس السلطان ، كما أنه لا يحمل الطعام والنقل من مجلس الـسلطان إلى دورهم ولا من دورهم إلى مجلس السلطان ، فقد كان السلطان في نظـرهم عائـل العالم ، أما إذا حملوا معهم شرابهم لأن الساقي الخاص يدير عليهم شراباً غير طيب ، فإنه يعاقب الساقي [٤] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص١٥٧ .
(2) نظام الملك : سياسة نامة ، ص٣٥ .
(3) محمد أبو النصر : السلاجقة ، ص١٤٨ .
(4) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٥٧ .

أما ندماء السلطان ومضحكيه ، فكانوا يختارون من غير الخاصة أهل السياسة والإدارة ، لأنه إن أطال جلوسه مع الأكابر من قواد جنده وعمدائه قد ينقص ذلك من هيبته ، ويترددون في تنفيذ أوامره ويتجرؤون عليه ويذهب خوفهم منه ، لأنه لا يختلف طبع السلطان إلا مع النديم في الهزل وأسباب الأنس والملاطفة ، لذلك كان ندماء السلطان يختارون من غير الوزراء والكبراء ، فالسلطان مع الندماء يقلب معهم الحديث الذي لا يستطيع تقليبه مع الوزراء ، لأن مهمتهم المذاكرة مع السلطان في مهمات الولاية والجند ، التي فيها من دواعي الملال ، الذي لا يريح السلطان إلى ممازحتهم وتباسطه معهم ، فالندماء ما جعلوا إلا لإيناس السلطان وإدخال السرور إلى نفسه [١] .

وينبغي أن يكون النديم كريم المعدن ، فاضلاً وسيماً ، تقي المذهب ، حافظاً للسر ، كتوماً ، نظيف الملبس ، عارفاً بكثرة الأسماء ، والقصص والنوادر هزلها وجدها والضرب على الآلات الموسيقية ، وكان للسلطان مضحك يجلس معه في قصره ، مثل جعفرك مضحك السلطان ملكشاه [٢] ، وكان السلطان يأخذ نديمه معه في مجالس تنزهه ، وصيده ، ويفضل أن يكون النديم من الأطباء والمنجمين ، فالطبيب يقوم على رعاية وحفظ مزاج السلطان ، والمنجم يقوم على الوقت والساعات ويخبر السلطان بالسعد ، والنحس ، وبعض السلاطين لا يفضل ذلك [٣] .

وكان لكل نديم منزلة ورتبة ، إذ خصصت أماكن للوقوف على عادتهم في مجلس السلطان ، ونجد أن هذه الرسوم قد أخذها السلاجقة من الغزنويين الذين بدورهم أخذوها عن السامانيين ، فقد كان لسلطان غزنه عشرون نديماً ، دائماً منهم عشرة وقوف وعشرة جلوس ، وكان لندماء السلطان ، رواتب لعيشهم ، ولهم الحرمة التامة بين حاشيته وكان ينبغي أن يكونوا متحفظين ومهذبين محبين للسلطان [٤] .

---

(1) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٥٦-١٥٧ .
(2) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٣٥٢ .
(3) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٢٢-١٢٤ .
(4) المصدر نفسه : ص١٢٤ .

علاقة السلاطين بالخلفاء :

كانت العلاقة بين سلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين خلال هذه الحقبة غيـر مستقرة ، متأزمة ما بين قوتين قوة الخلفاء التي ترمي إلى الاسـتقلال مـن التـسلط الأجنبي المفروض عليها ، وقوة السلاطين الجدد الذين لم تختلف مواقفهم كثيـراً عـن سابقيهم ، إذ لم يكن للخليفة العباسي إلا الاسم فقط ، والأمـور الدينيـة ، فقـد عمـل السلاجقة منذ قدومهم إلى بغداد على كسب ود الخلافة العباسية ، بـدءاً مـن اعتـراف الخليفة بشرعيتهم وتفويض الخليفة للسلطان السلجوقي لحكم البلاد ، ثم المصاهرة أو ما يسمى بالزواج السياسي ، فحينما لم يرحب أهل بغداد بالـسلاطين الـسلاجقة نتيجـة لاعتداءات الجند على العامة في بغـداد ، عنـدما دخلهـا الـسلطان طغرلبـك سـنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، أستاء الخليفة القائم بأمر الله وأرسل إلى السلطان يذكر ما جرى ، من نهب بغداد ، فأستجاب السلطان محاولاً تهدئة الوضع ومحاولاً كـسب ود الخليفـة بعقد زواجه من أرسلان خاتون ابنة أخيه طغرلبك [(١)] ، وزيادة في توثيق العلاقة بـين الخليفة والسلطان ، زوج الخليفة ابنته لطغرلبك ، ورغم إرادته فإنه أجـاب الـسلطان على طلبه نتيجة لتضييق الخناق على الخليفة من قبل السلطان مهدداً بوقف ارزاقهـم ، تمت موافقة الخليفة فقام برفع الحجز عن الخليفة وحاشيته ، إلا أن هذا الزواج لم يـتم لمرض السلطان ومن ثم وفاته قبل زفافه [(٢)] .

---

(1) تزوج الخليفة بنت السلطان ألب أرسلان ولم يرزق ولداً غير أبي العباس محمد ، وكان يلقب بالذخيرة وولـد الذخيرة ابن في حياة القائم ورباه ويلقب بالخليفة المقتدي ، وجميع من في دار الخلافة من أولاد الخلفاء الصغار أو الكبار أولاده . الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي : التاريخ الفارقي ، تحقيـق : بـدوي عبد اللطيف ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص٢٦ ؛ الحسيني : صدر الدين أبـو الحـسن علـي ناصرين علي : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، لاهور ، ١٩٣٣م ، ص١٧-١٨ .

(2) الفارقي : التاريخ الفارقي ، ص١٩٤-١٩٦ ؛ الراوندي راحة الصدور ، ص١٧٧-١٧٨ ؛ البنداري : تـاريخ آل سلجوق ، ص٢٦ .

وفي سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م تزوج الخليفة المقتفي لأمر الله ابنة السلطان محمد بن ملكشاه [1] إلا أن الزواج السياسي لم يمنع الخليفة ولا رعاياه من سكان بغداد من إعلان تبرمهم من السلطان السلجوقي ، نتيجة لتضرر سكان بغداد من جند السلطان ، ذلك أنهم إذا قدموا بغداد نزلوا في منازل السكان وأرهبوهم وشاركوهم في أرزاقهم ، فحين قدم السلطان مسعود إلى بغداد في خريف سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م نزل أصحابه بغداد ، وأرهبوا سكانها ، وكانت هذه عادتهم إذا وصلوا بغداد [2] .

وتمادى بهم الأمر إلى أن خلع خليفة وأستبدل بآخر ، حسب ميولهم الخاصة ، فقد استبدل السلطان مسعود الخليفة الراشد بالله بالمقتفي لأمر الله سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م فجمع العلماء والفقهاء والقضاة ، والشهود والأعيان ، وأتهم الراشد بنهب الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر ، وشهد الحاضرون على ذلك ، وصدرت الفتيا بجواز خلع السلطان للخليفة واستبداله بغيره ، والراجح أن خلع الخليفة الراشد كان بسبب اليمين التي حلف بها وفيها بخط يده : " أنني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر " [3] ، فخلع الراشد وبويع المقتفي لأمر الله ، خلافاً لما جرت عليه الأمور في دار الخلافة ، إذ كان الخليفة الجديد هو ولي عهد الخليفة السابق ببيعة رسمية [4] .

إلا أن هذا التسلط لم يطل ، فقد عمل الخلفاء العباسيون على استرداد هيبة الخلافة ، وتحرير العراق من التسلط السلجوقي ، فنجح الخليفة العباسي في شد رعاياه إليه ، والاعتماد عليهم لحماية بغداد والدفاع عنها ، فخفف على الشعب برفع بعض

---

(1) السلطان محمد بن ملكشاه الملقب بغياث الدين ولد سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ، تولى بعد وفاة السلطان بركياروق سنة ٤٩٨هـ/١١١٤م ، كان له آثار في البر بالفقراء والأيتام ، توفي سنة ٥١١هـ/١١١٧م . الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٣٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٧١-٧٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٠ .

(2) الحسيني : زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، تحقيق ، محمد نور الدين ، ص١١٦-٢٤١ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٩٧ .

(3) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٠٥ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٥٤٢ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٠٥ ؛ الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٢٥ .

الضرائب ، وإرجاع الأموال المصادرة إلى أصحابها ، والتدخل فـي وضـع أسـعار البضائع [(١)] .

فحين تأزم الوضع بين الخليفة والسلطان السلجوقي ، واستعد الطرفان للقتـال ، وحاصر السلطان بغداد عام ٥٢٦هـ/١١٣٠م [(٢)] ، التف الشعب حول الخليفة ، وانتهز الخليفة الصراعات القائمة بين السلاطين والأمراء السلاجقـة في تقوية نفوذه ، ويغذي الصراعات القائمة بين الأمراء السلاجقة ، مما أزم الوضع بين الخليفـة والـسلطان ، فقطع الخليفة الخطبة للسلطان الأعظم ٥٥١هـ/١١٥٦م في بغداد ثم أعد العدة لقتـال جيش السلطان الذي كان يتخذ من إحدى المدن الإيرانية مقراً له [(٣)] .

نجح الخليفة المقتفي لأمر الله في إزالة الكثير من مظاهر النفوذ السلجوقي فـي العراق ، وعمل علـى تقوية الجيش ، وأصبح هو من يختار من يشاء مـن الأمـراء للسلطنة ، وبدأت الخلافة تسترد هيبتها واحترامها ، فقد أيقن الخليفة أن أمـن العـراق واستقراره ، لا يتم إلا بضرب السلاجقة في عقر دارهم وإنهاء قوتهم ، فدارت المعارك بين جيش العراق وجيش السلاطين السلاجقة فأستعد أهل بغداد للدفاع عـن مـدينتهم ، وازداد ضعف السلاجقة بموت السلطان عـام ٥٥٤هـ/١١٥٩م ، وفـي عـام ٥٥٥هـ/١١٦٠م بويع للخليفة المستنجد بالله ، الذي استمرت المنافسات والمنازعـات فيما بينه وبين السلاجقة ، ولم يحاول السلاجقة التعرض للخلافة في العراق أثناء خلافة المستنجد وابنه المستضئ ، إلا أن الأمراء في بغداد حاولوا السيطرة على الأمور بعـد وفاة المستنجد بالله ، فتصدى لهم الخليفة المستضئ لأمر الله واستعان بأهل بغداد فـي التخلص من أحد هؤلاء الأمراء ، فهاجم أهل بغداد دار الأمير ونهبوها فهـرب إلـى الموصل [(٤)] .

---

(1) سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل في دور الخلفاء في الحياة العامة في الفـصل الأول مـن البـاب الثـاني ، ص١٤٥.

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٤ ؛ العلي : صالح أحمد العلي وآخرون ، العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣م ، ص٢٤٨ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٦٦ .

(4) المصدر نفسه : ج١٠ ، ص١٩٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٤٩ .

أما السلاجقة فقد استبد بهم الأتابكة ولم يحاولوا التعرض للعراق ، وفي ٥٧٥هـ/١١٧٩م ، تولى الخليفة الناصر لدين الله ، الذي أجمع عليه المؤرخون بأنه أحيا الخلافة العباسية وأعاد لها نفوذها وقوتها ، فأصبح يخطب له في مصر وبلاد الشام ، فقد أدرك الخليفة الناصر أهمية الشباب في المجتمع ، وتربيتهم تربية تقود إلى وحدة المجتمع ، وهو ما عمله في أسس أحياء نظام الفتوة وقيادته لها بنفسه [1] .

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٢٢ ؛ صالح العلي وآخرون : العراق في التاريخ ، ص٤٥٧ .

المبحث الثالث : الأمراء .

يراد بالإمارة ، الإمارة على البلاد [١] ، وتولى أمور الناس والقيام بها [٢] كمـا يسمى أبناء بيت الخلافة بالأمراء [٣] ، ذلك أن فئة الأمراء مـن الناحيـة الاجتماعيـة والسياسية تلي الخلفاء كفئة حاكمة في المجتمع العباسي ، فالخلفاء العباسيون اختـصوا أبناء البيت العباسي بالإمارة والولاية ، إذ كان الولاة والقواد في المجتمع مـن أبنـاء البيت العباسي في العهود العباسية الأولى [٤] .

إلا أن البناء الاجتماعي للفئة الحاكمة إبان القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، قد تغير تبعاً للتغيرات السياسية والاقتصادية التي انتابت بغداد خلال هـذه الفترة وما سبقها ، فنجد أن أمراء القرن السادس الهجري / الثـاني عـشر المـيلادي جميعهـم من عناصر غير عربية ، باستثناء أبناء الخلفاء الـذين حجبـوا داخـل دور الخلافة ، فقد ألزم أفراد العائلة العباسية بعدم الظهور للنـاس أو الخـروج مـن دور الخلافة ، وذلك خوفاً من أن يتعاونوا مع الطامعين في السلطة ضد الخليفة ، لإضعاف سلطته ونفوذه خاصة أثناء التسلط السلجوقي [٥] ، إذ ازداد نفوذ الأمراء في بغداد حتى أصبح أستاذ الدار في دار الخلافة يذكر اسمه في خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة ، إلـى أن تخلص منه الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م [٦] .

أما الأمراء والولاة والقواد ، فقد كانوا مماليك ، اشتراهم الخلفـاء فـي عهـود مختلفة ، وتدرجوا في الرتب إلى أن وصلوا إلى مرتبة الإمارة ، فكان الخلفاء يـأتون بهـم غلمان صغاراً إلى دار الخلافة ، ويعتنون بتربيتهم ، وتعليمهم القـرآن وجـودة

---

(1) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٣٥ .
(2) ابن منظور : لسان العرب ، ج٦ ، ص٤٩٠ .
(3) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، م١ ، ص٤٥ .
(4) ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص٣٦٨ .
(5) بنيامين بن يونه الأندلـسي : رحلـة بنيـامين ، ترجمـة عـزرا حـداد ، دار ابـن زيـدون ، بيـروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ص١٣٢ .
(6) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٤٠٧ ؛ أحمد صالح العلي وآخرون : العراق في التاريخ ، ص٤٥٧ .

الخط ، والأدب ، والفروسية ، فيتدرجون ما بين غلام إلى جندي بسيط ثم أميـر [١] . وهو الذي دلت عليه ألقابهم " فالمستظهري " نسبة للخليفة المستظهر ، والمقتفوي نسبة إلى الخليفة المقتفي لأمر الله ، والناصري نسبه للخليفة الناصر لـدين الله ، فنجـد أن الخلفاء استخدموا هؤلاء المماليك كأمراء عسكريين مهمتهم الدفاع عن العـراق ، فقـد كان للخليفة المقتفي لأمر الله مماليك بعضهم أرمن ، وبعضهم روم فجعلهـم أمـراء ، وفوض إلى كل واحد منهم جانباً من جوانب العراق ، وذلك للدفاع عن بغداد في إطار تخلصه من النفوذ السلجوقي ، فإنه استرد هيبة الخلافة العباسية ، وأصـبح هـو مـن يختار الأمراء للسلطة [٢] .

ولم يكن الأمراء من الروم أو الأرمن والترك فحسب ، وإنما الأحبـاش أيـضاً تلقبوا بلقب الأمير في هذه الفترة ، فكان علم الدين أبو الفخر بن عبد الله الحبشي أميراً من الأمراء الأحباش [٣] ، كذلك خالص الحبشي كان من القواد الـذين تولـوا قيـادة العسكرية ، إذ وصفه ابن جبير عند زيارته لبغداد سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بأنه افتى من الأحباش الخصيان " وأنه قائد العسكرية كلها " وكان بين يديه ومـن خلفـه الأمـراء والأجناد الأتراك والديلم وحوله خمسون سيفاً مسلولة ، وله القصور والمنـاظر علـى دجلة [٤] .

فالأعمـال الإداريـة والعسكريـة وولايـة الأقاليـم أوكلـت إلـى الأمـراء المماليـك ، فشحنكيـة [٥] بغـداد كانـت بيـد الأمـراء المماليـك ، فالأميـر قطـب الدين أبو منصور بن عبد الله التركي الناصري ، رتب شحنة بغداد وأقطع [٦]

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١١٨-١١٩ .

(2) الحسيني : زبدة التواريخ ، ص٢٤١-٢٤٢ .

(3) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٥٧١-٥٧٢ .

(4) ابن جبير : الرحلة ، ص٢٠٣ .

(5) الشحنكية : صاحبها الشحنة وهي وظيفة استحدثت أيام السلاجقة لتحل محل صاحب الـشرطة فـي مطـاردة اللصوص وإشاعة الأمن ومعاقبة المسيئين . ابن منظور : لسان العرب ، ج٣ ، ص٤٠٤ .

(6) ونظام الإقطاع هو : الإقطاعات تجري على الأمراء والوزراء ، وهي أن يقطعوا بلداً أو أراضي واسعة مقابل أن يحمل إلى ديوان الزمام مالاً اتفق عليه سنوياً . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٥١ .

دقوقا [1] فأقام بها إلى أن توفي بها سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م [٢] ، أيضاً قطب الدين أبو الحارث سنجر بن عبد الله يعرف بالخلاطي الناصري رتب شحنة بجانبي بغداد فاستقام به البلد [٣] ، كذلك قطب الدين أبو المظفر سنجر بن عبد الله التركي المعروف بالبابائي الناصري كان شحنة بعانة [٤] والأعمال الفراتية إلى أن توفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م [٥] .

ومن الأمراء من تولى إمرة السلاح [٦] ، فكان أميراً للسلاح إضافة إلى أنه شحنة ببغداد ، كعز الدين أبي الفوارس ألب قزا بن عبد الله التركي الظاهري ، كان شحنة بغداد ، وفي أيام المستنصر بالله جعله أميراً للسلاح ، ثم في أيام المستعصم رتب شحنة لبغداد إلى أن قتل في وقعة بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م [٧] .

ومما هو جدير بالذكر أن المكانة الاجتماعية للأمراء المماليك قد اتخذت لها طابعاً خاصاً خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، فقد كان أمير الحاج في العهود العباسية الأولى وطوال القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين ، يختار من أمراء البيت العباسي ، أو من الرجال البارزين العلويين [٨]. لكن منذ بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وحتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أصبح أمير الحج يختار من بين الأمراء المماليك الأتراك ، فنجد أن الأمير قايماز الارجواني حج بالناس عدة سنين ، وكان رفيقاً بالحجاج محسناً إليهم ، وحين وفاته سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أمر الخليفة أمراء الدولة أن

(1) دقوقا : مدينة معروفة تقع بين أربل وبغداد . الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥٩ .
(2) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٥١ .
(3) المصدر نفسه ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٣ .
(4) عانه : بلد مشهورة بين الرقة وهيت تعد في أعمال الجزيرة وهي مشرفة على الفرات قرية حديثة النور وبها قلعة حصينة . الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٢ .
(5) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٥ .
(6) أمرة السلاح : هو من يتولى حمل سلاح الخليفة ويكون مسئولاً عن بيت السلاح ، ولا يكون صاحبه إلا من الأمراء المقدمين . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩ ، وهي كوزارة الدفاع حالياً .
(7) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٦ .
(8) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٦٧ ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٤ ؛ بدري محمد فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، ص٢٦٠ .

يمشوا في جنازته [1] ، أيضاً ممن كان أميراً للحجاج أمير الجيوش الجيوشي الحبـشي المستظهري سنة ٥١٠هـ/١١١٦م فإنه دخل مكـة وخلفـه الكوسـات [2] والبوقـات والسيوف والأعلام [3] .

وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، كان أمير الحجاج عز الدين أبو النصر أقبوري بن أغش بن عبد الله الناصري [4] ، وعين قطب الدين أبو المظفر سـنجر بـن عبـد الله البكلكي المستنصري التركي المعروف بزريق أمير الحاج سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م فقـد كان من مماليك البدرية وفي سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م رتب شحنة لخزانـة الـسلاح ثـم شحنه بالحلة [5] ثم ناظراً باللحف [6] ، ثم عين أميراً للحج واستشهد في الوقعـة سـنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م [7] .

فنجد أن الأمراء المماليك كانوا فئة خاصة في القرن السادس الهجري / الثـاني عشر الميلادي ، فلم تكن مهامهم عسكرية فقط أو إدارية ، وإنما كانوا هـم خـواص الخليفة والمقربين إليه ، والمتولين لأعمال دار الخلافة ، وذلك من خلال ألقابهم التـي دلت على أعمالهم ، فنجد عز الدين نجم الدولة أبو اليمن نجاح بن عبـد الله التركـي

---

(1) ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي : النجوم الزاهـرة فـي ملـوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، ج٥ ، ص٢٣٢ .

(2) الكوسات : صنجات من نحاس شبه بالترس الصغير يدق بأحدها ثم بالآخر بإيقاع مخـصوص ، وهـي مـن رسوم الأمراء ، ويسمون أصحاب الكوسات . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٨ .

(3) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٢١١ .

(4) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٤ .

(5) الحلة : قرية مشهورة في طرف جبل بغداد من ناحية البرية بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ ، وحلة بني مزيـد مدينة بين الحله وبغداد كانت تسمي الجامعين أول من عبرها سيف الدولة صدقة بن منصور بن علي بن مزيـد الأسدي ، وكانت منازل أبائه . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٩٥ ؛ صفي الدين عبد المؤمن بـن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع عن الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ج١ ، ص٤١٩ .

(6) اللحف : لحف الجبلة أصله وهو صفح معروف من نواحي بغداد تسمى بذلك لأنه في لحـف جبـال همـذان ونهاوند وتلك النواحي وهو دونها مما يلي العراق ومنه البندنيجين وغيرها وفيه عدة قلاع حـصينة . يـاقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٤ .

(7) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٥ .

الشرابي [١] الناصري ، الملقب بالملك الرحيم ، كان من خدم الناصـري فـي صـباه ملازماً له ، ومما ذكر عنه أن الناصر وقع من أعلى سطح كان يلعب عليه ، فرمـى نجاح نفسه عليه وحين سئل عن ذلك قال : " ما كنت أوثر الحياة بعده " فقربه الناصر وحين ولي الخلافة ، جعله أميراً للجيوش ، توفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م [٢] .

والأمير شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصري الشرابي الحبشي الأصل ، ويقال له المستنصري المستعصمي ، كان له دور في إسناد الخلافة إلى المستعصم بالله بعد وفاة المستنصر [٣] ، كما كان الأمير جمال الدين قشتمر الناصري جعله الناصـر قائد جماعة من المماليك وسلم إليه اصطبله الخاص [٤] ، فقد كان عمل أمير الاصطبل الاهتمام باصطبل الخليفة ويسمى أميرآخر أو (أميرآخور) [٥] .

كذلك من الألقاب التي دلت على أعمال الأمراء داخل دار الخلافة ، الدويدار [٦] والبقجة دار [٧] والكوازدار [٨] .

ومما هو جدير بالذكر أن من الأمراء من كان غريباً على بغداد ، فلـم يكونـوا مماليك صغاراً وإنما قدموا بغداد أمراء كبار ، سواء من بلاد الشام أو مصر ، كـأبي

---

(1) الشرابي : عمله تقديم أنواع الأشربة المعمولة من السكر أو الفواكه ، والاهتمام بها وتقديمها بأواني خاصة قد تكـون من الصيني الفاخر من اللازوردي ، وللشرابي عدة غلمان يقومون بمـساعدته . القلقـشندي : صـبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ .

(2) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٧٣-٣٧٤ .

(3) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٦١ .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢١ .

(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١١١ ، وقد كان جمال الدين أحد مماليك قطب الدين سـنجر الناصـري والذي كان من المقربين للناصر وولاه إمارة الحاج سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وأقطع الحـويزه . ابـن الفـوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٢ .

(6) الدويدار : حامل داوة الخليفة ، يتولى أمرها مع ما ينظم إلى ذلك من الأمور اللازمة ، وهما لفظ مركب مـن كلمتين : أحدها عربية وهي الدواة ، والأخرى دار ومعناه ممسك . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩.

(7) البقجة : دار حامل ثياب الخليفة إذا ركب إلى جهة معينة . البقجه فارسية معربة بمعنى بوغجه وهو ظـرف من القماش . الخفاجي : شهاب الدين أحمد المصري : شفاء الغليل فيما في كلام العرب مـن الـدخيل ، ط١ ، مكتبة الحرم ، الحسيني ، الأزهر ، القاهرة ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ص٧٩ .

(8) الكوازدار : مهمته حمل الماء وحفظه صالحاً للشرب والكوز معناها القارورة . ابن منظور : لسان العـرب ، ج٥ ، ص٤٥٠ .

الهيجاء المعروف بالسمين لأنه كان كثير السمن ، وكان من أكابر أمراء مـصر ، إذ كان في إقطاعه بيت المقدس وغيره مما يجاوره ، وحين ملك العزيز بن العادل دمشق أخذ منه القدس ، ففارق السمين بلاد الشام إلى الموصل ومنها انحدر إلى بغداد ، لأنـه طلب من قبل ديوان الخلافة ، فلما وصل أكرم إكراماً كثيراً وجعل مقدماً على العساكر البغدادية فأصبح له شأن عظيم ، وأمر بالتجهيز إلى همذان ، ثم حدث ما حـدث بينـه وبين بعض الأمراء الذين قبض عليهم ، وأرسل إليه الخليفة مستنكراً عملـه ويـأمره بإطلاقهم وأن يوزع عليهم الخلع تطييباً لهم ، ما دعاه إلى عدم الاطمئنان ، فلم يستطع البقاء ، كما أنه خاف أن يرجع إلى بغداد خوفاً من ديوان الخلافة ، فغادر إلـى أربـل لأنه منها إلا أنه توفي قبل وصوله سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م [1] .

ومن هؤلاء الغرباء الأمير ككسنقر التركي المعروف بالحلقي ، كـان لـبعض أمراء العراق فحين توجه الوزير ابن القصاب إليها حضر عنده بعض الأمراء فـشاهد ككسنقر فأعجبه واستحسن صورته وحسن مظهره ، فأشار إلى بعض المماليك بالتحدث إليه ، وأن يطمعه في سيده للانفصال عنه ، ويصير أميراً أكبر مـن سـيده ببغـداد ، فهرب ككسنقر إلى الوزير واستجار ببابه ، وأحضر سيده وتحدث ابن القصاب معه في بيعه فلم يجب إلى ذلك فأمر الوزير بإنفاذ ككسنقر إلى بغداد ، فلما وصل ارتقى وعلت منزلتـه ، وقربه الخليفـة حتى ولاه الإمارة وجعله أميراً للـسلاح وأقطعـه معاملـة الحديدة [2] ، ثم أقطع قوسان [3] ، وأضيف إليه جماعة من الأمراء إلا أنه كان كثيـر شرب للنبيذ ، فغلبه البلغم وسمن سمناً عظيماً عطله عن الحركة ولم يزل كذلك إلى أن توفي سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م [4] . أيضاً من الأمراء ممن كانوا من العوائل التي حكمت بلاد الشام كالزنكيين والأيوبيين ، وكانوا يأتون إلى بغداد ومعهم حاشية مـن الأمـراء الصغار والجند ، كمظفر الدين أبي البركات يعقوب بن أسد الدين شيركوه بـن الملـك

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٩٩ .

(2) الحديدية قرية كبيرة من أعمال واسط . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٢٧ .

(3) قوسان كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط أو نهره الذي يسقي زروعه يقاله لـه الـزاب الأعلى . نفسه : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤١٣ .

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٠-٣١ .

المنصـور بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، قدم من الـشام بأهلـه ومماليكـه وخدمه ، فأنعم عليه وأعطى داراً بمحلـة الكـرخ [١] ، وخلـع عليـه الخلـع سـنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م وخلع عليه مع مبلغ هو وأصحابه خمسة آلاف دينار ، وقد طلب من المستعصم أن يقطع من البلاد ما يكفيه لأصحابه فلم يوافق المستعصم فأذن له بـالعود إلى بلاده . وكان الأمير سلطان شاه عبد الرحمن شاباً في أيام المستنصر ورغب فـي الإقامة ببغداد وجعلت له معيشة مقدارها خمسة آلاف دينار في كل سنة سوى معـايش مماليكه وجنده [٢] .

تقليد الأمراء :

تقليد الأمراء بالإمارة كان يباشره الخليفة بنفسه ، فإذا عزم على تقليد الأمـراء أحضروا الأعيان والقضاة وأركان الدولة ، ثم يقول الخليفة لمن يوليه ، قلدتك النيابـة عني وفوضت إليك ما وراء بابي ، فيقدم الأمير ويقبل يد الخليفة [٣] .

وقد يكون تعيين الأمراء من قبل الوزير أو نائب الوزارة ، كما حصل في سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م عندما عين والي الدجيل دقوقا من قبل الوزير ناصر بن مهدي [٤] ، وعندما عين الأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة ولاه نائب الوزارة نصير الـدين ابن الناقد سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ولاية اربل [5] فشافهة بالولاية [1] .

---

(1) الكرخ : لما بني المنصور مدينته أمر أن يجعل لها أسواقاً بإزاء كل سوق باب وبقيت مده على ذلـك إلـى أن نقلها المنصور ، بعد زيارة أحد رسل ملك الروم فقد قال للمنصور " إن أعداءك معك فيها ، فقال من هم ؟ قال السوقه ؟ أي العامة ، فنقلها إلى وسط بغداد ثم هي الآن محله وحدها ، وأهل الكرخ كلهم شيعة إمامية . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٤٨ .

(2) فهد : بدري محمد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٣م ، ص٢٧٣.

(3) الثعالبي : أبي منصور عبدا لملك بن محمد بن إسماعيل : تحفة الوزراء ، تحقيق علي الراوي وابتسام مرهون الصفار ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٧م ، ص٧٥ .

(4) سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف قز اوغلي التركي : مرآة الزمان فـي تـاريخ الأعيـان ، دائرة المعارف العثمانيـة ، حيـدرآباد ، الـدكن ، ١٣٧٠هـ ـ-١٣٧١هـ ـ/١٩٥١م-١٩٥٢م ، ج٨ ، ق١ ، ص٥٣٥.

(5) أربل : مدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع ولها قلعة ذات خندق عميق في طرف المدينة ، وسور المدينة ينقطع في نصفها وهي على تل عظيم ، وفيها أسواق ومنازل للرعيـة . الحمـوي : معجـم البلـدان ، ج١ ، ص١٣٧ .

فكان الأمراء يضعون ساعة تتويجهم بالإمارة تاجاً مرصعاً من الذهب المنظوم بالجواهر ، كما كانوا يميزون بلبس العمائم وحمل الكوسات معهم إذا ساروا ، كما تحمل الدربشات [٢] والغواشي [٣] والبوقات والرايات والطبول بين أيديهم ، كما يرفع وراء الأمير سنجقات [٤] ، وكان الرسم للأمراء وإذا قصدوا دار الخليفة دخلوا من باب الخاصة أو باب النوبي ، وإذا ولي أمير من الأمراء وخلع عليه ، يخلع على جميع الأمراء كل واحد فرساً بمركب وخمسة آلاف دينار ، كما يخلع على من دونهم على قدر مرتبته من الألفين إلى الخمسمائة دينار ، ثم يخلع على جميع المماليك الناصرية ، والظاهرية والمستنصرية كل واحد خمسين ديناراً [٥] .

كما كانت تنثر الدنانير على الأمير بعد أن يخلع عليه ، كما حدث لمجاهد الدين أيبك المستنصري المعروف بالدويدار الصغير ، فبعد أن تمت مراسيم توليه الإمارة وتوجه إلى داره ، فلما اجتاز بباب البدرية نثر عليه خادم من خدم الشرابي أربعة آلاف دينار ، ولما أجتاز بباب الدواب نثر عليه في عدة مواضع ، وأنفذ إليه أحد عشر طبلاً ، وزوج صنج ، وأن تقرع النوبه قبل وقت الأذان إعلاماً بأن وقت الأذان قد قرب ، على بابه في الصلوات الثلاث [٦] .

كما نجد من الأمراء من تولى الإمارة بعد أن كان مملوكاً للوزير ، كالأمير قيصر العوني ، نسبته إلى الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة كان مملوكاً إفرنجي الجنس وكان يخرج في الأعياد في صدر موكب الوزير بالقباء والعمامة القصب

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٤ .

(2) الدربشات : مفردها درباشة وهي رماح صغيرة من الحديد . مصطفى جواد : هامش ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص١٠٢٤ .

(3) الغاشية : قطعة من أديم مخروزه بالذهب تحمل بين يدي الراكب في المواكب والحفلات . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٦ .

(4) السناجق : ريان صفر صغار . المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٨ .

(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٤-٥٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج5 ، ص٢١١ .

(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٨٥-٨٦ .

الكحلية وإلى جانبه خادمان من خدم الوزير ، ولما توفي الوزير أعطي الإمارة وأقطع الغراف [1] ، وتوفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م [2] .

المبحث الرابع : الوزراء .

(1) الغراف : نهر كبير تحت واسط عليه كورة فيها قرى كثيرة . عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص٩٨٧.

(2) ابن الساعي : أبي طالب علي بن انجب تاج الدين : الجامع المختصر في عنوان التـواريخ والعبـر ، تعليـق مصطفى جواد ، دار المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م ، ج٩ ، ص٤٠ .

قال تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيراً مِّنْ أَهْلِى ٢٩؟% هَـٰرُونَ أَخِـى ٣٠؟% ٱشْدُدْ بِـهِ أَزْرِى ٣١؟% وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ (١) .

أصبح الوزراء يمثلون الطبقة الثانية من طبقات الفئة الحاكمـة فـي المجتمـع العباسي ، منذ نشوء نظام الوزارة ، الذي نشأ بنشوء الدولة العباسية ، فـالوزير يعـد منصبه من أعلى المناصب الإدارية في الدولة بعد الخلافة ، فهو المهيمن علـى إدارة الدولة والمحرك لها ، إلا أن دوره قد أضمحل في عهد التسلط البويهي لظهور منصب إمرة الأمراء ، ثم عاد إلى الظهور ، بشكل قوي وملحوظ خلال هذه الفترة .

ولحساسية منصب الوزير وأهميته ، كان لابد من الدقة في اختيار من يتولى هذا المنصب ، ففي عهود الدولة العباسية الأولى . كان الوزير يختار ممن اتصف بـالعلم والأمانـة ، والكفاية وهي العلم بالأعمال الديوانية ، والـدهاء والفطنـة ، والتـيقظ ، والكرم ، والرفق ، إضافة إلى الحلم والأناة والوقار ونفوذ القول (٢) .

فقد روي عن الخليفة المأمون أنه قال : " إني التمس لأمـوري رجـلاً جامعـاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجـارب ، إن أوتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات نهض فيهـا ، يـسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء وأناة الحكمـاء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء إن أحسن إليه شكر وإن ابتلي بالإساءة صـبراً لا يبيـع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه " (٣) .

وقد يقلد الوزير الوزارة مكافأة له على ما قدمه للخليفة من جهود أو أعمـال ، أما في عصر التسلط البويهي ، فلم تعد الصفات أو الجهود المبذولـة واقعـاً لاختيـار الوزراء ، وإنما أصبح اختيار الوزراء يتم وفقاً لثرواتهم ، مما أدى إلى الفساد وبـذل

---

(1) سورة طه ، آية : ٢٩-٣٢ .

(2) الثعالبي : تحفة الوزراء ، ص٦١-٦٣ ؛ إبراهيم سلمان الكروي : طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسـي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص١٣ ، ٣١ .

(3) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٢٥-٢٦ .

الرشوة والهدايا للقواد ، ولنساء الخليفة ، فقد تنافس جماعة على وزارة معـز الدولـة البويهي[1]، كان منهم أبو علي الحسن بن محمد الطبري الذي قدم ثلاثمائة ألف دينـار إلى معـز الدولـة [2] للحصول علـى منصب الـوزارة ، ومما يذكـر أن معـز الدولة هـو الذي طلـب منهم ذلـك ، ثم بعد ذلـك استـوزر الحـسـن بـن علـي المهلبي [3] .

وكان المال الذي يدفع للرشوة والهدايا غالباً ما يحصل من الوزير المعـزول ، عن طريق مصادرة أمواله وأملاكه ، فقد كان الوزير الجديد ، يلقى نفس المعاملة التي عامل بها الوزير السابق [4] .

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وبداية القـرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، أصبح اختيار الوزراء أكثر دقة ، فلم تكـن الوزارة مقصورة على بيوتات معينة كما حدث في العصور السابقة ، كالبرامكة ، وبني سهل ، وآل الفرات ، وإن وجد في هذه الحقبة من الوزراء من كان أبوه وزيراً أو جده وزيراً ، إلا أنهم لم يتوارثوا الوزارة ، فاختيار الوزير في هذه الفترة ، يتم مـن بـين الموصوفين بالعلم والصلاح والخبرة في الإدارة ، فكان ذلك شبيه باختيار الوزراء في عهود الدولة العباسية الأولى ، فقد كان وزراء هذه الفترة جميعهم ممـن تـدرج فـي

---

(1) معز الدولة البويهي : أحمد بن بويه بن فناخسرو بن تمام ، أبو الحسن من بني بويه فـي العـراق ، فارسـي الأصل ، امتلك بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٤م في خلافة المستكفي ودام في ملكه في العراق ٢٢ سـنة إلا شـهراً وتوفي ببغداد ، كان يكثر من سب وزرائه ، والمحتشمين من حشمه . ابن مسكويه : أبو علي أحمد بن محمـد بن يعقوب : تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، مصر ، ١٣٣٤هـ ، ج٦ ، ص١٤٦ ، ٢٣١ ؛ ابن خلكان : وفيـات الأعيان ، ج١ ، ص٥٦ .

(2) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٣ ، ص٦٢ .

(3) الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون ، من ولد المهلب بن أبي صفره الأزوري ، من كبار الوزراء ، كـان كاتباً في ديوان معز الدولة ثم استوزره ، وفي خلافة المطيع قربه المطيع ثم لقبه بالوزارة ، فاجتمعت له وزارة الخليفة ووزارة السلطان ولقب بذي الوزارتين ، كان من رجال العلم والحزم والدهاء ، توفي في طريق واسـط وحمل إلى بغـداد ودفن في سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٩ ؛ الحمـوي : معجـم الأدباء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٣ ، ص٦٢ .

(4) صالح العلي : الدواوين والـوزارة فـي العهـود العباسـية ، مجلـة المـورد ، مـج٨ ، العـدد الرابـع ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، بغداد ، ص١٤٢ .

مراتب إدارة الدولة حتى نال الوزارة ، فقد استوزر الخليفة المستظهر أبي المعالي هبة الله بن محمد بن المطلب [١] وكان قبل الوزارة يتولى ديوان الزمام [٢] وهو من علماء الوزراء وأفاضلهم وأخيارهم [٣] ، ومن الوزراء من استوزر بمساعدة مـن عائلتـه ، كأبي نصر المظفر بن علي بن محمد بن جهير البغدادي [٤] كان مـن بيـت توارثـوا الوزارة كابر عن كابر إذ كان أبوه وزيراً وجده وزير ، وكان هو قبل ذلك أستاذ الدار ثم استوزره الخليفة المقتفي[٥] .

إذاً فالتمرس في الإدارة والاستقامة والعلم ، تميزت بها هذه الحقبة في اختيـار الوزراء ، إضافة إلى العلم بأحوال العامة ، فالوزيـر يعتبر وسيطـاً بـين الخليفـة والرعية ، فيشترط في طبعه ما يناسب طباع الملـوك وطبـاع العامـة ، ليعامل كلاً

---

(1) هبة الله بن الحسين بن محمد بن هبة الله بن المطلب أبو المعالي ، من بيت وزارة كان رجلاً كافياً ، استوزره المستظهـر بعد زعيم الرؤساء ابن جهير ، وكان قبل الوزارة يتولى ديوان الزمام ، تـوفي سـنة ٥٩٦هـ ـ/ ١١٩٩م . ابن الدبيثي : محمد بن سعيد بن يحيى بن علي ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابـن الدبيثي ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ص٣٦٤ ؛ ابن الطقطقى ، الفخري ، ص٣٠٠-٣٠١ .

(2) ديوان الزمام : أنشئ في العصر العباسي الأول في عهد الخليفة المهـدي سـنة ١٥٨هـ ـ/٧٧٤م ، لـضبط الدواوين، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولى كـل ديـوان رجـلاً ، ليـشرف علـى الإرادات والمـصروفـات . الجهشياري: أبي عبد الله محمد بن عبدوس : كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ط١ ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ص١٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل : ج٦ ، ص٥٦ ؛ ضيف الله يحيـى الزهراني : موارد بيت المال في الدولة العباسية ، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الفيصلية ، مكة المكرمة ، ص٢٩٠ .

(3) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠١ .

(4) أبي نصر المظفر بن علي بن محمد بن جهير ، لقب مؤتمن الدولة من بيت مشهور بالوزارة والرئاسة ، وزر لثلاثة من الخلفاء ، حبسه الخليفة المستظهر فـي داره واستـصفى أموالـه ثـم قتلـه فـي سجنـه سـنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م . ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣١١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص٢٧٢ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٦ ؛ ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣١١ .

منهما بمـا يوجـب له القبـول والمحبـة [1] ، فكـان الوزيـر يحيى بن هبيـرة [2] وزير المقتفى والمستنجد ، قد جمع في شخصيته الخبرة الإدارية والثقافة العامة إضافة إلى المعرفة التامة بأحوال المجتمع العباسي ، فقد عركته الحياة إلـى أن شـارك فـي أعمال دار الخلافة ، فكان أول عمله كاتباً ثم عين مشرفـاً بالاقرحة الغربية [3] ، ثـم نقل إلى الإشراف على الإقامات المخزنية ، ثم قلده المقتفي الإشراف بالمخزن ، فتدرج في المناصب إلى أن تقلد الوزارة [4] . فقد كان من الوزراء البارزين في هذه الفترة ، إضافة إلى أنه كان عالماً ومحدثاً وأديباً كان عالماً ومحدثاً وأديباً ، مما دعى الخليفـة المقتفى والمستنجد يقولان عنه : " ما وزر لبني العباس كيحيى بن هبيرة فـي جميـع أحواله " [5] فكان له دوره البارز في حل مشكلات الخلافة العباسـية مـع الـسلاجقة والتخاص من سيطرتهم [6] .

---

(1) ابن الطقطقى : الفخري ، ص١٥٢ .

(2) يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن جهم الشيباني : ولد بالدور ودخل بغداد في صباه وطلب العلم ، وجالس الفقهاء والأدباء ، وخدم الديوان فولي إشراف المخزن ثم ديوان الزمام ثم اسـتوزره المقتفـي لأمـر الله سـنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ووزر للمستنجد حتى توفي في جمادي الأولى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م . ابن خلكان : وفيـات الأعيان، ج٦ ، ص٢٣٠ ؛ ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليـه ، ص٣٨٥ ؛ ابـن الطقطقـى : الفخـري ، ص٣١٢ .

(3) الأقرحة الغربية : القراح : كل قطعة على حيالها من منابت النخل وغير ذلك والجمع أقرحة ، وقيل أن القراح هو الأرض المخلصة لزرع أو لغرس وقيل القراح هو المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيهـا شـجر . ابـن منظور : لسان العرب ، ج٥ ، ص٢٥ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٥٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٣١ ؛ مريزن بن سعيد عسيري : الوزير العادل يحيى ابن هبيرة ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد السابع عشر ، رجب ١٤١٧هـ / نوفمبر ١٩٩٦م ، ص٣٨١-٣٨٢ .

(5) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣١٢ .

(6) سيأتي الحديث عن ذلك في دور الوزراء الفصل الأول من الباب الثاني .

وكان جلال الدين أبي المظفر عبيد الله [(١)] وزيراً للخليفة الناصر لدين الله ، أحد الشهود المعدلين [(٢)] ، ثم تقلبت به الأحوال حتى بلغ الـ وزارة ، وكـان لديـه خبـرة عسكرية ، مما دعى الناصر لإرساله إلى محاربة الوزير السلجوقي طغرل ابن أرسلان بن طغرل السلجوقي [(٣)] .

كما كان الوزير نصير الدين أبي الأزهر أحمد بن الناقـد [(٤)] وزيـر الخليفـة المستنصر ، وكيلاً للمستنصر ثم انتقل إلى أستاذية الدار ومنها إلى الوزارة ، فكان قوياً في الأمور السياسية ذا أمانة قام بأعباء الدولة خير قيام [(٥)] .

ومنذ سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م بدخول السلاجقة بغداد أصبح هناك وزيران ، وزير للخليفة ووزير للسلطان السلجوقي ، فكان وزير السلطان يتم اختياره من قبل الـسلطان شخصياً ، ويتم اختياره مـن المثقفين ثقافة أدبية ، وخاصـة مـن الكتـاب لخبـرتهم الإدارية ، ولتدرجهم في المناصب وأعمال الدواوين المختلفة ، إضافة إلـى تميـزهم بالثروة والمال ، فمما ما نقله لنا الراوندي : " يا أسفا على تلك الأيـام التـي كانـت

---

(1) جلال الدين أبي المظفر عبيد الله بن يونس بن أحمد بن عبيد الله بن هبة الله أبو المظفر بن أبي منصور ، من بيت عدالة ورواية ، ولي الوزارة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م للناصر لدين الله أرسله الناصر لمحاربة طغـرل بـن أرسلان السلجوقي فأسر ثم أطلق وبقي مدة في الوزارة ثم رتب أستاذاً للدار ثم عزل سنة ٥٩٠هـ ـ/١١٩٣م ، وولى الوزارة أبي الفضل بن القصاب ، قتلته الباطنية وهو خارج للحج سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م . ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٢٣ ؛ ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه ، ص٢٢٩ ؛ ابن العماد : شـذرات الـذهب ، ج٤ ، ص٣١٣ .

(2) الشهود المعدلين ، أو العدول هم جماعة من الناس يختارون لمساعدة القضاة في عملهـم ، يختـارون ممـن اتصف بالعدل على أن يزكيهم قبل التعيين شاهدين اثنين ، ويكونوا ممن اتصف بالدين والاستقامة فـي حياتـه الاجتماعية . ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ؛ المقدمة ، ص٣٠ ، وهم من يسمون اليوم بهيئة الإدعـاء العام.

(3) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٢٣ .

(4) ابن الناقد نصير الدين أبي الأزهر أحمد بن محمد بن الناقد ، كان يلقب بشمس الدين قبل توليه نيابة الوزارة ، ثم ولي الوزارة بعد خلع القمي لقبه الخليفة المستنصر بعدة ألقاب وسيأتي ذكرها ، توفي سنة ٦٤٢هـ ـ . ابـن الطقطقى : الفخري ، ص٣٣١ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٦ ، ص٤٤ .

(5) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٣١ .

الوزراء فيها يمتازون بالفضل والعلم والعقل والقدرة فإن الوزارة في هذا الوقـت فـي أيدي الغلمان يروج فيها سوق من كان سباقاً إلى جمع الأموال وشر الأعمال " [١] .

فالوزير السلجوقي يرافق السلطان في المواكب والمجالس والزيارات التي يقوم بها السلطان ، وكثير ما ينوب الوزير السلجوقي عن السلطان في مقابلة الخليفـة [٢] ، وكان وزير السلطان أعلى رتبة وأكثر نفوذاً من وزير الخليفة ، فقد أجبر نظام الملـك الخليفة المقتدي على عزل وزيره أبي نصر محمد بن جهير الملقب بفخر الدولة ، وكان نظام الملك يستمد نفوذه من قوة السلطان باعتباره صاحب النفوذ في تلك الفترة [٣] .

رسوم الوزراء :

بعد أن يتم اختيار الوزير سواء كان وزيراً للخليفة أو وزيراً للـسلطان ، تـتم مراسم إسناد الوزارة إليه ، وفي هذه الفترة كانت هناك طريقتين في إسناد الوزارة .

الطريقة الأولى : والتي تمثل استمراراً للعهود العباسية الأولى ، وهي أن يركب الوزير من داره إلى دار الخلافة أو دار السلطنة ، في لبس التـشاريف وبـين يديـه الحجاب والقواد ، فيخبره الخليفة أو السلطان بتكليفه بأعباء الوزارة مشافهة ، يحضره أرباب الدولة كأستاذ الدار وقاضي القضاة وخواص الخليفة ، ثـم يخلـع عليـه خلـع الوزارة ، فعندمـا استوزر الخليفة المسترشد أبو القاسم علي بن طـراد بـن محمـد الزينبي [٤] شافهه بالولاية ، وحمل إليه الدست الكامل من دار الخليفة [٥] ، كذلك أتبـع

(1) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٠٢ ؛ محمد أبو النصر : السلاجقة ، ص٢٢٣ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤٤٨-٤٤٩ .

(3) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢١-٢٢ ؛ الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : سـير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤط ، ج١٩ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ص١٧٦ .

(4) أبو القاسم شرف الدين (٤٦٢هـ -٥٣٨هـ/١٠٧٠م-١١٤٤م) ولاه المستظهر نقابة النقباء ولقب بالرضـي (ذي الفخرين النقابة والفضل) ثم استوزره الخليفة المسترشد بالله ولم يوزر للخلفاء من بني العبـاس هاشـمي غيره ، أخر ما وزر للمقتفي لأمر الله وحدثت بينهما وحشه ، فأستقال في سنة ٥٣٤هـ/١٠٦٦م ولزم بيته إلى أن توفي . ابن الأثير : الكامل ، ٥٢ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٠٩ ؛ ابن الطقطقى : الفخـري ، ص٢٩٣-٢٩٤ .

(5) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠٥ .

المستنجـد هذه الطريقة مع وزيـره شرف الدين أبـي جعفر محمد بن أبـي الفـتح البلدي [١] ، فإنه شافهه بالوزارة ، ثم خلعت عليه خلع الوزارة [٢] .

أما الطريقة الثانية : فهي أن يحمل إليه مرسوم التكليف أميـران مـن أمـراء الدولة، ويأتي راكباً على بغله خاصة عليها قماش مطرز بالذهب ، وسرج من حرير ، وبوسطه جلد فهد ، يقودها الغلمان حتى وصوله إلى دار الخلافـة أو دار الـسلطنة إذ غالباً ما يتبع السلاطين هذه الطريقة ، ثم يحضر أرباب الدولة والأعيان ، وينعقد الحفل ويقرأ كتاب العهد بالوزارة ، ويقبل يد الخليفة ويقول " لقد قبلت وتقلدت " ثم يخلع عليه خلع الوزارة وهي القباء ، والسيف ، والمنطقة المحلاة بالذهب ، وعمامة قصب كحلية، ثـم يقدم له فرس بمركب ذهب ، ثم يركب إلى داره ويرافقـه الأمـراء والحجـاب ، والقواد ، وكبار رجال الدولة [٣] . وإذا سار إلى داره ، رافقـه ضـاربوا الطبـول ، والكوسات ، وحامل العهد منشوراً بين يديه ، وهو ما حدث عندما استوزر نصير الدين بن مهدي العلوي الحسيني [٤] ، وكذلك معز الدين بن أبي المعالي سعيد بن علي [٥] .

---

(1) شرف الدين أبي جعفر محمد بن أبي الفتح البلدي ، قبل الوزارة كان ناظراً بواسط ، وزر للمستنجد بالله وبقي وزيراً حتى توفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، وقيل أنه قتله أبو الفرج بن عبد الله ابن رئيس الرؤساء فقـد كانـت بينهم مشاحنة ، وحينما ورد إليه أمر الوزارة رمى بأبن البلدي في دجله . ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣١٧ ؛ ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه ، ص١١٦-١١٧ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢ .

(2) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣١٧ .

(3) الصابئ : الـوزراء ، أو تحفـة الأمـراء ، فـي تـاريخ الـوزراء ، دار الآفـاق العربيـة ، القـاهرة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٨ .

(4) ناصر بن مهدي بن حمزة أبو الحسن المازندراني ، قدم بغداد سنة ٥٩٢هـ /١١٩٥م وقلـد الـوزارة سـنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م ، ثم عزل بعد سنة ونصف وتوفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . ابن الجوزي ، ج١٠ ، ص٣٤ ؛ ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه ، ص٣٥٨-٣٩٥ .

(5) سعيد بن علي بن أحمد بن حسن بن حديد أبو المعالي من الكرخ سكن بغداد وكان أحد الموسرين ، ثـم ولـي الوزارة في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ولقب " معز الدين " ثم عزل بعد أشهر ، توفي سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م . ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه ، ص١٩٣ .

فقد كانت رسوم تعيينه عن طريق كتاب العهد ، وفي وزارة مؤيد الدين محمد بن العلقمي [١] ، حدث تغيير بسيط على هذه الرسوم ، حيث ركب من داره الواقعة أمام باب الفردوس [٢] في حاشية من دار الخلافة ، فلما وصل إلى باب النوبي [٣] ، خرج إليه جميع الحجاب من دار الوزارة وقبلوا يده ومشوا بين يديه ، ونثر عليه ناظر دار الضرب ذهباً وفضة عند دخوله ، إلا إنه لم يخلع عليه ثم دخل وجلس في صدر الديوان واستدعى كافة أرباب الدولة ، وكتب إنهاء [٤] إلى الخليفة ، ولما وصل الإنهاء أرسل الخليفة إليه جواباً يمثل تكليفه بأعباء الوزارة [٥] .

وبعد أن تتم مراسيم إسناد الوزارة للوزير تسلم له شارات الوزارة وهي " الدواة " [٦] وتكون بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى ويكتب بيده اليمنى ، كما يقلد بسيف سواء وزير الخليفة أو وزير السلطان ، ثم يقدم الوزير إنهاء للخليفة [٧] وهدايا عبارة الآلات والتحف ، والخيام والأسلحة والدروع ومن رسوم الوزراء أن تكون للوزير دار منفردة في دار الخلافة يجلس فيها وينظر ، ويقوم بحراستها حرس خاص [٨] . وله

(1) مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي أسدي أصله من النيل ، قيل لجده علقمي لأنه حفر النهر المسمى بالعلقمي ، ولد سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م تقلد عدة مناصب ، كثير من المؤرخين أتهموه بممالأة المغول ، في حين دافع عنه آخرون منهم لكونه رافضي مثله . ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٣٧ ، وقد كان أديباً ، كاتباً ، ولي الوزارة مدة أربعة عشر عاماً ، ولي الوزارة لهولاكو مدة قصيرة وهذا يدل على ممالأته لليهود ، ثم توفي في جمادي الآخرة سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٢م . ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٣٧ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥١ - ١٦٠ ، ٢٤٠-٢٤١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ج١ ، ص١٨٥ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج5 ، ص٢٧٢ .

(2) باب الفردوس ، هو أحد أبواب دار الخلافة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٤٧ .

(3) باب النوبي : نسبه إلى سعيد النوبي ، ويعرف أيضاً بـ " باب العتبة " نسبة إلى العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٥١ .

(4) الإنهاء : كتاب الشكر الذي يقدمه كبار الموظفين للخليفة في مناصبهم ، ويقال طالع مطالعة . ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٣٨ .

(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥١ .

(6) الدواة : هي ما يكتب منه . ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص٤٣٦ .

(7) الصابئ : الوزراء ، ص٣٦٩ ؛ الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٢٠ .

(8) الصابئ : الوزراء ، ص٢٩١ ، وسيأتي ذكرها بالتفصيل في الفصل الأول من الباب الثاني .

مجلسـه الخاص بـه ، فقدساير الوزراء الخلفاء في رسومهم باتخـاذ الـستر فـي مجالسهم [١] ، وكانت مجالس الوزراء تضم العلماء ، والأدباء ، ومجـالس للختمـات يحضرهـا أئمة الفرق وفقهائها للمناظرات [٢] كما كانـت لهـم مجالـسهم الخاصـة بالمنادمة [٣] .

وتلقب الوزراء بالألقاب ليس بالجديد على تاريخ الوزارة العباسية ، إلا أن تعدد ألقاب وزراء الخلفاء والسلاطين خلال القرنين الخامس والسادس الهجـريين الموافـق للحادي عشر والثاني عشر الميلادي ظهر بشكل واضح ، فقد كان الرسم في العصور السابقة أن يلقب الوزير بلقب واحد ، إلا أنه في هذه الحقبة تعددت الألقاب الفخرية التي كان يمنحها الخلفاء لوزرائهم إما تقديراً لجهودهم وكفائتهم ، أو أن بعضهم كان يحمـل لقباً وحينما يلي الوزارة يلقبه الخليفة بلقب ثاني [٤] ، واعتبرها الصابئ المؤرخ المتوفي عام (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) من إنقلاب الرسوم وتغيـر لحقـائق الأشـياء ، ففـي سـنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م خلع جلال الدولة [٥] على وزيره علم الدين سعد الدولة ، أمين الملّة، شرف الملك ، فكان هذا الوزير أول من لقب بالألقاب الكثيرة [٦] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص٢٩١ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٥-٣٦ .
(2) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٩٧ .
(3) التنوخي : القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي : الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، ج٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص٤٦ .
(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٠١-١٠٣ ؛ محمد أبو النصر : السلاجقة ، ص٢٢٩ .
(5) جلال الدولة سلطان بغداد فيروزجرد بن بهاء الدولة أبي نصر الملك عضد الدولة أبي شجاع بن ركن الدولـة بن بويه الديلمي ، توفي ببغداد بالخوانيق ، تولى بغداد ستة عشرة سنة وتوفي وعمره إحدى وخمسين سنة . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١١٨ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٢٥٤ .
(6) الصابئ : الوزراء ، ص١٧٠ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١ ، ص٢١ ؛ آدم متز : الحـضارة الإسـلامية ، ج١، ص١٨٠ .

وحينما استوزر الخليفة المسترشد أبا علياً الحسن بن صدقة [(١)] ٥١٣هـ/١١١٩م لقبه بجلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المـؤمنين[(٢)] ، وفـي سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، حينما خلع الخليفة المستنصر على وزيره شمس الـدين أبـو الأزهر أحمد ابن الناقد نيابة الوزارة أمر الخليفة بأن يخاطب كما يخاطب الوزير وهو الوزير الأعظم الصاحب الكبير المعظم ، العالم العادل ، المؤيد المظفر المجاهد نصير الدين صدر الإسلام ، غرس الأمام ، شرف الأنام ، عضد الدولة جلاء البلية ، مغيـث الأمة ، عماد الملك ، اختيار الخلافة المعظمة مجتبى الإمامة المكرمة ، تاج الملـوك ، سيد صدور العالمين ، ملك وزراء الشرق والغرب ، غياث الورى ، أبو الأزهر أحمد بن محمد ابن الناقد ، ظهير أمير المؤمنين ، ووليه المخلص في طاعته ، الموثوق بـه في صحة عقيدته [(٣)] .

ومن ذلك يتضح أن تغير الألقاب خلال هذه الفترة كان بتغير المناصب ، ثم أن ألقاب وزراء الخلفاء العباسيين مضافة إلى الدين ، كظهير الـدين ، وعـون الـدين ، ونصير الدين [(٤)] .

بينما وزراء السلاطين فقد أضيف إلى ألقابهم " الملك " كعميد الملـك ، وفخـر الملك ، ونظام الملك ، فنظام الملك الطوسي هو أول وزير سلجوقي تلقب بـأكثر مـن

(1) أبو علي الحسن بن علي بن صدقه ؛ عميد الدولة جلال الدين وزير الخليفة المسترشد بالله ، كان حسن السيرة من بيت وزارة ، استوزره المسترشد سنة ٥١٣هـ/١١١٩م ثم قبض عليه وعزله ٥١٦هـ/١١٢٢م ثم أعـاده في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فظل في الوزارة إلى أن توفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م . ابن الجـوزي : المنـتظم ، ج١٠ ، ص٥١ ؛ ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيـات ،ج١٢ ، ص٩١ ؛ عمـاد الدين الأصبهاني الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجه ألأثري وجميل سـعيد ، مطبعـة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥ م ، ج١ ، ص٩٤ .

(2) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠٤ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٤ .

(4) الراوندي : راحة الصدور ، ص١٨٥ ؛ ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠٨ ؛ محمد أبو النصر : الـسلاجقة ، ص٢٢٩ .

لقب ، فكان يلقب بالوزير العظيم ولقبه الخليفة القائم " قوام الدين والدولة رضي أميـر المؤمنين " ولما ولي ملكشاه السلطنة لقبه بأتابك الجيوش [١] .

وحين وزر أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسن [٢] ، للخليفة المقتدي سـنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م خلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بظهير الـدين مؤيـد الدولـة سـيد الوزراء ، صفي أمير المؤمنين ، ولقبه بربيب الدولة [٣] ، وفي سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م استوزر الخليفة المستظهر أبا القاسم فخر الدولة بن جهير ، ولقبه " قوّام الدين " ولمـا لقب السلطان محمد بن ملكشاه ، أحمد بن نظام الملك [٤] " قوام الدين " وهو لقب أبيه ، نقل الخليفة لقب وزيره من قوام الدين إلى " مجير الدين " ويتضح لنا حقيقة فـي هـذه الألقاب وهي أن منح الألقاب للوزراء في هذه الفترة تبدو وكأنها صـراع خفـي بـين الخليفة والسلطان بسبب ما قد يكون إشارة إلى بداية تحرر دار الخلافة مـن سـيطرة السلاجقة ، ففي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م حين وفاة ابن جهير ، وتوليـه الـوزارة لولـد الوزير أبي شجاع هبة الله بن المطلب لقبه المستظهر بنظام الدين [٥] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٣٥ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٧٣ ؛ نظام الملـك : سياسـة نامة ، المقدمة ، ص١٥ .

(2) أبي شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين بن محمد بن محمـد بـن عبـد الله الـروذراوري (٤٣٧هـ ـ - ٤٨٩هـ/١٠٤٥م-١٠٩٥م) أحد الوزراء العلماء ، ولي الوزارة للمقتدي فعمرت العراق في عهده ثم عزل سنة ٤٨٤هـ-١٠٩١م وحج سنة ٤٨٧هـ-١٠٩٤م وجاور بالمدينة إلى أن توفي ، وصنف كتباً منها ذيل تجـارب الأمم لمسكويه . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٩٠ ؛ ابن خلكـان ، وفيـات الأعيـان ، ج٢ ، ص٦٩ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٣ ، ص٣ .

(3) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٧٧ ؛ ابن الطقطقى : الفخري ، ص٢٩٧ .

(4) أحمد بن نظام الملك أبي نصر ، كان وزيراً للمسترشد بالله كانت سيرته حسنة ، إلا أن أيامه لم تطل فتـوفي سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م . ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠٦ ، سنأتي على ذكره عند الحديث عن دور الوزراء في الحياة العامة ، الفصل الأول من الباب الثاني .

(5) ابن العمراني : محمد بن علي : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، نشريات المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث ، القاهرة ، لايدن ، ١٩٧٣م ، ص٢٠٧ ؛ ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٠٠-٣٠١ .

نائب الوزير :

ظهر منصب نائب الوزير خلال القرن الـسادس الهجـري / الثـاني عـشر الميلادي، كمنصب ووظيفة مؤقتة من وظائف الفئة الحاكمة للدولة ، وهو دون الوزير ويقـوم بتنفيذ أوامر الخليفة أثناء غياب الوزير أو عزله ، إلى أن يتم اختيـار وزيـر جديد [١] .

وكان تقليد نائب الوزير وتعيينه للنيابة يتم بنفس المراسم التي يتم بهـا تعيـين الوزير إلا أنه لا يخلع عليه خلع الوزارة ، فقد كان يقدم له مركب بركـب مـذهب ، ويركب من الباب المقابل لدار التشريفات في دار الخلافة ، وبين يديه جميع الحجاب ، وقد تقدمه جميع أرباب الدولة ، فيدخل إلى الديوان ويجلس في الموضع الـذي جـرت عادة نواب الوزراء بالجلوس فيه ، ثم بعد ذلك يكتب إنهاء للخليفـة ، وبعـد وصـول جواب الخليفة يقرأه قائماً على الحاضرين ، وعادة ما يعطى نائب الوزير دار الوزارة ليشغلها إلى أن يتم اختيار وزير جديد [٢] .

وكان لابد لمن يلي نيابة الوزارة أن يكون من كبار موظفي الديوان ، كقاضـي القضاة ، أو نقيب النقباء [٣] ، أو كاتب الإنشاء فنجد أن الخليفة المستظهر قد أسـتناب علي بن طراد الزينبي حينما أستأذنه وزيره الربيب أبو منصور الحسن بن الوزير أبي شجاع ، للخروج مع السلطان إلى أصبهان [٤] .

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٠-٣٦ ، ٨٧ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٣١٩ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٤ ؛ بدري محمـد فهـد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٣م ، ص١١٩ .

(3) سيأتي ذكره في الباب الثاني في الفصل الثاني في نقابة الأشراف .

(4) ابن العمراني : تاريخ الخلفاء ، ص٢٠٧ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٧١ .

كذلك في سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م حين وفاة ابن صدقة الوزير ، تطاول للـوزارة جماعة منهم عز الدولة بن المطلب وابن الأنباري ، وأحمد بن النظام ، إلا أنه أجلـس لنيابة الوزراء نقيب النقباء القاسم بن طراد الزينبي تم خلع عليه بعد ذلك واستوزره[1].

وقد يوجد نائب الوزير إلى جانب الوزير نفسه ، كما حدث مـع الـوزير ابـن هبيرة عون الدين يحيى الذي جعل ولده عزيز الدين محمد [2] نائباً عنه ، طوال فتـرة وزارته ولم يعزل إلا بعد وفاة أبيه سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م [3] .

وكثيراً ما كان يستوزر الخلفاء نائب الوزير ، ففي سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م خلـع على نائب الوزارة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي خلع الوزارة واستوزره الخليفة الناصر لدين الله ، الذي كان أكثر خلفاء هذه الفترة استعمالاً لنيابة الوزارة [4] . وكـان آخر نوابه مؤيد الدين محمد بن محمد القمي [5] .

فنائب الوزير يقوم بمساعدة الوزير في حال وجـوده أو غيابـه ، أو عزلـه ، إضافة إلى عمله الأصلي ، ولم يختص الخلفاء بنيابة الوزارة فقد كـان مـن رسـوم السلاطين السلاجقة أن يكون هناك نائب للوزير السلجوقي إذا غاب الوزير في حـرب أو حج [6] .

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٨-١١ .

(2) عز الدين محمد بن يحيى بن هبيرةكان يلقب بعز الدين ناب عن والده في الوزارة وكان فاضلاً شاعراً خبيراً بالأدب والحديث النبوي ، حبس فهرب من الحبس توفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م . ابن الطقطقـى : الفخـري ، ص٢١٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٥ ، ص١٣٠ .

(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٦٨-١٦٩ .

(4) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١٦٨-١٦٩ .

(5) مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمي ، ينتسب إلى المقداد بن الأسود الصحابي المشهور ، ولد بقـم ونشأ ببغداد ، كان خبيراً بأمور الدواوين ، أديباً حافظاً ، بدأ بخدمة سلاطين العجم ، ثم قدم إلى بغداد وعين في كتابة الإنشاء ، ثم تولى الوزارة للناصر ، ثم للظاهر ، ثم للمستنصر ، ثم قبض عليه وحبس مـدة ، فمـرض ومات سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م . ابن الطقطقى : الفخـري ، ص٢٤١ ؛ الـصفدي : الـوافي بالوفيـات ، ج١ ، ص١٢٨-١٢٩.

(6) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٦٢ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٠٤ .

المبحث الخامس : العلماء .

العلماء هم قادة الفكر والرأي في المجتمع ، ذلك أنه من مبادئ الإسلام تعظيم العلم وحملته ، قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [1] قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

نصح أحد العلماء الخليفة برسالة هامة جاء فيها " وأعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع السرج المتألقة والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدك لها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء " [3] .

فلم يكن العلماء فئة خاصة بل كانوا جزءاً من المجتمع ينتمون إلى كل فئاته الاجتماعية الخاصة والعامة ، فبرز لنا خلال هذا العصر عدد من العلماء كان لهم دورهم البارز في الحياة الاجتماعية من خلال مشاركتهم في الكثير من الأمور السياسية والاجتماعية ، فالمكانة المهنية والاجتماعية للعلماء جعلتهم يرتقون السلم الاجتماعي ويصبحون في مرتبة الطبقة العليا الحاكمة في المجتمع العباسي ، ومن ثم أصبح لهم نفوذاً لدى العامة والخاصة .

ولقد مثلت هذه الفترة من تاريخ بغداد نهضة علمية متميزة ، إذ ضمت بغداد بين جانبيها نخبة من العلماء المتميزين في كافة العلوم والمعارف الدينية والنقلية ، والعلوم العقلية ، فقد كان الخلفاء هم أنفسهم من طلاب العلم ومريديه ، ذلك أنه من شروط الخلافة العلم بالأمور الشرعية ، فعمل الخلفاء العباسيين على تعليم أبنائهم ، وإسناد هذه المهمة إلى كبار العلماء لتأهيلهم لتحمل أعباء الدولة والحكم فيما بعد ، كما اشتغل عدد من الخلفاء بالتأليف والرواية ، فقد صنف الخليفة الناصر كتاباً سماه " روح العارفين "

---

(1) سورة المجادلة ، آية : ١١ .

(2) سورة الزمر ، آية : ٩ .

(3) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٨م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص٢٢٩ نقلاً عن مخطوط مجموعة رسائل في جامعة اسطنبول .

وقد حوى سبعين حديثاً [١] ، كما ألقى دروساً في شرح مسند الإمام أحمد ابـن حنبـل وأجاز فيه عدداً من علماء الحنابلة وسمح لهم بروايته عنه [٢] .

فقد أدرك الخليفة الناصر دور العلماء في تنميـة التماسـك والاسـتقرار فـي المجتمـع ، لذلك أولاهم اهتماماً خاصاً وحاول استثمارهم بما يخدم مصالحه وأغراضه في إصلاح مجتمعه ، فقد كان يدعوا أبرز علماء عصره لعقد مجالس وعظهـم بـدار الخلافة ، أمثال :

رضي الدين القزويني أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الفقيـه الـشافعي (ت٥٩٠هـ/١١٩٣م) [٣] وهو أحد أعلام الشافعية ، تفقه على يـد الفقيـه ملكـدار القزويني ، وقرأ بالروايات على إبراهيم بن عبد الملك القزويني ، ودرس بالنظاميـة . وكان إمام المذهب والخلاف والأصول صنف كتاب " التبيان في مسائل القرآن " فـي الرد على الحلولية والجهمية [٤] .

كذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علـي بـن عبيـد الله بـن الجـوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) [5] الواعظ شيخ الحنابلة ، كان من العلماء الذين عاشوا في هـذه الفترة وله التصانيف الكثيرة في أنواع العلوم من التفسير والحديث والوعظ والأخبـار والطب والتاريخ ، وقد ذكر لنا الكثير من الشرائح الاجتماعية في الكثير من كتبه وكان

---

(1) ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الـشيال ، دار القلم ، القاهرة ، ج٣ ، ص٢٢٨ ؛ ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه ، ج١٥ ، ص١٠٣ .

(2) ابن النجار : محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود : ذيل تاريخ بغداد ، تحقيق عبد القادر عطا ، منـشوراً مع تاريخ بغداد ، الأجزاء (١٦-٢٠) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ج١٨ ، ص١٥٩-١٦٠ .

(3) السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيـق عبـد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القـاهرة ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ، ج٤ ، ٣٥ .

(4) البغدادي : إسماعيل باشا : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، استانبول ، منشورات مكتبـة المثنى ، ١٩٥١م ، ج١ ، ص٨٨ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٠١ .

(5) ابن رجب : الفرج بن عبد الرحمن شهاب الدين أحمد الحنبلي : الذيل على طبقات الحنابلـة ، دار المعرفـة ، بيروت ، ج٣ ، ص٣٩٩ .

شديد التأثير في الناس ولاسيما العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له ، وكان قد سمع الحديث من خاله ، وقرأ القرآن على جماعة من القراء بالروايات قال في آخر كتـاب القصاص والمذكرين له " ما زلت أعظ الناس وأحرضهم على التوبة " [١] سمع الحديث على جماعة من العلماء منهم عبد الواحد الدينوري (ت٥٢١هـ/١١٢٧م) وأبو غالـب ابن البنا أحمد ابن الحسين (ت٥٢٧هـ/١١٣٢م) وأبو عبد الله البارع الحسين بن محمد (ت٥٢٤هـ/١١٢٩م) كما قرأ الفقه على إبراهيم بن دينار (ت٥٥٦هـ/١١٦٠م) وأبي يعلى الصغيـر (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) وقرأ الأدب علـى أبـي منـصور الجـواليقي (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م) [٢] ، كانت تصانيفه تزيد على ثلاثمائة وأربعين مـصنفاً ، قـال عنه ابن كثير : " له في العلـوم كلها اليد الطولـى والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريـخ والحساب " [٣] . من مصنفاته " آفات أصـحاب الحـديث والرد على المغيث " " الأحاديث الرائقة " كذلك " تلبيس إبليس " وكتاب " المنتظم فـي تاريخ الأمم والملوك " و " الأذكياء " وكتاب " ذم الهوى " [٤] .

وكان ابن الجوزي يتكلم يوماً والقزويني يوم ، بباب بدر والذي يمثل جزءاً من حرم دار الخلافة لعقد مجالس وعظهم ، بل إن الناصر كان حريصاً على حضور تلك المجالس من شباك دار الخلافة من وراء ستار [5] .

أدرك الخلفاء دور الفقهاء والعلماء في المجتمع لذلك حرصوا على الاستعانة بهم في الأمور السياسية والإدارية في الدولة ، ولعل من المناسب أن نشير إلى ما قاله ابن الجوزي بهذا الخصوص فقد قـال : " الرعايـا علـى ضـربين خـواص وعـوام ، فالخواص : فينبغي أن يكون تفقد أحوالهم أكثر لأنهم كالأداة للدولة ويكون التفقد لهـم

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٤٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٨ ، ص١٠٩ .
(2) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٠١ .
(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٣ ، ص٢٨ .
(4) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٨ ، ص١١١-١١٢ ؛ ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ، ج٣ ، ص٣٩٩ .
(5) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٤٠ .

متواصلاً ، فإنه قد يخون الأمين ويغش الناصح ولا ينبغي أن يولي مـن غيره أصـلح منـه وليختر للولايـة أرباب العلم والدين " [١] .

فقد كان للعلماء مكانة خاصة في المجتمع ، لذلك أولاهم الخلفاء اهتماماً خاصاً ، وعملوا على إسناد الوظائف الإدارية والسياسية العليا إليهم ، إضـافة إلـى الوظـائف الدينية المعتادة ، كالقضاء والحسبة والخطابة في المساجد والنظر في الأوقـاف ، فقـد أحاط الخلفاء العباسيين أنفسهم بالعلماء والأدباء ، فذكرت لنا مصادر هذه الفترة عـدداً من الوظائف الإدارية والسياسية التي شغلها علماء وفقهاء ، كان من أهمها الـوزارة ، والحجابة وأستاذية الدار ، وأعمال الدواوين ، فقد ذكرنا فيما سبق أن من أهم شـروط اختيار الوزراء هو العلم والثقافة والمقدرة الإدارية ، فقد نشأ الوزير مجد الدين محمـد بن القصاب مشتغلاً بالعلوم خاصة علوم الحساب والمساحة والمقاسمات ، إضافة إلـى الاشتغال بالأدب حتى وصف أنه من رجال الدهر شهامة ودهاء ، مع الـنظم والنثـر والبلاغة [٢] .

كما قرب الوزير سعيد بن حديده العلماء ، فقد كان محدثاً وفقيهاً وله إجازات ، وأكثر من الإنفاق على العلماء فقد كان يدعو ابن الجوزي الواعظ لعقد مجلس وعظـه في داره [٣] . وكان هناك من العلماء من غلبت عليه الإدارة وأمور السياسة ، فتولـوا مناصبها إذ كانوا أهل علم ومعرفة وتأثير في عامة الناس ، لأنهم لهم دورهم في العلم ومجالسه .

كما نجد أن بعض العلماء من رفض منصب الوزارة ، فلما تولى الناصر لـدين الله الخلافة استدعى فخر الدولة أبو المظفر بن الحـسن بـن هبـة الله بـن المطلـب (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) وطلب منه أن يكون وزيراً ومشيراً وذلك لمكانتـه مـن الـدين

---

(1) ابن الجوزي : المصباح المضيء في خلافة المستضيء ، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم ، مطبعـة الـشعب ، بغداد ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ج١ ، ص٢٧٦ .

(2) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٢٤ .

(3) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٥٦٨ ؛ ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٢٤ .

والعلم إلا أنه قال : " يا أمير المؤمنين المملوك رجل شيخ وما يجوز أن يفتح له كتابـاً بعد العصر " [1] .

كذلك الشيخ شمس الدين أبو المظفر علي بن أحمد بـن الحـسين ابـن النيـار (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) [2] كان شيخاً فاضلاً عالماً بالحساب والجبر والمقابلة ، وقد كـان مختصاً بخدمة الخليفة المستعصم مذ كان صغيراً فقد علمـه الخـط وحفظـه القـرآن الكريـم ، ولما أفضت الخلافة إليه رعى له حق الخدمة وقربه واعتمد عليه في كليات الأمـور ، ولما توفي الوزيـر ابن الناقد خاطبه في تقليد الوزارة إلا أنه رفض وقال : " إني عاهدت الله أن لا أغير لبس المتصوفين ولا أنزع عني ما تعودته ، فقيـل لـه : نحن نوافقك على ذلك ، بحيث تؤرخ الناس أن شخصاً يختص بنا ندبناه إلى الـوزارة فأبى أن يغير زيه فأجبناه إلى ذلك ، فقال : لأن تؤرخ الناس أن شخصاً متصوفاً حسن فيه الظن وندب إلى الوزارة فامتنع أحسن من ذلك " [3] ، عند ذلك سـلمه المستعـصم مفاتيح خزانة كتبه ، وكلفـه بشؤون الحج [4] . وتولى منـصب مـشيخة [5] الـشيوخ ببغداد ، وسلم إليه رباط والدة الخليفة الناصر [6] .

---

(1) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٧٥ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٢ ، ص١٨١ .

(2) النيار : على وزن العطار وهو الذي يصلح سدى الثوب قبل حياكته فيدخل خيوطه فيما يـشبه النيـر ليكـون صالحاً للحوك ، وشمس الدين أخذه المغول هو وأخوه عز الدين حسين ابن النيار وجاء أمر هولاكو بأن لا يقتل شيخ الشيوخ وكان قد قتل ، وحمل أخوه فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار فسلم من القتل ثم مات بعدها بقليـل . ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، حاشية ص١٣٢ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥٤ .

(4) المصدر نفسه ، ص١٣١-١٣٣ .

(5) مشيخة الشيوخ من المناصب الدينية ومهمتها النظر في أمور المشيخات (المؤسسات) الاجتماعية والدينيـة ، مثل مشيخة الصوفية ومشيخة دور العلم والربط وغيرها . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، حاشية رقم (5) ، ص١٨ .

(6) المصدر نفسه ، ص١٥٤ ؛ ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١٣٢ ، إلا أن منير سعد الـدين يذكر أنه كان مختصاً بالخليفة الناصر لدين الله ولما أفضت الخلافة إليه خاطب ابن النيار بالوزارة ، وهذا خطأ فالصواب ما ذكرناه وربما التبس عليه الأمر في عبارة " وسلم إليه رباط والدة الخليفة الناصر لدين ، فظن بقول الخليفة أنه الخليفة الناصر لدين الله ، منير سعد الدين : العلماء عند المسلمين ودورهم في المجتمـع ، الطبعـة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار المناهل ، بيروت ، ص١١٨ .

أما الوظائف الإدارية الأخرى ، فقد كان يختار لها العلماء الأكفاء ، فقد أسند الناصر لدين الله ديوان المظالم إلى الفقيه الحنبلي عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م) [١] أخذ الفقه عن والده الشيخ عبد القادر الجيلي (٥٦١هـ/١١٦٥م) دخل بغداد شاباً فسمع الحديث من أبي غالب الباقلاني محمد بن الحسن (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) ، وتفقه على القاضي أبي سعد المبارك بن علي (ت٥١٣هـ/١١١٩م) وأبي الخطاب الكلوذاني [٢] ، من مصنفاته " الغنية لطالبي طريق الحق " و " فتوح الغيب " [٣] ، بلغ ابنه عبد الوهاب من المكانة الاجتماعية بأن كان يوصل حوائج الناس إلى الناصر فقد كان له القبول التام لدى العامة . كما أرسله الناصر إلى الشام كسفير أيضاً [٤] .

وتولى رضي الدين عمر بن أبي القاسم التبريزي (٦٠١هـ/١٢٠٤م) أحد فقهاء النظامية منصب حاجب الحجاب بديوان الخلافة [٥] .

أما عز الدين أبي الحديد المدائني ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) [٦] الكاتب الأصولي فقد كان أديباً فاضلاً له " شرح نهج البلاغة " كان من أعيان الشعراء ، من تصانيفه تعليقه على شرح المفصل في الأصول ، وشرح المحصل لفخر الدين الرازي ، شرح الياقوت لابن يوبخت ، نقض المحصول في علم الأصول [٧] ، كان مثالاً على ما وصل له العلماء من مكانة اجتماعية لدى الخلفاء ، حيث قلده المستنصر بالله الكتابة بدار التشريفات ، ثم المخزن سنة

---

(1) ابن رجب : كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، ج٣ ، ص٣٨٨ .
(2) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٠١ .
(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٢ ، ص٢٥٢ .
(4) ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص٣٨٩ .
(5) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٤٥ .
(6) الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ج١ ، ص٥١٩ .
(7) البغدادي : إسماعيل بن باشا : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، استانبول ، ١٩٥١هـ ، منشورات مكتبة المثنى ، م١ ، ص٥٠٧ .

(٦٢٩هـ/١٢٣١م) ، ثم جعله كاتباً في الديوان ، وكتب باسم المستنصر كتابه الموسوم بالمستنصريات [(١)] .

كما ذكرت لنا المصادر عدداً من العلماء الذين قاموا بمهمة السفارة للخلفـاء إلا أنها لم تذكر طبيعة تلك السفارات مثل :

أبي جعفر عمر بن إبراهيم بن عثمان التركستاني (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) الواعظ أقام ببغداد وتولى رباط الزوزني ، وكان قد سافر كثيراً إلى الحجاز ، والجزيرة وديار بكر وخراسان ، أرسله الخليفة الناصر رسولاً إلى شهاب الدين محمد بن سام الغوري (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) [(٢)] وأقام هناك مدة ثم عاد [(٣)] .

كذلك أبي القاسم عبد الرحمن بن يحيى بن الربيع (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) الفقيـه الشافعي ، قرأ الفقه والخلاف على والده ، وعلى أبي القاسم ابن فضلان ، أرسل فـي أكثر من سفارة إلى الملك الغوري ، وحدث هناك بالإجازة على أبي الفتح بن البطي ، وأبي زرعة المقدسي [(٤)] .

وقد تكون سفارة العالم للوساطه بين طرفين ، كما حصل عند قيام صلاح الدين الأيوبي بمحاصرة مدينة الموصل ، فأسرع صاحبها إلى طلب المساعدة مـن الخليفـة الناصر لدين الله فأرسل شيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل بن أحمد النيسابوري ليقـوم بمهمة الوساطة بين الطرفين ، وبعد مفاوضات تم الصلح وغادرت قوات صلاح الدين مدينة الموصل تقديراً منه للخليفة الناصر لدين الله [(٥)] .

---

(1) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١٩١ ؛ محمد عبد الله القدحات : الاهتمامات العلمية للخلفـاء العباسيين في الفترة (٥٧٥هـ-٦٥٦هـ/١١٧٩م-١٢٥٨م) مجلة العصور ، مج١٢ ، ج٢ ، تـصدر عـن دار المريخ للنشر ، لندن ، ربيع الثاني ، ١٤٢٣هـ/ يوليو ٢٠٠٢م .

(2) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٨٧ .

(3) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١٨٤ .

(4) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٨٧ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج٥ ، ص٧١ .

(5) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٠٧-١١٠ .

وفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م أرسل الخليفة المستنصر بالله وفداً إلى " خلاط " [١] أثناء حصار جلال الدين خوارزم شاه لها وكان على رأس الوفد الشيخ أبو البركات عبد الرحمـن ابن شيخ الشيوخ [٢] . وذلك لأجل رفع الحصار والخطبـة لـه فـي بـلاد خوارزم [٣] .

كذلك أرسل الخليفة المستنصر بالله الفقيه الشافعي أبا عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن أبي الفضل بن هبة الله بن فضلان (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م) [٤] رسولاً إلى ملـك البيزنطيين . تفقه على والده أبي القاسم ، وعلى أصحاب أبي القاسم بيـان الـرزاز ، وأبي طالب الزينبي ، ورحل إلى خراسان في طلب الفقه وناظر علمائها ، ثم رجع إلى بغداد ورتب كاتباً بدار التشريفات ، ولي تدريس النظامية ، تـولى عـدة وظـائف ديوانيـة [٥] . كان له دوره الاجتماعي حينما تولى ديوان الجـوالي [٦] ، وهـو مـن العلماء الذين بلغ نفوذهم أصحاب السلطة من خلال وظيفته الديوانية .

كما كان شيخ الشيوخ أبو حفص السهروردي ، شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه التيمي البكري (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) الفقيه الشافعي ، كان بمثابـة المبعوث الخاص للخلفاء أرسل إلى عدة جهات في مهمات خاصة نيابة عن الخليفـة ،

(1) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ، وهي قصبة أرمينية . الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٨٠ .

(2) شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن إسماعيل بن أحمد بن محمد شيخ الشيوخ صدر الدين أبـو القاسـم النيـسابوري البغدادي ، شيخ الشيوخ ، كما هو المشار إليه كان حسن النثر والنظم له رأي ودهاء وتقدم ، كان سـفيراً إلـى الشام وكانت الملوك تستغني برأيه (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٨ ، ص٧٣ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٩ .

(4) جاء في طبقات الشافعية ، ج٥ ، ص٤٤ أن اسمه محمد بن واثق بن علي بن الفضل بن هبة الله .

(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٥ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٤٦ .

(6) ديوان الجوالي : جمع جالية ، وهي جزية أهل الذمة في بلاد الإسلام ، الذين يؤدون للخليفة الجزية بمقتـضى الشريعة ، ويستوفي هذا الديوان الجزية من أهل الذمة ، على مذهب الإمام الشافعي . ابن الـساعي : الجـامع المختصر ، ج٩ ، ص٤٢ .

وكان واعظاً من كبار الصوفية [(١)] ، من مصنفاته ، "عوارف المعارف" ، و " جـذب القلوب إلى مواصلة المحبوب " ، وكذلك " بغية البيان في تفسير القرآن " [(٢)] .

وكان من السفراء أيضاً أبا الفضل رضي الدين الحسن بن محمـد الـصاغاني (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م) ، وهو ممن رحل إلى بغداد ، فقد ولد في لاهور الهنديـة سـنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) ونشأ بغزنة من بلاد السند ورحل إلى الهند وجاور بمكة ، ثم دخل بغداد وكان فقيهاً من أعلام أهل عصره في اللغة ، صنف كتبـاً أشهرهـا " مجمـع البحرين " و " العباب الزاخر واللباب الفاخر " في اللغة وكـذلك " شـرح صحيـح البخاري " ، أرسله الخليفة الناصر إلى ملك الهند وبقي هناك فترة طويلة بعـد وفـاة الناصر ، فلما عاد إلى بغداد أرسله المستنصر بالله إلى الملك نفسه مرة أخرى [(٣)].

ويتضح لنا مما سبق أن الخلفاء كانوا يركنون كثيراً في أمور الإدارة والـسياسة والسفارة إلى العلماء ، والمفكرين ، ذلك أن العالم كان له القدرة بعلمه وحسن سياسـته ومعرفة لأحوال الناس عامة ، وكان من شروط السفراء في هذه الفترة أن يكون السفير عالماً بالأمور الدينية كالفرائض والسنن وأحكام القرآن والأدب ، فالشيخ نجـم الـدين البادرائي عبد الله بن محمد البغدادي (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م) يمثل السفير العام لـديوان الخلافة وهو الفقيه الشافعي سمع الحديث ورواه ودرس بالنظامية ببغداد وأرسـل إلى الشام [(٤)] ، فأوكلت له الأمور المهمة ، ذلك أنه أثناء الصراع بين الأيوبيين في الـشام والمماليك في مصر سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) تدهورت الأمور بين الطرفين إلى حالـة إعلان الحرب ، فأرسل الملك عبد العزيز يوسف بن محمد صاحب حلب ودمشق إلـى الخليفة المستعصم طالباً منه التدخل ، فأرسل الخليفة الفقيه البادرائي واستطاع إحـلال

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٦ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج٥ ، ص١٤٣ ؛ ابـن العمـاد : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٥٣ .

(2) البغدادي : هدية العارفين ، ج٥ ، ص٧٨٥ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٠٣ .

(4) نفس المصدر ، ص٢٣١ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج٥ ، ص٥٩ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٦٩ .

الصلح بينهما على أن تكون مصر وجنوب فلسطين وبيت المقدس للمماليك والشام تبقى في أيدي أصحابها الأيوبيين (١) .

كذلك كان العلامة محي الدين ابن الجوزي أبو المحاسن يوسف بن الشيخ ابـن الجوزي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) كان سفيراً للخلافة ، سمع من أبيـه ، وقـرأ القـرآن بواسط علي ابن الباقلاني ، اشتغل بالفقه والخلاف ، وولي الولايات ثم عـزل ، كـان أستاذ دار المستعصم (٢) ، وأرسله الخليفة إلى ملوك الأطراف من مصنفاته " معـادن الابريز في تفسير الكتاب العزيز " و " الإيضاح في قوانين الإصلاح " (٣) .

تلك المهام السياسية والإدارية التي أوكلت للعلماء توضح لنا ما كان يتمتع بـه العلماء من مكانة علمية واجتماعية كبيرة ، لأن تلك المهام لا توكل إلا لأهـل الخبـرة والعلم ، وممن يتميز بالأخلاق الحسنة ، وما سقناه هنا ما هو إلا على سبيل المثـال لا الحصر ، كما أن التكريم الاجتماعي لم يحظ به العلماء المقيمين ببغداد فقط ، وإنما لقي كبار العلماء الوافدين إلى بغداد حفاوة وتكريماً ، ذلك أن ما تميزت به بغداد في هـذه الفترة هو النشاط العلمي حيث أصبحت من أهم مراكز الفكر في العالم أجمع مما حـدا بكثير من العلماء إلى الرحلة إليها والإقامة بها ، فعندما وصل صدر الدين محمد بـن عبد اللطيف الخجندي الأصبهاني (ت٥٥٢هـ/١١٥٧م) إلى أطـراف بغـداد خـرج الموكب بأمر من الخليفة للقائه ، وهو من فقهاء الشافعية ، وكان إماماً فاضلاً ، وعندما وصل بغداد أنعم عليه الخليفة وقربه وولاه تدريس النظامية (٤) ، وكان مناظر العـراق في زمانه (5) قال عنه ابن الجوزي : " حضرت مناظراته وهو يتكلم بكلمات معـدودة

---

(1) المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق عبد القـادر عطـا ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ج١ ، ص٤٧٩-٤٨٠ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥٣ ؛ ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص٢٥٨ .

(3) ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص٢٦٠ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص٢٨٦ .

(4) مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٦٥-٦٦ .

(5) السبكي : الطبقات ، ج٤ ، ص٨٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٦٣ .

مثل الدرر ووعظ بجامع القصر وما كان يندار في الـوعظ ، وكـان مهيبـاً وحولـه السيوف وهو بالوزراء أشبه منه بالعلماء " [(١)] .

كذلك في سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) عندما وصل الفقيه المالكي عبد الله بن عبـد الرحمن الشرمساحي [(٢)] الإسكندري (ت٦٦٩هـ/١٢٧٠م) وكان عالماً كثير العبـادة ، عندما وصل بغداد قوبل بالحفاوة والتكريم في ديوان الخلافـة ، وأحـضر إلـى دار الوزارة وأحضر جميع المدرسين ، فخلع عليه وأهدي بغلة أسوة بالمدرسين بالمدرسـة المستنصرية من تصانيفه كتاب " نظم الدرر " و " أوهام الرازي " في التفسير [(٣)] .

ويعتبر الأطباء فئة خاصة من العلماء حظيت برعاية واهتمام الخلفاء فقد كـان للأطباء طوال عصور الإسلام كرامة لا تمس ، والجدير بالذكر أن أغلب أطباء هـذه الفترة كانوا من أهل الذمة خاصة من النصارى ، فلم يكن حملة الشريعة والفقه والعلوم الدينية وحدهم يتمتعون بمكانة اجتماعية رفيعة لدى الخلفـاء وإنمـا أيـضاً الأطبـاء وأصحاب العلوم العقلية ، فقد سعى الخلفاء إلى تقريب العلماء لخدمـة الـدين وأهلـه وليكونوا جسراً يعبرون عليه إلى قلوب عامة الناس ، فقد كان ابن التلميذ هبة الله بـن صاعد بن توما النصراني (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) من أشهر أطباء عصره ، خدم خلفاء بني العباس وارتقت مكانته لديهم ، حتى صار الطبيب الخاص للخليفة الناصر ، فصار بمنزلة الوزراء ربطته بالخليفة علاقة وثيقة جعلت الخليفة يستأمنه على حفـظ أموالـه الخاصة ، ويرسلـه في مهمات خاصـة خفية إلى وزرائه ، وكان يدخل على الخليفة

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٧٩ .

(2) شرمساحي : نسبة إلى شرمساح وهي قرية كبيرة كالمدينة بمصر ، بينها وبين بورة أربعة فراسخ وبينها وبين دمياط خمسة فراسخ من كورة الدقهلية . الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٨ .
الحوادث الجامعة لابن الفوطي : وفاته سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) ص٢٦١ وفي تلخيص الألقـاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٥٦٢ ، توفي سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) وفي حسن المحاضرة للسيوطي ، ج١ ، ص٤٥٧ ، أنه تـوفي سـنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٨ ، ٢٦١ ؛ تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، حاشية رقم (١) ص٥٦٢ .

في كل وقت [١] ، حدثنا عنه ابن أبي أصيبعه فقال : " قضيت علـى يديـه حاجـات واستكفيت بواسطته شرور " [٢] .

أحوال العلماء المعيشية :

لقد كان غالبية العلماء سواء الفقهاء والقراء والمحدثين كانوا أصـحاب مهـن ، والذي دلت عليه ألقابهم مثل البـزاز ، أو الـدهان ، النجـار ، العطـار ، الـسقاء ، الجصاص ، والقصاب ، الصباغ ، البناء ، وغيرها من الأعمال التي سـاعدت علـى اتصالهم بالناس من خلال تواجدهم في الأسواق .

فقد فضل بعض العلماء العمل عن طريق التجارة أو المهنـة ، ليحقـق لنفـسه اكتفاء من الناحية المادية ، كما كان هناك عدد غير قليل من العلماء فقراء كانوا يتلقون المساعدات من قبل الخلفاء والأعيان ، ومن العلماء من لم يكن من أصحاب المناصب ، ولا يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب بالأجرة ليستعين بها على معيشته ، فقد كـان أبي النرسي (ت٥١٠هـ/١١١٦م) والملقب بأبي الكوفي لجودة قراءته ، كان يقدم كـل سنة من الكوفة منذ سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) في رجب فيبقى ببغداد إلى ما بعد الفطـر ثم يرجع ، وكان يشتغل بنسخ الكتب بالأجرة ليستعين بها على العيال [٣] .

كما كان العلامة أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي المتـوفى عام (٥١٣هـ/١١١٩م) [٤] شيخ الحنابلة كان إماماً بارزاً في كثير من العلوم مكباً على الاشتغـال والتصنيـف ، حفـظ القرآن وقرأ القراءات [٥] درس الأدب والنحو ودرس

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٦٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٩٣ ؛ القفطي : أخبار العلماء ، ص٢١٢ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٠٥ .
(2) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٠٥ .
(3) ابن ميمـون محمد بن علي أبو الغنم النرسي ويعرف بأبي الكوفي قدم بغداد فـسمع الجـوهري والتنـوخي والطبري ، قرأ القرآن بالقرآت وصنف . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٨٩ ؛ الـذهبي : سـير أعـلام النبلاء ، ج٩ ، ص٢٧٥ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢١٣ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٥ .
(5) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٥ .

الفرائض والفقه والأصول على عدد من مشايخ العصر ، كان شيخه في المناظرة أبـي إسحاق الشيرازي [١] ، عانى من الفقر حتى أنه اشتغل بالنسـخ بالأجرة ، قـال ابـن عقيل : " وعانيت من الفقر والنسخ بالأجرة مع عفة وتقى ، ولا أزاحم فقيهاً في حلقـة ولا تطلب نفسي مرتبة من رتب أهل العلم القاطعة لـي عـن الفائـدة " [٢] . صـنف " الفنون " وجمع فيه فوائد كثيرة في التفسير والفقه ، والنحـو ، واللغـة ، والـشعر ، والتاريخ ، والمناظرات [٣] .

وكان عبد الرحمن بن محمد بن علي الحلواني (ت٥٤٦هـ ـ/١١٥١م) متفقهـاً وكان يتجر في الخل ولا يقبل من أحد شيئاً ، وقد برع في الفقـه وأصـوله وصـنف التصانيف ، منها كتاب " التبصرة " في الفقه وكتاب " الهداية " في أصول الفقه [٤] .

كما كان أبو النجيب السهروردي (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) الفقيه الشافعي قدم بغداد وتفقه بالمدرسة النظامية على أسعد الميمني وسمع الحديث ، ولّي تدريس النظامية ثـم تركها ، بقي عدة سنين يستقي بالقربة على ظهره بالأجرة [٥] ، كان يقول : " كنت أبقى اليوم واليومين لا استطعم بزاد ، وكنت أنزل إلى دجلة وأتقلب في الماء حتـى يـسكن جوعي ، حتى دعتني الحاجة إلى أن اتخذت قربة وكنت استقي بها الماء لأقوام ، فلمـا تعذر ذلك في الشتاء خرجت إلى بعض الأسواق فوجدت رجلاً بين يديه طبرزين وعنده جماعة يدقون فقلت له : هل لك أن تستأجرني فقال : أرني يديك فأريته فقال : هذه يد لا تصلح إلا للعلم ، ثم ناولني قرطاساً فيه ذهب فقلت : ما آخذ إلا أجرة عملي ، وكان رجلاً يقظاً فقال : اصعد ، وقال لغلامه : ناوله تلك المدقة فناولني فدققت معهـم فلمـا عملت ساعة قال : تعال فجئت إليه فناولنـي الذهـب وقال : هذا أجرتـك فأخذتـه وانصرفت ثم وقع في قلبي الاشتغال فاشتغلت " [٦] ، ووعظ أبو النجيب أصحابه بخربه

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢١٢-٢١٣ .
(2) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ، ج٣ ، ص١٤٣ .
(3) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٤ ، وكتابه الفنون طبع منه جزآن .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤٦ ؛ ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص٢٢١ .
(5) السبكي : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٢٥٦ .
(6) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٥٦ .

على دجلة بحضرة الرجل والرجلين إلى أن اشتهر اسمه وصار له القبول عند الملـوك والسلاطيـن وبنى تلك الخربه رباطاً وبنى إلى جانبها مدرسـة ثـم ولـي التـدريس بالنظامية [١].

كما عاش بعض العلماء حياة ترف ورخاء ، فتمتع بعضهم بدرجة مـن الثـراء وكانوا إما من أصحاب المناصب ، أو كان ثراؤهم نتيجة لعطاءات الخلفـاء وتقـربهم منهم ، سواء كانوا من التجار أصحاب الثروات أو من أصحاب الثروات الموروثـة ، فقد كان عبد المنعم بن عبد الوهاب بن سعيد بن صدقة بن الخضر بن كليب الحرانـي أبـو الفـرج (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) [٢] من أعيان التجار ببغـداد وأصـحاب الثـروة الواسعة ، سافر كثيراً في طلب الكسب براً وبحراً [٣] ، سمع الحديث وعمره ست سنين من عمه أبو عبد الله محمد بن سعد ، ومن الشريف أبي طالب الحسين بن محمـد بـن علي الزينبي [٤] . وكان من تلامذته أبو الفرج بن الجوزي ، وجماعة غيره ، إلا أنـه افتقر في آخر عمره واحتاج إلى أن يأخذ من طلاب الحديث الأغنياء ، وكان لا يروي أحاديث ابن عرفه إلا بدينار [٥] .

وكان الخلفاء يولون العلماء اهتماماً واحتراماً بالغين تبين ذلـك فـي الهبـات والأعطيات والهدايا التي تقدم لهم في المناسبات والأعياد الدينية ، فقد فـرق الظـاهر بأمر الله في ليلـة عيد الأضحى عام (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) مائة ألف دينار على العلماء والصالحين [٦] ، كذلك الخليفـة المستنـصر فعـل فـي يـوم عيـد الفطـر سـنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) أمر بتفريق الأموال على الفقهاء وعلى الفقراء وأئمة المساجد [٧] ،

(1) السبكي : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٢٥٦ ؛ الدلجي : أحمد بن علي : الفلاكه والمفلكون ، مطبعة الـشعب ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ ، ص٩٨ .
(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٩٤ .
(3) ابن النجار : الذيل ، ج١٦ ، ص٩٥ .
(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٩٤ .
(5) ابن النجار : الذيل ، ج١٦ ، ص٩٥ .
(6) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص٩٦ ، ج٢ ، ص١٤٤ ؛ مجهول : إنسان العيون ، ورق ٢٣٨ .
(7) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٦ .

وكان للخلفاء مجالس للختمات في رمضان ففي سنة (٦٢٣هـ/١١٣٥م) أمر المستنصر بحضور ذوي الجاه والمناصب والفقهاء ومشايخ الصوفية إلى التربة الشريفة بالرصافة ، للمشاركة بالختمة ، وبعد انتهاء مراسيم الختمة ، أمر بانصراف الجميع ما عدا الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء فأمر بخدمتهم وتقديم ما يلزمهم على نفقته [١] .

وكان هناك وظائف رمضانية للخلفاء توزع كل عام في نهاية شهر رمضان ، فحرص الخلفاء على أن تشمل العلماء والفقهاء والمدرسين وطلاب العلم [٢] .

وكان الشيخ تاج الدين محمد بن الحسن الأرموي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وهو الفقيه الأصولي ، كان يستكثر من المماليك الترك وغيرهم ، حكى عنه بعض أصحابه قال : " قلت له يوماً : إن الناس قد أكثروا القول في هؤلاء المماليك فقال : ألست تعلم أن الإنسان يجب أن يسكن أحسن الدار ويلبس افخر الثياب ويأكل أطيب المآكل ، ويركب أجمل المراكب : قلت بلى ، قال فلم لا يكون من يلي خدمتي به ، ويقرب منه على أحسن صورة وإن شئت أريتك ما بداري من الجواري الحسان " [٣] .

ونتيجة للمكافآت والعطاءات التي يقدمها الخلفاء للعلماء والأطباء فقد كثرت ثرواتهم ، حيث كان الطبيب النصراني أمين الدولة ابن التلميذ لا يقبل العطيه إلا من خليفة أو سلطان [٤] . وكانت له إقطاعات فمما ذكر أنه كان له داراً سميت دار القوارير ببغداد كانت ضمن إقطاعه إلا أن الوزير ابن هبيره أخذها منه .

وكان أبو الحسن بن التلميذ يحضر عند المقتفي كل أسبوع مره فيجلسه لكبر سنه . وكان يوماً عند الخليفة على عادته فلما أراد الانصراف عجز عن القيام لضعفه وكبره فقال له المقتفي : " يا حكيم كبرت قال : نعم كبرت وتكسرت قواريري وهذا مثل كان يتماجن به أهل بغداد لمن عجز وبطل ، فأنكر المقتفي عليه حيث أنه ما

---

(1) المصدر نفسه ، ص٩٢ .

(2) محمد محمد عبد الله القدحان : الاهتمامات العلمية للخلفاء العباسيين في الفترة (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م) ، مجلة العصور ، مج١٢ ، ج٢ ، دار المريخ للنشر ، لندن ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ص٣٤ .

(3) الحوادث الجامعة ، ص٢٢٣ .

(4) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنبياء ، ص٣٥٠ .

تماجن بحضرته وحين سأل عن دار القوارير قيل له قد حلها الوزير ابن هبيرة عنه ، فأنكر ذلك المقتفي ، وردها إليه وزاده إقطاعاً آخر " [١] .

وأما الطبيب أبو نصر بن المسيحي (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) فقد كان من المتميزين في صناعة الطب والأفاضل في عملها ، ذلك أنه مرض الخليفة الناصر مرضاً شديداً وكان انتفاخاً في المثانة نتيجة الحصى وطال به المرض ، وعجز الأطباء عن علاجه إلى أن أحضر أبا نصر ، واستطاع معالجته ، فأمر الخليفة طبيبه بأن يدخل دار الضرب ويحمل من الذهب ما يقدر عليه من الدنانير والذهب ثم أتته الخلع من أم الخليفة (زمردخاتون) ومن ولدي الخليفة ومن الوزير نصير الدين مهدي العلوي ومن سائر كبار رجال الدولة ، وقد حصل من العين عشرين ألف دينار ، وفرض له راتب سنوي ، ولم يزل مستمراً في ذلك إلى أن مات الناصر [٢] .

كما كان مؤدبو أولاد الخلفاء والأمراء والقواد ، تعطى لهم العطاءات الوافرة ، فعندما ختم أبو أحمد عبد الله ولد الخليفة المستنصر بالله القرآن على مؤدبه أبي المظفر علي بن النيار أحضر له خلعة كانت قميصاً وبقيار مغربي إلا أنه امتنع من لبسه تورعاً وأحضر له قميصاً مصمت غزلي وبقيار قصب بحرير وأنعم عليه بألفي دينار وفرس عربي وأعطى مائتي دينار وأنفذ إلى داره ما حمله اثنان وأربعون حمالاً [٣] .

---

(1) ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص٣٣٠ .

(2) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٠٣-٤٠٤ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٠ .

الخدمات الخاصة للعلماء :

تمتع العلماء في العصر العباسي بخدمات اجتماعية كانت بمثابة تأمين اجتماعي لهم ، سواء في النواحي الصحية ، أو المادية أو الاجتماعية ، فكان للعلماء وطلبة العلم نصب السبق سواء أكان ذلك في العلاج أو الخدمات ، فكان علماء وطلبة المدرسة النظامية ، والمستنصرية يعالجون من قبل كبار الأطباء ، فكان من عادة أمين الدولة ابن التلميذ إذا مرض فقيه نقله إليه وأقام على معالجته فإذا ما تعافى وهب له دينارين وصرفه [1] ، وكان من شروط المدرسة المستنصرية أن يكون لها طبيب مسلم ، وعشره من المسلمين يشتغلون بالطب ولهم الجراية والمشاهرة ، وأن يعالج الطبيب من يعرض له مرض من أرباب الوقف ، ويعطى المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك [2] .

كما كان تأمين سكن للعلماء من شروط المدارس والأربطة ، فقد أعدت المدارس لتكون مكاناً للدراسة ولسكن العلماء وطلبة العلم ، ومن يقوم بخدمتهم إضافة إلى ما يوفر لهم من مخصصات ، وكانت تسمى تلك الأماكن بالأقسام الداخلية في المدارس فعندما دخل إبراهيم بن يحيى الكلبي (ت٥٢٤هـ/١١٢٩م) إلى بغداد أقام بالمدرسة النظامية عدة سنين [3] .

وكانت معظم مساكن العلماء الكبار خارج المدارس خاصة العلماء الأثرياء ، وذوي المناصب العالية في الدولة ، إلا أنه كان هناك شريحة من العلماء سكنوا الدور المتواضعة ، والترب ، والأربطة لفقرهم ، فقد كانت مساكنهم تبين مستواهم المعيشي والاجتماعي ، ذلك أنه كان من العلماء من عاش ونشأ أبناؤه كأبناء الأعيان والأمراء ، فقد جاء في سيرة ابن الفوطي كمال الدين أبي الفضل بن عبد الرزاق أحمد الشيباني البغدادي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) وهو مؤرخ عصره وعلامة زمانه ، أنه نشأ نشأة أبناء الأعيان فكان يحضر مع والده مجالس الوعظ ، ويحضر مع والده مجالس كبراء

(1) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٣٥٠ .
(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦١ ؛ منير سعد : العلماء عند المسلمين ، ص٢٠٨ .
(3) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٢١ .

المذهب الحنبلي في أيامه ، واتصل بأبناء الأمراء والأدباء [1] ، وما كان يعطى للعلماء من عطاءات ورواتب ، استمرت بعد وفاتهم لأبنائهم فكان بمثابة الراتب التقاعدي ، فقد كان الشاعر أبو الفتح بن التعاويذي محمد بن عبيـد الله (ت٥٨٣هـ ـ/١١٨٧م) أديبـاً وشاعراً زاهداً قد عمي في آخر أيامه ، وجعل له الخليفة الناصر راتباً من الديوان ، ثم التمس أن ينقل الراتب باسم أولاده فلما نقل هذا الراتب التقاعدي إلـيهم ، كتـب إلـى الناصر يسأله أن يجعل له راتباً مدى الحياة [2] .

فكانت تلك الخدمات الاجتماعية ما هي إلا تقديراً للمكانة العلمية والاجتماعيـة للعلماء ، تضمن لهم ولأبنائهم معيشة كريمة .

(1) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١١-١٢ .
(2) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٥ ، ص٣٦٥-٣٧٢ .

الفصل الثاني

فئات المجتمع

- المبحث الأول : التجار .
- المبحث الثاني : الجند .
- المبحث الثالث : العمال .
- المبحث الرابع : الصوفية .
- المبحث الخامس : الشطار والعيارون .
- المبحث السادس : الرقيق – الجواري – والخصيان .
- المبحث السابع : أهل الذمة (النصارى – اليهود – المجوس) .

الفصل الثاني

فئات المجتمع العامة

فئات المجتمع هم طبقة الشعب العامة ، والتي تضم فئات اجتماعيـة متعـددة ومتنوعـة تختلف باختلاف عناصرها البشرية ، فهم مزيج مـن عناصـر عربيـة ، وتركية ، أرمينية ورومية وكردية وخرسانية ، وتلك العناصر لكـل منهـا موروثهـا الاجتماعي ، كما تختلف باختلاف دياناتها فمنهم المسلمون وهم يمثلون الغالبية العظمى في المجتمع ، وأهل الذمة من يهود ونصارى ومجوس ، والذين يعيشون موزعين بين الناس في محال بغداد المختلفة [(١)] أو في محالهم الخاصة [(٢)] ، وبذلك أخـذت الفئـات العامة للمجتمع تتميز بسمات ظاهرة ومعالم بارزة في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي - تميزها عن الفئة الحاكمة وهي الطبقة العليا في المجتمع والتي كانت أهم سماتها ، الوظيفة الاجتماعية ، والثقافة العامة ، والثروة ، كما أنها تختلـف عـن بقية فئات المجتمع بالنفوذ والسلطة .

وقد ذهب البعض إلى تسمية بقية فئات المجتمع ، والذين هـم خـارج نطـاق السلطة (بالعامة) أو (العوام) وذلك يعود إلى كثرتهم وعدم إحاطة البصر بهـم [(٣)] ويسميهم الجوهري (ت٣٩٢هـ/١٠٠١م) بالسوقة فيقول : " والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان ، الذكر والأنثى في ذلك سواء ، والجمع التسوق وقيل أوساطهم " [(٤)] .

ويصف ابن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) فئات المجتمع العامة بـ " الـسواد الأعظم " [(5)] والذي يضم أغلب الشعب الذين ليس لهم سلطة في الدولة ، كما يـسميهم

---

(1) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٩ .

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٢ .

(3) الصفدي : نكت العميان ، ص١٠ .

(4) الجوهري : الصحاح ، ج٤ ، ص١٤٩٩ ، (السوقة) .

(5) ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسين : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري ، دار الكتـاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص٣٣١ .

ابن الكازروني (ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م) بالسوقة فيقـول : " وعوامهـا السـوقة تغتـنم مفاكهتهم وتروق مجالستهم ، أخلاقهم عذبة للـصاحب ، وخـواطرهم مـن أعجـب العجائب " [1] ، كما يؤكد لنا ابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م) أن العامة هـم ممـن ليسوا من أصحاب السلطة بقوله : " السوقة بمنزلة الرعية التـي تـسوقها الملـوك ، وسمـوا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم ، يقال للواحد سـوقة وللجماعـة سوقة " [2] .

ومن الملاحظ أن أبرز سمات فئات المجتمع العامة ، الجهل والفقر ، فالجهـل يعود إلى قلة ثقافتهم وعـدم معـرفتهم بـالكثير مـن الأمـور ، يقـول الحميـري (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م) أن سبب تسمية العامة بهذا الاسم هو جهلهم بـالأمور الدينيـة التفصيلية ، والتزامهم بالعموم فقط فهم يقرون بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وما جاء به [3] . ويذكر لنا الغزالي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) أن جهل العامة يعود إلى عـدم معرفتهم بأسرار الشرع [4] .

فالعوام والعامة ، والسوقة ، تطلق على من لم يكونوا متخصصين في فـروع المعرفة كالعلماء والأدباء ، فنجد أن من التجار وأصحاب الثروات من لديه بعضاً من العلم ولكنه ليس كالعلماء ، كما يذكر ابن الجوزي لنا أن العامي هو مـن لا يحـسن الجواب فيقول : " هذا ابن حملان يملك ألف ألف درهم قصدته يوماً فبينما أنـا عنـده عطس فقلت له يرحمك الله فقال يعرفك الله " [5] .

أما الفقر فقد كان سمة تميزت به شرائح اجتماعية متعددة من فئات المجتمع ، وتبين لنا ذلك من خلال توزيع الأنعام في دار الخلافة فيذكر لنا ابن الكازروني أن من

---

(1) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص١٤ .
(2) ابن منظور : لسان العرب ، ج٣ ، ص٣٧٠ ، السوقة أو سوقة .
(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٣ ، ص٧٦ ؛ الخوارزمي : محمد بن أحمد بن يوسف : مفاتيح العلـوم ، دار النهضة ، القاهرة ، ص٧ .
(4) الغزالي : الرد على فضائح الباطنية ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص٢٧ .
(5) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ، تحقيق محمـد شـريف سـكر ، دار إحيـاء العلـوم ، بيـروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص١٢٦ .

الرسوم المتبعة في دار الخلافة عند حلول شهر رمضان " أن تفتح دور الضيافة للعوام والفقراء ، والأيتام فلا يبقى من لا يشمله الأنعام " [1] .

ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من التقسيم الطبقي للمجتمع البغدادي إلى الخاصة والعامة ، إلا أنه كان محافظاً على السمات الاجتماعية للمجتمـع الإسـلامي المنفتح أمام سائر أفراده على اختلاف مراكزهم الاجتماعية إذ لم يكن به حواجز طبقية اجتماعية كما في تاريخ المجتمع الأوروبي ، فالفرد العادي في المجتمـع يـستطيع أن يرتقي السلم الاجتماعي حتى يصبح من مجتمع الخاصة كالوزراء والأمراء ، وكبـار موظفين الدولة الذين تدرجوا في المراتب الإدارية ، وأصبحوا من الخاصة .

(1) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٥ .

المبحث الأول : التجار .

التجار هم فئة من الناس اتخذوا حرفة التجارة لكسبهم المادي ، فأصبح العامل الاقتصادي عاملاً اجتماعياً لارتقاء السلم الاجتماعي ، بالنسبة لهـم ، وبـذلك اعتبـر البعض التجار من الطبقة الخاصة العليا في المجتمع بسبب ثرواتهم ذلك أن المال فـي العصور العباسية المختلفة أجمع هو المحك الرئيسي لتقسيم طبقات المجتمـع ، ومـن هؤلاء الذين اعتبروا التجار من طبقة الخاصة أبا الحـسن بـن المحـسن الـصابئ (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) وذلك لكثرة ثرواتهم فعند حديثه عن حمامات بغداد وإحصائه لها أسلك التجار ضمن الطبقة الخاصة بقوله : " فما كان عدة خواص الناس أيام المعتضد بالله من الوزراء والكتاب والحواشي والأصحاب والأمراء والقواد والأشراف والقضاة والشهود والثناء (1) والتجار وأولي المروءات والأموال الوافرات " (2) كذلك وافقه سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) فينسب التجار إلى الطبقـة الخاصة حـين يـذكر الحوار الذي دار بيـن شقيق بن إبراهيم البلخي وسفيان الثوري ، فمما قالـه شقيق : " قلت حلال وحرام فيما بين ذلك وإنما دخلت الآفة من الخاصة على العامة وهم خمس طبقات العلماء والزهاد والغزاة والتجار والملوك " (3) .

إلا أن البعض الآخر نظر إلى التجار من الناحية الاجتماعية على أنهـم مـن أدنى فئات المجتمع ، لأنه مما جرت عليه العادة أن ينصرف أعيان الدولة والأشراف عن حرفة التجارة ، وكان يعاب على الشريف العمل بالتجارة فاعتبروا التجـار مـن عامة الناس ومنهم ابن طيفور (ت٢٨٠هـ/٨٩٣م) فيذكر أن انتماء التجار إلى الفئـة

---

(1) أهل الثناء هم ملاك الأراضي المقيمين في حقولهم . التنوخي : نشوار المحاضرة ، دار صـادر ، بيـروت ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ج١ ، ص٤-١٦ .

(2) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٢١ .

(3) المسري : حسين علي : تجارة العراق في العصر العباسي ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٤٥ نقلاً من مخطوطة سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٦ ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٥١ ، ورقة ١٧ .

العامة حين يصف نزاعاً بين رجلين أحدهما من العظماء والآخر من تجـار الـسوق فيقول : " فقمع الذي من الخاصة الذي من العامة " [(١)] .

إلا أن النظرة الاجتماعية لحرفة التجارة اختلفـت خـلال القـرنين الخـامس والسادس الهجريين عما كانت عليه ، فنجد أنه على الرغم من أن التجار عدوا ضـمن عداد فئات المجتمع العامة ، إلا أنهم كانوا يحتفظون بمركز مرموق بين أفرادها ، وقد ظهرت نشطة من التجار خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين واستمرت إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي تمتلك رؤوس أموال ضخمة ، بلغت ثـروات بعضهم ألوف الألوف من الدنانير ، وقامت هذه الطبقة من التجار بتأسيس شركات مثل شركة العنان ، وشركة المفاوضة ، وشركة الأعمال والإيرادات ، ثم شركة الوجـوه وكان للفقهاء ، أراء حول هذه الشركات التجارية [(٢)] .

وقد كان بعض التجار متخصصاً في تجارة معينة ، فهناك تجار للطحين [(٣)] ، وتجار للبز ، وتجار المصنوعات [(٤)] .

وكانت بغداد موطناً للعديد من التجار العراقيين الذين اتخذوها مستقراً لسكناهم والاستفادة من نشاطها التجاري المتطور [(٥)] . وكان منهم جماعة من الأعيان وأرباب الأموال ، منهم أحمد بن محمد المختار بن محمد بن عبد الواحد بن المؤيد بـالله أبـو تمام ابن أبي العز (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) خرج من بغداد للتجارة وركب البحـر إلـى الهند وكثر ماله [(٦)] ، وكذلك أبو علي الحسن بن سيف بن الحسن بن علي الشهراياني الأصل البغدادي الدار التاجر المعدل (ت٥٨٢هـ/١١٨٦م) [(٧)] أيضاً كان مـن تجـار

---

(1) ابن طيفور : أبي الفضل أحمد بن طاهر الكاتب ، كتاب بغداد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعـة الثانيـة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ص٤٣ .
(2) الكاساني : علاء الدين أبو بكر مسعود : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، دار الكتاب العربـي ، بيـروت ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، ص٥٧ .
(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٦ .
(4) ابن النجار : ذيل بغداد ، ج١٧ ، ص١٧٩ .
(5) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢١٦ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٣٤ .
(7) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٣ ، ص١٤٥-١٤٦ .

بغداد أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة ابن الخضر بن كليب الحراني (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) [(١)] .

كما كان التجار الغرباء يقصدون بغداد من بقاع بعيدة جالبين معهم نفائس بلادهم ، وذلك لوجود الثراء الواسع لدى أمراء المماليك وكبار رجال الدولة ، إضافة إلى أثرياء العامة فأزداد قدوم التجار الغرباء إلى بغداد وذلك لعرض بضائعهم على الوجهاء والميسورين ، وهناك رواية ذكرته وإن كانت بعيدة عن الحقيقة ذُكِر أن أحد التجار الغرباء قدم من الهند ومعه ببغاء قاصداً بيعها للخليفة الناصر لدين الله وعلمها قراءة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ سورة الإخلاص ، إلا أنها ماتت بعد يوم من وصولها إلى بغداد فأحتار في أمره فجاءه فراش يطلب منه الببغاء ، فبكى وقال : ماتت الليلة ، فأخبر بأن الخليفة عالماً بقصته منذ خروجه من الهند ، وسئل كم كان ظنك أن يعطيك الخليفة فقال : خمسمائة دينار ، فأعطى الخمسمائة دينار [(٢)] .

ومن الملاحظ أنه كان لبغداد تجارة نشطة خلال هذه الفترة ، وذلك يعود إلى حاجات دار الخلافة من جانب ولوجود فئة كبيرة من أصحاب الثروات من جانب آخر ولهذا كانت الأسواق عامرة بالبضائع المصنعة في العراق أو المستوردة من خارجها ، وقد ذكر لنا رشيد الدين الوطواط (ت٥٧٣هـ/١٣٣٢م) ورود التجار الغرباء إلى بغداد بقوله : " أن التجار الغرباء كانوا يقصدون بغداد من بقاع بعيدة للبيع والشراء " [(٣)] ، كما ذكر لنا بنيامين الذي زار بغداد سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) " أن لبغداد تجارة مع جميع أقطار العالم للبيع والشراء " [(٤)] .

---

(1) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٦ .

(2) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٣ .

(3) الوطواط : رشيد الدين ، فهمي محمد : الرسائل ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٣١٥هـ ، ط١ ، ج١ ، ص٧٤-٧٥ .

(4) بنيامين : رحلة بنيامين ، ص١٣٩ .

ووصف لنا ابن جبير عظمة أسواق بغداد بقوله " عظيمة الترتيب " [1] كما وصف عدة مدن مثل الحلة وتكريت وذكر بأن أسواقها حافلة وتجارتها كثيرة [2] ، فمن التجار الغرباء الذين قدموا بغداد ، أبي الجيش عسكر بن أبي إبراهيم الحموي الأصل سكن بغداد وتوفي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ببغداد [3] ، وكان لهؤلاء التجار مشاركات اجتماعية في حياة المجتمع البغدادي ، فمن ما ذكر عن أعيان التجار الغرباء أنهم حضروا افتتاح المدرسة المستنصرية سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م وخلعت عليهم الخلع التي وزعت على المدرسين والفقهاء ومشايخ الربط والدعاة وغيرهم [4] .

وكان للتجار والباعة أسواق خاصة بهم أختص كل سوق بنوع معين من التجارة والبضائع ، وكانت الكرخ الواقعة في الجانب الغربي من أوائل الأسواق التي أنشئت في بغداد منذ تأسيسها وكانت تسمى " بالسوق العظيم " [5] ، إلا أن وقوع الكوارث والحرائق بها إضافة إلى تعرضها للنهب [6] ، أدى إلى انتشار الأسواق وكثرتها في الجانب الشرقي وانعزال بعض المحال عن بعضها البعض في الجانب الغربي .

وكان التجار يتاجرون في مختلف السلع ، منها الجواري والعبيد والخصيان ، الحيوانات ، كالنمور والفيلة والخيل والنعام والدراج والبراذين [7] والسماني ، كما يتاجرون بالمنسوجات الصوفية التي ترد من إيران وكذلك البسط والسجاجيد والطنافس والفواكه والسكر من بلاد ما وراء النهر ، والتوابل والأحجار الكريمة والعود الهندي

(1) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٢ .
(2) المصدر نفسه ، ص١٦٩ ، ١٨٦ .
(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٩٤ .
(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٩ .
(5) اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب : البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩١م ، ص١٤ ؛ ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٣٤.
(6) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٢٤٤ .
(7) البراذين : الحمير . الفيروزآبادي : الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي : القاموس المحيط ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ج٤ ، ص٢٠١ .

وجوز الهند [١] ، والقطيفة ، والمعادن والآلات مـن أوانـي الـذهب والفـضة والـدروع والأبنوس، كذلك أدوات الزينة كالكحل والزبرجد والأمشـاط ، والعقيق والمسك واللؤلؤ [٢].

وكان التجار يصدرون بضائعهم إلى خارج بغداد منها ، الأقمـشة القطنيـة ، والستور ، والتكك ، والوسائد ، والثياب الموشية ، وأدوات الزينة كالحناء وماء الورد والصابون ، والأطعمة ، والفواكه كالزيت والرمان والتين والكامخ [٣] .

ولـم يكن التجار جميعهم بمستوى اقتصادي واحد ، فهناك التجار البـسطاء ، وهناك أعيان التجار يمتلكون ثروات واسعة وتجارة كبيرة ، ومنهم مثلاً عز الدين مقلد بن صفي الدين أحمد بن الحرواذي كان من كبار التجار ، تزوج ابنة عـم لـه علـى صداق مقداره مائة ألف دينار ، ولم يسمع بمثله إلا عند الخلفاء والملوك [٤] .

وكان التجار والوجهاء والميسورون يسكنون قريباً من أسواقهم ضمن ما ذكره لنـا الإصطخري فقال : " وأعمر بقعة منها الكرخ ، بها اليسار ومساكـن معظـم التجـار " [٥] فكانوا يسكنون درب الزعفران [٦] وكان معظم سكانه مـن البـزازين والعطـارين . كمـا اشتهرت محلة درب سليمان [٧] بمساكن القضاة والشهود وكبار التجـار ، أيضاً اشـتهرت محلة باب المراتب في الجانب الشرقي من بغداد بمساكن أكبر التجار [٨] .

الأضرار التي يتعرض لها التجار :

لم تكن أحوال التجار هانئة معظم الوقت ، وكانوا كثيراً ما يتعرضـون إلـى عوائق وكوارث ، قد تفقدهم محالهم وأسواقهم وتؤدي إلـى خـسارتهم ، ففـي سـنة ٥١٢هـ/ ١١١٩م تسببت النار في احتراق سوق الرياحين وسوق عبدون وبـاب دار

---

(1) المقدسي : شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر النبأ : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، سنة ١٩٠٩م ، ط٢ ، ص١٢٩ .

(2) حسين المسري : تجارة العراق ، ص١٩٥-٢٠٠ .

(3) حسين المسري : تجارة العراق ، ص١٩٥-٢٠٠ .

(4) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٦٤ .

(5) الاصطخري : ابن إسحاق إبراهيم محمد الفارس المعروف بالكرخي : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، دار القلم ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م ، ص٥٩ .

(6) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٤٨ .

(7) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤٤٨ .

(8) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٩٤ .

الضرب وسوق الصيارفة وخان الرقيق [1] ، وفي خريف سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م أيضاً أدت النيران إلى احتراق الخان الكبير المشهور بمخازن التجار وتلاف للتجار العراقيين وغيرهم ، ما لا يحصى من الأمتعة [2] ، كما كانت حوادث الفيضانات كثيراً ما تدمر أسواق بغداد منها مثلاً السيل الذي داهم بغداد سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م وداهم محلة الحربية بالكرخ وسوق المارستان من رباط الخلاطية إلى القنطرة وأجزاء من محلة قطفتا ، فانتقل الناس من منازلهم وأسواقهم إلى الأماكن المرتفعة ، وغرق ما كان بظاهر السور من المساكن والأسواق في الجانب الشرقي [3] .

الدلالون :

رافقت مهنة التجار في بغداد مهنة الدلالة ، وذلك لترويج السلع التجارية ، والدلالون هم وسطاء بين الباعة والمشتريين يدلون البائع على الأثمان [4] ، وللدلالين أساليب في ترويج السلع التجارية منهم من يزيد في ثمن السلعة دون علم صاحبها ، أو أن ينادي على السلعة ، وحين لا يتقدم أحد لشرائها ، يضطر للمناداة عليها في اليوم الثاني ، ويكون الدلال قد اتفق مع التجار على حصة معلومة للدلالة [5] ، ومن الدلالين من اختص في بيع سلعة معينة مثل أبي حفص عمر بن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن صفية (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) دلال الدقيق والحبوب [6] ، كما كان أيضاً أبو شجاع عبد الملك ابن أبي الفتح ابن محاسن الدلال المعروف بالبلاع (ت٦١٨هـ/١٢٢١م) كان دلالاً في الابريسم [7] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٩٦-١٩٧ .

(2) ابن القلانسي : أبو يعلي حمزة بن أسد القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، باعتناء هـ . ف مدروز ، مطبعة الآباء اليوسيعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م ، ص٢٤٣ .

(3) سوسة : أحمد : الفيضانات وغرق بغداد في العصر العباسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، العدد (١٠) ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م ، ص٣٣١-٣٣٣ .

(4) ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص٤٠٧ .

(5) الشيزري : عبد الرحمن بن نصر : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ص٦٣-٦٤ .

(6) ابن النجار : الحافظ محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود البغدادي : ذيل تاريخ بغداد ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ج٢٠ ، ص١٥ .

(7) المصدر نفسه ، ج١٦ ، ص٦٥ .

المبحث الثاني : الجند .

كان للجند أهمية خاصة في المجتمع خلال هذه الفترة ، لما لهم من تأثير على الحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد كانوا ينقسمون إلى قسمين ، جند الخلافة وجند السلطان وهم الجند السلجوقي ، الذين كان مجيئهم إلى بغداد في فصل الشتاء مع السلطان ثم يرحلون عنها إلى بقية حواضر العالم الإسلامي التي اتخذها السلاجقة وتخضع لسلطانهم (١) .

ومنذ القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع العاشر الميلادي ، دخلت عناصر جديدة إلى الجند وهم الترك والديلم ، وكان الترك يتمتعون بكفاءات عسكرية ، فقد كانت الجندية هي حرفتهم ، ومما ذكر أنه ليس بينهم حجام ولا حائك ولا إسكاف أو خياط (٢) وكانوا يمثلون الغالبية العظمى من الجند ، ففي أثناء الحكم البويهي كان الأتراك يعتبرون جزءاً من جهاز الدولة وكانوا يتمتعون بامتيازات خاصة (٣) ، وحين قدوم السلاجقة لبغداد رأى الأتراك أن في قدومهم حرماناً لهم مما كانوا يتمتعون به من امتيازات ، لذلك طالبوا الخليفة بأن يبعد السلاجقة عنهم ، على الرغم من إرسال طغرلبك في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م للأتراك البغداديين بوعوده بالإحسان إليهم (٤) ، إلا أنهم سرعان ما قدموا ولاءهم للسلاجقة بعد أستقرار حكمهم في بغداد ، وهو ما حدث مع السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨هـ-٥١١هـ/١١٠٤م-١١١٧م) فإنهم عرضوا أنفسهم وخطبوا المراتب والمناصب (٥) .

فقد كان لهؤلاء الجند دورهم الاجتماعي خاصة في إذكاء الفتن الطائفية داخل المجتمع البغدادي ، فقد كانوا يتعصبون لأبناء جنسهم ، وذلك ما أكده ابن الأثير حين قال أن بينهم " أنفة وحمية للجنس " (٦) فمن عصبيتهم مناصرتهم لشواء في سنة

---

(1) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٦٢-٦٣ .
(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٤ .
(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٧ ، ص٣٩٣ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٧٢-١٠٤ .
(5) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٨٨ .
(6) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٤٧ .

(٥١٥هـ/١١٢١م) ضد القاضي أبي عبد الله الرطبي ، لأنه قد شهر ذلك الشواء فذهبوا إلى القاضي وسحبوه إلى دار السلطنة مما أثار العامة ضدهم ، فثاروا بوجـه الجنـد الأتـراك لنصرة القاضي ، ولم تنته تلك الثورة إلا بعد أن تدخل الوزير وأطلق سراح القاضي من يد هؤلاء الجند [(١)] .

وكان الجند فرقاً متعددة حسب رتبهم ، وممن وردنا من أصناف منذ القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي [(٢)] الجند الغلمان الاصفهسلارية [(٣)] ، وكما ذكرنـا فيمـا سبق عن الأمراء أنهم كانوا يتدرجون من غلمان إلى صغار الجند ثم أمراء ، ويطلق عليهم أحياناً اسم المماليك [(٤)] وهم الذين يجلبهم الخلفاء غلماناً صغاراً ويقومـون بتـدريبهم علـى استعمال السلاح ، ويسمون بأسماء الخلفاء كالمماليك الناصرية والمستنصرية وغيرهم [(٥)] ، كما يطلق عليهم اسم الأتراك [(٦)] ، وكان اسم الغلمان يشمل جند الخلافة وحـرس الخليفـة الخاص في دار الخلافة ، وكذلك جند السلاطين ، كما كان الغلمان أنفسهم درجـات فهنـاك أصاغر الغلمان وأكابر الغلمان [(٧)] ويسمون بعضهم بالدارية وهم المختصون بحراسـة دار الخلافـة ، كذلك الجاوشية [(٨)] والجاندارية [(٩)] .

وقد كان الخليفة يرتبط به مباشرة عدداً من الجند والحرس ، وكان من عـادة الخلفاء التنقل في مقامهم بين الجانبين الشرقي والغربي ، وأحياناً في عدة أماكن فـي الجانب الواحد من بغداد ، وكان الحرس الخاص للخليفة ينتقلون معه ويقيمـون فـي

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٢٨ .
(2) فهد : العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص٤٥ .
(3) الاصفهسلارية : من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند وإلى صاحبها يرجع الأجنـاد ، واللفظـة أعجميـة تعريبها قائد جيوش ، دهمـان . محمد أحمد : معجم الألفاظ التاريخية في العـصر المملـوكي ، دار الفكـر ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ/١١٩٠م .
(4) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١١٣ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٥ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١١٧ .
(7) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٧٣ .
(8) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص١٩ ، والجاوشية الجاويش والشاويش وهي لفظ تركـي جمعـه طلائع الجيش وهم جنود مهمتهم السير أمام السلطان في مواكبه وتنبيه المارة . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٧ ، ص١٩٩ ؛ السلوك للمقريزي ، ج١ ، ص٧٠ ، الحاشية رقم ٢ .
(9) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٠ ، والجاندارية فئة من مماليك السلطان أو الأميـر ، وهـي فارسية من " جان " بمعنى سلاح و (دار) فيعني ممسك . المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١٣٣ .

قصره أو قربـه ، غير أن هناك أفراداً من الحرس وهم أحرار ليسوا رقيقاً كانت لهم أسر متصلة بهم ، والراجح أن أسر الحرس أو الجند لم تكن تقيم في قصر الخليفـة أو قربه لأن ذلك قد يعرض الخليفة إلى كشف حياته الخاصة ، وإثارة الحـسد واحتمـال التجسس على حياته الخاصة ، فضلاً عن أثره في تشويه الحيـاة والجمـال حـ ـول القصر [(١)] ، بيد أن عدم سكن أسر الحرس وجند الخليفة في قصر الخليفة أو حوله لا يعني أنها جميعاً ظلت في أماكن سكناها الأولى ، على أنه يبدوا أن أعداداً أخر ظلـ ت مقيمة في أماكنها القديمة في الجانب الغربي خاصة الجند الغرباء التركمان الذين كانوا يقيمون في محلة بظاهر سوق السلطان وراء جامع المدينة ، وكانـ ت لهـ م مـ ساكن ودكاكين ، وإصطبلات وحمامات كانت تزيد على ألف موضع [(٢)] ، إلا أن هذه المحلة قـ د خربت في فيضانـ ات دجلة سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م) وانتقل ساكنوها إلـ ى وراء السكر [(٣)] ، وكانت كثيراً ما تنشط حركة عبور النهر . أما عندما تنقل أسر أو أثـ اث أفراد الحرس والجند فإن ذلك إذا كان مقام الأسر في غير الجانـ ب الـ ذي تقتـ ضي واجبات الحرس والجند إقامتهـ م فيـ ه [(٤)] .

ولم تذكر لنا المصادر أخباراً عن عدد الجند في القرن الخـ امس الهجـ ري / الحادي عشر الميلادي ، إلا أن الخليفة كثيراً ما يأمر بالتجنيد في هذه الفترة فمنذ سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) كان يأمر بالتجنيد حسب ما تستدعيه الظروف الـ سياسية ، فقـ د حـ دث تكثير للجيش فـ ي زمن الخليفتيـ ن الناصر لديـ ن الله والمستنصر حتى قيـ ل أنه بلـ غ مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) وكان منهم أمراء وأكابر يطلق على كل واحد مـ نهم لفظ " ملك " [(5)] ، إلا أن ذلك لم يستمر في عهد الخليفة المستعصم حيث قطـ ع أرزاق أكثر الجند ففارقوا بغداد ولحقوا ببلاد الشام أقدم المستعصم بالله على تسريح عدد كبير

---

(1) صالح العلي : ملامح من الحضارة العربية في بغداد ، (١) المواصلات والجسور ببغداد ، مجلـ ة المـ ورد ، بغداد ، المجلد الثامن ، العدد الرابع ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، ص١١٧-١١٨ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١١٠ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٤٥ ، وسكر النهر أي سده وبابه نصر والسكر بالكسر العِرم وهو المسناه .

(4) صالح العلي : ملامح من الحضارة العربية في بغداد ، مجلة المورد ، ص١١٨ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٤٠ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م١ ، ص٨٦-٨٧ .

من الجيش بمشورة ابن العلقمي الذي نصحه بأن يوفر الأموال لدفعها لهولاكو كـي لا يدخل بغداد [١] .

أمـا جند السلاطين وكانوا عادة يأتون إلى بغداد في فصل الشتاء مع الـسلطـان ، ثم يرحلون عنها إلى بقية حواضر العالم الإسلامي كما ذكرنا ، إلا أن مجيئهم كان له تأثيره الاجتماعي السيئ على العراق عامة وعلى سكان بغداد خاصة ، بسبب مـا يحدثونـه مـن اضطراب للمجتمع البغدادي أثناء إقامتهم ببغداد ، من سرقة واغتـصاب للنـساء وإشـاعة للخوف والذعر ، مما يضطر الناس إلى الهرب إلى دار الخلافة والاحتماء بها لما يلاقونـه من الويل من جند السلاطين السلاجقة [٢] ، أو أنهم يهربون إلى الجانب الآخر من بغداد إذا عرفوا أن الجند السلجوقي في أي الجانبين كما حدث سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) فقد نودي أن لا يقيم أحد بالجانب الغربي لما قرب السلطان محمـد شـاه من بغداد ، فأجفل الناس وأهل السواد ونقلت أموال الناس إلى دار الخلافة [٣] . وكان هناك شخص يدعى صـلاح الـدين وهو رجل من أصحاب السلطـان ، بنى خاناً عند الرقة انفقّ عليه آلاف الـدنانير وجعلـه للسابلة ، فكان جند السلطان يعتصمون به وبحائط الرقة ، فأمر الخليفة المقتفي لأمـ ـر الله بنقضه ، وقد كان صبيان بغداد يغيرون على جند السلطان بالمقـاليع وزراقـات النـار [٤] فيردون الجند الكثير ويتلقون النشاب بميازر صوف [5] فكان جند الـسلاطين الـسلاجقة إذا طال مكثهم ببغداد يعتبر ذلك كارثة بالنسبة للعامة لما يحدثونه من خـوف وسـلب ونهـب وسرقة للدور [٦] واعتداءات على حمامات النساء [٧] . فالإرباك الاجتمـاعي والاقتـصادي الذي يحدثه الجند السلجوقي إذا قدم بغداد جعل منهـا مـادة خـصبة لتـرويج الإشـاعات والأراجيف عند السماع بقدومهم إلى بغداد .

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٠٢ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٢٢ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٨١ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٦٨-١٦٩ .

(4) هم الزراقون ويقال لهم النفاطون وهم الذين يحملون بأيديهم قوارير فيها مواد مشتعلة تمرنوا على إشعالها وإلقائها علـى الأعداء وتشبه الزجاجات الحارقة في عصرنا الحاضر . محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ، ص٨٥ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٦٩ .

(6) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٤٠ ، ج٨ ، ص١٦٩ .

(7) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٢٢٨ .

ولم يكن جند السلاطين ، وحدهم الـذين يحـدثون الفوضـى والاضـطراب الاجتماعي في بغداد ، وإنما الحالة الاقتصادية التي كانت تمر بها بغداد خـلال هـذه الفترة ، دعت إلى عدم تمكن الدولة من توفير الأموال مما أدى إلى تـأخير لرواتـب الجند أو إنقاصها ، وإزاء ذلك يقوم الجند بإشاعة الفوضى والاضطراب ، ولـم تكـن ثورة الجنـد وفوضاهم بجديدة على هذا القرن وإنما هي استمرار لمـا كـانوا عليـه فيمـا سبـق [1] ، وهذا نتيجة للاضطراب السياسي والاقتصادي والاجتماعي الـذي خيم على بغداد خلال هذا القرن وما قبله ، ففي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م حضر جماعـة من المماليك الظاهرية والمستنصرية عند شرف الدين إقبال الشرابي للسلام عليه على عادتهم وطالبـوا بزيادة في مرتباتهم وألحوا في الطلب مما دعى بالشرابي إلى أن قال لهم : " مـا نزيدكم بمجـرد قولكم بل نزيـد منكم من نزيد إذا أظهر خدمة يـستحق بها " [2] ، فثاروا وخرجوا إلى ظاهر السور وتحالفوا على الاتفاق والتعاضد ، فقبض على جماعه من أشرارهم وهم أثنان ، والباقون قصدوا باب البدرية ومنعوا الناس من العبـور ، فخرج لهـم مقدم البدرية وقبح عملهـم فلم يلتفتـوا إليـه ، فأنفـذ إلـيهم سنجر الياغز [3] فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : " نريد أن يخـرج أصحابنا وتـزاد في معايشنا " [4] فذكر ذلك للشرابي فأجابهم الشرابي بأن المحبوسين هم مماليكنا نعمل بهم ما نريد ومعايشكم ما نزيدها ممن رضي بذلك يقعد ومن لم يرضى وأراد الخروج من البلد فنحن لا نمنعه " وطالت المراسلات فيما بينهم وبـين الـشرابي إلـى آخـر النهـار ، ثم خرجوا إلى خارج البلد وأقاموا هناك مظهرين للرحيل ، وبقوا عدة أيـام إلى أن اجتمع بهم الشيخ السبتي الزاهد ، وعرفهم أن ما فعلوه يعتبر مخالفة للـشرع ،

---

(1) فهد : العامة في بغداد ، ص٥٠ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٥ .

(3) قطب الدين أبو المظفر سنجر بن عبد الله المستقصي يعرف بالياغز كان ذا معرفة ونباهة بمحاضري الأشعار والحكايات ، ذكره ابن الفوطي مؤلف الحوادث الجامعة في حوادث السنة ٦٣٧هـ ـ/١٢٣٩م وقـصة هروبـه والقبض عليه ، ولما استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، هرب إلى الشام فـأنعم عليـه الظـاهر بيبرس البندقداري بإقطاع جيد في دمشق . ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٥ ؛ الكتبـي : عيون التواريخ ، ج٢ ، ص٤٠٦ .

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٥-١٣٦ .

فاعتذروا وسألوه الأمان لهم ليدخلوا البلد فأجيبوا إلى ذلك ودخلوا معتذرين للشرابي ، وكانت إقامتهم بظاهر السور سبعة أيام [١] .

وكان الذي يتولى أرزاق الجند ويعلم فئاتهم وعناصرهم هو العـارض الـذي استمرت وظيفته في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي كما كانت عليه في بلاد المشرق الإسلامي [٢] ، إلا أنه منذ سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م أصبح هناك عارضان لديوان الجند ، فأصبح هناك ديوانين للعرض ديوان يختص بالغرباء وأسند إلى أبـي طالب أحمد ابن الدامغاني ، وديوان يختص بالعساكر البغدادية وأسند إلى أبـي علـي الحسن بن المختار العلوي فأصبح للجيش عارضان [٣] ، والجند الغرباء نعتبرهم مـن الجند المرتزقة الذين يلتجئون إلى بغداد هرباً من رؤسـائهم ، أو ممـن رغـب فـي الانضمام إلى الجيش دفاعاً عن بغداد باعتبارها العاصمة السياسية للمسلمين ، فكـان يفتح باب التجنيد حينما تشعر الخلافة العباسية أنها بحاجة للجند خاصة فـي أواخـر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي حينما بدء الخطر يهدد بغداد [٤] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص١٣٦ .

(2) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٩٨ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٩٣ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٣٢ ، في حوادث سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، ص١٣٨ ، حـوادث سـنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، ص١٤٧ ، حوادث سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م .

المبحث الثالث : العمال .

منذ نشوء مدينة بغداد تقاطر إليها عدد كبير من العمال والصناع وأهل السوق وذلك لسد احتياجات السكان ، فقد كان النمو العمراني يتطلب عدداً كبيراً من أصحاب الحرف كالبنائين والنجارين والحدادين وغيرهم ، حيث كانت بغداد بحاجة إلى العمال الحرفيين اللازمين لمواجهة التوسع الكبير في جانبيها الغربي والشرقي ، وكان الجانب الشرقي متأخراً عن الجانب الغربي الذي كان الأهم حتى القرن الرابع الهجـري ، إلا أن الجانب الشرقي من بغداد في عهودها المتأخرة أكثر أهمية وهو ما دل عليه النشاط الاقتصادي القائم فيه (١) .

وكان هؤلاء العمال صنفين الأجراء والرقيق فالأجراء كانوا أصـحاب مهـن وصنائع يتوارثون المهن فيما بينهم حتى لقبوا بها (٢) ، وكان هؤلاء العمال يمتلكـون دكاكيـن خاصة بهم يعملون فيها ، أو أنهم يشتغلون بـالأجر اليـومي عنـد مـالكي الدكاكين (٣) ، ومن العمال من اتخذ من بيته دكاناً يعمل فيه (٤) ، ومنهم من كان يتنقل من مكان إلى آخر أينما وجد العمل وهم الذين يعملون أدوات عملهم معهم ويجولـون في الأسواق بحثاً عن العمل (٥) .

أما العمال الرقيق فقد كان أصحاب الحرف والصنائع والمـزارع يـشترونهم للاشتغال في دكاكينهم أو في مزارعهم ، وذلك حسب حاجتهم لمساعدتهم في أعمالهم ، خاصة الأغنياء فقد كانوا يشترون أعداداً كبيرة من الغلمان يعملـون فـي ممتلكـاتهم

---

(1) صالح العلي : المواصـلات والجسور في بغداد ، مجلة المورد ، المجلـد (٨) ، العـدد (٤) ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م ، ص١١١ .

(2) الدوري : عبد العزيز : نشوء الحرف والأصناف في الإسلام ، مجلة كليـة الآداب ، العـدد الأول ، مطبعـة العاني ، بغداد ، ١٩٥٩م .

(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٣ ، ص١٤٢ .

(4) الدمياطي : شهاب الدين أحمد بن إيبك الحسامي : المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ج٢ ، ص٤٤ .

(5) ابن الجـوزي : تلبـيس إبلـيس ، تحقيـق الـسيد الجميلـي ، دار الكتـاب العربـي ، بيـروت ، ط٤ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٣٨٥ .

الخاصة [١] ، وكان لكل منهم عمله حسب اختصاصه ثم يتقاضى راتبه حسب مدة معينة ، كان منهم الصاغة والخياطون والقصارون والأساكفه والحدادون والرفاؤون والعطارون [٢] .

ونستطيع تقسيم العمال من منظور اجتماعي حسب أعمالهم التي تعتبر من الضروريات ، وما يأدونه من دور للمجتمع على النحو الآتي :

أولاً : الصناع والحرفيون :-

هم أرباب المهن والصنائع التي تعتبر من الضروريات الاجتماعية في كل زمان ومكان [٣] لم يتمتع أهل الصنائع بنظرة اجتماعية محترمة ، في بداية العصر العباسي ، وهذه إحدى العوامل الأساسية التي أدت إلى تخاف المجتمع الإسلامي ، وذلك كما يرى الدوري : أن سبب تلك النظرة هو اشتغال أهل الذمة والموالي فيها في أول الأمر [٤] ، على أن الإمام الغزالي كان له نظرة جيدة في ذلك فيقول : " فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة ، والسياسة بل الحجامة ، والخياطة ، فإنه لو خلا البلد من حجام تسارع الهلاك إليهم ، وخرجوا بتعريض أنفسهم للهلاك " [٥] .

وكان الصناع يزاولون حرفة أو مهنة معينة طوال حياتهم وكانت لكل مهنة مراتب يتدرج فيها العامل ، من المبتدئ وهو الذي يزاول الحرفة لأول مرة ، ثم الخليفة وهي دون الأستاذ ثم الأستاذ وأخيراً الرئيس [٦] ، ومما لاشك فيه أن سعة

(1) ابن بطلان : أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي ، رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، منشورة ضمن المجموعة الرابعة من نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ص٣٥٢ .
(2) الصابئ : كتاب الوزراء ، ص٢٢ .
(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٦ ، ص١٣٠ ؛ ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٠٨ .
(4) الدوري : نشوء الأحرف والأصناف ، ص٦٩ .
(5) الغزالي : أبي حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، ج١ ، ص١٢-١٣ .
(6) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص٣٨ ؛ إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، دار بيروت للطباعة ، ط١ ، ص٢٨٠ .

بغداد ونموها الحضاري كان يستلزم نشوء صناعات لسد حاجات أهلها فنشأت بها العديد من الصناعات الفاخرة حتى وصفت بأنها من أفخر الصنائع ووصف صناعها بالحذق والإعجاز [1] فقد اجتمعت في بغداد صناعات متفرقة في المحال ، تبعاً للتنوع السكاني الموجود بها .

ولأهل بغداد صناعات لا يشاركهم فيها أحد كصناعة الثياب البيض المروية ، وصناعة الزجاج المحكم من الأقداح والأقحاف والكاسات والطاسات والغضائر الحجرية ، ولهم اللاكاء [2] ، وتلبية لحياة الترف التي كان يعيشها الخلفاء والأمراء ، وأثرياء المجتمع تعددت صناعة الصياغة بأنواعها المختلفة كصناعة نقش الفضة [3] ، وصناعة الجواهر والمعادن الثمينة لأنها تشكل نوعاً من الادخار يجابه به الأغنياء غوائل الزمان [4] . وقد كان سوق الصاغة في باب الطاق ووصف بأنه بناء كبير شاهق عليه أساطين ساج فوقها غرف مشرفة ، وكان يعمل فيه الصاغة والنقاشون [5].

وقد كانت صناعة المنسوجات من الصناعات القديمة ببغداد كالابريسميات ، والقطنيات [6] ، وكثيراً ما يرد في المصادر ذكر العمامة الرصافية والتي يلبسها الخلفاء [7] ونستدل من اسمها أنها كانت تصنع في الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد ، وأشتهرت بغداد بالنسيج العتابي وله ببغداد محله تسمى بمحلة العتابين لنسيج الحرير العتابي ، وفيه الثياب العتابية [8] ، وكانت دار القز من مراكز معالجة القز ولم

---

(1) أبو المطهر الأزدي : محمد بن أحمد : حكاية أبي القاسم البغدادي ، مطبعة كردونتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢م ، ص٢٤ .

(2) ابن الفقيه : أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق : البلدان ، عالم الكتب ، بيروت ، ص٣٠٩ .

واللكاء : الجلود المصبوغة باللّك وهو ما ينحت من الجلود الملكوكة فتشد به السكاكين ، ابن منظور : لسان العرب ، ج٥ ، ص٥١٩ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٩ ، ١٧١ .

(4) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص٥٨ .

(5) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، تحقيق محمد زينهم ، ومحمد عزب ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص٤٢ .

(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص١٢٧ .

(7) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩٠ .

(8) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٢ ؛ ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٠ .

تذكر إلا في أخبار القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي ، فصارت كالمدينة وعليها سور كما كان يصنع فيها الكاغد [١] .

ولقد عددت لنا المصادر عدد كبير من أصحاب الحرف والصنائع في بغداد منهم ، الخبازون والوراقون [٢] والخطاطون والخياطون والخراصون ، والزرادون والوراقون والطباخون ، والطحانون [٣] والبنائون والطيانون [٤] والقيمون على الحمامات [٥] والصيارفة [٦] ، كذلك الآجريون والرصاصون [٧] والحصريون [٨] والنحاسون [٩] ومنهم أيضاً الحداداون والفصادون والحجامون [١٠] ، والدباغون والحمالون [١١] ، كما كان من الحرفيون الجزارون والنجارون والصفارون والمخاطون [١٢] ، والوساقية والبوابون والمؤذنون وحراس الدروب ، والنوتية أي الملاحون والطستدارية والسرندارية والمطربون والفراشون والسقائون والناقوسيون والنيارون [١٣] .

---

(1) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٢ ، والكاغد هو الورق البغدادي .

(2) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٤٣ .

(3) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٢٤ .

(4) ابن الجوزي : صفة الصفوة ، تحقيق محمد فاخوري ، دار الوعي ، حلب ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ج٢ ، ص١٧٢ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٥٠ .

(6) المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٢٨٦ ، ج٩ ، ص٦ .

(7) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٢٢ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢٠٢ .

(8) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠٨ .

(9) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٢٢ .

(10) الشيزري : عبد الرحمن بن نصر : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ص٧٩ ، ٨٩ ، ٩٥.

(11) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤١ ، ١٩٤ .

(12) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص١٨١ ، ج٩ ، ص٦١ ، والمخاطين هم باعة الفستق والبندق والزبيب والحلويات وهي شائعة عند البغداديين إلى الوقت الحاضر . بدري فهد : العامة ، ص٦٢ .

(13) النيار : هو الذي يصلح سدى الثوب قبل حياكته فيدخل خيوطه فيما يشبه النير ليكون صالحاً للحوك . مصطفى جواد ، هامش تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١٣٢ .

هذا وقد كانت المرأة تعمل إلى جانب الرجل لمساعدته في تحمل أعباء العيش ، كأن تساعد زوجها في نفس عمله في داخل منزلها أو أن تشتغل بالغزل ، وللحصول على أكبر قدر من الربح لجأت بعض العاملات في الغزل إلى الغش عند بيعهن كأن تندبه ليثقل وزنه في الميزان [١] ، ومن النساء من كن يشتغلن في غسيل الموتى [٢] ، وأخريات كن خبازات في بيوت الموسرين [٣] .

ثانياً : الفلاحون :-

لم يحظ الفلاحون كثيراً باهتمام المؤرخين كفئة عامة في المجتمع العباسي ، من ناحية عاداتهم الاجتماعية ، وطرق حياتهم اليومية على الرغم من أنهم كانوا يمثلون الغالبية العظمى من السكان ، إلا أننا ومن خلال القليل من المعلومات المتناثرة في بطون المصادر ، يمكن أن تعطي صورة مبسطة عن حياتهم في هذا العصر ، حيث كان يصنف الفلاحون ضمن العمال وأصحاب الحرف كفئة من فئات المجتمع ، وهم سكان القرى المحيطة ببغداد [٤] . كالبردان وبزوغي وباري والآثلة والاحواز وبابوني [٥] ، وصرصر والصراة ، وباقدري [٦] والمحمدية والمحول وأمثالهما [٧] .

وقد كانت حياة الفلاحين ببغداد حياة بسيطة بعيدة عن التعقيد الحضاري ، فالفقر والفاقة كانت تغلب على حياة أغلب الفلاحين ، وهي ظاهرة كانت لا تخلوا منها بغداد في هذه الفترة ، تبعاً للظروف السياسية والاقتصادية ، فلم يكن فقراء المدينة بأحسن حالاً من فقراء الريف [٨] ، وكان الفلاحون يتخذون الأكواخ أماكن لسكناهم

---

(1) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢٨٤ .
(2) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٣٦ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٦٩ .
(4) إبراهيم : ناجية عبد الله : ريف بغداد ، دار الشؤون الثقافية العلمية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص٣٥٧ .
(5) الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٩ ، ١١٧ ، ٣١٢ ، ٣٢١ .
(6) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٢٧ .
(7) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٦٦ .
(8) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣٣٥ .

فيما سبق [١] ، أما في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي اتخـذوا مـن الدور والمباني أماكن لسكناهم [٢] وكانت بسيطة ، تراعى فيها الشروط الصحية عنـد بنائها إلا أنها تتأثر بهطول الأمطار الغزيرة ، وسقوط البرد الكبار ، مما يؤدي إلـى تهديمهـا [٣] .

وقد شجع الخلفاء العباسيون الزراعة وبذلوا جهـوداً فـي إصـلاح الأنهـار والجداول لتسقي ساحات شاسعة من الأراضي الزراعية ، خاصة التي خربـت فتـرة السيطرة السلجوقية فقد قام المستنصر بإصلاح نهر الدجيل وسد ديالي العظيم [٤] حيث وصف ابن جبير الذي زار بغداد سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م الجانب الشرقي منها بأنه كله بساتين نخيل ممتدة على امتداد البصر ، كما تحدث عن العراق وازدهار مدنه وقراه ، لما أعجب بما شاهده بين الحلة وبغداد من البساتين والقناطر الكبيرة المتصلة ، كذلك أعجب ببساتين وحدائق الجانب الغربي من بغداد [٥] أيضاً الرحالة بنيامين التطيلي الـذي زار بغداد سنـة ٥٦٩هـ/١١٧٣م أعجب كثيراً ببساتين النخيل التي تحيط ببغداد [٦] .

ولم تكن الزراعة هي الحرفة الوحيدة التي يمارسها الفلاحون ، كان منهم مـن يشتغل بالصناعة أيضاً فقد كان يصنع في قرية باقدري نوع من أنـواع القطـن [٧] ، كذلـك حربي يصنـع بها الثياب القطنية [٨] واشتهرت قرية سبن بـصناعة الثيـاب الكتانية [٩] ، وكان الكرباس يصنع في قريـة الحظيرة ومنهـا الثياب القطيفية [١٠] ،

(1) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٤ .
(2) الإدريسي : محمد بن محمد : نزهة المشتاق فـي اختـراق الآفـاق ، مكتبـة الثقافـة الدينيـة ، القـاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، م٥٣ ، ص٢٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٤١٢ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٨١ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٤١٢ .
(4) ابن جبير : الرحلة ، ص١٧٠ .
(5) المصدر نفسه .
(6) بنيامين : رحلة بنيامين ، ص١٣٩ .
(7) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٢٧ .
(8) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٣٧ .
(9) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٨٦ .
(10) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٧٤ .

إلا أن المحاصيل الزراعية التي ينقلها الزراع من قراهم إلى الأسواق تعد مصدر ربح رئيسي للفلاحين ، وكانت محاصيلهم متنوعة ومتعددة ، منها الحبـوب كالحنطـة [١] والشعير [٢] ، والأرز والعدس والدخن والجلبان [٣] ، ومن البقـول كانـت البـاقلاء واللوبيا والحمص [٤] . ومن الخضروات والفواكه ، الباذنجان ، والقثاء ، والخيار [٥] ، ومن الفاكهة البطيخ والتمر والعنب وكان العنب يزرع في منطقة الزندورد عنها مـن أجود الأعناب التي تعصر في بغداد [٦] ، وكذلك التين ، والتفـاح والكمثـرى والخـوخ [٧] والرمان [٨] . أما ثرواتهم الحيوانية فكانت المواشي [٩] والدجاج والجاموس [١٠].

أما ملكية الأراضي فالسائد في المجتمع الملكية العامة للدولة وضياع الخلافة ، فهناك عدد من قرى بغداد تعد في جملة خاص الخليفة منها حربي وصيريفين كلاهما بكورة الدجيل وهما من خواص الخليفة المقتفي لأمر الله [١١] ، وهذه الأراضي تكـون خاضعة لتصرف الخليفة الكامل من بيع أو شراء وتعيين الموظفين والوكلاء لإداراتها كما حصل في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م حينما اشترى الخليفة الناصر بستان تاج الـدين ابن رئيس الرؤساء الواقع في الجانب الغربي لبغداد من أولاده بما يزيـد عـن ٣٠٠ دينار [١٢] وأيضاً هناك أملاك تعود إلى حاشية الخلافة وضياع تكون خاصة لأفراد من المجتمع غالباً ما يكونون من الأعيان والأكابر وتشمل الأقرحـة والبـساتين وتكـون

---

(1) ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، ١٨٨٩م ، ص٤٠٨ .
(2) ابن الجوزي : صيد الخاصر ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، ص٢٠٠ .
(3) هو نوع من الحبوب على صنفين أحدهما حلو يؤكل وآخر مر لا يؤكل إلا مطبوخاً . ابن البيطـار : ضـياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي : الجـامع لمفـردات الأغذيـة والأدويـة ، بغـداد ، ١٩٠٠م ، م٢ ، ص١٦٤.
(4) ابن الجوزي : المدهش ، مطبعة الآداب ، بغداد ، ١٣٤٨هـ ، ص٦٥ .
(5) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢٠١ .
(6) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١١٨ .
(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٧٠-٧٢ ، ج١٠ ، ص٢٤٧ .
(8) ابن الجوزي : المدهش ، ص٦٥ .
(9) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٣١ ، وأخبار الحمقى ، ص٢٢٩ .
(10) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٧٠ ، ٢٣١ ، وأخبار الحمقى ، ص١٢٨ .
(11) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص٢٨ .
(12) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٧٣ .

ملكيتها متوارثة [(1)] وغالباً ما يشار لهم بـ أرباب الأملاك [(2)] إلى من يقطعون قريـة كبعقوبا وبوهرز ، أما أرباب الضياع يشار بها إلى أصحاب الأراضـي [(3)] ، ومـن الملاحظ أن أرباب الأملاك كانوا يسكنون المدن ويعينون وكلاء عنهم فقد عين أمـين الدولة صاعد بن شمس الدولة سهل ابن عبد الله توما النصراني سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م لينظر في الأقرحة الخاصة والاصطبلات [(٤)] .

وقد كان الوضع الاجتماعي للفلاحين خلال هذه الفترة سيئاً نوعاً ما ، خاصـة أثناء التسلط الأجنبي ، فقد كانوا يجبرون على العمل مجاناً للشحن كما حدث فـي منطقـة الدجيل سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م حيث وزع الشحنة مساحة من الأرض على القرى فأصـاب كل قرية عدداً من الأفدنة ، فأخذ الفلاحين بالمقارع للعمل فيها [(5)] كذلك حدث فـي منطقـة نهر الملك حيث قام عاملها بإجبار الفلاحين على العمل بالسخره ، وانتقم الخليفة الناصر منه بقطع يده [(٦)] .

وكان غالباً ما يشكو الفلاحون من تعسف الضامنين [(٧)] من أجل الحصول على أكبر قدر من المال لكي يوفوا بعهدهم للدولة [(٨)] ، فلقد عاش الفلاحون طيلة النصف

---

(1) المصدر نفسه ، ص١٧٣ .

(2) المصدر نفسه ، ص٢٠٧-٢٠٨ ، حوادث سنة ٥٨١ .

(3) ناجية إبراهيم : ريف بغداد ، ص٢٤٩ .

(4) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٣ ، ص٢٨٨-٢٨٩ .

(5) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص٢٥٩ .

(6) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٣٤٩ .

(7) الضامنين من الضمين الكفيل ويقال : ضمن الشيء وبه ضمناً وضماناً ، كفل به وضمنه إياه كفلـه وضـامن وضمين ويقال : ضمنت الشيء ضمنته ضماناً فأنا ضامن وهو مضمون ، ابن منظور : لسان العـرب ، ج١ ، ص٤٥٠ ، والضامن هو تعهد شخص ما بدفع مبلغ معين من المال لخزينة الدولة سنوياً مقابل السماح له بجباية ما يستطيع من أهل ولايته . ناجية إبراهيم : ريف بغداد ، ص٢٣٧ .

(8) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١١٨ .

الثاني من القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس الهجـري تحـت حكم السلاجقة وقعت قسوة جندهم وما يقومون به من نهب وسلب واستباحة لأراضـي الفلاحين ، لا يرتدعون إلا بأمر السلطان وحده كما حدث في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، في عهد السلطان ملكشاه وفي عهد السلطان مسعود [١] . مما دعـى بـالفلاحين إلـى النزوح إلى المدن طلباً للنجاة ، وبعد أن تهدأ الأمـور يعـود أكثـرهم إلـى قـراهم ومزارعهم ، إلا أن منهم من ينزح نزوحاً نهائياً للمدن ، حيث التجأ كثيـراً منهم إلـى الربط الصوفية داخل بغداد ، ليعوضوا ما افتقدوه من روابط اجتماعية ، الـسبب فـي بعدهم عن أهلهم وأراضيهم برابط اجتماعي جديد فتوثقت العلاقات الاجتماعية فيما بين شيوخ الصوفية وكبار الزهاد وبين أبناء الريف والمهاجرين ، فقاموا بإحيـاء الأرض الموات عن طريق ردم المستنقعات وشق الطرق وخير مثال على ذلك الـشيخ أحمـد الرفاعي منشئ الطريقة الرفاعية في البطائح [٢] .

ولم يكن جند السلاجقة وحدهم الذين يثيرون خوف وهلع الفلاحين وإنما كذلك الأعراب الذين ينتمون لبني مزيد بالحلة أو إلى قبيلة خفاجه بالأنبار ، فقـد تكـررت هجماتهم على سواد بغداد خاصة بنو مزيد [٣] ، كما حدث في سنة ٥١٤هـ ـ/١١٢٠م مما دعى بالفلاحين إلى هجر قراهم ، ثم العودة إليها عندما شعروا بابتعـاد الخطـر عنهـا [٤].

ومن الأضرار التي يتعرض لها الفلاحون حوادث الغرق جـراء الفيـضانات التي توالت على بغداد منذ منتصف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي ، فأخذت مشاريع الري تضمحل مما أدى إلى تكرار حوادث الفيضانات خـلال سـنين ٥٦٩هـ/١١٧٣م و ٦١٤هـ/١٢١٧م و ٦٥٣هـ/١٢٥٥م و ٦٥٤هـ/١٢٥٦م فيعود

---

(1) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص٢٤ ، ٢٠٨ .

(2) العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٩ ؛ أحمد صالح العلي وآخـرون : العـراق فـي التـاريخ ، ص٤٥٣ . البطائح : هي أرض واسعة بين واسط والبصرة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٥١.

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٣٤ ، ص٢١٧ .

(4) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١٣٤ ، ١٣٧ .

سبب تكرار الفيضانات إلى إهمال مراقبة أنظمة الري ومنشآتها ، كذلك كـان لخطـة التقتيل التي انتهجها المغول لها أثرها في شل حركة الأيدي العاملة [1] .

ثالثاً : الباعة :-

وهم الذين يقومون ببيع الاحتياجات اليومية للناس ، فظهرت جماعـة واسـعة منهم ، وينقسمون إلى قسمين :

أ- باعة ثابتون وهم أصحاب الحوانيت والمخازن المستقرون في أسواقهم .

ب- والباعـة الجوالون " الطوافون " الذين يطوفـون فـي أسـواق بغـداد وشوارعها [2] .

أ- الباعة الثابتون :-

يختلف الباعة الثابتون باختلاف المواد التي يبيعونها فمنهم باعة الطعام ، مثل باعة الهريسة وهي من أطعمة الشتاء ، وكانوا يطبخون هريستهم بـاكراً ويقـصدها الزبائن عند خروجهم للصلاة الأولى ، وكانت السيدات يشترينها من السوق ويقـدمنها على موائدهن [3] ، وكان للهراسين مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصر والموائد وخدام وطشوت وأباريق وأشنان فإذا انحدر الرجل دفـع دانقـاً [4] ، ومـنهم باعـة اللحـم الجزارون [5] ، وباعة الغنم والخيل والجمال والطيوريين " باعة الطيور " [6] وباعـة السمك نيئاً ومشوياً ومقلياً [7] وكان للسماكين محله عرفت بقنطرة السماكين وفـرض

---

(1) أحمد سوسة : الفيضانات وغرق بغداد في العصر العباسي ، ص٦٤ .

(2) المسري : تجارة العراق في العصر العباسي ، ص١٠٠ .

(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١١ ، ص١٧٨ ؛ ابن الجوزي : الأذكياء ، تحقيق مرسي الخولي ، مطابع الأهرام ، ١٩٧٠م ، ص٢٢٥ .

(4) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٢٩ ، والدانق : سدس الدرهم وربما قالوا للدانق دانقان كمـا قـالوا للـدرهم درهمان . الكرملي : النقود وعلم النميات ، ص١١ .

(5) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص٢١٨ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٨١ .

(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٤ ، أخبار الحمقى ، ص١٢١ .

(7) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٤ ، ص٣٣٢ .

المحتسب عليهم نظافة أسماكهم لئلا تنتن ، كما أمر الشوائين منهم أن يكـون إعـداد السمك أمام زبائنهم [١] .

كما انتشر في بغداد البقالون ، وهم أصـحاب الحوانيـت الـصغيرة وكـانوا أصحـاب بيوعات يسيرة ، فهم يبيعـون الحبـوب كالحنطـة والـشعير ، وكـذلك الخضروات ، كالسلق والبقل [٢] ، ويبيعون التمر والرمان [٣] ، كما كان هناك باعـة الحطب والشوك [٤] ، وباعة الحصر [٥] وباعة المراوح " المروحيون " [٦] .

وقد كان لكل طائفة من الباعة سوق خاصة بهم كالتجار ، فكان هنـاك سـوق البزازين [٧] وسوق العطارين ، وسوق الخبازين [٨] ، وسوق دار البطـيخ [٩] وهـي سوق خاصة ببيع الفواكه ، وسوق الطعام [١٠] ، ويباع فيها أنواع الحبوب ، وقنطـرة الأشنان [١١] وهي سوق يباع فيها الشنان ، وهناك أيضاً باب سوق التمر ووصف بابها بالارتفاع الشاهق ، وقد أغلق هذا السوق زمن الخليفة الناصر ، واستمر مغلقاً حتـى زمن ياقوت الحموي [١٢] (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وسوق الريحانيين وكانت تباع فيه أنواع الرياحين والورود والفواكه تعبق الجو ، ولها باب يعرف بدرب الريحان [١٣] ، وفـي

---

(1) ابن الأخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشي : معالم القربة في طلب الحسبة ، مطبعة دار الفنون ، لمبرج ، ١٩٣٧م ، ص١١١ .

(2) البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٦ ، ص١٦١ .

(3) المصدر نفسه ، ج١١ ، ص٤٤ ؛ ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٥٠ .

(4) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١١٢ ؛ ابن الجوزي : المدهش ، ص٢٩٥ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٤ ، أخبار الحمقى ، ص١٢١ .

(6) ابن الأخوة : معالم القربة ، ص٢٣٨ .

(7) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١٢ ، ص٣٠ .

(8) الشيزري : الرتبة في طلبة الحسبة ، ص٢٢ ، ٢٣ ؛ ابن الجوزي : الأذكياء ، ٦١ ؛ ابـن الـساعي : نـساء الخلفاء المسمى بجهات الأئمة من الحرائر والإماء ، تحقيق مصطفى جواد ، دار المعارف ، مصر ، ص١١٣.

(9) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤١٩ .

(10) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص٢٢٢ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٨١ .

(11) الشنان أو أشنان : تغسل به الثياب والأيدي وهو نبات له أغصان دقاق كثيرة المياه وألطفها الأبيض ، ابـن البيطار ، مفردات الأغذية ، م١ ، ص٣٧ .

(12) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم البغدادي ، ص٢٢ .

(13) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم البغدادي ، ص٢٢ .

هذا السوق تقوم دار الرياحين وتعرف بدار الضرب ، وهذه الدار أنشأها المـستظهر بالله (٥١٢هـ/١١١٨م) للسيدة أخته بنت المقتدي ، فقد نقض سـوق الـسفطيين [1] ، وكان عدد حوانيت هذا السوق يصل إلى اثنين وعشرين حانوتاً ، كذلك نقـض خـان يعرف بخان عاصم وثلاثة عشر دكاناً من ورائه ، وجميع سـوق العطـارين وعـدد حوانيته ثلاثة وأربعين حانوتاً ، وحوانيت الذهب وكانت ستة عشر حانوتاً ، وانشأ في موضعها دار مربعة تحتوي على أكثر من ستين غرفة [2] ، ومن أسواق الباعة فـي الجانب الشرقي من بغداد سوق الثلاثاء ويعقد مرة واحدة كل شهر في يـوم الثلاثـاء وكان يباع فيه البز . يصفه ابن بطوطة والذي زار بغداد سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٧م) ، فيقول : " من الجهة الشرقية سوق تعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدى " [3] .

وكان أصحاب هذه الأسواق من الباعة يربطهم مع بعضهم البعض رباط المهنة أو الصنعة فيقومون على حراسة أسواقهم ليلاً إذا ما شعروا بخطر يهددها [4] ، وكان للأسواق دور اجتماعي واقتصادي في حياة الناس ، فقد كانت الأسواق تغلق إذا توفى خليفة [5] أو أحد العلماء المشهورين مثلما حدث عندما توفي أبو الحـسن علـي بـن المبارك المقـرئ ويعرف بابـن الفاعوس سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) فانقلبـت بغـداد بموته [6] ، وهناك سوق الكتب في بغداد وكانت مجمعاً للعلمـاء والفـضلاء وأهـل المعرفة والرؤساء ، تعقد في بعض دكاكينها مجالس علمية رائعة يدور فيهـا النقـاش والمحاورات العلمية بعد أن يكتمل عقد المجلس بحضور عدد من العلماء ، إضافة إلى أن الأسواق عامة كانت ملتقى لفئات المجتمع عامة ، وكثيراً ما كانت تدور الأخبـار بين الناس فيها ، فكانت بمثابة مركز إعلامي لمعرفة ما يدور فـي حيـاة المجتمـع البغدادي عامة .

(1) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٠ . وهم حاكة سلال السعف الزنابيل .
(2) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤٢٠ .
(3) ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الداني ، رحلة ابن بطوطة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ص٢٠٠ .
(4) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج١ ، ص٣٧١ ، ج٤ ، ص٥٤ ، ٥٦ ، ٧٢ .
(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٤٦ .
(6) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٧ .

ب- الباعة المتجولون :-

ويسمون " بالطوافين " [(١)] لأنهم يطوفون في أسواق بغداد وشوارعها ويأخذون بالمناداة على بضائعهم ، أو أنهم يقصدون المساجد لبيع بضائعهم على المـصلين ، أو الجلوس في طرف السوق .

إلا أن أهل الأسواق لم يرتاحوا لوجود الباعة المتجولين بقربهم في الـسوق ، زمن الخليفة المستنجد في سنة (٥٥٦هـ/١١٦٠م) تظلم أهل السوق إلى المـستنجد ، فأجابهم إلى طلبهم ، وأمر ابن الثقفي قاضي القضاة ، أن يمنع الباعة المتجولون مـن الجلوس في الطرقات أو في رحبة الجامع وفي الأسواق [(٢)] لحفظ حقـوق أصـحاب الحوانيت ولعدم التزامهم بالشروط الصحية ، كما أمر أيضاً بأن يـنقص مـن طـول المصاطب البارزة في الأسواق التي يحدث فيها الازدحام [(٣)] ، وكان الباعة المتجولون يبيعون المشروبات مثل شراب السوس ، وكانوا يعتنون بمظهرهم ويـصقلون آنيـتهم التي يباع فيها الشراب ويطيبون مشروباتهم بالمسك ويسكنونها في كيزان من الزجـاج [(٤)] ، ومن الباعة المتجولين باعة الأدوية والأطعمة والكتب [(٥)] ، وكان لهم متولي لأمرهم يعرف بمتولي الباعة [(٦)] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٤٤ .

(2) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٩٩ .

(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٩٩ .

(4) ابن الجوزي : أخبـار الظراف والمتماجنين ، بإعتناء طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبـة الكليـات الأزهريـة ، القاهرة ، ص٣١ .

(5) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٣٧ .

(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٢٢ .

الصوفية :

لم تكن الصوفية فئة اجتماعية وليدة عصرها خلال هذه الحقبة ، وإنما هي امتداد لما كان قبل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، على أن الصوفية في هذا القرن وما بعده من القرون أنهم بأربطتهم وزواياهم التي تعرف بالخانقاه [١] وفكرهم أثروا تأثيراً مباشراً في المجتمع ، بعاداتهم الاجتماعية التي انتشرت بين فئاته المختلفة باختلاف مراكزهم السياسية والاجتماعية والفكرية فأصبحوا يمثلون فئة اجتماعية لها مركزها الاجتماعي ، وأصبح لرجالتها وضعهم الاجتماعي الخاص في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء ، أسوة بكبار رجال الدولة [٢] .

والجدير بالذكر أن ظاهرة الزهد والتصوف ، وطائفة المتصوفة ليسوا فرقة دينية ثابتة الآراء والأهداف في تاريخها ، وإن كان هناك تماثل في الطريقة ، لذلك ليس من السهولة بمكان وضع تعريف ومفهوم للتصوف ، لأن له في كل عصر مفهوم خاص به [٣] .

إلا أن تسمية الصوفية غلبت على هذه الطائفة فيقال : " رجل صوفي " وللجماعة " صوفية " ومن يتوصل إلى ذلك يقال " متصوف " وللجماعة " متصوفة " ، فنجد أنه كاللقب فهناك من قال أنه من الصوف ولهذا يقال : تصوف إذا لبس الصوف [٤].

وممن عرف بالتصوف الشيخ معروف الكرخي المتوفي عام (٢٠٠هـ/٨١٥م) فإنه يرى : " أن التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف " [٥] .

---

(1) الخانقاه : رباط الصوفية معرب استعمله المتأخرون . الخفاجي : شفاء الغليل ، ص١١٣ .

(2) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ .

(3) العسيري : الحياة العلمية في العراق ، ص١٤٣ .

(4) القشيري : أبو القاسم عبد الكريم : الرسالة القشرية ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود الشريف ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ج٢ ، ص٥٠٠ .

(5) السهروردي : أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمرية : عوارف المعارف ، مكتبة القاهرة ن مصر ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص٥٤ .

أما الجنيد البغدادي المتوفي عام ٢٩٧هـ ـ/١٩٠٩م فمـن تعاريفـه للـصوفية قولـه : " التصوف هو تصفية القلب من مراجعة البشرية والابتعاد عـن الـدواعي النفسانية ، والنزول على الصفات الروحانية ، والسمو إلى العلوم الحقيقية ، ونـصيحة الأمة كلها والوفاء في العمل بالحقيقة ، ومتابعة النبي في الشريعة " (١) .

أما الشيخ عمر السهروردي المتوفي عام ٦٣٢هـ/١٢٣٤م فيذكر بأنـه هنـاك فرق بين الزهد والفقر والتصوف في قوله : " التصوف غير الفقـر ، والزهـد غيـر الفقـر ، والتصوف غير الزهد ، فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهـد ، مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً ، وإن كان زاهداً وفقيراً " (٢) .

وعلى الرغم من أن الزهد في الدنيا كان غالباً على المسلمين في صدر الإسلام إلا أنهم لم يختصوا بتسميات معينة ، إنما كان يقال زاهداً وعابـداً فيقول ابن الجوزي " كانت التسمية في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام ، فيقال مسلم ، ومـؤمن ، ومن ثم زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة انفردوا بها .. " (٣) .

فالتصوف كان منهج وطريقة ، كثير من العلماء ينتسبون إليه وينقطعـون إلـى العبادة والزهد عمل الخير ، فيمكن أن يكون الرجل سنياً متصوفاً أو شيعياً متصوفاً أو معتزلياً متصوفاً (٤) . وبذلك يختلف التصوف من فرقه إلى أخرى من الفرق الإسلامية التي ظهرت في بغداد خلال هذه الفترة وما قبلها ، ففي كل فرقة زهاد وعباد (٥) .

ولقد تناول عدد من العلماء والباحثين التصوف ، وماهيته وأهدافه كـل حـسب اتجاهه وفكره ونحن لا نفصل الحديث عن التصوف خلال هذه الفترة التي تمتد قرنـاً ونصف القرن من الزمان ولكننا نتلمس الأثر الاجتماعي للمتصوفة الذين أثروا تـأثيراً

---

(1) العطار الهمذاني : فريد الدين محمد بن إبراهيم النيسابوري : تذكرة الأولياء ، طهران ، ١٣٢١هـ/١٩٠٢م ، ص٣٥-٣٦ .
(2) السهروردي : عوارف المعارف ، ص٥٥ .
(3) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٩٩ .
(4) العسيري : الحياة العلمية في العراق ، ص١٤٣ .
(5) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٩٩ .

كبيراً في الحياة الاجتماعية ، فأصبح التصوف سمة لفئة كبيرة من المجتمع ليس العامة فقط بل الخاصة أيضاً ، فقد كان الخليفة المسترشد بالله قبل توليه الخلافة يتنسك ويلبس الصوف ، وينفرد في بيت للعبادة ، فالظروف السياسية والاقتصادية ، كانـت عـاملاً لانتشار الزهد والتصوف كظاهرة اجتماعية ، شملت من آثر الزهد والتعبد والعـزوف عن الدنيا والانزواء وحب الوحدة ، إضافة إلى أن انتشار الفساد والتفسخ الخلقي ، أدى إلى كثرة الوعاظ الزاهدين الذين أثروا في الناس ، فهذا الأمير سليمان بن نظام الملـك متولـي المدرسة النظاميـة حضر أحد مجالـس أبي الفــرج عبـد الـرحمن بـن الجوزي ، " فتواجد ومزق ثيابه ، وكشف عن رأسه وقام وأشهد الواعظ والجماعة أنه قد أعتق ما يملك من الرقيق ووقف أملاكه ، وخرج عن جميع ما يملكه " [(1)] .

كما أن كثيراً من أعيان الدولة تصوف وأقام في الأربطة فهذا حسام الشرف أبو الكرم بن محمد كان والياً ببغداد وفي سنة (٥٣١هـ/١١٣٦م) قُبِض عليه ثم التجأ إلى رباط أبي النجيب عبد القاهر السهروردي ، فتاب وحلق شعره ولبس خرقة التـصوف في سنة (٥٣٨هـ/١١٤٣م) [(٢)] ، وأبو الحسن محمد بن المظفر بن علي بن المسلمة بن رئيس الرؤساء (ت٥٤٠هـ -١١٤٥م) تصوف وجعل داره رباطاً للصوفية [(٣)]، كـذلك الكمال حمزة بن علي بن طلحة (ت٥٥٦هـ/١١٦٠م) صاحب المخزن [(٤)] ولي للمقتفي وبنى مدرسة لأصحاب الشافعي بالقرب من داره ثم حج وحين عاد من الحـج لـبس الفوط وزي الصوفية وترك الأعمال [(٥)] .

وشمل التصوف الوزراء أيضاً فكـان الحـسن بـن هبـة الله بـن المطلـب (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) وزيراً صوفياً وجعل داره رباطاً [(٦)] للصوفية فنشأ ابنه أبو أحمد

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٠٦-١٠٧ .

(2) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٠٩-٣١٠ .

(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٢ .

(4) صاحب المخزن الذي يتولى مخزن الخليفة وهو بيت المال الذي يخزن فيه كل ما يدخل إيراداً للدولـة أو مـا يخرج من وجوه الصرف . ابن دقماق : أبي المكارم سعيد بن مماتي : قوانين الدواوين ، مـصر ، ١٢٩٩م ، ص١٠ .

(5) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١٦٨ .

(6) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٣ ، ص١٥٥ .

داود الوزير أبي الفرج بن أبي الفتوح المعروف بابن رئيس الرؤساء على لبس القصير وصحبة الصالحين ومخالطة الفقراء [١] .

إن من الجهل هو الاعتقاد في الأولياء والتبرك بالقبور وغيرها فقد أدى اهتمـام المجتمع بالزهد والتصوف أن دعى كثيراً ممن ينتسبون إلـى التـصوف إلـى التألـه والمعرفة وإدعاء الأمور الخارقة ، وكان أشهر رجال الصوفية في هذه الفتـرة أحمـد الرفاعي المتوفى سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) ، وشاعت طريقته في قرية أم عبيده القريبة من مدينة واسط ، وانضم إليه خلق من الفقراء وأحسنوا فيـه الاعتقـاد ويقـال لهـم الأحمدية والبطائحية ، وكانت لهم أحوال عجيبة كأكل الحيات حيـة ، والنـزول إلـى التنانير وهي تضرم ، والدخول إلى الأفران وينام أحدهم والخباز يخبز فـي الجانـب الآخر كما كانوا يرقصون في السماعات على النيران إلى أن تنطفئ [٢] فقد كانت حياة المتصوفة في هذه الفترة حياة غريبة فيها الكثير من الجهل ، وقد أثروا على العـوام ، فكانوا يقومون بتلك الأعمال العجيبة وينسبونها إلى الولاية والكرامة ، فكان من عادات المتصوفة ، لبس خرقة التصوف ، وهي ارتباط بين الشيخ وبين المريد ، وتحكم مـن المريد للشيخ في نفسه ، وكان الشيخ يلبس المريد خرقاً في دفعات ، على قدر ما يرى من المصلحة للمريد من تداوي هواه في الملبوس والملون ، فكان يختار الأزرق لأنـه أوفق للفقير ويتحمل الوسخ ، ولا يحتاج إلى زيادة في الغسل وهو مـن آرائهـم [٣] ، أيضاً من عاداتهم حبهم لسماع الأغاني والرقص [٤] . فيقول علي الدقاق : " الـسماع حرام على العـوام مباح للزهاد ، لحصول مجاهدتهم ، مستحب لأصـحابنا ، لحيـاة قلوبهم " [٥] .

وحكى جعفر بن نصير عن الجنيد أنه قال : تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن عند السماع ، فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ، ولا يقولون إلا عن وجد ، وعند

---

(1) مجهول : إنسان العيون ، ورقة ١٤٨ .

(2) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٧ ، ص١٤٣ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٩ .

(3) السهروردي : عوارف المعارف ، ص٩٢-٩٨ .

(4) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢٧٤ .

(5) القشيري : الرسالة القشيرية ، ج٢ ، ص٦٤٤ .

أكل الطعام ، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم ، فإنهم لا يـ ذكرون إلا صفات الأولياء [١] ، فجرت عادت الصوفية أن يعملوا الدعوات في دورهم للـ سماع ، وعند بناء رباط أو دار جديدة ، ففي سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م) كانت دعوة فـ ي الـ دار الجديدة التي بناها الخليفة المستنجد بباب الغربة وحـ ضر أربـ اب الدولـ ة ومـ شايخ الصوفيـ ة ، وبات قوم على السماع [٢] .

وفي عام (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الـ شيوخ ببغداد [٣] ، وكان معهم مغني يغني وفيهم صوفي اسمه أحمد بن إبراهيم يعرف بالزين الرازي ، فغنى المغني بقول الشعر :

أعاذلتي أقصري كفى بمشيبي عذل ** شباب كأن لم يكن وشيب كأن لم يزل

وحق ليالي الوصال وأخرها والأول ** وصفرة لون المحب عند استماع العذل

لئن عاد عيني بكم ** حلا العيش لي واتصل

فتحرك الجماعة على عادة الصوفية وطرب الزين الرازي وتواجد فتزايد مـ ن الطرب إلى أن غشي عليه ثم مات [٤] ، وكان العامة من جهالتهم ينسبون الولاية إلـ ى بعض البلهاء ، فهذا حميد الزيزي رجلٌ أبله يمشي عريـ ان مكـ شوف الـ سوءة فـ ي الأسـ واق على أشنع ما يكون منظراً أسود اللون من القذر والرماد الذي كان ينام فيه ، ومع ذلك كان العامة يعتقدون فيه ويظنونه ولياً من أولياء الله تعالى وحين وفاته سـ نة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) شد تابوته بالحبال وتبع جنازته خلق كثير من الناس ، واسـ تمروا يزورون قبره وينذرون له النذور [٥] . فالجهل بالدين عند العامة أعطى للبعض فرصة إلى اختراق عقولهم واستغلالهم فقد كان أحمد بن الهروي النحـ وي يظهـ ر الجنـ ون

---

(1) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٦٤٥ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠٨ .

(3) هو رباط شيخ الطريقة الرفاعية أبي العباس السيد علي الرفاعي المتوفى (٥٧٨هـ/١١٨٢م) . ابـ ن العمـ اد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٩ .

(4) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٥٥٦ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١١٧ .

(5) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٥ .

والبله ، وإذا برصيده يرتفع وبسوقه تروج [1] ، والعجب أن الحكومة كانت تسجنه لأنه كان يؤثر على العوام بآرائه مما يسبب الاضطراب في البلاد ، كما يذكر ابن الفوطي ، ثم تطلق سراحه وتخصص له مبلغ ثلاثين ديناراً في كل سنة ، وربما أرادت الحكومة مـن ذلك امتصاص غضب العامة ومداراتهم وكسب رضاها لما رأت من شدة تعلقهم به ، فعلى الرغم من جهالة البعض بالدين وعدم التزامهم بـصلاة أو صـيام ، إلا أن العامة تتعلق بهم لما يدعون من الكرامات فهذا إبراهيم بن سعيد الشاغوري المولّه مات سنة (٦٨٠هـ/١١٨١م) كـان على قاعدة المولهين من عدم التعبد بصلاة أو صيام أو طهارة ، وأن ذلك يبعده عن مجتمع المسلمين ولكن مقاييس الكرامات التـي سـيطرت على العامة جعلتهم يعتقدون فيه اعتقاداً تجاوز الوصف لما يرونه من كـشفه وكلامـه على الخواطر [2] .

ووصف لنا ابن بطوطة رباطاً للمتصوفة في قرية أم عبيدة حينما زار بغداد سنة (٧٧٢هـ/١١٧٦م) ذكر فيه آلاف الفقراء ووصف حفلة من حفلات المتـصوفة التـي يطلقون عليها الدعوات ، وشهدها بنفسه فبعد صلاة العصر ضربت الطبول والـدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبـز الأرز والـسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا صلاة العشاء ، وأخذوا في الذكر والـشيخ أحمـد كوجك حفيد الرفاعي جالس على سجادة جده المذكور ، ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا أحمالاً من الحطب فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفأوها وهذا رأيهم ، كما كان أصحاب الطائفة الأحمديـة يعملون أعمالاً غريبة كهذه فمنهم من يأكل الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسـها حتى يقطعه [3] .

ولم يكن جميع المتصوفة بهذا المقياس من الفكر المبتدع من مـدعي التـصوف والأمور الخارقة والتأله والمعرفة ، وإنما هناك عدد من الصالحين العـارفين الأتقيـاء الذين انصرفوا عن الدنيا مع الحفاظ على معتقداتهم الدينية وأثروا في الحياة الاجتماعية

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٠٢ .

(2) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٣٦٦ .

(3) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص١٣٨ .

للناس بما ألقوه ودرسوه لتلاميذهم منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ/١١٦٥م)، قال عنه سبط ابن الجوزي " كان سكوته أكثر من كلامه فظهر له صيت عظيم وقبول تام ، وتاب على يده معظم أهل بغداد ، وأسلم اليهود والنصارى " (١) .

كان يعظ الناس ويؤثر فيهم وكان كتابه " الغنية لطالبين طريق الحق " يحتوي على أمور فقهية عامة ، تحث المريدين والمتصوفة على النظافة بأنواعها ، والاهتمام بالمظهر ، والالتزام بآداب الطعام واللباس والسلوك الاجتماعي المعتدل والالتزام بالشرع الإسلامي وأن لا يخالط المقصرين والبطالين (٢) ، وأصبح هذا الكتاب يقرأ من قبل الزهاد والمتصوفة (٣) ، كذلك كان الشيخ عمر السهروردي (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) كانت له مكانة اجتماعية مرموقة في الدولة ، ذكرناه من ضمن العلماء السفراء لدار الخلافة ، تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة ، أخذ التصوف عن أبي النجيب السهروردي والشيخ عبد القادر الجيلاني ، كان أرباب طرق الصوفية الأخرى يكتبون إليه الرسائل ويسألونه فيها أن يفتيهم فيما يشكل عليهم من أمور (٤) ، كما ذكر في كتابه (عوارف المعارف) شرح لأمور الصوفية وتعريف الرباط والمشيخة ، وأحوال الصوفية وآدابهم خاصة بين الشيخ والمريد ، وآداب المريد وآداب الخلوة وغير ذلك من تعاليم هذه الطريقة (٥) ، وكان لابن الجوزي رأيه الذي يخالف به أبناء عصره وزمانه ، فقد انتقد كثيراً من الصوفية ، سواء كانوا على مذهبه الحنبلي أو من المخالفين له خاصة الذين لا يلتزمون بآداب الصوفية (٦) .

---

(1) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٦٤ .

(2) عبد القادر الجيلاني : كتاب الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية ، البابي الحلبي ، ١٣٦٥هـ/١٩٥٦م ، القاهرة ، ص١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(3) ابن رافع السلامي : أبو المعالي محمد : تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار ، انتخبه التقي الفاسي المكي ، نشر عباس العزاوي ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ص٢٠٥ – ٢٠٧ .

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١١٩ .

(5) السهروردي : عوارف المعارف ، ص٢٥٠-٢٦٨ .

(6) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢١٧ ، ٤٠٢ .

وقد انتشر التصوف في هذه الفترة على نحو أخص بين الفقراء الذين اتخذوا من الأربطة ملاذاً لهم من الفقر كما أن تواكل البعض منهم كان سبباً لفقرهم [(1)] . فيذكر لنا ابن الجوزي ما قاله ابن عقيل عن الصوفية فيقول : " نقلته من خطه وأنا أذم الصوفية لوجوه يوجب الشرع ذم فعلها منها : أنهم اتخذوا مناخ البطالة وهي الأربطة ، فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد ، فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات ، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش ، وبدنوا أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء وعولوا على الترقيع المتعمد به التحسين تلميعاً ، والمشاوذ بألوان مخصوصة أوقع في نفوس العوام والنسوة ، من تلميع السقلاطون بألوان الحرير " [(٢)] ، فقد كانت الأربطـة والزوايا هي مسكن الصوفية فكانت أعداد كبيرة من الفقراء تتجه إليها خاصة لما أولاه الخلفاء والأمراء وكبار الأعيان من اهتمام بها ، ووقـف الأوقـاف عليهـا وترتيـب الموظفيـن والمشرفين على هذه الأوقاف لصرف وارداتها على الأربطة ومن يـأوي إليها [(٣)] ، فيقول ابن الجوزي في هذا الشأن : " وهذا الذي نهينا عنه من التقلل الزائـد في الحد قد انعكس في صوفية زماننا فصارت همتهم في المأكل لهم الغـداء والعـشاء والحلوى وكل ذلك أو أكثره حاصل من أموال وسخة ، وقـد تركـوا كـسب الـدنيا وعرضوا عن التعبد ، وافترشوا فراش البطالة ، فلا همـة لأكثـرهم إلا الأكـل واللعـب " [(٤)] . ولذا فقد كان من نتائج التصوف هو انتشار البطالة بين الناس لأنهـم وجدوا المساكن والمآكل وتركوا الأعمال التي يرتزقون منها .

وقد اهتم الخلفاء بأمر الأربطة لعل ذلك لأهداف سياسية ، فكان مشايخ الربـاط يرتبون أو يعزلون بأمر من الخليفة وكان هناك شيخ الشيوخ لمشايخ بغـداد [(5)] وكـان الشيخ هو الرئيس الأعلى في الرباط ويختار ممن اشتهر بالتصوف والزهد ، ومهمتـه

---

(1) العسيري : الحياة العلمية ، ص١٤٧ .

(2) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٤٤٨ .

(3) ابن الدبيثي : التاريخ المذيل ، ص٨١ .

(4) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢٢١ .

(5) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٣ ، ص٩٩ .

الإشراف على الرباط وترتيب المريدين ، كما كان هناك خادم لتنظيف الرباط والسهر على راحة النزلاء فيه وقد اعتبروا الخدمة في الرباط أفضل من القيام بالنوافل [1] .

ولم يكن الرباط سكناً فقط بل كان محلاً للدراسة أيضاً وقراءة القرآن [2] ، كمـا كانت تقام احتفالات الصوفية وأعراسهم ، فكان إذا توفي أحدهم ، يعملون وليمة كبيرة ويدعون كبار رجال الدولة ومشايخ الربط ويقدمون فيهـا ألـوان الطعـام والـشراب والحلوى [3] ، كما كانت مأوى للصوفية الغرباء وأيضاً ينزل فيه الغربـاء مـن أهـل البلـد [4] ، فيقدم لهم الطعام من أوقافها الخاصة للغرباء فيذكر لنا السهروردي أنه من المفروض بمن يسكن الرباط ويأكل مما يقدم فيه أن يكون من الـصادقين الـصالحين الذين شغلوا بذكر الله عن العمل والكسب [5] ، وهو بذلك يفرق بين الاتكاليين العاطلين القادرين على الكسب وبين غيرهم ممن أحتاج لسكن الرباط من المتصوفة .

---

(1) السهروردي : عوارف المعارف ، ص٩٢ .
(2) المصدر نفسه ، ص٩٩ .
(3) ابن الجوزي ، ج١٠ ، ص٣٧ ، ١٢١ .
(4) السهروردي : عوارف المعارف ، ص٩٢ .
(5) المصدر نفسه ، ص٩٢ .

الشطار والعيارون :

هم الفئة المطحونة في المجتمع ، لون آخر من ألوان الثورة علـى الأوضـاع الاجتماعية والاقتصادية ، فقاموا بأعمال كثيرة ، تمثلت في السلب والنهب والـسرقات مستخدميـن السلاح ، في ذلك ، فالظـروف المعيشية السيئـة التي كانوا يعيشونهـا دفعت بهـم في بعض الأحايين إلى سرقة الحوانيـت والأسـواق وبيـوت الأعيـان للحصول منها على الأموال [١] ، فلقبوا بالعيارين جمع " عيار " [٢] أو الشطار جمـع " شاطر " وكثير من المؤرخين من وصفهم باللصوص ، وإثـارة الفوضـى والفـساد ، والواقع أنهم لم يكونوا لصوصاً بل كانوا يأخذون الأموال من الأغنيـاء ، ومـن ثـم توزيعها على الفقراء [٣] ، فهدفهم حماية الفقراء وإسعادهم ، فهـم يقولون : " الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة " [٤] فأسلوبهم واتجاههم يختلف عن اللصوص ، فما هم إلا أحد مخرجات الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تمثلت في الترف والغنى الفاحش الذي تميزت به طبقة الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولـة ، والفقر المدقع الذي يشمل السواد الأعظم من الطبقة العامة .

والجدير بالذكر أن الشطار والعيارين هم الفتيان الذين عرفت حركتهم بالفتوة في كتب التراث الإسلامي ، فيقول الجنيد البغدادي " الفتوة كف الأذى وبذل الندى " [5] كما اعتبرت حركة الفتوة بأنها " خصلة من خصال الدين ، وصفه مكملة للعارفين ، وهـي عهد بين الكبير ورفيقه على التمسك بقانون الـدين القـويم ، والعمـل بالقـسطـاس

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٢٠ ، ص٥١ ، ج٨ ، ص٤٤ ، ص٤٧ ، ص٥٤ ، ص55 .

(2) العيار في اللغة الكثير المجيء والذهاب في الأرض . ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، ص٤٧٥ .

(3) ابن المعمار : أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم ، كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جـواد وآخـرون ، مكتبـة المثنى ، بغداد ، ١٩٥٨م ، المقدمة ، ص٩-١٠ .

(4) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٤٧٣ .

(5) القشيري : الرسالة القشيرية ، ج١ ، ص١١٣ .

المستقيـم " [1] فكلمة " فتى " تدل على " العيار " لأن الفتوة هي طريقـة العيـارين ، حيث قال الشاعر الأعمى في وصفه لهم [2] :

ليس تـ ـ ـ ـ ـ ـ ـدرون ما الفرار	إذا الأبطال عادوا من القنا بالفرار
واحد منهم يشـ ـ ـ ـد على الغين	عرياناً مالـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـه من إزار
ويقول الفتى إذا طعـ ـ ـ ـن الطعنة	خذها من الفتى العيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـار

فنجد أن كلمة " فتى " و " شاطر " و " عيار " جميعها تحمل نفـس المـدلول ، على الرغم من أن هناك من حاول التفريق بين هذه المدلولات الثلاث [3] ، إلا أنه من الصعوبة الفصل بين معانيها ، لأن اتجاههم ومدلولهم واحد اتحد بزمن ظهـورهم ، إلا أن اسم العيارين هو الغالب منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أكثر ، ومن المهم أن نذكر أن أول ظهور للشطار والعيارين في تاريخ بغـداد ، كان في نهاية القرن الثـاني الهجـري / التاسـع المـيلادي ، أثنـاء حـصار بغـداد الأول سـنة ١٩٧هـ/٨١٢م ، فلم يجد الأمين أمامه سوى الشطار والعيارين من أهل الفتوه يمـدوا له يد العون ، وكانوا بتنظيمهم الشعبي أن شكلوا مقاومـة شـعبية داخـل المدينـة المحاصرة ، وعرفوا بالمحمدية نسبة إليه ، وبالمقابل عرف بالمأمونية أصحاب أخيـه

---

(1) ابن المعمار : الفتوة ، ص١٣٩ .

(2) المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الزهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمـد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ج٦ ، ص٤٦٢-٤٦٣ .

(3) ذكر جورجي زيدان " أن الشطار أكثر انتشاراً في المملكة الإسلامية من العيـارين " كمـا ذكـر أيـضاً " أن الشطار أطول بقاء من العيارين " التمدن الإسلامي ، منشورات مكتبة الحيـاة ، ج٥ ، ص٥٣ ، ٥٤ ، أيـضاً فصل الكروي في كتابة طبقات المجتمع البغدادي في العصر الأول ، بأن تناول العيـارين أولاً ثـم الـشطار ، طبقات مجتمع بغداد ، ص٩٨-١٠١ ، إلا أن جميع ما ذكروه ينفيه ، ما جاء في الطبري والمسعودي مـن أن مدلولهما واحد منذ ظهورهم كفئة من العامة ، سنة ١٩٧هـ/٨١٢م . الطبري : أبو جعفر محمـد بـن جريـر الطبـري ، تاريخ الأمم والملـوك ، دار الفكـر ، بيـروت ، ٣٩٩هـ ـ/١٩٧٩م ، م٥ ، ج١٠ ، ص١٨٨ ؛ المسعودي ، مروج الذهـب ، ج٢ ، ص٤١٣ .

المأمون [١] وأيضاً عرفوا بالصعاليك لفقرهم المدقع [٢] ، وبـالعراة لـصنعة لباسـهم وسلاحهم [٣] .

ثم توالى ظهور العيارين بشكل جماعات كبيرة منظمـة ومـسلحة علـى إثـر اضطرابات وقعت في بغداد ، فظهرت ككتل وفئات كثيرة حتى أصبحوا من الكثرة كما يقول المقدسي : " إذا تحركوا ببغداد هلكوا " [٤] ، فـالفتوه سـلوك اجتمـاعي سـلكه العيارون تطور بتطور المجتمع البغدادي ، وما ترويه المصادر من أخبار متناقـضة ، حول أصل الفتوه وصلتها بالصوفية ، يجعلنا نقف عندها قليلاً ، فالمتصوفة يعتقدون أن الفتوة والزهد والمرابطة في الربط ومجاهدة النفس أصل الفتوه الصحيحة [٥] .

بينما هناك من يرى أن الشجاعة والسخاء هي الأصل في نشأة الفتوه [٦] ، وأن هناك صلة وثيقة بين الفتوه والتصوف لأن العديد من المتصوفة كانوا فتيان ، كما أنهم يجعلون في إلباس السراويل للداخل إلى مذهبهم كإلباس الصوفية للمريد للمرقعة [٧] .

فإن للصوفية مسارها الذي تطورت فيه ، وللشطار والعيارين مـسار مختلـف تماماً تطور بتطور مجتمع بغداد إلا أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت عـاملاً حاسماً في ذلك .

وقـد كان الشطار والعيارون خليطاً من العناصـر البـشرية ، تبعـاً لتكـوين المجتمع ، فكان بينهم العربي والكردي ، وفيهم البغدادي السوادي [٨] ، وفيهم العباسي العلوي والسني ، تلك العناصر المتباينة نظمت تنظيماً يشبه تنظيم الجيش منذ أواخـر

---

(1) المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص٤١٣ ، ٤١٧ .
(2) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤١٣ .
(3) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤١٣ ، ٤١٤ .
(4) المقدسي : حسن التقاسيم ، ص١٣٠ .
(5) مصطفى : جواد : مقدمة كتاب ابن المعمار الفتوه ، ص١٠ .
(6) محمد أحمد عبد المولى : العيارون والشطار البغادده في التـاريخ العباسـي ، مؤسـسة شـباب الجامعـة ، الإسكندرية ، ص٢٩ ، ٣١ .
(7) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٤٧٤ .
(8) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٢ ، ج٨ ، ص٨٨ ؛ الذهبي : العبر في خبر من غبر ، تحقيـق صـلاح المنجد ، وفؤاد السيد ، الكويت ، ١٩٦٠م-١٩٦٦م ، ج٣ ، ص١٦١ .

القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي ، استمراراً إلى القرن السادس الهجري الثـاني عشر الميلادي ، وكان ذلك التنظيم على التقـسيم العـشري ، قوامـه العـدد عـشرة ومضاعفاتها ، فكان لكل عشرة عريف ، ولكل عشرة عرفاء نقيب ولكل عشرة نقبـاء قائد ولكل عشرة قواد أمير [1]، كما كان لهم لباس خاص ، فكانوا يغطـون رؤوسـهم بمغافر من الخوص تسمى (الخوذ) [2] ثم استخدموا لبس العمائم [3] ، في هذه الفترة ، أما البدن فكان يكسوه لبس " جرد " بالفتح أو قميص من الخيش [4] ، والجزء الـسفلي من البدن يحيط به مئزر أو تبان وجمعه مآزر ، وهو سروال متوسـط يـصل إلـى الركبتين [5] ، ويشد على الجسم برباط يسمى الهميان أو التكة [6] ، ولم يكن للعيـارين في بدايتهم أماكن مبيت خاصة ولا نظام إعاشة ، بل كان مأواهم الحمامات والمـساجد والطرقات [7] ، ودائماً ما يتخذون لهم مقراً خـارج بغـداد كمـا حـدث فـي سـنة ٤٣٧هـ/١٠٨٠م ، عندمـا اتخذ جماعة من العيارين مسجد براثا مقراً لهم يجتمعـون فيه [8] . أما معيشتهم فهم يعتمدون على ما يحصلون عليه من الـسلب والنهـب مـن الأغنياء ، وكانت للعيارين تقاليد خاصة عند انتماء عضو جديد إليهم فكـانوا يلبـسونه سراويل خاصة تسمى " سراويل الفتوه " [9] ثم شرب كأس الفتوه وهو مـاء ممـزوج بملح كانوا يشربونه في اجتماعاتهم [10] ، والحكمة من شرب الماء كمـا يقـول ابـن

---

(1) المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص٤١١ .

(2) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤١٥ ، ٤١٦ .

(3) ابن الجوزي : المدهش ، ص١٦١ .

(4) الطبري : الأمم والملوك ، م٥ ، ج١٠ ، ص١٨٨ ؛ شعر عمرو الوراق . محمد عبـد المتـولي : الـشطار والعيارين ، ص٥٠ .

(5) المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣١٨ .

(6) قياساً على لباس العامة . انظر الملابس والأزياء في الفصل الثاني من الباب الثالث .

(7) الطبري : الأمم والملوك ، م٥ ، ج١٠ ، ص١٩٠ .

(8) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٣٢٦ .

(9) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٤٧٤ .

(10) ابن المعمار : الفتوه ، المقدمة ، ص٥٧ .

المعمار : " إن الماء عذب والملوحة ضد العذوبة فكانت فيه إشارة إلى أن الفتى ينبغي أن يصبر على البأساء والضراء وأن يحمد الله على البلاء ويشكره على النعماء " [١] .

وفي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، اتخذ العيـارون منحـى جديـداً في تنظيماتهم ، فتعددت فرقهم وكثرت وتفرعت ، وأصـبحت لهـم هيئـات اجتماعية للفتوه ، لها نظامهـا الاجتماعي الخاص بها الذي يختلـف عـن تطبيقـاتهم الأولى ، فأنشئوا بيوتاً خاصة شبيهة ببيوت الدراويش وهي الرهاصية ، والـشحينية ، والخيليلة والمولدية والنبوية [٢] ، وحين كثر الاختلاف فيما بينهم ، واختلفت آراؤهم ، وزاد فسادهم ، رأى الخليفة الناصر تنظيم حركة الفتوه حين رأى أنها تجمع بين الدين والدنيا ، وتحويل تلك الطاقة الكامنة لصالح المجتمع فقد أدرك الناصـر دور الـشباب وأهمية إصلاحه فصلاح المجتمع بصلاح شبابه ، وبذلك تميزت فئة الشطار والعيارين في هذه الفترة عما سبقها بميزة هامة ، وهي مشاركة الوجهاء والأعيان وأكابر رجـال الدولة في حركتهم ، فلم تقتصر على الطبقة العامة ، حيث أعتبر الخليفة الناصر نفسه رئيساً للفتوه [٣] ، فأختار كبير الفتوه الشيخ عبد الجبار بن صالح البغدادي وهـو مـن بيت الرهاصية ليلبسه سراويل الفتوه ، ويصبح فتاً وزعيماً للفتيان [٤] .

ولم يقتصر ذلك على نطاق بغداد فقط بل أرسل إلى الأقطار الإسلامية يـدعوا الأمراء والولاة إلى الدخول في الفتوه ، وارتداء سراويل الفتيان [٥] ، حيث أصدر سنة ٦٤٠هـ/١٢٠٧م منشوراً يبطل فيه الفتوه القديمة ، ومنشوراً آخر يقـر فيـه فتوتـه الجديدة بنظمها وطقوسها المستمدة من تقاليد الفتوه كارتداء لباس الفتوه الذي يميـزهم

---

(1) المصدر نفسه ، ص٢٥٤ .
(2) المصدر نفسه ، ص١٤٦ .
(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ص٢٢٣ .
(4) ابن المعمار : الفتوه ، ص٢٤٧ .
(5) مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٣ .

وهو لبس السراويل والحزام ، وشرب كأس الفتوه ، وبذلك حل سائر بيـوت الفتيـان الآخرين [١] .

وبذلك نجد أنه قد أذاب الخلافات التي كانت موجودة في المجتمع ، خاصة التي كانت بين السنة والشيعة بعد أن جمعت بينهم الفتوه ، وبينت مكانة علي رضي الله عنه في الإسلام حيث كان يقال " لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذي الفقار " [٢] .

فكانت الفتوه في عهد الخليفة الناصر إصـلاح اجتمـاعي ، وتفريـغ للقـوى الجسمانية للشباب في وسائل الرياضة النفسية ، فقد اشـتهر الفتيـان برمـي البنـدق والطيور والمناسيب فكان الخليفة الناصر نفسه من المتولعين برمـي البنـدق وصـيد الطيور [٣] كما كانت الفتوه في عهده ذات قواعد قانونية أخلاقية ، حيث بدأت بالتبلور تدريجياً ذلك أنه في بداية أوجها لم تكن لها شروط إلى أن حدث خصام بين أحد الفتيان وهو أحد رفقاء فاخر العلوي ، وكان هذا مقرباً من الوزير ناصر بن مهدي مع رفيـق لعز الدين نجاح الشرابي ، أدى هذا الخصام إلى فتنة عظيمة بمحلة قطفتا حتى تقـاتلوا بالسيوف ، ولما علم الخليفة الناصر بذلك أنكره ووضع شروطاً لعضوية الفتوه ومـن يخالفها تبطل فتوتـه [٤] ، وكانت تلك الشروط تتضمن ما يلي [٥] :

١- إذا ارتكب الرفيق جريمة القتل فإن رفيقه يتبرأ منه في جمـع مـن الفتيان وبذلك يخرج من دائرة الفتوه .

٢- إن كل فتى يؤوي قاتلاً ويخفيه ويساعده على أمره ويؤويـه يتبـرأ رئيسه منه .

---

(1) النجار : محمد رجب : حكايات الشطار والعيارين فـي التـراث العربـي ، عـالم المعرفـة ، الكويـت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(2) ابن المعمار : مقدمة كتاب الفتوة ، ص١١-١٢ .

(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٧٤٦ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص٨٣١ ؛ الصفدي : نكت العميـان ، ص٩٣ .

(4) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٣ .

(5) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٢٢٣-٢٥٥ .

٣- إن الفتى إذا قتل فتى من حزبه سقطت فتوته ووجب أن يؤخذ منه القصاص ، فإن كان القتيل ليس من الفتيان بل عوناً من الأعوان أو متعلقاً بديوان في بلاد الإمام الناصر لدين الله فإن القاتل تسقط فتوته ويقتص منه .

وقد طبقت هذه الشروط في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) عندما قتل اثنان من الفتيان أحد نقباء باب الشحنة ويدعى ابن حسان فأخذت سراويلات الفتوه منهما وقتلا (1) .

إلا أن تنظيم الخليفة الناصر للفتوه لم يستمر طويلاً ، فبعده فقدت حركة الفتوه حيويتها ، وعادت حركات الشطار والعيارين للظهور مرة أخرى في الخروج عن طاعة الخليفة أو ازداد نشاطهم ببغداد ، في خلافة المستعصم ، بسبب الفتن المذهبية والطائفية ، إضافة إلى العصبيات التي انتشرت بين محال بغداد وحين انشغلت السلطة عن إخماد تلك الفتن فأزداد النهب حتى بلغت جرأتهم إلى التهجم على دور الأمراء (2) .

وإننا نعزو ذلك التحول الذي طرأ على حركة الفتوه إبان سقوط بغداد ، إلى افتقاد الفتيان للقائد الذي تمثل في شخصية الخليفة الناصر ، فإنه كان ممسكاً بزمام الأمور في تلك الفترة ، على الرغم أن من المؤرخين من أعتبر ذلك دليلاً على تبدل الخلافة وضعفها ، وبداية لضعف الدولة وذهاب ملكها (3) ، إلا أننا نرى غير ذلك ، فما قام به الخليفة الناصر يعتبر حركة إصلاح اجتماعي سياسي ، أعاد به هيبة الخلافة بصورة جديدة ، فقد استطاع أن يمتص الطاقة الانفعالية الثائرة الموجودة عند العيارين ويحولها لصالح المجتمع وبذلك تم له إصلاح الشباب ، فهم عماد الأمة إذا صلحوا صلحت الأمة ، فلو سار الخلفاء الذين جاؤوا من بعده على خطاه لما استطاع المغول

---

(1) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٨ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٧٧ .

(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٧٤٦ ؛ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الكبر ، جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ج٣ ، ص٥٣٥ .

اختراق مجتمع بغداد ومن ثم إسقاطها على الرغم من الدور العظـيم الـذي قـام بـه العيارون في الدفاع عنها .

المبحث السادس : الرقيق .

إن تطور الحياة الاجتماعية في بغداد كان مظهراً من مظاهر حضارتها ، فقـد كان من الظواهر الحضارية التي طرأت على المجتمع البغدادي كثرة الخدم في بيـوت الخاصة والعامة ، والذين كانوا من الرقيق الأسود والأبيض ، ويأتي الخدم في أسـفل السلم الاجتماعي ، الذي يشمل الرقيق والجواري والخصيان .

والرقيق دخلوا إلى المجتمع الإسلامي عن طريق الفتوحات الإسلامية التي كانت عامـلاً أدى إلى كثرة الأسرى إبان الحروب المختلفـة ثـم بـيعهم فـي الأسـواق الإسلاميـة ، كما كان الرقيق يرسل إلى الخليفة في بغداد ضـمن واردات الـضرائب خاصة في العصر العباسي الأول [(١)] ، وبمجرد توقف الفتح الإسلامي بمقتل الـسلطان ملكشاه سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م شح الرقيق إلا أنه ما لبث أن ازداد في القرن الخـامس الهجري / الحادي عشر الميلادي على يد السلاجقة الذين استأنفوا الحروب ضد أعداء الإسلام ، وكانوا يجلبون أسراهم إلى بغداد ومن ثم بيعهم كرقيـق [(٢)] .

إذاً فقد كانت تجارة الرقيق مستمرة باستمرار الحروب بين المسلمين وأعداءهم ، ذلك أن هـذه التجارة كانت تعود بالربح الوفير على التجار فكانوا يعرضـونهم فـي أسواق النخاسـة باستمرار للبيع ، وكان أحـد شوارع بغداد يسمى باسم شـارع دار الرقيق [(٣)] ، كذلك كان هناك باب النخاسين [(٤)] . وللرقيق أعمال متعددة يعملون بها في خدمة الناس ومساعدتهـم في أعمالهم ، فمنهم البـواب والطبـاخ ومـنهم الفـراش ، والخازن ، والوكيل ، والنقيب والركابي [(٥)] .

---

(1) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص٣٨ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مج٨ ، ص١٨٠ .

(2) الحسيني : زبدة التواريخ ، ص٣٥-٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٣٠ ، ٤٢ ، ٥٢ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٤ .

(4) ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ، ص٣٥٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٨ ؛ الغزالي : هداية المريد في تقليب العبيـد ، ضمن كتاب عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات ، ص٣٩٥ ، ٤١٠ .

(5) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١١٦-١١٧ .

كان الأغنياء يشترونهم بأعداد كبيرة ، أما الرقيق الذين يعملون في دار الخلافة فكانوا يقومون بعدة أعمال ، ولكل منهم عمله الذي يختص به ، فمنهم الرسائلي الـذي يحمل الرسائل والشرابي ، والحرمي الذي يختص بالـدخول علـى حـرم الخلفـاء ، وبعضهم يحمل المذاب بجانب الخليفة ليذب عنه ويطرد الذباب [١] . كما كـان هنـاك الفراشون الذين اختصوا بالفرش ، وما يتعلق بها [٢] وقد يحملون الشموع في مواكـب الخلفاء والأمراء والوزراء لإضاءة الطرق للـداخلين والخـارجين [٣] ، كمـا يكلـف الفراشون بكنس وتنظيف دار الخلافة وكان يشرف عليهم رئيس [٤] .

وكان الرقيق من عدة أجناس ، منهم الصقلبي والرومي والزنجي والتركي [٥] ، ولذلك ظهر الرقيق في هذه الحقبة كطبقة اجتماعية لها أهميتها ودورهـا الاجتمـاعي البارز ، حتى أنهم تولوا المناصب العالية في المجتمع ، فقد كان عز الدين أبو الحـسن سعادة بن عبد الله الرومي المستظهري خادم رسائلي يتولى المـصالح مـع الـشحنة البرسقي وكانت له أموال عظيمة عمر لنفسه داراً على دجلة أوقفها على الصوفية [٦] .

ولم يكن الخليفة المقتفي لأمر الله عندما استخلف يميل إلى الرقيق التركي لـذلك كان يقتني مدة خلافته إما أرمنياً أو رومياً ، ولم يكن لديه من الأتراك إلا ترشك ملكـه قبل الخلافة ، فولاه الإمارة على الأمراء ، كما أختص من مماليكه الروم والأرمن عدة سماهم الخيلية وولاهم أعلى المراتب [٧] ، أيضاً اختص بعض الرقيق بالخلفاء وأصبح من الخواص للخليفة ، فقد كان إقبال الخادم من خـواص الخليفـة المـسترشد سـنة (٥٢٨هـ/١١٣٣م) خلع عليه خلع الملوك ولقب ملك العرب سيف الدولة [٨] ، كـذلك كان مختار الخادم (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م) من خواص الخليفة المستضيء بـالله ودفـن

(1) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٧٨ – ٨١ .
(2) دائرة المعارف الإسلامية ، مج٨ ، ص١٨٠ – ١٨١ خادم .
(3) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩-١٠ .
(4) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص١٢ ؛ البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٧٧ .
(5) البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٩٩ ؛ ابن بطلان : شرى الرقيق ، ص٣٨٧ .
(6) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١٥٨-١٥٩ .
(7) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢١٧ .
(8) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٣٤ .

بترب الرصافة [1] ، كذلك كان عز الدين أبو الخير مسعود بن عبد الله الحبشي الناصري الفراش الشرابي (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) كان من موالي المستنجد بالله ثم خدم المستضيء ، ثم خدم الناصر [2] ، فقد كان الرقيق يلقون معاملة حسنة من قبل الخلفاء وقربوهم منهم وكانت لهم الحظوة والمراتب السنية ، فقد تقدم الخليفة الظاهر بأمر الله إلى وكيله المظفر هبة الله بن علي الموسوي في زيادة معيشة مماليكه حتى قدر لكل منهم مائة دينار في السنة [3] ، وكان عبد الغني بن فاخر (ت٦٤٨هـ/١١٥٠م) مهتر الفراشين [4] كثير التنعيم وصفه ابن الفوطي بأنه متشبه بالملوك في ترتيب داره ، فكانت تشتمل على عدة حجر ، وفي كل حجره جارية وخادم ، وتسمى تلك الحجره باسم الخادم ، وزادت نفقته في الشهر على مائة وخمسين ديناراً [5] .

إلا أنه كان هناك وجه آخر لمعاملة الرقيق في دار الخلافة فقد كانوا يتعرضون أحياناً للظلم والسباب ، أو أنهم قد لا يحظون بغذاء كاف فينتقم العبد من سيده [6] ، كما قد تؤخر معايشهم إلى درجة الإضرار بهم كما حصل في سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) حينما دخل بعض الأتراك إلى الوزير مؤيد الدين ابن القمي في غفلة من الستري وانتهى إلى مجلسه وبيده سيف مشهور ، فأمسك به الغلمان وحين سأل عن الذي دفعه للقيام بذلك ، ذكر أن له مدة لم يصله شيء من معيشته وهو ملازم للخدمة فحمله فقره وحاجتُه وغيظُه إلى فعل ما فعل ، فأمر بصلبه فصلب [7] ، ويبدو بوجه عام أن الدولة كانت تعتني بأمر الرقيق كفئة اجتماعية لها حقوق اجتماعية فجعلوا من حقوقهم أن

(1) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٦٩ .
(2) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٦٠ .
(3) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٥٦ .
(4) مهتر أو مهتار الفراشين أو بيت الفراش يكون صاحبها مسئولاً عن بيت الفراش المشتمل على أنواع الفرش والخيام ، وتحت يده جماعة من الغلمان مرصدون للخدمة فيها أثناء الحضر والسفر ويعبر عنهم بالفراشين ولهم درب خاصة بنصب الخيام وشد الأحمال وغير ذلك . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١١ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٩٦ .
(6) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٧١ .
(7) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٥-٣٦ .

يكسي وأن يشبع وأن لا يكلف ما لا يطيق وأن لا يسهر بالليل [(1)] ، وأوكل أمرهم إلى المحتسب الذي وضع شروطاً لتجارة الرقيق أهمها " أن يكون النخاس ثقة أميناً عـادلاً مشهـوراً بالعفة والصيانة لأنه يتسلم جواري الناس وغلمانهم وربما اختلى بهـم فـي منزله ، ولا ينبغي ألا يبيع النخاس لأحد جارية ولا عبداً حتى يعرف البـائع ويكتـب اسمه وصفته في دفتر لئلا يكون المبيع حراً أو مسروقاً " [(2)] .

---

(1) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٢٥٧ ؛ أبو يعلى : محمد بن الحسن بن محمد ، الأحكام السلطانية ، البابي الحلبي ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٦م ، ص٢٩ .

(2) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٨٤ .

الجواري :

الصنف الثاني من الخدم الجواري وقد دخلن الجـواري إلـى حيـاة المجتمـع العباسي وأثرن فيه إلى حد بعيد ، حتى ارتبطت أخبارهن بقصور الخلفاء والـوزراء ، فقد كان شأنهن شأن الرقيق يجلبن من سبايا الحروب ومن ثم يبعن في الأسواق ، فتأتي قصور الخلفاء في المقدمة من حيث احتوائها على أكبر عدد من الجواري ، وقـد أدى ذلك إلى أن أصبح أمهات جميع خلفاء القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، أمهات أولاد ، ثم تأتي بعدها قصور الأمراء والوزراء والقواد [1] ولم يقتـصر اقتنـاء الجواري على مجتمع الخاصة ، بل انتشرت هذه العادة بين جميـع الطبقـات حـسب حاجتهم ومستواهم المعيشي ، فكان التجـار والوجهـاء والميـسورون أكثـر اقتنـاء للجـواري ، وذلـك للتسري بهن كما كانت ربات البيوت تقتني الجواري ليـساعدنها في خدمة بيوتهن [2] .

وقد راجت سوق الجواري في بغداد وتفنن النخاسون في تعليمهن الشعر والغناء وتأديبهن ، لأنهم وجدوا فيهن تجارة مربحة ، ولأن بعض الناس يـشترون الظريفـات المتأدبات فقد أحسنت الجواري أساليب المطارحة الشعرية والمنادمة وسبل المجالـسة والمسامرة ، وتطارح الرجال من الشعراء منهن الشعر ، وأكثر ما تكون الغلبـة فيهـا لهن فقد كن أسرع بديهة وأرق طبعاً ، على سبيل المثال ما جرى بين الشاعر السلولي وعتاب جارية الناطفي فقد طلبت أن يبدأ السابق في المعارضة فقال السلولي :

لقد جد الفراق وعيل صبري　　　عشية عيرهـم للبين زفت

فقالت عتاب :

كتمت هواكم في الصدر مني　　　على أن الدمـوع علي نمت

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ٦٣ ، ٢٨٥ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١١٣ .

(2) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج٢ ، ص١٥ ، ج٤ ، ص٣٨٦ ، ٣٩٣ ؛ الجاحظ : عمرو بـن بحـر : البيـان والتبيين ، دار الفكر ، بيروت ، ج٤ ، ص١٧٩ .

وكانت أشعر منه [1] إذاً فقد عجت قصور الخلفاء والوزراء وذوي الجاه بهن ، وكانت مجالس سمرهم ومنادمتهم لهوهم وبـساتينهم مكانـاً لحـضورهن ، فالجاريـة الظريفة سعرها أعلى من سواها [2] ، كما أن النخاسين يعلمون الجارية الغناء ، فحسن غناء الجارية مدعاة لشرائها لأن منهم من يشتري الجواري المغنيات ليجعل من بيتـه نادياً ليتكسب من ورائه ، حيث يجتمع فيه الشباب ومحبو الغناء والمجون [3] ، فقد بلغ عدد المغنيات في بغداد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ٤٦٠ جارية [4] ، وكن يحرصن على حفظ الشعر وغنائه ، فكن يغنين من وراء الستائر ، فمن المغنيات اللاتي عرفن بجمال الصوت كانت عريب المأمونية وكان لغنائها ديوان مفـرد فمـن شعرها [5] :

ما غرني بعـدك إنسان	فقد بدت لي منـك ألوان
وإن تغيرت فمـا حيلتي	مالي على قلبك سلطان؟!

ومن اشتهر منهن في هذا العصر نويس المغنية زوجة ابـن رئـيس الرؤسـاء وعائشة السوداء زوجة ابن الكرخي ، فقد اتفق أهل بغداد بأن ما ببغداد مغنية أصـنع من عائشة السوداء ولا غناء أطرب من غنائها ولا صوت أرق من صوتها [6] . فكانت جواري دار الخلافة للزينة والأبهة ، حيث ألبسن فاخر الثياب وكن على قدر عالٍ مـن الجمال ، ويشتغلن في خدمة زوجات الخلفاء كوصيفات لهن [7] .

---

(1) فاطمة الراضي : الظرف البغدادي ، المورد ، ع٤ ، ج٨ ، ص٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(2) الجمحي : محمد بن سلام : طبقات الشعراء ، دار الكتب العلمية ، بيـروت ، ١٩٨٢م ، ص٦ ؛ التنـوخي : نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص٣٢ .
(3) ابن الجوزي : الظراف والمتماجنين ، ص٩٧ .
(4) ابن المظهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٨٧ .
(5) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص٥٧ .
(6) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٨٩ .
(7) التنوخي : المستجاد مـن فعلات الأجواد ، دار صادر ، بيـروت ، ١٤١٢هـ ـ/١٩٩٢م ، ص١٢٥ ؛ ابـن الجوزي : مناقب بغداد ، ص١٥ ، المنتظم ، ج٨ ، ص٢٣٠ .

لقد كانت كثرة الأموال في خزائن الخلفاء والسلاطين والأمراء ، وحياة التـرف التي يعيشونها في هذا القرن دعتهم إلى أن يتهادوا الجواري والغلمان ، ضمن الهـدايا التي يتهادون بها ، ففي سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) أهدى السلطان طغرلبك الخليفة القـائم (٣٠) ثلاثين غلاماً وجارية (١) كما أهدى قاضي القضاة جعفر الثقفي للخليفة المستنجد عـدة أفراس وعشرة أحمال من التحف وأنياب الفيلـة وخـشب الـساج والجـواري والمماليك (٢) فتهادى الجواري الروميات والتركيات والفارسيات أدى إلى تكاثرهن في قصور الخلفاء والأمراء ، فكان الجمال والحب سلاحهن النافذ إلى قلوب الخلفاء ، حتى أصبحن محظيات الخلفاء ، فكانت خـاتون (ت٥٣٦هـ ـ/١١٤١م) زوجـة الخليفـة المستظهر من محضياتّه ، وكانت دارها حمى ولها الهيبة (٣) ، كذلك كانت بنفشا بنـت عبد الله الرومية مولاة الخليفة المستضيء بأمر الله كانت من خواصه وسـراريه لهـا المكانة الرفيعة عنده والمنزلة العالية والحكم النافذ (٤) ، بنى لها المستضيء بـأمر الله داراً مجـاورة لباب الغربة على شاطئ دجلة ، تسمى الدار القطبية (٥) كانت من أجمل الدور ، تشتمل على مقاصير وحجرات ومنتزهات (٦) ، أيضاً كانت شـرف خـاتون التركية زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله اعتقها فكانت أم ولده الأمير أبي منـصور هاشم ، وكانت شاهان جارية الأمير سنقر الناصري اعتنت بها وبتربيتهـا وتأديبهـا ، فظهرت عليها علامات النجابة والظرف ، فلما بويع المستنصر بالله أهدتها له في جملة جواري فحظيت باهتمام المستنصر ، فجعل لها مقراً وديواناً ووكلاء ونوابـاً وخـدماً وحاشيةً ، فكانت تأمر وتنهى ، ولها حرية التصرف في الأموال (٧) ، وكـان للخليفـة الناصر حضيه اسمها شجرة الدر التركية وتعرف بست نسيم أو ست شمائل من النساء

---

(1) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢٠ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٦ .
(3) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٠-١١١ .
(4) السيوطي : المستطرب من أخبار الجواري ، مصور بمكتبة الحرم المكي الشريف ، رقـم (٨/١٥٤) ، عـدد ٦٥ق ، ضمن مجاميع أولها الوشاح في فوائد النكاح ، ورقة ١١٦ .
(5) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار سوق التمر ، ج٢ ، ص٤٢١ .
(6) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٢-١١٣ .
(7) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٩ .

البغداديات ، كانت لها مقربة من الناصر ، وتكتب خطاً جيداً ، وكانت تقرأ له المطالعات الواردة عليه لما ضعف بصره ، ويملي عليها الأجوبة ، توفيت سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) [1] .

فنجد أن اتخاذ الخلفاء الجواري محضيات ونساء لهن دون الاهتمام بأصلهن ، شغلهم عن أمور الخلافة ، وكن سبباً في إيجاد كثير من الاضطراب في دار الخلافة ، والدليل على ذلك أنه لما اشتد مرض المقتفي كانت له حظية هي أم ولده على فأرادت الخلافة لابنها ، وأحضرت عدة من الجواري وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد يوسف إذا دخل على والده ، فرأى الجواري وبأيديهن السكاكين ، فعاد إلى يوسف وأخبره فأستدعى أستاذ الدار وأخذه معه وجماعة من الفراشين ، ودخل الدار وقد لبس الدرع فَهربن الجواري ، وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجواري وقتل منهن من قتل وأغرق منهن الأخريات ، فلما توفي المقتفي جلس ابنه يوسف المستنجد بالله للبيعة [2] ، مما يدل على المكانة الكبيرة والمعاملة الخاصة التي حظين بها في دار الخلافة .

وكان يغلب على لباسهن الحشمة في غالب الأحيان فكن يحتجبن ويغطين رؤوسهن ، وذلك يبدو لنا من خلال رواية ابن الجوزي لحادثة دخول السلطان محمود وجنوده سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) إلى قصر التاج ونهبه لدار الخلافة ، فقد خرجن الجواري حاسرات من شدة خوفهن وهلعهن من السلطان وجنوده ، ودخلت إلى دار خاتون ، فذكر ابن الجوزي أنه رآهن وهو صبي يستشفعن صارخات وهن حاسرات إلى أن دخلن دار خاتون [3] .

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٨٨ .

(2) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٣٧٦ ، ٣٧٨ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢ .

ولم يكن يسمح لجواري بيت الخلافة بالاختلاط بالعامة ولا يسمح لهـن أيـضاً بالخروج خارج دار الخلافة إلا إذا كانت إحداهن قهرمانة ، وهـي المنزلـة الأرفـع للجواري ، فهي تستطيع أن تقترب من الخليفة وتكون مقربة من زوجته [١] .

أما أصناف الجواري فقد تعددت ، ولتعود الناس على اقتنائهن دعى النخاسـون إلى استجلابهن من أقاصي البلاد ، فيختلفون في سماتهم باختلاف بلـدانهم ، صـغاراً وكباراً ، فمنهن الهنديات ، والسنديات والمدنيات ، والطائفيات والبربريات واليمانيـات والزرنجيات [٢] ، والحبشيات والمكيات ، والزغاويات [٣] والبجاويات [٤] والنوبيـات ، والديلميات واللانيات [٥] ، والروميات والأرمينيات والعراقيات [٦] .

وكان للمشتري الحق في تقليب الجارية كما يقلب الـسلع الأخـرى ومعاينتهـا ليشتريهـا ، فينظر في كل موضع من مواضع جسدها ، لأن لكل جنس من الجـواري له سمات خاصة ، فمنهن من تصلح للخدمة ، ومنهن من تصلح للمنادمة ، فالـسنديات تميزن بدقة الخصور وطول الشعر ، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام لا غيـره فيهن على الرجال يقنعن بالقليل ويصلحن قياناً ، والطائفيات سمر مذهبات مجـدولات أخف خلق الله روحاً وأحسنهم فكاهة ومزاجاً ، إلا أنهن يكسلن في الحبل ويهلكن فـي الولادة والبربريات فيهن السود والصفر نشيطات للخدمة ويصلحن لإنجاب الأولاد [٧] ، يقول ابن بطلان : " من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية ومن أرادها خازنة وحافظة

---

(1) ابن الجوزي : ذم الهوى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ومراجعة محمد الغزالـي ، دار الكتـب الحديثـة ، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م ، ص٣٦٣ .

(2) الزرنجيات : نسبة إلى زرنج عاصمة إقليم سجستان الواقع شرق إيران الحالية . الحموي : معجـم البلـدان ، ج١ ، ص٣٠ .

(3) الزغاويات : نسبة إلى زغاوة وقد اختلف في أصلها فبعضهم يقول مدينة في جنوب تونس والبعض يقول أنهـا قبيلة في جنوب تونس وأنها من جنس السودان . الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٣٢ .

(4) الباجاويات : نسبة إلى بجة المدينة الواقعة بين فارس وأصبهان . معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٩٧ ، وقيل بـين الحبشة والنوبة أي ضمن السودان الحالية . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٠ .

(5) اللانيات : نسبة إلى بلاد اللاوني القريبة من مدينة تفليس في أذربيجان الحالية . الحموي ، ج١ ، ص٣٥ .

(6) ابن بطلان : شرى الرقيق ، ص٣٧٤ – ٣٧٧ .

(7) المصدر نفسه ، ص٣٧٣ .

فرومية ، ومن أرادها للولد ففارسية ، ومن أرادها للرضاع فزنجية ومن أرادها للغناء فمكية " [1] .

وقد أدى انتشار الجواري في بيوت بغداد وبمستوى اجتماعي مختلف إلى انتشار العديد من العادات المختلفة منها ، حب الأزهار والاعتناء بها ، ونقش الأشعار الرقيقة ، وعبارات الحب والعشق على الاردية والأكمام والعصائب والمناديل والوسائد ، حتى أصبح هناك جماعة من المتأنقين راعوا التأنق في الزي والطعام والشراب والسلوك أيضاً [2] . وقد كان للصفات التي تمتع بها الجواري مثل خفة الروح والحظور والظرافة أدى إلى إشاعة العشق والهوى في المجتمع البغدادي ، فيقع الرجل في حب الجارية ، كما يقع في حب الحرة أيضاً حتى أدى العشق ببعضهم إلى الجنون أو الموت [3] .

---

(1) ابن بطلان : شرى الرقيق ، ص٣٥٢ .

(2) الوشاء : محمد بن أحمد بن إسحاق ، الموشي أو الظرف والظرفاء ، دار صادر ، بيروت ، ص١٦٢-١٦٤ .

(3) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٥٦٨ .

الخصيان :

وهـم الصنف الثالث من أصناف الخدم ، وكانوا يفضلون في الخدمـة علـى الغلمان ، والخصاء عادة شرقية قديمة ، فكانوا يستخدمون الخصيان فـي دور النـساء وذلك حرصاً على ربات الخدور ، المحجبات (١) فكانت أثمانهم باهظة ، وهم من عدة أجناس شأنهم في ذلك شأن الرقيق والجواري من الروم والأحباش والصقالبة (٢) ، وقد بالغ الخلفاء العباسيون في اقتناء الخصيان والمغلاة فيهم ، فحين دخل هولاكـوا إلـى بغداد كان في قصر الخليفة المستعصم ثلاثمائة خادم خصي (٣) .

هذا وقد اشتهر الخصيان بلفظة " الخادم " وكان غالبية الخصيان في هذه الفترة من المماليك الذين اختصوا بخدمة الخلفاء (٤) .

وكانت أعمالهم مختلفة في خدمة البيوت فمنهم السقائين الذين ينقلون الماء إلـى دور أسيادهم ، ومنهم من استخدم في الطبخ ، ومن يرافق سيده إلى الأسواق للتبضع ، أو أن يقود دابته ، فقد كان لبعض العميان محفات يحيط بها خدمه وهم عرفوا بموكب العميان (٥) .

---

(1) البيهقي : إبراهيم بن محمد : المحاسن والمساوئ ، دار بيروت ، بيروت ، ص٥٦٩ ؛ التنوخي : الفرج بعـد الشدة ، ج٤ ، ص٥٧ .

(2) البيهقي : المحاسن والمساوئ ، ص٥٦٩ .

(3) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٤٧٥ .

(4) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٥٧ – ٣٥٨ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مج٨ ، ص١٨٠ خادم .

(5) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج٤ ، ص٢٦ ؛ نشوار المحاضرة ، ج١ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ج٣ ، ص٤٩ ، ج٨ ، ص٤٤ .

المبحث السابع : أهل الذمة .

هم النصارى واليهود والمجوس " الصابئة " الذين يعيشون في ذمـة المـسلمين وفـي حمايتهم مقابل جزية يؤدونها عن رؤوسهم علـى قدر طبقـاتهم وكـلٌ حـسب قدرتـه [١] . وهم طبقة اجتماعية بالنسبة لفئات المجتمع العامة ، عاش أهل الذمة فـي كنف المجتمع العباسي وقد اتبع معهم الخلفاء العباسيون في هذه الفتـرة سياسـة فيهـا الكثير من التسامح الديني والاجتماعي ، فمنحوا الكثير من الامتيازات الاجتماعية ، فلم تكن أحيائهم مفصولة عن أحياء المسلمين ، ولكن كان أصحاب كل دين يفضلون حسب الإمكان أن يعيشوا متجاورين مع بعضهم البعض وبالقرب من المسلمين [٢] فكان منهم الأطباء الذين يترددون على قصور الخلفاء ، ومنهم من يشتغل في خدمة الديوان ومنهم التجار وأصحاب الحرف والصناعات [٣] .

ومما زاد في متانة العلاقة بين أهل الذمة ، وأفراد المجتمع البغدادي التـزاوج بالذميات مما غير من وضعهم الاجتماعي في المجتمـع وُأعطـوا حريـاتٍ وحقوقـاً اجتماعية كالمسلمين [٤] وكان التصنيف الاجتماعي لأهل الذمة في بغداد علـى النحـو التالي :

أولاً : النصارى :-

تمتع النصارى بوضع اجتماعي وعلاقات وثيقة بكافة طبقات المجتمع الخاصـة والعامة ، فما وصل إليه الأطباء النصارى من حظوة ومكانـة اجتماعيـة داخـل دار الخلافة ولدى الخلفاء جعلتهم بمنزلة الوزراء ، فكان ابن الواسطي الطبيب النـصراني طبيباً للخليفة المستظهر [٥] ، فقربه منه وأدت خدمته له إلى إعفاء النصارى من لـبس

---

(1) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٣٧ ؛ متز : الحضارة الإسلامية ، م١ ، ص٩٦ .

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٩٥ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٦-٦٧ .

(4) اليوزبكي : محمد توفيق سلطان : تاريخ أهل الذمة في العراق ، دار العلوم للطباعـة والنـشر ، الريـاض ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٣٦٣ – ٣٦٧ .

(5) ابن أبي اصيبعه : عيون الأنباء ، ص٣٤٤ .

الغيار [1] . الذين عاشوا مع المسلمين في داخل بغداد فسمح لهم الخلفاء بإنشاء الكنائس وترميم ما تهدم منها ، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينيـة ، فانتـشرت الكنـائس والبيع في بغداد ، فمن أشهرها مارسير يشوع ، والجاثليق ، وبيعة درتا وبيعة سرجيس في الكرخ وبيعة سرجونا ، وبيعة درب دينار ودرب القراطيس ، وسوق الثلاثاء وبيعة الدور وبيعة السيدة في دير الروم وهي للنساطره منهم في الجانب الشرقي من بغـداد وتجاورها بيعة اليعقوبية [2] . كما كان للنصارى من يمثلهم فـي دار الخلافـة ، فـي الأعياد والمناسبات الرسمية والشعبية ويقوم بحل مسائلهم الدينية وتخضع لـه جميـع الكنائس في كافة البلاد الإسلامية ، ويعين القسس ورجال الدين والخليفة يصادق علـى تعيين الجاثليق بعد انتخابه من قبل الكنيسة ورجال الدين ، ويكتب له عهداً كما يكتـب لكبار العمال والمتصرفين [3] .

فالامتيازات الاجتماعية والمناصب المهمة في سلك الدولة التي تمتع بهـا أهـل الذمة عامة والنصارى خاصة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي دعت تلك الامتيازات واستغلال نفوذها إلى أن قام أبو عبد الله ابن فضلان بكتابة كتاب إلـى الخليفة الناصر يذكره فيه بواجبه حيال أهل الذمة ، ويوضح له المآخـذ التـي أخـذها عليهم فقد استغلوا مناصبهم في نشر الفساد الاقتصادي والاجتماعي ، ويبين لـه حكـم الإسلام فكان من ضمن ما ذكره ابن فضلان في رقعته : " أن المأخوذ من أهل الذمـة أعنى اليهود والنصارى في كل سنة أجرة سكناهم في دار السلام والارتفاق بمرافقها لا يتعذر في الشرع بمقدار معين في طرف الزيادة ، ويتقـدر فـي طـرف النقـصان

(1) الغيار هو الذي أوجبه الشرع على أهل الذمة فيشترط عليهم ما شرطه عمر بن الخطاب رضي الله عنـه فـي كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة ، ويؤخذون بلبس الغيار ، فإن كان يهودياً وضع على كتفه خيطاً أحمـر أو أصفر ، وإن كان نصرانياً شد في وسطه زناراً وعلق في عنقه صليباً أو إن كانت امرأة لبست خفـين أحـدهما أبيض والآخر أسـود ، وإذا عبر الذمي الحمام ينبغي أن يكون في عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصـاص ليتميز به عن غيره ويمنعهم المحتسب من ركوب الخيل وحمل السلاح والتقلد بالسيوف ، وإذا ركبـوا البغـال ركبوها بالأكف عرضاً من جانب واحد ، ولا يرفعون بنيانهم عن بنيان المسلمين ، ويمنعون من إظهار الخمـر والخنزير والجهر بالتوراة والإنجيل وضرب الناقوس ومن إظهار أعيادهم ورفـع الـصوت علـى موتـاهم . الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٠٦-١٠٧ .

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٤٩ .

(3) متز : الحضارة الإسلامية ، م١ ، ص٧٩٠ .

بدينـار ... لأن الغالب على الجميع التخفيف في القدر المأخوذ منهم ، وهم ضـروب وأقسام منهم من هو في خدمات الديوان وله المعيشة السنية غير بركة يده الممتدة إلـى أموال السلطان والرعية من الرشـا والبرطيل ، ولعل الواحد منهم ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة ، هذا مع ما لهم من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترقي علـى رقاب خواص المسلمين ، وقد شاهد العبد وغيره من الفقهاء الحاضرين فـي المقتـرن لتناول البر المتقبل : أن ابن الحاجب قيصر أقام ابن محرز الفقيه من طرف موضـع كان به وأقعد مكانه ابن زطينا كاتب المخزن ، لمكان خدمتـه " (1) ، إلا أن الخليفـة الناصر لم يرد على الفقيه .

وفي سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) استطاع ابن فضلان أن يطبق مبادئـه الـشرعية على أهل الذمة من خلال توليه لديوان الجوالي (2) في خلافة المستنصر بالله ففي سنة (٦٥٧هـ/١٢٣٠م) جلس بديوان الجوالي وأستوفى الجزية من أهل الذمة ، فكان أحدهم يقف إلى أن توزن جزيته ويكتب له ورق " وهو صاغر " فقد تشدد في ذلك حتى أجبر علي بن عيسى المسيحي وكان ساعور البيمارستان ويتردد على قصر الخليفـة ولـه مكانة اجتماعية عالية ، أجبره على الحضور لأداء الجزية ، بعدما تمنـع وتمـارض وأراد أن يدفعها بوساطة ابنه فلم تقبل منه فحضر وأداها . كذلك فعل مع رأس منـشيه اليهود (3) فقد أتاه ليلاً وسأله أن يأخذ الجزية منه فلم يقبل وقال له لابد أن تحضر نهاراً إلى الديوان وتؤديها (4) .

فما كان لأهل الذمة عامة والنصارى خاصة من مكانة اجتماعية عالية ، تبدو لنا من خلال محاولة ابن فضلان لتصحيح أوضاعهم الاجتماعية في المجتمع البغـدادي ، بتطبيق الشرع فيهم وأخذ الجزية منهم ، الأمر الذي ينفي ما ذكره موريس فبيه : مـن

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٦ .

(2) ديوان الجوالي : جمع جالية وهي جزية أهل الذمة في بلاد الإسلام الذين يؤدون للخليفـة الجزيـة بمقتـضى الشريعة ويستوفي هذا الديوان الجزية من أهل الذمة على مذهب الإمام الـشافعـي . ابـن ممـاتي : قـوانين الدواوين ، ص١٣ .

(3) رأس المنشية فسرها مصطفى جواد في حاشية الحوادث الجامعة بأنها المشيخة الدينية ، ص٢٦ .

(4) المصدر نفسه ، ص٢٥ .

أن الضغط الاجتماعي أدى إلى تقليص الطوائف النصرانية واعتبر التميـز الـشرعي لأهل الذمة تميزاً اجتماعياً وإذلالاً للنصارى خاصة بتميزهم بالملابس التـي تفـرض عليهم بين الفينه والأخرى ، كما أنه اعتبر ابن فضلان من العلماء المتشددين وقد أدى ذلك إلى تكوين شعور جارح بعدم الانتماء الاجتماعي للنصارى وأنهم لم تتح لهم فرص سياسية متكافئة مما جعلهم غير متمتعين بحقوق المواطنة التامـة ومعـاملتهم معاملـة الهامشيين في المجتمع [١] .

وما ذكره موريس فييه هنا غير صحيح ، فقد كان لأهل الذمة حقوق مثلهم فـي ذلك مثل المسلمين وربما أكثر من خلال توليتهم لأمور الناس في ديوان الخلافة .

ثانياً : اليهود :-

لقد كان لليهود كيانهم الاجتماعي الخاص في بغداد شأنهم في ذلك شـأن أهـل الذمة الآخرين ، فقد كان لكل طائفة من أهل الذمة كيانها الخاص ، فعاش اليهود داخل بغداد بأعداد كبيرة ، في أمان وعز ورفاهية [٢] كان منهم كبار العلماء الـذين أسـلموا فيما بعد وحسن إسلامهم ، فقد كان أوحد الزمان أبو البركات هبة الله علي ابـن ملكـا وهو من كبار العلماء ، كان أول أمره يهودياً يسكن في محلة اليهود ببغداد ثم أسـلم ، ولما أسلم كان يتنصل كثيراً من اليهود ويلعنهم ويسبهم ، فقد حضر مجلـساً لـبعض الأعيان وكان فيهم أمين الدولة ابن التلميذ ، وهذا كانت بينه وبين ابن ملكـا عـداوات قديمة ، وحين جرى ذكر اليهود قال أوحد الزمان " لعن الله اليهود ، فقال ابن التلميذ : نعم وأبناء اليهود فوهـم أوحد الزمان وعرف أنه عناه بالإشارة ولم يتكلم " [٣] .

وكما كان يمثل النصارى رئيس في دار الخلافة كذلك كان لليهود رئيس يسمى برأس الجالوت ويقيم ببغداد ، ويمثل اليهود في دار الخلافة ، وهو مشرف على مراسيم العبادة ويتولى النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية لليهود ، وهو الذي يتولى تعيـين أحبارهم في كافة الأقطار ، وبعد تنصيبهم يقدمون بغداد يحملون الهدايا والعطايا مـن

---

(1) فييه : جان موريس : أحوال النصارى في خلافة بني العباس ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص٣٨٣ .
(2) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٥ .
(3) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ، ص٣٧٦ .

أقاصي البلاد لرأس الجالوت ، وهو يمتلك العقارات والمزارع والبساتين في جميع أنحاء العراق وله إيراد سنوي عظيم من الفنادق والأسواق والمتاجر عدا الهدايا التي تقدم له وترد من البلدان البعيدة وهو واسع الثروة [1] ، ويصف لنا بنيامين في رحلته ، حفل تنصيب رأس الجالوت فيقول : " يقام حفل عظيم ، ويبعث له الخليفة بالمراكب الملوكية ويتوجه إلى قصر الخلافة وفي موكبه الأمراء والنبلاء ومعه الهدايا والتحف النفيسة للخليفة ورجال القصر ، وحين وصوله لقصر الخلافة يمثل بين يدي الخليفة ويتسلم منه كتاب العهد ثم يضع الخليفة يده على رأس الجالوت الجديد ، ثم يعود إلى داره بموكبه وأمامه البوقات والطبول ، ثم يحتفل بتجديد تنصيب رؤساء المشيبه وذلك بأن يضع الرئيس الأكبر يده على رأس كلّ منهم " [2] .

إلا أنه ومنذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أصيبت الوحدة الدينية اليهودية بإنقسام زعاماتها وأصبحت سلطة رأس الجالوت تسري على اليهود في شرقي الفرات فقط ، واستمر ذلك إلى سقوط بغداد [3] .

وقد تركز اليهود حول نهري دجلة والفرات ، وكان لهم في بغداد ثماني وعشرون بيعة [4] ، قسم منها في جانب الرصافة ومنها في جانب الكرخ على الشاطئ الغربي من نهر دجلة ، وكانت بيوت العبادة والتي يمارسون فيها طقوسهم الدينية وشعائرهم وأعيادهم تعتبر معاهد دينية ، وعندهم بيت يسمى " الفهر " وأشهرها " جوار الحلة والثاني قومنديثه بجوار الأنبار ، وأقدم كنيسة لليهود في رصافة بغداد هي

---

(1) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٨ .

(2) المصدر نفسه ، ص١٣٨ .

(3) متز : الحضارة الإسلامية ، م١ ، ص٨١ ؛ فهمي عبد الرزاق : العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بغداد ، ص٨١ .

(4) البيعة بالكسر كنيسة اليهود . ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص٨١ .

كنس الغاؤون [١] وكان لهم حريتهم في كافة شئون حياتهم الدينية والاجتماعية ، وتكون مواسم زيارته بين رأس السنة وعيد الكفاره فتقام المهرجانات والأفراح يحضرها رأس الجالوت [٢] .

(1) بنيامين : الرحلة ، ص١٤٢ .
(2) المصدر نفسه ، ص١٤٣ .

الباب الثاني

دور فئات المجتمع في الحياة العامة

الفصل الأول : دور الفئة الحاكمة .

المبحث الأول : دور الخلفاء في الحياة العامة .

المبحث الثاني : السلاطين ودورهم في الحياة العامة .

المبحث الثالث : دور الأمراء والوزراء في الحياة العامة .

المبحث الرابع : العلماء ودورهم في الحياة العامة .

دور الخلفاء في الحياة العامة :

كان الدور الاجتماعي لخلفاء القرن السادس الهجري / الثاني عـشر المـيلادي ملموساً جداً في الحياة العامة ، تمثل في أعمال الخير والبر والصلة ، وكثرة الإحـسان إلى الناس ، وإنشاء المؤسسات الاجتماعية التي تمتعت بأوقـاف مـستديمة ، لتـؤدي خدماتها الثقافية والاجتماعية باستمرار ، حتى يستفيد المجتمع من منافعهـا ، فتعـددت الأعمال والخدمات التي كان يقدمها الخلفاء لمجتمعهم ، بقصد تأمين المصلحة العامـة والنهوض بالمجتمع ، وسيكون التركيز هنا في استعراض ما نراه مهماً وعاد نفعه على عموم الناس وأكثره تأثيراً في حياة المجتمع فيما يلي :

أولاً : إسقاط الضرائب والمكوس .

تمتع خلفاء هذه الفترة بإحترام العامـة ، وذلك لإتباعهم سياسـة تتمثـل فـي الإحسان والرفق بالرعية ، ومشاركة الناس في حياتهم الاجتماعية العامة ، فقـد أدرك الخلفاء أهمية أبناء الأمة في تماسك البنية الداخلية للدولة ، فعملوا على كـسب مـودة ومحبـة الناس ، فما أن يتسلم خليفة من الخلفاء الحكم حتى يسير فـي النـاس سـيرة حسنة ، فيبادر إلى إسقاط الضرائب والمكوس وإشاعة العـدل بـين النـاس ورفـع المظالـم .

غير أن الأحوال العامة وأمور السياسة تحول دون استمرار ذلـك فـي أغلـب الأحيان إذ لا تكاد تستقر الأمور حتى تعود إلى سابق عهدها بدليل أن الخليفـة الـذي يعقبه يقوم بإزالة الضرائب ويحسن إلى الرعية ، كما ذكـرت المـصادر أن الخليفـة المستنجد بالله كانت أيامه أيام خصب ورخاء وأمن عام ، فأمر بإسقاط الضرائب ، وما كان يؤخذ من سوق الغنم والخيل والتمر والسمك ، حتى جمعت له الأموال الكثيـرة (1) ، إلا أنه ما أن استقرت له الأمور حتى أعادها . وحين ولي الخليفة المستـضيء بـأمر الله الذي أعقبه قام بإسقاط الضرائب ورسوم البيع ، كما رد المظالم وقام بـالإفراج عـن

(1) ابن الجـوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٣ ؛ ابن الأثير : الكامـل ، ج٩ ، ص١٥٠ ؛ الكتبـي : عيـون التواريخ ، ج١٢ ، ص٥٢١ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٧٧ .

المحبوسين [1] فكان الخلفـاء يقومـون بالتخفيـف من عبء الـضرائـب لكـسـب محبة الرعيـة.

إلا أن الحالة الاقتصادية للدولة وحاجتها للموارد المالية تـدعوهم إلـى إعـادة الضرائب والمكوس فقد استمرت الأحوال على عهد المستضيء على هذا النحو حتـى تولى الخليفة الناصر فأزال ما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات وما يؤخذ من الباعة ، وكان مبلغاً كبيراً قدر أنه مائتا ألف دينار في السنة . كما تقـدم إلى صاحب المخزن بإحضار الباعة وإخبارهم بما أزيل عنهم مـن ضـرائب فعظـم سرورهم وشاع ذلك في الناس [2] ، وكان سبب ذلك : " أن بنتاً لعز الـدين الـشرابي توفيت فاشترى لها بقرة لتذبح ويتصدق بلحمها عنها ، فرفعوا في حساب ثمنها مئونـة البقرة ، فكانت كثيرة فوقف الخليفة على ذلك ومن ثم أمر بإطلاق المؤن " [3] .

والواضح أن الناصر خفف من تلك الضرائب التي تؤخذ على المبيعـات ولـم يلغيها لأن صاحـب المخزن حينمـا أحضر الباعـة أخبرهم بإزالة الضرائب القديمة " وعرفهم صورة ما رسم " [4] أي أن هناك رسوم ولكنها مخففة ما لبث أن أعادها مرة أخرى ، فعندما جاء الظاهر بعده قيل أن جملة ما قطعه مـن الـضرائب والمكـوس (٨٠٠٠) ثمانية آلاف دينار في كل سنة على الرغم من قصر مدة خلافتـه التـي لـم تتجاوز الثمانية أشهر [5] ، فكان يقول " الجمع شغل التجار أنتم أحوج إلى إمام فعـال أحوج منكم إلى إمام قوال اتركوني أفعل الخير فكم بقيت أعيش " [6] ، وكان الإحـسان إلى الرعية وتخفيف الضرائب عن كاهل الناس كان سياسـة الخليفتين المستنصر بالله والمستعصم [7] ، على ما سارت عليه سياسة كافة خلفاء هذه الفترة .

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٢٢ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٧٨-٢٧٩ .

(2) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٦١٦ – ٦١٧ .

(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٧ – ٢٢٨ .

(4) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٢٢٨ .

(5) الذهبي : العبر ، ج٥ ، ص٩٥ – ٩٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ ؛ ابن تغري بـردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٦٥ .

(6) الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص١٣٤ .

(7) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٢ .

نستنتج من ذلك أن الخليفة الجديد في بادئ الأمر يحاول أن يتلافى حالات التذمر والاستياء الناتجة عن ثقل الضرائب السابقة ، وتلك محاولة ذكية لكسب ود الرعية إلا أن الوضع الاقتصادي للدولة كثيراً ما يجبر الخليفة على إعادة جمع الضرائب وكان ذلك هو ديدن الخلفاء منذ عهد المنصور إذ أن أمور السياسة وحاجة الدولة إلى المال يجبرانها على ذلك .

ثانياً : إنشاء المؤسسات الاجتماعية .

تعتبر المؤسسات الاجتماعية التي أنشأها رجال الدولة من الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء ، مؤسسات خيرية ذات أهداف دينية وثقافية واجتماعية ، كالمساجد ، والمدارس والربط والمستشفيات وغيرها ، وهذا الضرب من المؤسسات تمتع باستمرار الجراية [(١)] عليه من قبل خلفاء القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، طلباً للثواب من الله وليعود نفعها على المجتمع وهي :

١- *المساجد* :

يعتبر المسجد أول مؤسسة اجتماعية عرفها المجتمع الإسلامي ، ذلك أنه لم يقتصر دور المسجد في الإسلام كونه مكاناً للعبادة فقط ، وإنما تعددت أغراضه ووظائفه الدينية والثقافية والاجتماعية ، ولقد كان الخلفاء الأولون يقومون بإقامة الصلاة بأنفسهم أو من ينوب عنهم تقديساً وتعظيماً لها [(٢)] ، ذلك أنه كان من أهم مسئوليات ولي أمر المسلمين أن يتقدم بعمارة المساجد وإصلاحها ، والقيام برواتبها ومصالح قومتها ومجالس الذكر " [(٣)] .

---

(1) الجراية : هي الجاري من الوظائف المتصلة كالصدقات الجارية والوقوف . ابن منظور : لسان العرب ، مادة جرى ، ج١ ، ص٤٠٦ ؛ الزبيدي : تاج العروس ، ج١٠ ، ص٧٣ ، قال ﷺ : " إذا مات ابن ادم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له " رواه مسلم في صحيحه ٤٢٣٢ .

(2) ابن خلدون : المقدمة ، دار القلم ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٤ ، ص٢١٩ .

(3) ابن العباس : الحسن بن عبد الله : أثار الأول في ترتيب الدول ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ص١٢٩٥ .

هذا وتعتبر مدينة بغداد من المدن الإسلامية التي عرفت بكثرة مساجدها ، غير أن بعض مصادر هذه الفترة أحجمت عن ذكر عددها واكتفت بالإشارة إلى كثرتها [(١)] ، والراجح أن أغلبها كانت من المساجد الكبيرة الجامعة ذكـرت المـصادر أنـه حتـى منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي فـي (٤٥١هـ/١٠٥٩م) لم يكن يتجاوز عددها الستة مساجد جامعة [(٢)] ، وفي القرن السادس الهجـري / الثـاني عشر الميلادي ، أزداد عدد المساجد الجامعة حتى وصلت إلى أحد عشر مسجداً فيمـا ذكره ابن جبير في رحلته سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، واستمرت بهذا العـدد إلـى فتـرة متأخرة [(٣)] .

والسكنى في المساجد ظاهرة اجتماعية عرفت في المجتمع الإسلامي منذ الصدر الأول من الإسلام ، لكنها قصرت على الفقراء والزهاد والمسافرين ومن لا يجد مأوى له ومسكن [(٤)] . والراجح أن أغلب المقيمين في المساجد في هذه الحقبة يعتمدون فـي معيشتهم على الأوقاف المخصصة للمساجد ، فلقد شملت رعاية الخلفاء كافة المرافـق العامة في الدولة فكرسوا جهودهم وعنايتهم إلى ما فيه خير وصلاح أمـتهم فعمـروا المساجد في كافة محال بغداد وأولوها اهتماماً خاصاً ، ففي سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م أنشأ الخليفة الناصر مسجداً كبيراً في السـوق وعمره عمـارة فائقة ، وأجرى لـه راتبـاً شهرياً [(٥)] ، كما أنشأ الخليفة المستضيء مسجداً كبيراً في السوق عنـد عقـد الجديـد ورتب فيه أحد القوامه وأجرى عليـه المشاهره ، كذلك عمـر الخليفـة المستنصـر كافـة

---

(1) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٠ .

(2) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١٢٢ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص١٧١ ؛ ابـن كثيـر : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣١٢ . والمقصود هنا المساجد الجامعة الكبيرة المشهورة في بغداد ، وإلا فهنـاك المئات من المساجد الأخرى .

(3) ابن جبير : الرحلة ، ص٢٣٠-٢٣١ ، طبعة ليدن ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٩٩ ؛ عبد المحـسن مهـدي الرحيم : الخدمات العامة في بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، " أفاق عربيـة " ، بغـداد ، ط١ ، ١٩٨٧م ، ص٣٣٠ .

(4) ابن سعـد : محمد الزهري : الطبقات الكبرى ، دار صـادر ، بيـروت ، ١٣٧٧هـ ـ/١٩٥٧م ، ج١ ، ٢ ، ص١٣ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٧ ، ٢٦٦-٢٦٧ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٧٢ ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٤٥.

مساجد الكرخ [1] وحين تكاملت عمارتها رتب بها الأئمة والمـؤذنين ، كمـا عمـل الخانات للسابلة [2] وسوف نقصر الحديث على المساجد المشهورة والتي نعتقـد أنهـا نالت نصيباً من الأوقاف التي رصدها الخلفاء لتؤدي خدماتها الدينية والثقافيـة :

أ- جامع المنصور :

ينسب هذا الجامع إلى مؤسسه الخليفة المنصور سنة (١٣٦-١٥٨هـ ـ/٧٥٤-٧٧٥م) ويقع بالجانب الغربي من بغداد بجوار قصره المعروف بقصر باب الذهب [3] ، وقد سكنه عدد من العلماء منهم أبو خطـاب الكلـواذي (ت٥١٠هـ ـ / ١١١٦م) [4] ولوجود سقاية الراضي [5] في هذا الجامع فقد زادت من فرص السكنى فيه لأنهـا لـم تكن مكاناً للتزود بالماء بل اتخذت مسكناً للمتزهدين ومأوى للمرضى ، قال ابن النجار في ترجمته لابن القابله (٥٤٣هـ/١١٤٨م) : " كان شيخاً صالحاً متجرداً مـن الـدنيا يسكن سقاية الراضي بجامع المنصور يخلو فيها للعبادة " [6] ، وفي غرق بغداد سـنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) [7] نقل المرضى من البيمارستان العضدي [8] إلى سقاية الراضـي

---

(1) ذلك لأن مساجد الجانبين الشرقي والغربي قد تهدمت ولحقها الخراب في غرق بغداد سنة ٦١٤هـ ـ/١٢١٧م . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥ سنة ٦٢٧هـ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٢٨ .

(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ١٠٧ . قصر باب الذهب هو أول قـصر شـيده المنـصور بنفـسه والمسمى قصر القبة الخضراء . ياقوت ، ج١ ، ص٤٥٩ .

(4) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلواذي . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٩٠ .

(5) السقاية : تعرف بأنها الموضع المتخذ فيه السجراب في المواسم ، غير أنها أصبحت من المنشآت المهمة فـي بغداد ، لأن هناك نوعين من السقاية ، الأول هو المزمله وهي عند البغداديين جره أو خابية خضراء ، يبرد فيها الماء ، وقيل أنها حباب الماء مفردها الحب ، وعاء يملئ ماء ويغطى ليبرد ماؤه ، وهذا النوع من السقايات كان متوفراً في معظم أسواق بغداد ومساجدها ومبانيها العامة ، أما النوع الثاني فهو يتمثل بمباني واسعة تتخذ مسكناً للزهاد ومأوى للمرضى ، فضلاً عن استمرارها في توفير الماء للمقيمين بها ، وقد اهتمت الدولة بوقـف هـذه السقايـات بنوعيها . الزبيدي : تاج العروس ، مادة سقى ، ج١٠ ، ص١٠-١١ ؛ الخفاجي : شـفاء الغليـل ، ٢٥٤ ؛ عماد عبد السلام رؤوف : تاريخ مشاريع مياه الشرب ، مجلة المورد ، المجلد الثامن ، العدد الرابـع ، (١٤٠٠هـ/١٩٧٩م) ، ص١٧٢ .

(6) ابن النجار : ذيل بغداد ، ج١٩ ، ص١٥ .

(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٤٥ .

(8) انظر البيمارستانات ، ص١٦٣ .

في جامع المنصور حيث سكنوا فيها بعد أن غطت مياه دجلة على البيمارستان وبقـي هذا الجامع مسكناً للفقراء حتى سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) حيث غرق بفيضان دجلة فـي تلك السنة وسقطت بجواره القبة الخضراء في قصر دار الذهب [١] .

ب- جامع الرصافة :

شيده المهدي سنة (١٤٣هـ/٧٦٠م) في الجانب الشرقي من بغداد قبـل توليـه الخلافة [٢] ، وكان هذا الجامع يؤدي خدماته العلمية إلى جانب خدماته الاجتماعية حيث يسكنه الفقراء ويقيمون فيه [٣] ، لوجود عدة سقايات ملحقة بالجامع أشـار إليهـا ابـن الجوزي نقلاً عن أبي الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/١١١٩م) في وصفه للجانب الشرقي من بغداد وما فيه [٤] حيث قال : " جامع الرصافة والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الأجراس الكثيرة " [٥] . ويتضح من النص أنه إلى جانـب القـصور والـدروب والأسواق كثرة السقايات وحسن عمارتها الواضح من خـلال تعجبـه مـن كثـرة أجراسهـا .

ج- جامع القصر :

سمي بالقصر الذي أضيف إليه وهو قصر التاج ، ويسمى جامع الخليفة أيضاً ، شيده الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م) [٦] ، ويعتبر ثالـث جوامـع بغداد ، له أهمية خاصة لوقوعه في قلب بغداد الشرقية ، ولاتصاله بدار الخلافة ، لذلك تولاه الخلفاء بالإصلاح والتوسعة ، والاهتمام به وعمارته ، حتى عـاد علـى النـاس بمنفعة كبيرة خاصة بعد أن عمل فيه فخر الدولة ابـن جهيـر (ت٤٨٣هـ/١٠٩٠م)

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١٩-٢٢٠ .

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٦ .

(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٤ ، ص١٠٧ ؛ ابن الفوطي : تلخيص الألقـاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٨٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٧١ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢١٢ .

(5) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٦ .

(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص٢٣ ، حاشية رقم (١) من كتاب الجامع المختصر لابـن الـساعي ، ج٩ ، ص٢ .

سقاية وأجرى فيها الماء من داره في قنوات تحت الأرض وجعـل لهـا فـوارات [١] فانتفـع الناس بذلك [٢] ، وقد أشار ابن جبير إلى خدمة سقاياته وجودتها فقال : " جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير ، وفيه سقايات عظيمة ومرافـق كثيـرة كاملـة مرافق الوضوء والطهور " [٣] كما أنشأ الخليفة المستنصر بالله سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) سقاية أخرى لهذا الجامع ، لأن قنوات الوزير ابن جهير الأرضية لم تعد تكفي لإيصال مياه الشرب والوضوء والغسل للجامع فأستعين بسقاية جديدة تأخذ مياهها مـن حبـاب تملأ بالماء في مواعيد منتظمـة ، وذلك لسد الحاجـة المتزايدة إلى المـاء ، كـذلك المزمله [٤] التي عملت بالجامع [٥] ، ذكر ابن بطوطة في رحلته فقال : " وبهذه الجهـة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدهما جامع الخليفة وهـو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامـع كبيـر فيـه سقايـات ومطاهـر كثيـرة للوضـوء والغسـل " [٦] .

د- مسجد قمرية :

أنشأ هذا المسجد الخليفة المستنصر بالله الذي ارتبط اسمه بالعديد من المـشاريع الخيرية ذات الأوقاف الدينية والعلمية ، فقد أنفق الكثير مـن الأمـوال علـى عمـارة المساجد ، فمسجد قمرية الذي أمر ببنائه وصلت نفقاته إلى ثمانية عشر ألف دينار [٧] ، رغـب بإنشائه له ليكون داراً للعلم والحديث وهو ما أشار إليه ابن الكازروني بقوله : " أمر ببناء مسجد بالجانب الغربي على نهر عيسى بن علي الهاشمي في موضع يعرف

---

(1) الفوارات هي التي تعمل في الحياض والحمامات ونحوها يفور منها الماء في أشكال مختلفة . الخـوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص١٤٥ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٣ .

(3) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .

(4) المزمله : وعاء يملئ ماء ، ويغطى ليبرد ماؤه ، والحباب مفرد الحب وهي الخابية ومشهورة الاستعمال عنـد أهل بغداد . ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص٤٤٠ .

(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٩٣ ؛ عماد رؤوف : مشاريع ميـاه الشرب القديمـة ببغـداد ، مجلـة المورد ، المجلد (٨) ، العدد (٤) ، بغداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، ص١٧٦ .

(6) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢٢٥ .

(7) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٣٠ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨٨ ؛ ابـن تغـري بـردي : النجـوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٤٥ .

بقمرية فتمت عمارته في سنة ست وعشرين وستمائة وشرط أن يكون المتلقين ثلاثـين نفساً وشيخ مصلي به ومعيد " [1] كما وصفه ابن الفوطي فقال : " وفي شعبان تكامـل بناء المسجد المستجد المعروف بقمرية بالجانب الغربي على شاطئ دجلة المقابل للرباط البسطامي ونقل إليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضـة والـشمـوع وغيـر ذلـك " [2] .

كما أسس الخليفة المستنصر سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م مسجد عشائر ، وجعل لـه سقاية إلا أنها من نوع المزمله اشتملت على عدد من الحباب [3] للسقاية فقط ، لأنها لم تعد للسكنى والإقامة ، أشار إلى ذلك ابن الفوطي فقال : " كـان بـه حجـرة ورواق وسقاية " [4] .

٢- *المدارس* :

عرفت المدارس في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري أو قبله [5] ، فقد قدمت خدمات اجتماعية إلى جانب خدماتها الثقافية والعلمية ، بتوفير الـسكن للطـلاب والمدرسين والزهاد وغيرهم من الفقراء .

وقد عرفت العراق نظـام المدارس في النصف الثاني مـن القـرن الخـامس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وبلغ عدد المدارس في هذه الفترة ثلاثين مدرسة كما ذكرها ابن جبير في رحلتـه فقال : " المدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة إلا وهي بقصر القصر البعيد عنها ، وأعظمها وأشهرها النظاميـة ، وهي التي بناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة ، ولهـذه المـدارس أوقـاف عظيمة ، وعقـارات محبسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة

---

(1) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٦٠ .
(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٧-١٨ .
(3) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٦١-٢٦٢ .
(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٣٦ .
(5) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٣٢٩ .

ما يقوم بهـم ، ولهذه البلاد فـي أمر هذه المدارس والمارستان شرف عظيم وفخـر مخلد " [(1)] .

إن موضوع المدارس في بغداد نشأتها وتطورها وخدماتها موضـوع كبيـر لا يسعنا المجال للدخول في تفصيلاته ، غير أن هناك العديد من الدراسات التي تعرضت له وألمت به [(٢)] ، ولعل ما يهمنا هو الناحية الاجتماعية للمدارس خاصة المدارس التي قدمت خدمات اجتماعية للطلاب والمدرسين والتي عرفت بالداخلية وهي : " ما يبنـى لسكن طلبة العلم ويجعل لها مدرس ومكان للتدريس " [(٣)] ، تلك المدارس التـي نالـت عناية واهتمام الخلفاء بتجديدها وتعميرها ، واستمرار الإنفاق عليهـا خـلال القـرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، هي :

أ- مدرسة الإمام أبي حنيفة :

هذه أول مدرسة ببغداد سكنها الطلاب وأقاموا فيها أسسها أبو سـعد المـستوفي (ت٤٩٤هـ/١١٠٠م) [(٤)] بإزاء مشهد أبي حنيفة في شمالي بغداد الشرقية فـي محلـة باب الطاق [(5)] سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) [(٦)] أشار إليها ابن الجوزي بقوله : " بنى أبـو سعد المستوفي الملقب شرف الملك مشهد أبي حنيفة وعمل لقبره مبناً وعقد القبة وعمل

---

(1) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .

(2) انظر : عماد عبد السلام رؤوف : مدارس بغداد في العصر العباسي ؛ العسيري : الحياة العلمية في العـراق في العصر السلجوقي ؛ ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مدارس ما قبل النظامية ؛ محمد مفيـد آل ياسين ، الحياة الفكرية في العراق القرن السابع الهجري .

(3) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ج١ ، ص١٨٧ .

(4) شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي والمستوفي تعني وزير للمالية في ديوان السلطان ملكـشاه ، ابـن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٢٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤٣٥ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ح٨ ، ص٢٤٥ ، ص٢٨ ، وباب الطاق محله كبيرة بالجانب الشرقي مـن بغـداد ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٠٨ .

(6) بدء بإنشائها في شهر صفر من نفس السنة المذكورة وأتمها في جمادي الآخرة وذلك قبـل افتتـاح المدرسـة النظامية بأربعة أشهر ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٢٣١ .

المدرسة بإزائه وأنزلها الفقهاء ورتب لهم مدرساً " [1] وقد قـدرت أوقـاف المدرسـة السنوية بما يبلغ الثمانين ألف دينار تنفق في شؤونها ومنها جرايات طلبتها [2] .

ب- المدرسة النظامية :

تعتبر المدرسة النظامية من أشهر مدارس بغداد وأعظمها أسسها الوزير نظـام الملك سنة (٤٥٧هـ/١٠٦٤م) [3] في محلة نهر المعلى في الجانـب الـشرقي مـن بغـداد [4] . فتكوين المدرسة وتصميمها الداخلي ، وإلحاق مساكن بها لإقامة الطـلاب أصبح انموذجاً للمدارس الإسلامية في العصور التالية ، كما يعد الوزير نظام الملك هو أول من أجرى الجراية على الطلاب ، قال عنه ابن الجوزي : " وأجرى للمتفقه لكـل واحد أربعة أرطال خبز كل يوم [5] ، ولم تكن المدارس التي أنشئت قبل ذلـك تقـدر لطلبتها مرتبات أو جرايات [6] .

وقد نالت المدرسة النظامية عناية واهتمام كبير من قبل الخلفـاء فقـد اهتمـوا بتجديدها وتعميرها ، ففي خلافة المستظهر سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م) أشير إلى تجديـد المدرسـة وتعميرها [7] . كذلك أنفق الخليفة الناصر مالاً كثيـراً مـن أجـل تعميـر المدرسة [8] ، فقد أوقف الخلفاء أوقافاً كثيرة ومتنوعة على المدرسة النظامية .

إن ما حظي به الطلاب من امتيازات ومخصصات في هذه المدارس من حيـث توفير مساكن لإقامة الطلاب ، إضافة إلى الجراية الدائمة من الطعام وكثرة المرتبـات الماليـة ، والمخصصات التي يتقاضاها المنتسبون من قبـل الخلفـاء مـن مدرسـين وطلاب ، دعت إلى انتساب الطلاب لها وبأعداد كبيرة ، حتى وصلت أعداد الطـلاب

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٤٥ .
(2) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص١٣٠ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٨ ، سنة ٤٥٧ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٧ .
(5) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٢٤٦-٢٤٧ .
(6) السبكي : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٣١٤ .
(7) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .
(8) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٧٠ .

سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م إلى مأتي طالب [1] ، كما دعت كثرة التخصصات إلى إقامة بعض الطلاب عشرات السنين والبعض الآخر يعتنق المذهب الشافعي للاستفادة من الامتيازات [2] . والراجح أن جرايات المدرسة النظامية استمرت لفترة طويلة ، فقد أشار ابن جبير في رحلته سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) إلى أن جرايات المدرسة النظامية ، لا تزال مستمرة على الطلاب [3] .

ج- المدرسة المستنصرية :

ارتبط اسم الخليفة المستنصر بالمدرسة المستنصرية ببغداد والتي لم يعمر مثلها على طول الدهور ، فقد كانت تمثل أول جامعات الدنيا بناء وعلوماً ، رتب فيها الأساتذة والمعيدين والتلامذة ، وأجرى لهم الجرايات الحسنة ، وكان قد شرع في بنائها سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، وتكامل البناء في سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) في الجانب الشرقي من بغداد على نهر دجلة مما يلي دار الخلافة ، ورتب لها أربعة مدرسين لكل مذهب من المذاهب الأربعة [4] ، كما أوقَفَ الأوقاف على منتَسبين المدرسة ، وأجريت جرايات خصصت للفقهاء والطلاب ، وانتظم بها المئات من التلامذة ، فقد رتّب في المدرسة مطبخ للفقهاء يطبخ فيه الطعام ويحمل إلى كل واحد منهم كفايته من الخبز

---

(1) فقد حاولت إدارة المدرسة في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أن تقلل من تلك الامتيازات التي تقدم للطلاب ، وذلك لنقصان واردات المدرسة ، إلا أنها واجهت تذمر واستياء من قبل الطلاب فقاموا بمقاطعة الدروس ، فاتخذت إدارة المدرسة إجراء آخر وهو استبعاد بعض الطلاب لتقلل من المصروفات . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٤٦ ؛ عبد الحسين مهدي : الخدمات العامة في بغداد ، ص٣٦٢ .

(2) أنشئت هذه المدرسة لتكون متخصصة في تدريس الفقه وأصوله على مذهب الإمام الشافعي . العسيري : الحياة العلمية في العراق ، ص٢٧٦ ، كان أبو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبيد الله الرياس (ت٦٠١هـ/١٢٠٤م) حنبلياً فأصبح شافعياً ، ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٦٠ .

(3) ابن جبير : الرحلة ، ص٢٢٩ .

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٨ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨٨ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص١٤٢-١٤٣ ، وهي الجامعة المستنصرية حالياً .

الجيد والحلوى والفواكه [١] ، وكان للأيتام الذين يقرأون القرآن الكريم كل يوم ثلاثـة أرطال خبز وعرق طبيخ ، وفي كل شهر ثلاثة عشر قيراطاً [٢] .

كما رتب في المدرسة بيمارستان للمرضى فيه أصناف الأدوية [٣] والعقـاقير ، وفيه من الأطباء من يقوم بمعالجة الفقهاء والطلاب ، كما وفـرت المدرسـة الـورق والأقلام في دار الكتب لمن يطالع وينسخ [٤] ، ويبدوا أن طلاب المدرسة ومدرسـيها كانوا يسكنون في بيوت وغرف خاصة اشتملت مساكنهم وغرفهم على البسط والزيـت والسرج وأباريق النحاس ، والحصر والفحم والأطعمة والورق والحبر ، وكافـة مـا يحتاجون إليه في حياتهم اليومية [٥] ، هذا وتعتبر المدرسة المستنصرية أكبر المدارس بمقدار الأموال الموقوفة عليها ، ولذلك أزداد عدد المنتسبين إليها فبلغ عـدد الفقهـاء والطلاب خمسمائة شخص ، وأن عدد الفقهاء للمذاهب الأربعة هـو مائتـان وثمانيـة وأربعين فقيهاً [٦] .

كما احتوت المدرسة على سقاية من نوع المزملة يبرد فيها الماء فـي الـصيف للطلاب كما كانت تزود منتسبي المدرسة وغيرهم بمياه الشرب والوضوء ، أشار ابـن واصل إليها عند ذكره الأوقاف المستنصرية بقوله : " ورتب مزملة يبرد فيها الماء في الصيـف لهم " [٧] ، وكان لها موظف خاص يسمى " المزملاتـي " تميـز بملابـسه الخاصة ، ورتب له من أوقافها خمسة دنانير شهرياً [٨] .

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فـي أخبـار بنـي أيـوب ، ج٥ ، ص٣١٦.

(2) الغساني : أبو العباس إسماعيل بن العباس بن رسول : العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، دار البيان ، بغداد ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ج٢ ، ص٤٥٩-٤٦١ ، وعاء من الخوص هو السفيفة المنسوجة من الخوص ، الزبيدي : تاج العروس ، ج٧ ، ص٧ مادة عرق .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص٣١٦ .

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص٣١٦ .

(5) مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٢٥٠ .

(6) المصدر نفسه ، ورقة ٢٥٠ .

(7) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص٣١٧ ؛ تاريخ علماء بغداد ، ص٢١٣ .

(8) ابن رافع السلامي : تاريخ علماء بغداد ، ص١٧٠ ، ذكر ذلك في ترجمة لابن الحشاش .

٣- بناء المشاهد والربط :

المشاهد والأضرحة هي القبور التي تبنى على قبور الصالحين والأوليـاء بعـد وفاتهم ، وقد شاع في بغداد خلال هذا القرن الاهتمام ببناء المـشاهد ، حيـث اعتنـى الخلفاء وزوجاتهم ونساء القصر بها ، ويبدوا لنا مما ذكرته المصادر أن نساء الخلفـاء كانوا أكثر ولعاً ببناء الأضرحة ، فمن الخلفاء الذين اهتموا ببناء الأضرحة كان الخليفة المستضيء فقد أمر في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م أن يعمل شاهد قبر يحمل اسـم الإمـام أحمد بن حنبل فعمل ونقضت السترة جميعها وبنيت بآجر مقطوع ، وبنى لها جانبـان ووقع اللوح الجديد وكتب عليه : " هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا المستـضيء بـأمر الله ، وفي وسطه قبر تاج السنة وحيد الأمة العالي الهمة العالم العابد الفقيه الزاهد الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني " [١] .

وفـي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م أمر الخليفة المستنصر بعمل مزملة [٢] بـالقرب منه ، لأجل الزوار والواردين ولما تكامل بنائها جعل فيها الحباب وملئـت بـالجلاب ورتب فيها قيم يقوم بمصالحها [٣] ، كذلك أمر الناصر ببناء مشهداً للإمام المستـضيء فقد كان مدفوناً في الدار العتيقة غربي دجلة وكانت دار إحدى نساء الخليفة ، قيل أنـه أوصى بذلك وكانت عادة الخلفاء أن يدفنوا بمقابر قريش بالرصافة إلا المستضيء فإنه دفن في هذه الدار ، وقد أقام الناصر لها فراشين وبوابين وأوقف وقوفاً كثيرة ، كما رتب من الشموع والوظائف وعمل ضريحه صندوقاً من الساج وصرف عليه مبلغاً من المال[٤].

وسبق أن أشرنا إلى الدور الكبير الذي كان يقوم به نساء دار الخلافة في الحياة الاجتماعية ، ظهر ذلك في كثرة عطائهم الاجتماعي ، ومنهن كانـت خـاتون زوجـة المستظهر كانت كثيرة البر بنت رباطاً بباب الأزج للشيخ علي بن الحسين أبو الحـسن

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٨٣ – ٢٨٤ .

(2) المزملة : وعاء يملئ ماء ، ويغطى ليبرد ماؤه ، والحباب مفرد الحب وهي الخابية ومشهورة الاستعمال عنـد أهل بغداد ، والجلاب ماء الزبيب أو التمر مع ماء الورد . ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص٤٤٠ ، ج٢ ، ص٨ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٨٤ .

(4) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٥٧ .

الغزنوي وكان قدم بغداد في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م وأوقفت له الوقوف الكثيرة [١] .
وكانت أم الخليفة الناصر زمرد خاتون من أرغب النساء في فعل الخير وأكثرهن فعلاً وبراً ، فقد عملت الصدقات الجارية ، وعمرت المساجد والمشاهد والأربطة إضافة إلى المدارس [٢] . منها مسجداً بمشرعه السقائيين على شاطئ دجلة ، وفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، أمرت بعمارة مشهد لرجل يقال له الشيخ الهيتي ، فعمل له قبة عجيبة البناء كما عمرت بجانبه رباطاً وأوقفت عليه قرية يبلغ واردها خمسمائة (٥٠٠) دينار وحملت إليها جميع ما تحتاجه من فرش وقناديل وأثاث [٣] قال عنها ابن النجار : " له رباط يقيم به وعنده جماعة من الفقراء المنقطعين " [٤] .

فقد كان الوقف الذي أوقفته زمرد خاتون يسد حاجات هؤلاء الفقراء ، كذلك أنشأت السيدة سلجوقة خاتون زوجة الخليفة الناصر ، تربة في الجانب الغربي من شرعة الكرخ عند مشهد عون ومعين ولدي الإمام علي رضي الله عنه ، مجاورة للرباط الذي أنشأته [٥] . إلا أنها توفيت قبل أن تتمها فأتمها الخليفة الناصر من بعدها [٦] ، وقد اشتملت هذه التربة على خزانة للكتب قال عنها ابن الساعي : " وقفت فيها خزانة من الكتب النفيسة تعار لمن طلبها بالرهن " [٧] .

---

(1) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٩٩ .
(2) الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢١٥-٢١٩ ؛ الاربلي : خلاصة الذهب ، ص٨١ .
(3) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٩٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢٥٧ .
والشيخ الهيتي هو الحسن بن علي بن أبي نصر الزاهد صاحب الكرامات (ت٥٦٤هـ/١١٦٨م) . ابن النجار : ذيل تاريخ بغداد ، ج١٩ ، ص١٥٩ .
(4) المصدر نفسه ، ج١٩ ، ص١٦٠ .
(5) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٧ ؛ الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٥٨ .
(6) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٢٥ .
(7) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٧-١١٨ .

الربط :

الرباط هو الإقامة على جهاد الأعداء وملازمة الثغور لحمايـة حـدود الـبلاد الإسلامية (١) ، إلا أن حالة الأمن والاستقرار وانقطاع الغزو ، إضافة إلـى التطـور الاجتماعـي الذي شهدتـه مدينـة بغداد ، غيرت المعنى الحربي للرباط إلى معنـى جديد ، فأصبـح يطلق على المكان الذي يرابط فه الفقراء من الصوفية للعبادة ومجاهدة النفس (٢) ، كما عرفه المقريزي : " هو بيت الـصوفية ومنـزلهم ، ولكـل قـوم دار والرباط دارهم " (٣) .

وبذلك تغير دور الرباط بتغير معناه ، فأصـبح مـأوى للفقـراء والمحتـاجين والعاجزين ، والنساء المطلقات ، والأرامل ، واليتامى ، ومسكناً للفقراء مـن الفقهـاء والعلماء ، فأصبح الرباط يؤدي خدمات دينية واجتماعية وعلمية للمجتمع ، وقد اهـتم الخلفاء بالربط وعمارتها وتوفير وسائل الإعاشة والنظافة للساكنين ، وفي ذلك أشـار ابن الجوزي بقوله : " لا يخلو الرباط من المطبخ ولا ينقطع ليله ، وأصله من مال قـد عرف من أين هو ، والحمام دائر " (٤) .

وعليه فإن الخدمات المتوفرة في الرباط أصبح ينتفع بهـا المتـصوفة ، الـذين اعرضوا عن الدنيا وانصرفوا إلى العبادة إضافة إلى بقية أفراد المجتمع مـن الفقـراء والعاجزين والأيتام ، وفيما يلي نتناول أشهر الربط التي أسسها واعتنى بهـا الخلفـاء وزوجاتهم ، في بغداد خلال هذه الفترة والتي تمتعت بالأوقاف الماليـة ، والعينيـة ، لخدمة ساكنيها والقاصدين إليها من الغرباء .

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ، ج٣ ، ص٢٢ ، مادة " ربط " ؛ المقريزي : الخطـط ، ج٣ ، ص٤٢٢ ؛ دائـرة المعارف ، ج١ ، ص١٩-٢١ .

(2) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٥ ، ص٨١-٨٢ ؛ مصطفى جواد : الربط البغدادية ، مجلة سومر ، المجلـد (١٠) ، ج٢ ، ١٩٥٤م-١٩٥٥م ، ص٢٤١ .

(3) المقريزي : الخطط ، ج٣ ، ص٤٢٣ .

(4) ابن الجوزي : صيد الخاطر ، ج١ ، ص٢٦٧ ، وكان من المعارضين لهذه الربط وما يجري فيها .

أ- رباط المأمونية :

أنشأت هذا الرباط السيدة زمرد خاتون سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) [١] والدة الخليفة الناصر لدين الله ويعرف باسمها أحياناً ، أنشأته في الجانب الشرقي من بغداد في محلة المأمونية [٢] في موضع دار سنقر الصغير المستنجدي ، ولقد أشرفت الدولة بصفة رسمية على بناء هذا الرباط بمشاركة أستاذ الدار وديوان الأبنية [٣] .

ولعل اهتمام الدولة بهذا الرباط واستمرار الجراية عليه زادت من قيمته العلمية ومن فرص السكن فيه للفقراء من الصوفية [٤] .

ب- رباط الخلاطية :

هو من الربط التي أنشأها الخليفة الناصر لزوجته سلجوقة خاتون [٥] ، وقيل أنها هي التي طلبت إلى زوجها أن يبني لها هذا الرباط في سنة (٥٨٤هـ / ١١٨٨م) [٦] ، وشرع في بنائه على شاطئ دجلة بالرملة في شرعة الكرخ من الجانب الغربي من بغداد [٧] ، ولكنها توفيت قبل تمام بنائه سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) [٨] ، وبنى لها تربة بجواره وكانت الأموال الموقوفة على هذا الرباط والتربة كثيرة ، قال عنها ابن الساعي : " غرس بين يديه بستاناً أنيقاً ، يشرف على دجلة ويسقي بدولاب من مائها ، ووقف عليه وعلى تربتها أوقافاً كثيرة غزيرة النمو

(1) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٩٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٥٧ .

(2) المأمونية : محلة ببغداد بين نهر المعلى وباب الازج . ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٤ .

(3) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٤٣ ، ٢٥٢ ، وديوان الأبنية هو الذي يتولى عمارات الدولة وترميماتها ويعين له مهندسين غير الموظفين الذين يقيمون أمره . مصطفى جواد : مقدمة الجامع المختصر ، ص١٥ – ص ١٦ .

(4) الرحيم : عبد المحسن مهدي : الخدمات العامة ببغداد ، دار الشؤون الثقافية ، آفاق عربية ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، ص٣٥٢ .

(5) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٣٧ .

(6) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٤٢٥ ؛ مصطفى جواد : الربط البغدادية ، ص٢٤١ .

(7) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٩ .

(8) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ .

والـدخل " [١] وما يؤكد ذلك حاجته إلى مشرف لتنظم حسابات أوقافه ، وقد ضم هـذا الرباط مختلف فئات المجتمع ذكـر ذلك أبو شامة فقال : " كان الخليفة قد سلم إلى بهـاء الدين رباط الخلاطية وأوقافها ، ثقة فيه من غير مشرف ولا عمل حساباً ، فأقام مدة يقـصده الناس من البلاد وأطراف بغداد وأرباب البيوت والفقهاء ، والفقراء والأعيان فما رد قاصـداً ولا منع سائلاً " [٢] .

ج- رباط دار الفلك :

أسس هذا الرباط بدار الخلافة قريباً من دجلة ، من قبل الخليفة الناصر لدين الله في سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م) وخصصه للنساء المتصوفات [٣] ، وجعل شيختهن السيدة العلوية ست الخدور بنت الأمير السيد بن علي بن المرتضى بن علي العلوي مـدرس جامع السلطان [٤] .

د- رباط دار الحريم الطاهري :

ينسب هذا الرباط للخليفة الناصر لدين الله ، أنشأه سنة (٥٨٩هـ ـ/١١٩٣م) [٥] في محلة الحريم الطاهري بالجانب الغربي من بغداد [٦] ، وفي بداية تأسيـسه أسـكنه عشرة من فقراء الصوفية وخصص لهم جرايـات الطعـام اليوميـة ، إلـى جانـب المشاهرات [٧] .

---

(1) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٨ .

(2) أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي : تراجم رجال القرنين السادس والـسابع المعروف وادي النيل ، القاهرة ، ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ، ص١٠٣ .

(3) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٧٥-١٧٧ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١١ .

(4) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص٤٠٨ ؛ ابن الفـوطي : الحـوادث الجامعـة ، ص٢١١ ، ٢٣٨ .

(5) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص٤٢٢ .

(6) الحريم الطاهري بأعلى مدينة بغداد في الجانب الغربي منسوب إلى طاهر بن الحسن بن مصعب بن زريـق . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٥١ .

(7) مصطفى جواد : الربط البغدادية ، ص٢٤٢ .

هـ - رباط المرزبانية :

هو من الأربطة التي بناها الخليفة الناصر لدين الله بالجانب الغربي من بغـداد سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٣م) على نهر عيسي [1] ، ذكر أنه أنشئ للـشيخ شـهاب الـدين السهروردي ، فسكنه جماعة من الصوفية [2] ، ويبدوا أنه كان لهـذا الربـاط أهميتـه العلمية فقد أجرت الدولة على ساكنيه جميع ما يحتاجون إليه من المال والطعام [3] .

و- رباط دار الروم :

يسمى بذلك نسبه إلى محلة دار الروم ويقع بالجانب الشرقي مـن بغـداد [4] ، أسسه الخليفة المستنصر في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) [5] وأسكنه جماعة من الـصوفية وجعل مشيخته للشيخ أبي صالح نصر بن عبد القادر الجيلي [6] .

ز- رباط سوسيان :

أسس هذا الرباط بأمر من الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٥٢هـ ـ/١٢٥٤م) [7] وعرف باسم الأمير مظفر الدين أبي الفتح سوسيان (٥٩٨هـ/١٢٠١م) لأنه أنشئ في داره على نهر عيسى بالجانب الغربي من بغداد [8] ، ووقفت دار سوسيان وما يجـري معها من الحجر والبساتين وجعلت رباطاً للصوفية [9] .

---

(1) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٩٩ .
(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٤ .
(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٩٩ .
(4) دار الروم بيعة كبيرة حسنة البناء خاصة للنسطورية وهي ببغداد بالجانب الغربي . ياقوت الحمـوي : معجـم البلدان ، ج٢ ، ص٥١١ .
(5) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٦١ .
(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١١ .
(7) المصدر نفسه ، ص٢١١ .
(8) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٩٨ .
(9) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١١ .

ح- رباط دار الشط :

أسسه الخليفة المستعصم سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) [1] ويقع في دار الشط بالجانب الغربي من بغداد ، وخصصه للنساء المتصوفات بمشيخة الشريفة العباسية بنت الخليفة المهدي [2] .

٤- *البيمارستانات* :

البيمارستانات [3] من المؤسسات الاجتماعية التي حظيت باهتمام الخلفاء والسلاطين ، ورجال الدولة لتيسير الخدمات الصحية للناس ، وذلك بتزويدها بالأدوية ، والأطباء والعاملين ، ولعل أشهر البيمارستانات التي حظيت باهتمام الخلفاء والسلاطين كان البيمارستان العضدي [4] ففي سنة (٥٠١هـ/١١٠٧م) أثناء زيارة السلطان محمد شاه السلجوقي لبغداد بعث بمبلغ مائة ألف دينار كمساعدة مالية ، بعد أن تعالج فيه عدد من غلمانه [5] ، ومما يوضح اهتمام ورعاية خلفاء هذه الفترة بالبيمارستان العضدي ، ما كتبه بنيامين في وصف البيمارستان وعناية الخلفاء به يقول : " يقوم على الجانب الغربي من بغداد بين نهر دجلة ونهر آخر يأتي من الفرات بناء المارستان ، وهو مجموعة من البنايات الواسعة ، يأوي إليها المعوزون من المرضى رغبة في الشفاء ،

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١١ .

(2) وهي دار علاء الدين الطبرسي المعروف بالدويدار الكبير (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) ، وكانت تقع بشرقي بغداد على شاطئ دجلة تجاه الرباط المعروف بدار الفلك . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١١ .

(3) البيمارستان : وتسمى أيضاً مارستان ، كلمة مركبة من (البيمار) بمعنى مريض و (ستان) بمعنى مكان ، ثم اختصرت فصارت مارستان ، الجواليقي ؛ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، دار بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

(4) البيمارستان العضدي ينسب إلى عضد الدولة البويهي سنة (٣٦٨هـ/٩٧٨م) تمت عمارته في سنة (٣٧١هـ/٩٨١م) ويقع في الجانب الغربي من بغداد ، تمتع بأوقاف كثيرة ومتنوعة ، أسهمت في تطويره وساعدت على استمراره لفترة طويلة ، بتقديم خدماته الصحية للناس . ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص١٦ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٢ ، ومنهم من يرى تمام عمارته في سنة (٣٧٢هـ/٩٨٢م) ، ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص١١٢ ؛ ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص١٩٣ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٦٠ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٥٦-١٩٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، سنة ٥٠١ .

لهذا المارستان قوامون من الأطباء يبلغ عددهم الستين طبيباً يعالجون المرضى ويطبخون لهم الأدوية ، والخليفة يجهزهم بما يحتاجون إليه من بيت المال ، وفيها أيضاً بناية تدعى " دار المارستان " يأوي إليها المجانين المغلوبين على عقولهم بتأثير حر القيظ الشديد والأطباء يقيدونهم بالأغلال حتى يؤبوا إلى سابق رشدهم ويعيشون مدة مكوثهم فيها بنفقة الخليفة ، ويقوم أطباء الخليفة بتفقدهم مرة كل شهر ، فيسرحون من عاد إليه الصواب منهم ، وتشمل خيرات الخليفة كل من أم بغداد من المرضى والمجاذيب ، فالخليفة جزيل الإحسان همه عمل الخير " [1] .

والراجح أن اهتمام الدولة بهذا البيمارستان وبمرافقه ساعد على أن يظل محتفظاً بعمارته وتجهيزاته ، وجودة خدماته الصحية المقدمة للمرضى حتى أواخر القرن السادس ، وهو ما رواه ابن جبير أثناء زيارته لبغداد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) بقوله : " بين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة يتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس يطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه وبين أيديهم قومه يتناولون طبيخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة " [2] ، كما حظى مرضى البيمارستان برعاية وعطف الخلفاء ، وكان الخليفة الظاهر كثير الزيارات لمرضى البيمارستان فقد قال عنه الكازروني : " أنه كان كثير التردد إلى المارستان والتطلع على أحوالهم والوصاة في حقهم رفقاً بهم ورحمة " [3] .

ولقد استمر البيمارستان العضدي يقدم خدماته الصحية للناس إلى أن أصابه الخراب جراء الفيضانات التي داهمت بغداد وعلى فترات متعاقبة [4] ، وعلى الرغم

(1) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٤-١٣٥ .
(2) ابن جبير : الرحلة ، ص٢٢٥ .
(3) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٥٦ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٨٦ ، ص٢٤٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢٧٨ .

من استمراره إلا أن نهايته تمت في إكتساح هولاكو لبغداد سـنة (٦٥٦هـ ـ/١٢٥٨م) حين اتخذه قاعدة لهجومه [١] .

ايوان الطب في المدرسة المستنصرية :

كان هذا الإيوان ملحق بالمدرسة المستنصرية منذ سنة (٦٣٣هـ ـ/١٢٣٥م) [٢] وعلى الرغم من أنه مخصص لدراسة الطب إلا أنه كان يقدم خدمات صحية للمجتمـع منها معالجة الفقراء والمرضى الذين يقصدونه ، وهو ما ذكره ابن الكـازروني فـي وصفه فقال : " وبنى مقابلها ايوان عال فسيح في صدره ساعات تعمل الليل والنهـار يستضاء بها في جميع أوقات الصلوات وشرط أن يكون به جماعـة مـن المـشتغلين بالطب ولهم شيخ يرجعون إليه ويداوي الفقراء والمرضى الذين يردون عليه ، وجعـل للجميع من الوظائف ما يعمهم حتى الطبيخ في كل يوم والصابون ، والنور لكل مـنهم في كل شهر بقدر كفايته وحوائج للمرضى لمن عساه يمرض منهم ولم يترك شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وشرط لهم في كتاب الوقف جميع ذلك " [٣] ، ولقـد كـان الخليفـة المستنصر من الخلفاء الذين اهتموا ببناء البيمارستانات والوقف عليها من أمواله لـيس في بغداد فحسب بل وفي أماكن أخرى كالبصرة ومكة المكرمة [٤] .

٥- السجون :

تعتبر السجون مؤسسة اجتماعية هدفها إصلاح الجانحين من الفئات الاجتماعية المختلفة ، ولقد كان في بغداد سجون خاصة لكل فئة من السجناء على حسب الجنح أو المخالفات التي ارتكبوها ودرجتها ، منها :

---

(1) الهمذاني : رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، م٢ ، ج١ ، ص٢٨٦ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٩ .

(3) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٦٠ .

(4) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٦١ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٣ ؛ الفاسـي : تقـي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي : شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام ، دار الكتاب العربـي ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ج١ ، ص٣٣٧ .

أ- حبوس القضاة : وهي سجون خاصة بأهل الديون وتسمى أحياناً بحبس الشرع (١) .

ب- حبس المعونة : وهو سجن خاص بأصحاب الجنايات ويسمى حبس الشرطة أو حبس اللصوص أو حبس الجرائم (٢) .

ج- سجن الطرارات : ويختص هذا السجن بالطرارات من النساء (٣) ، وحبس الوزير (٤) .

فلقد نال السجناء اهتماماً ورعاية جيدة من قبل بعض الخلفاء ، كغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ، فكما ينعم الخلفاء على أفراد المجتمع في المناسبات الخاصة والعامة ، فلا شك أنه كان للسجناء نصيب من ذلك ، خاصة في المناسبات العامة المفرحة لعموم الناس ، كعيد الفطر ، والأضحى وغيرها .

ففي سنة (٤٠٢هـ/١٠١١م) في عيد الفطر أمر الوزير فخر الملك (ت٤٠٧هـ/١٠١٦م) فيما رواه ابن الجوزي بقوله : " تقدم ليلة الفطر يتأمل في حبوس القضاة فمن كان محبوساً على دينار وعشرة قضى ، ومن كان أكثر من ذلك كفل وأخرج ليعود بعد التعييد وأوغر بتمييز من في حبس المعونة ، وإطلاق من صغرت جنايته ووقعت توبته ، فكثر الدعاء له في المساجد والأسواق " (٥) .

ويتضح لنا أن من كانت مبالغ ديونهم قليلة قضيت عنهم لتبرئة ذممهم ومن كانت مبالغهم كبيرة يفرج عنهم بكفالة ليقضوا فترة العيد مع أهلهم وذويهم ، ليعودوا بعد ذلك ، وتلك بادرة إنسانية جيدة من قبل الخلفاء والأمراء .

---

(1) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص١١٧ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٧ ؛ متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٤١٢ .

(2) الصابئ : تاريخ الصابئ ، ج٨ ، ص٣٩٤ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤٧ ، ١٧٢ .

(3) الطرارات هي التي تطر الدروب أي (الشحاذة) وتحتال فيها على الناس . القفطي : أخبار العلماء ، ص٤١٣.

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٣ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٥٦ .

ويعتبر يوم عاشوراء من المناسبات العامة لدى سكان بغداد وبهذه المناسبة أطلق الخليفة المستضيء في (سنة ٥٧٤هـ/١١٧٩م) سراح السجناء بعد استماعه إلى مجلس وعظ ابن الجوزي دعا فيه بالرحمة والعطف على الرعية [(١)] .

كما كان النصر في الحرب أو الاستعداد للدفاع عن الدولة مناسبة اجتماعية يشترك فيها جميع أفراد المجتمع ، ففي سنة (٦٣٠هـ /١٢٣٢م) أفرج الخليفة المستنصر بالله عن السجناء بعد أن حقق إقبال الشرابي النصر على أعدائه في أربل [(٢)] كذلك حين حققت قوات الخلافة النصر على التتار بقيادة إقبال الشرابي في جهات بعقوبه ، وفي خلافة المستعصم سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٥م) أنعم المستعصم على السجناء في حبس الشرع بدفعه الأموال إلى غرمائهم [(٣)] .

ولم تقتصر عناية الخلفاء بالسجناء وتقديم المساعدات لهم في المناسبات العامة بل شارك الخلفاء العامة في مناسباتهم الخاصة أيضاً ، منها ما حدث سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م-١١٤٧م) عندما نشب حريق في القصر الذي يسكنه الخليفة المقتفي لأمر الله ويقع في البستان الذي على مسناة باب الغربة [(٤)] ، احتفالاً بسلامة الخليفة ، أفرج عن كافة السجناء المحبوسين [(٥)] ، كذلك في سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م) في خلافة المستضيء بالله حين سقطت صاعقة على دار الخلافة وراء التاج وحرقت ما حولهم ، وحين أصبح الخليفة سالماً أفرج عن أهل السجون [(٦)] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٨٣ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٣ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٥٠ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١١٨-١١٩ ، وباب الغربة هو أحد أبواب حريم دار الخلافة وأولها وقريباً من نهر دجلة سمي بذلك لأن شجرة غرب كانت ثابتة بالغرب منه . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٥٠ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١١٩ .

(6) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٥٧ .

وإن اهتمام الخلفاء بحالة السجناء وعطفهم كان يشمل السجون بأنواعهـا فـي المناسبات العامة ، إلا أن جل اهتمامهم كان يتركز في إصلاح حالة السجناء وتبرئـة ذممهم والإنعام عليهم بالحرية خاصة سجناء حبس الشرع ، وذلك يعود إلى أن أغلـب نزلاء هذا السجن هم من الفقراء الذين لم تسعفهم ظروفهم المعيشية للوفاء بديونهم .

كما كان تولي الخليفة للخلافة من المناسبات المهمة التي ينعم فيها الخليفة علـى السجناء في حبس الشرع ، مثلما حدث في خلافة الظاهر سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) فيما أشار إليه ابن الأثير يقول : " أنه أخرج من كان في السجون وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطها عن كل من هو محبـوس فـي حـبس الشرع وليس له مال " [١] ، وفي أوائل خلافة المستعصم سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) أفرج عن السجناء في حبـس الجرائم ومن في حبس الشرع ، بعد تسديد ديونهم [٢] ذكر ذلك ابن الفوطي فقال : " تقدم بالإفراج عن جميع المسجونين في حـبس الـشرع بعـد أن يرضي غرمائهم بالمصالحة على ديونهم " [٣] .

ومن المناسبات الخاصة بالخلافة العودة من أداء فريضة الحـج كانـت تعتبـر مناسبة خاصة يمنح فيها السجناء الحرية تعبيراً عـن عطف الخليفة ورأفته بهم ، وهو ما حدث في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) في عودة والدة الخليفة المستعصم من الحج فأنعم على سجناء الشرع بالحرية [٤] .

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٧٤٨ .

(2) مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٢٣٦-٢٣٧ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٤٠ .

(4) المصدر نفسه ، ص١٥٠ .

ثالثاً : أعمال البر ودور الضيافة :

ساهم الخلفاء مساهمة وافرة في معايش الناس والتخفيف عن الفئات المعدمة والمحتاجة ، ورفع المستوى المعيشي لأفراد المجتمع وتأمين حياة كريمة لهم ، ظهر ذلك في الإنفاق على كثير من أعمال البر والمشاريع الخيرية وتقديم المساعدات العينية من المواد الغذائية تمثلت في جرايات الطعام ، أو نقدية تمنح للرجال والنساء والأيتام ، فالخليفة الظاهر فرق أموالاً وبراً على الفقراء ، وحين روجع في الذي يخرجه ويطلقه من أموال قال : " أنا فتحت الدكان بعد العصر فاتركوني أفعل الخير فكم أعيش " (1) ، كما كانت للخليفة المستنصر بالله صلات من الذهب تفرق في محال بغداد على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام والفقراء ، كذلك كان يطوف بنفسه في أزقة بغداد ويشمل برعايته عامة الناس (2) .

وكان للخلفاء صدقات جارية توزع من الغنم والدقيق والذهب على الفقهاء في جميع المدارس ، وعلى الصوفية في جميع الربط وعلى المنقطعين في الجوامع والمساجد والزوايا (3) ، إضافة إلى مساعدة الأرامل والأيتام وذوي الحاجات بتأمين الرواتب الشهرية والملابس لهم (4) .

فقد بلغ ما وزع على العلماء والصلحاء في عهد الظاهر بأمر الله مائة ألف دينار (5) ومن الصدقات التطوعية التي اتخذت بشكل رسوم مستديمة كالصدقات الرجبية ، وهي في شهر رجب ، اتخذت شكل الرسوم في ديوان الخلافة العباسية منذ سنة (٥٦٠هـ/١١٦٤م) (6) ، فتحولت بحكم العادة إلى نوع من الصدقات الثابتة

---

(1) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٩-٢٣٠ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨١ .

(2) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥٩ .

(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٣٠ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٤ .

(4) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٤٣ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨٨ .

(5) الصفدي : نكت العميان ، ص٢٣٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٦٥ .

(6) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص٢٥١ ؛ فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، ص٣٠٧ ، وهي بدعة شبيهة إلى حد كبير بالعمرة الرجبية التي ما تزال حتى اليوم .

المستمرة ، إضافة إلى أنها كانت توزع على الفقراء من الصوفية لأنها تعتمد الثـواب بقراءة القرآن الكريم ، ويتم ذلك بإقامة دعوة عامة يحضرها أرباب الدولة [(١)] ، ولقـد استمر توزيع الصدقات الرجبية ، بصورة مستديمة لدى الخلفاء ، يظهر لنا من تكـرار هذه الرسوم في عدة سنوات [(٢)] وفي خلافة الناصر بعث بالصدقات الرجبية إلى مناطق الدجيل في العراق ، والديار المقدسة في الحجاز ، بلغت في سنة أربعـة آلاف دينـار وألفا وخمسمائة ذراع من القطن لتكفين الموتى من الغربـاء [(٣)] ، وبلغـت الـصدقات الرجبية التي توزع في عهد الخليفة المستنصر بالله مائتي ألف دينار [(٤)] . ففـي سـنة (٦٢٧هـ/١٢٣٠م) فرقت الرسوم الرجبية بالبدرية ، قال عنها ابن الفـوطي : " فـي غرة رجب المبارك فرقت الرسوم من البر على أربابها جاري العادة وأبرز مـن دار الخليفة إلى أستاذ الدار شمس الدين أحمد بن الناقد ما أمـر بتفرقتـه علـى الفقـراء والمحتاجين ببغداد " [(٥)] . كذلك في خلافة المستعصم وزعت الـصدقات الرجبيـة علـى مستحقيها لسنوات متواترة [(٦)] .

دور الضيافة :

ممـا يدل على التكافل الاجتماعي بين الناس والحكومـة خاصـة فـي شـهر رمضان ، هو إنشاء دور الضيافة لإفطار الفقراء ، ويعتبر أمير المؤمنين عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه هو أول من اتخذ داراً للضيافة في الإسلام ، قال المقريزي : " أول من اتخذ دار ضيافة في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة سبع عشرة وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره ، وجعل بين مكة والمدينة

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٦ .

(2) انظر السنوات (٥٦٢هـ/١١٦٧م) ، (٥٧٢هـ/١١٧٦م) ، (٥٧٣هـ/١١٧٧م) ، (٥٧٤هـ/١١٧٨م) ، ابـن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، الصفحات ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ .

(3) فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، ص٣٠٧-٣٠٨ .

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٧ .

(5) المصدر نفسه ، ص٢٧ .

(6) انظر : السنوات (٦٤٣هـ/١٢٤٣م) ، (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ، (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) ، (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) ، (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ، (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ، (٦٥١هـ/١٢٥٣م) ، (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) ، الغـساني : العـسجد المسبوك ، ج٢ ، ص٥١٦ ، ٥٣٦ ، ٥٤٣ ، ٥٦٣ ، ٥٧٧ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ .

من يحمل المنقطعين من ماء على ماء حتى يوصلهم إلى البلد ، فلما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أقام الضيافة لأبناء السبيل والمتعبدين في المسجد " (١) ، ثم أنشأ عثمان رضي الله عنه داراً رمضانية ذكرها الطبري فقال : " وضع طعام رمضان فقال للمتعبد الذي في المسجـد ، وابن السبيل والمعتمرين من الناس في رمضان " (٢) ، بعد ذلك أحجمت المصادر عن ذكر أية دور للضيافة حتى العصر العباسي الثاني (٣) .

ويعود تأسيس دور الضيافة الرمضانية ببغداد إلى الخليفة الناصـر لـدين الله ، فعلى الرغم من أنه رمي بالبخل وأنه جمع بركة من الذهب في دار الخلافة فكان يقف على حافتها ويقول أترى أعيش حتى أملأها (٤) ، ومع ذلك نجد أنه أمـر بإنـشاء دور الضيافة في محال بغداد شرقيها وغربيها ، كما أختار من كل أهل محله مـن محالهـا شخصاً مشهوداً له بالثقة وجعله مسئولاً في محلته ، يستلم مقداراً معيناً مـن المـال ، وبعد إثباته فقراء محلته يسلم لكل واحد في كل يوم رطلين من الخبز وقدح طبيخ فيـه نصف رطل لحم ضأن ، فكان عدد المنتفعين في دور الضيافة خمسمائة شخص ، وقد عم خيره الفقراء واستراحوا من السعي في تحصيل القوت .

كما كانت الوظيفة الرمضانية من الغنم والدقيق ، والـذهب تـصرف للفقهـاء والفقراء في جميع المدارس والجوامع وربط الصوفية (٥) ، أشار ابن الأثير إلى ذلـك بقولـه : " في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغـداد لـيفطن فيهـا الفقراء ، وسميت دور الضيافة يطبخ فيها لحم الضأن والخبز الجيد ، عمل ذلـك فـي جانبي بغداد وجعل في كل دار من يوثق بأمانته وكان يعطى كل إنسان قدحاً مملوءاً من الطبيخ واللحم ، ومن الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة "(٦).

(1) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٣ .
(2) الطبري : الرسل والملوك ، ج٤ ، ص٢٤٦ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص٤٢٠ ؛ المقريزي : الخطـط ، ج٢ ، ص٢٢٢ ؛ عبـد المحـسن مهـدي الرحيـم : الخدمات العامة في بغداد ، آفاق عربية ، بغداد ، ص٤٠ .
(4) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥٩ .
(5) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٩-٢٣٠ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨١ .
(6) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٦١٦-٦١٧ .

وكان الخليفة المستنصر كريماً يعطف على الفقراء والضعفاء ، فأوقف في أيامه في كل محله من محال بغداد داراً لضيافة الفقراء خاصة في شهر رمضان ، وفي سنة (٦٣٠هـ/١١٣٢م) زاد عدد دور الضيافة في بغداد دارين جديدين أحداهما : في دار الخلافة لأولاد الخلفاء المقيمين في دار الشجرة ، والأخرى : بخربة ابن جرده للفقراء الهاشميين [(١)] فقد كان المستنصر حريصاً على تأمين احتياجات الفقراء في كافة محلات بغداد بتفقده المستمر لدور الضيافة وأحوال الفقراء ، من ذلك أنه اجتاز يوماً ما بين محلتي دار القز والحربية ، فرأى شيخاً كبيراً يحمل قدحاً من الطبيخ ويحاول الدخول إلى محلة الحربية ، فظن الخليفة أن هذا الشيخ يجمع الطعام من أكثر من محلة ، فقال له : " يا شيخ ممن أنت ، قال : من الحربية ، قال : أما عندكم دار مضيف ، قال : بلى ، قال : تأخذ من الموضعين ، فبكى الشيخ وقال : والله ما أخذت من المحلتين وإنما أنا رجل كان لله علي نعمه وكان لي مال كثير فأفتقرت وذهب المال والولد واستحي من أهل محلتي أن يروني آخذ من دار المضيف فأنا أمضي إلى المحلة التي لا أُعرف فيها فآخذ الطعام في القدح وآتي إلى باب الحربية فإذا أذن المغرب ودخل الناس في الصلاة دخلت بيتي ولا يراني أحد ، فبكى الخليفة وقال لنفسه : ويحك يا منصور وما جوابك غداً إذا سألك الله عن هذا الفقير المحتاج ، ثم أعطاه ألف دينار ، وقال : إذا نفذت تعال إلى باب البدرية ....." [(٢)] ثم مات الرجل من فرحه بعد عشرين يوماً فأذن الخليفة بالمال لورثته أو لفقراء الحربية إذ لم يكن لديه ورثة [(٣)] .

ولاهتمام الخلفاء بدور الضيافة أنشأوا ديواناً ضمن دواوين الدولة وسمي ديوان الطبق [(٤)] ، ومهمته الإشراف على الضياع الموقوفة على دور الضيافة الموجودة في جانبي بغداد والتي تفرق فيها الأطعمة على الفقراء ، ولم يكن يعطي في دور الضيافة الطعام فقط ، بل كانت هناك نقود عينية تعطى للمحتاجين ، وإذا زادت واردات ديوان

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥١ ؛ وانظر تعليق مصطفى جواد في تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٠٦ .

(2) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق٢ ، ص٧٤-٧٤١ .

(3) المصدر نفسه ، ج٨ ، ق٢ ، ص٧٤١ .

(4) من عادات أهل بغداد في شهر رمضان أن الأعيان يحضرون سماط الخليفة عند الوزير ، وأهل بغداد يسمون السماط طبق . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٣٥ ؛ شهاب الدين الخفاجي : شفاء الغليل ، ص١٧٧.

الطبق من الأراضي الزراعية الموقوفة عليه يصرف منها نقداً على الفقراء وأصحاب الحاجات ، ففي سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) أمر الخليفة بأن يصرف من مال الطبق ثمانية آلاف دينار وتسلم إلى الوزير ليفرقها على الفقراء منها : ألف دينار لفقراء العباسيين ، وألف لفقراء الطالبيين ، وألف لفقراء مشهد الحسين ، وألف للفقراء المقيمين على تربة الإمام أحمد بن حنبل وقبر الشيخ معروف الكرخي ، وألف للشرفاء والمقيمين بدار الشجرة من دار الخلافة ، وألفان للفقراء المجاورين في مشهد علي من العلويين وألف لفقراء الجانب الغربي في بغداد [1] .

هذا وقد زادت دور الضيافة الرمضانية في خلافة المستعصم بالله أربعة دور أخرى ، فأصبح عددها في سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ست وعشرين داراً بعد أن كانت اثنتين وعشرين داراً ، وذلك لسد احتياجات الفقراء من الطعام في رمضان يقول الغساني : " فتح دور الضيافة لأجل فطور الفقراء والمحاويج في شهر رمضان وفتحت دار الضيافة بالمشهد الكاظمي لأجل العلويين المقيمين به ودار بالجانب الشرقي والجانب الغربي والفقراء من العباسيين ، ودار بصحن السلام من دار الخلافة لأجل الساكنين بدار الشجرة من أولاد الخلفاء فعمت هذه المبار خلقاً كثير وجماً غفيراً " [2] .

ولم يقتصر اهتمام وعناية الخلفاء على دور الضيافة الرمضانية ، بل شملت أيضاً دور ضيافة الحجاج التي تقدم خدمات الطعام والمسكن لهم ، وتعتبر مظهراً من مظاهر الضيافة ، بل إن الاهتمام بالحج وشؤونه كان يعتبر واجباً من واجبات الخليفة إذ عليه تأمين طريق الحج وتوفير الماء والطعام والمسكن للحجيج قال الحسن بن عبد الله في واجبات الحاكم المسلم : " ينبغي أن ينظر في حال الحجاج والزوار فيصلح أحوالهم ويوضح سبلهم ويختار دليلهم ويؤمن عليهم من يرفق بضعيفهم ويوسع عليهم الزاد والماء والمحل " [3] .

---

(1) الغساني : العسجد المسبوك ، ج٢ ، ص٤٧٠ .

(2) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٢٨ .

(3) ابن العباس : آثار الأول في ترتيب الدول ، ص٣٣ .

لذلك كان توفير أفضل الخدمات لضيوف الرحمن هو أول ما أهتم بـه الخلفـاء العباسيون وكان موضع عنايتهم ، فأقاموا دوراً لاستضافة القادمين إلـى بغـداد مـن الحجاج والغرباء [١] ، ولذلك لم يكن غريباً على الخلفاء الأقوياء في هـذه الفتـرة أن يعطوا اهتماماً بالغاً بالحجيج ، قال ابن الكازروني : " موسم الحج هو أعظـم مواسـم السنة التي تكل وصف حسنه الألسنة ، وتفتح فيه آدر المضيف لكل بائس من الحـاج وضعيف، وتضرب على دجلة الحياض والروايا ويؤذن بالحج في سائر الرعايا " [٢].

فقد اهتم الخليفة الناصر بدور الضيافة ، فأمر ببناء دار لضيافة الحجيج والغرباء بالجانب الغربي من بغداد ، ورتب لها موظفين للإشراف عليها ، وأمر أن يدفع إلى كل فقير دينار غرامة سفر بعد أن يكسى ويزود بالزاد [٣] .

دور الخلفاء في القضاء على الفساد :

الإصلاح الاجتماعي كان هدف كل خليفة من خلفاء القرنين الـسادس والـسابع الهجريين ، ذلك فالأزمات التي كان يمر بها المجتمع البغدادي الدينية منها والـسياسية والاقتصادية ، جعلت المجتمع بين أمرين إما ابتعاد عن الدين إلى درجة الوقـوع فـي المنكرات ، أو العكس غلو في الدين إلى درجة الوقوع في البـدع كمـا حـصل مـع الصوفية ، عليه حاول العديد من الخلفاء جهدهم لإصلاح حال المجتمع ، فنجد الخليفـة المسترشد أستهل خلافته بالإصلاح والقضاء على الفساد والمفسدين فأمر بإراقة الخمور بسوق السلطان ونقض بيوتهم [٤] ، واستولى على قصر أبي ظـاهر يوسـف الحـزي صاحب المخزن بعد أن ألقى القبض عليه فوجد فيه كنيسة ومذبحاً وحين سئل صاحب المخزن عن ذلك حاول أن يتنصل من التهمة قائلاً : " لي امرأة نصرانية عملت ذلـك من دون علمي " [٥] . كما كان الخليفة المستنجد بالله شديداً على أهل العبـث والفـساد

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٧ .
(2) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص٤٣٥ .
(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٩-٢٣٠ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨١ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢١٨ ، " وذكر أن ذلك أثر حلم تراءى له فيه أن أباه ينذره بالابتعاد عـن قبره لئلا يجتذبه إليه سنة ٥١٢هـ/١١١٨م .
(5) فييه : أحوال النصارى ، ص٣٢٤ .

ففي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م أمر بإجلاء بني أسد أهل الحله لفسادهم ، فقتل جماعة منهم وهرب الباقون وأمر بتسليم بطائحهم إلى رجل يقال له معروف [١] . في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م كثرت المنكرات بدرجة كبيرة فقام حاجب الباب بإراقة الخمور وأخذ المفسدات [٢] .

ولم تكن شدة الخلفاء على المفسدين العامة فقط وإنما شمل الخاصة أيضاً ، فقد كان أستاذ الدار محمد ابن الصاحب رافضياً ظالماً سفاكاً للدماء فأمر الخليفة الناصر بقتله سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وعلق رأسه على باب داره ، وترك أموالاً لا تحصى منها ثلاثون ألف دينار جمعها من الناس [٣] .

كما كان التعامل بالربا منتشراً بين التجار والصيارفة ذلك أنه حين ولي الخليفة الظاهر بأمر الله أمر بإزالة الفروق في زنة الذهب والدنانير ، فقد كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة ، وزيادتها في كل دينار حبة يقبضون بها المال ، ويعطون بالصنجة [٤] التي يتعامل بها الناس فأبطل ذلك ، وأكمل ابنه المستنصر ما بدأه أبـاه من تحريم التعامل بالحرام ، وأغناهم عن الصرف والقراضة المشتمل على الربا بالدراهم الفضة ، وقدر سعرها كل عشرة دراهم بدينار ، وأعطى للصيارفة منها ما يتعاملون به مع الناس[٥] .

وكان عيون الخلفاء ينتشرون بين العامة والخاصة يأتونهم بالأخبار ، خاصة بعد انتشار فساد بعض الشطار والعيارين ، فكان المقتفي لأمر الله يبث العيون والجواسيس إلى جميع الأمصار حتى يطالعونه بالأخبار [٦] ، وبذلك يستطيع الخليفة أن يعرف دقائق أحوال الرعية ، وازداد ذلك في خلافة الناصر فأصبح هو بنفسه يمشي في

---

(1) القلقشندي : مآثر الأناقة ، ج٢ ، ص٤٥-٤٦ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص٧٠ .
(2) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٣٦ .
(3) الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص٨٩ .
(4) الصنجة كلمة فارسية معربة : الميزان وهي ما يوزن به ، ولا يقال سنجة بل صنجة . ذكرها الجوهري في الصحاح ، وابن منظور في لسان العرب .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٠ .
(6) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢١٧ .

الأسواق ومعه جماعة منهم : نجاح الشرابي ، وأبو الحسن الكرخي ، ومحمد بن يحيى الفراش ، وكان يمشي متنكراً ، مرة في زي العجم ، ومرة في زي الترك ، ومرة فـي زي الفقهاء ، فكان هو يتخفض ولا يعرف إلا بمرافقيه فقد كان أهل بغداد لا يعرفونـه إلا بالذين معه ، فكان إذا اجتاز مكان عرف ، وحين خاف على نفسه ممن كانوا يقتفون أثره ، هددهم حتى خـاف الناس فإذا مشى في طريق وعلم أهل بغداد أنه فيها هربـوا عنها إلى الأخـرى [١] . كما كانت له ألف وسبعمائة عجوز مـن النـساء والرجـال يطالعونه بأخبار البلد ، وإحصاء حركات وسكنات العامة [٢] ، حتى تضايق الناس لأن في ذلك حجر عظيم على تصرفاتهم وتقييد لحرياتهم الشخصية حتى قيل : " كان الرجل يخشى أن يتحدث هو وزوجته مخافة أن ينقل له " [٣] وحين ولي ابنه الظاهر بأمر الله أبطل المطالعات اليومية التي يكتبها حراس الدروب عن اجتماع الناس ببعـضهم الـبعض ، وطلب أن لا يكتب إليه إلا ما يتعلق بمصالح الدولة على الرغم من أن هناك من نصحه على إبقاء ذلك لأن فيه إزالة لفساد العامة [٤] .

ويتضح لنا أن سياسة إصلاح المجتمع التي أتبعها الناصر كان لها إيجابيـات ، منها نظام الفتوة الذي تبناه ، كما كان لها سلبياتها أيضاً في نظام التجسس ، فالتجـسس على العامة قد يفيد في تخفيف فساد العامة إلا أنه لم يكن الحل الناجح للأزمة الأخلاقية التي كان يمر بها المجتمع البغدادي ، خاصة في تقييد حريات الناس .

---

(1) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١١٩ .

(2) المصدر نفسه ، ص١١٩ .

(3) مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٤ .

(4) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٦٢ .

السلاطين ودورهم في الحياة العامة :

شكلت مرحلة حكم السلاجقة " الأتـراك " لبغـداد مرحلـة صـراع سياسـي واضطراب اجتماعي ، فقد ساد النفور بين السلاجقة الذين شكلوا الطبقة الحاكمة فـي العراق وبين أغلبية سكان العراق ، فبرزت العصبيات بين الفرس والأتـراك وبيـنهم وبين العرب ، فالسلطان مسعود أخذ عهداً على الخليفة المقتفي لأمر الله أن لا يشتري الغلمان الأتراك (١) ، وكان لذلك دور كبير في زيادة العصبيات العرقية في المجتمع في تفضيله للعنصر التركي مما زاد من تمزق المجتمع إلى طوائف ووحدات .

دام تسلط السلاجقة على بغداد حوالي نصف قرن شهدت خلالها بغداد أزمـات اقتصادية واجتماعية ، منها إهمال مشاريع الري وتعرضت البلاد لأزمات قحط وغلاء في الأسعار ، وكان يزداد الأمر سوءاً بوصول السلطان إلى بغداد ذلك أن إقامته بهـا كان فيه زيادة أعباء تشكل ثقل على كاهل أهلها فترتفع الأسعار إلى أن يرحل عنها (٢). ولقد قدر ضمان بغداد على أبي سعيد العايني بثمان وخمسين ألف دينـار (٥٨٠٠٠) ، وتمادى السلاجقة في استغلال موارد البلاد الاقتصادية بالضرائب التي كانوا يفرضونها على حكومة بغداد والتي كانت ترهق خزينة الدولة ، ففي سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م قبض وزير السلطان مسعود أبو البركات بن مسلمة على أبي الفتوح صـاحب المخـزن (٣) وطالبه بدفع (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف دينار على أن يحصلها فيما بعد من النـاس ومـن دار الخلافة ، فلما سمع الخليفة الراشد بذلك احتج وأجاب الوزير الـسلجوقي بكتـاب يخبره فيه بخلو دار الخلافة من الأموال ، ونقل هذه الضريبة عن الناس ، ولكن تحت ضغط الوزير السلجوقي استطاع صاحب المخزن أن يجمـع (١٠٠٠٠) عـشرة آلاف دينار من الناس إلا أن هذا المبلغ لم يكف السلاجقة فأمر الـسلطان بفـرض ضـريبة أخرى على العقار (٤) .

(1) الحسيني : زبدة التواريخ ، ص٢٤ ؛ الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢١٧ .
(2) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢٧ .
(3) صاحب المخزن هو الذي يتولى الخزانة ويكون بمثابة المساعد المتولي لديوان النفقات .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٦٦ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٧٩ .

فكان السلطان السلجوقي إذا قدم بغداد اتبع سياسة رفع المكوس وإظهار العدل ورفع الضرائب عن التجار والمسافرين ، وهذا مظهر من مظاهر التلاعب بمشاعر الشعب لنيل رضاه ليحقق السلطان غاياته ، غير أنه لا يلبث أن يعود عن ذلك فيطمع في التجار فيعود فيما أمر ويقوم بإعادة الضرائب إلى سابق عهدها [١] ، ذلك أنه في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م فرض السلطان مسعود ضرائب فاحشة على الباعة ، ووافق أن حضر مجلساً لابن العباد الواعظ فكان من جملة وعظه " ياسلطان العالم أنت تطلق في بعض الأحيان للمغني إذا طربت قريباً مما وضعت على المسلمين في هذا المكس ، فهبني مغنياً وقد طربت فهبني هذا المكس شكراً لنعمة الله عليك ، وأسقطه عن الناس " فأشار السلطان بيده أني قد فعلت " [٢] ونودي في بغداد بإسقاط المكس عن الناس [٣] .

كانت الضرائب التي يجمعها السلاطين السلاجقة من بغداد تشكل مصدراً لثرواتهم ، حتى قدرت ثروة السلطان ملكشاه بمبلغ ١٨ مليون دينار نقداً ، عدا الجواهر والحلي ، وكان ذلك ديدن معظم سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة الذين انغمسوا في الترف ، مما شكل بوناً شاسعاً بينهم وبين عامة الناس الذين ساد حياتهم الفقر أثناء حكم السلاجقة لبغداد ، كما سار الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة على خطى السلاطين في حياة البذخ والترف فقد اشتهروا بالموائد الفاخرة بألوان الطعام ، وأنواع الأشربة ، وسكنى القصور المحاطة بالحدائق الغناء المزينة بنوافير الماء ، كما اشتهروا بمجالس الطرب والغناء والشراب والصيد [٤] .

وعلى الرغم من سلبيات مرحلة حكم السلاجقة لبغداد فقد كان لهم بعض الإيجابيات التي لابد من الإشارة إليها ، أهمها نظام المدارس الذي أحدثوه ليس في العراق فقط وإنما في كافة أرجاء العالم الإسلامي لنشر التعليم على المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي الذي أخذت جذوره تتغلغل في المجتمع الإسلامي خاصة بين العامة وأصحاب الحرف والأصناف ، مما دعى بالسلاجقة وعدد من العلماء إلى

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٧٨ – ٧٩ ؛ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٦٢ .
(2) الكتبي : عيون التواريخ ، ج١٢ ، ص٤٠٧ .
(3) المصدر نفسه ، ص٤٠٧ .
(4) شبارو : السلاطين ، ص٤٨ – ٤٩ .

الوقوف بوجه الدعوة الباطنية الشيعية ، والدفاع عن صفاء العقيدة الإسلامية الـسنية ، ليحرروا عقول الناس مما قد علقت بها من أفكار ومبادئ المذهب الشيعي [١] ، وكـان لتلك المدارس أثر اجتماعي بارز في الحياة العامة ، فكانت المدرسة النظامية في بغداد من أشهر المدارس بلغت نفقاتها مائتي ألف دينار وكانت من معالم بغداد [٢] .

كما طور السلاجقة بناء الخانات التي أقيمت على مسافات منتظمة على الطرق التجارية ، فكان طرازها المعماري شبيه بالمدرسة ، تصميمه عبارة عن جدار خارجي يحيط برقعة مستطيلة الشكل مع مدخل وحيد يوصل إلى صحن مربع تحيط به الغرف المقوسة السقوف ، ويتوسطه مصلى صغير منحوت بشكل متقن ، فكانت تلك الخانـات تقدم الطعام والخدمة الجيدة للنزلاء ، أما الخانات الصغيرة فكانت توفر قاعات النـوم ، والإسطبلات فقط [٣] .

كما كان السلطان ملكشاه مغرماً بالعمارات ومهتماً بها فأنشأ الرباطات ، وحفر الأنهار كما عمـل القنـاطر الخيريـة ، كـذلك بنـى جـامع الـسلطان فـي سـنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ، ذكره ابن الجوزي في حوادث هذه السنة فقال : " فمن الحوادث فيها أن السلطان ملكشاه تقدم ببناء سوق المدينة ، وبنى فيها خانات الباعة وسوقاً عنده ودروب ونودي أن لا تعامل إلا بالدنانير ، ثم بعمارة الجامع " [٤] وبدأ بعمارة الجـامع قبل وفاته في تلك السنة وتمت عمارته على يـد بهـروز الخـادم [٥] ، وفـي سـنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م) أُنفق عليه عشرة آلاف دينار [٦] ، وأُلحق به مدرسة لتدريس الفقه الحنفي ، وسكن فيه مجموعة مـن الفقراء كـان شيخهم المعـروف بـأبي موسـى المالكي (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) كان يقيم في مقصورة الجامع [٧] ، وكان أفضل ما عمله

---

(1) العسيري : الحياة العلمية في العراق ، ص٢٥٧ .
(2) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .
(3) شبارو : السلاطين ، ص٥٠ ؛ رانسنت : الفن الإسلامي ، ص١٨٣ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٠ .
(5) أبو الحسن الخادم الأبيض الغياثي (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م) ولي العراق نيفاً وثلاثين عامـاً . ابـن الجـوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١١٧ .
(6) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٧٠ .
(7) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٧٨ .

هو بناء أحواض الماء على طريق الحجاز ، كما رفع الرسوم عـن خفـارة طريـق الحجاج ، حين كانت تأخذ قبل ذلك من الحاج سبعة دنانير ذهبية ، كما أقطع الحـرمين الاقطاعات والأموال [١] .

دور الأمراء والوزراء في الحياة العامة :

كان أمراء دار الخلافة محجوبون داخل قصورهم الخاصة ، ومعزولـون عـن حياة بغداد العامة [٢] ، ولذلك لم تذكر لنا المصادر بأنه كان لهم دور اجتماعي يذكر ، أما الأمراء المماليك والذين كانوا فئة اجتماعية عسكرية سيطرت على ثروات البلاد ، فقد شغلوا بمصالحهم الخاصة عن المصالح العامة للمجتمع ، ذكرت المصادر الأميـر الاصفهسلار منكوبرس والي العراق أنه أستبد بإقطاعات العراق مدة حياته ، فجمعـت له في العراق ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار نقداً مطبوعاً بالسكة الإمامية سوى ما كان له من الآلات والثياب والدواب والجواهر [٣] . كما كان لبعضهم دور في إثارة الفـتن المذهبية في المجتمع كالأمير يزدن التركي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) وهـو مـن كبـار الأمراء انتشر بسببه الرفض وتأذى أهل السنة ، فقد تجرد للمذهب وتعصب لـه [٤] ، كذلك الخادم مرجان ناصب الحنابلة العداء وحارب علمائهم حتى بلـغ بـه التعـصب المذهبي أن هدم موضعـاً كان بناه الوزيـر ابن هبيرة بمكـة لأن الذي كان يصلـي به أحد علماء الحنابلـة [٥] .

إلا أن هناك من الأمراء من قدم خدمات اجتماعية لأهل بغداد من خلال إنشاءه مدرسة أو رباطاً ، كان لها دور في تعليم الطلاب وإعاشتهم أمثال عز الدين أبي الحسن سعادة بن عبد الله الرومي المستظهري المملوك الرسائلي (ت٥٠٠هـ ـ/١١٠٦م) [٦] كـان مملوك الخليفة المستظهر أنشأ رباط سعادة بالجانب الشرقي من بغداد على شاطئ دجلة

---

(1) الروandي : راحة الصدور ، ص٢٠٥-٢٠٦ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٧٠ .
(2) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٣ .
(3) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٦١ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٤٢ .
(5) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢١٣ .
(6) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١١ .

وجعله للصوفية [1] ، وجعل أمره موقوفاً على أبي حفص السهروردي وعقبه مـن بعـده ، تميز هذا الرباط بنشاط علمي كثيف حيث كان مقصد الكثير من الدارسين خاصة للفقه الحنفي [2] .

ومن الأمراء الذين أسسوا العديد من المدارس ، ليس في بغداد وحسب بل فـي واسط ومكة ، هو إقبال الشرابي مؤسس المـدارس الـشرابية [3] عرفـت مدارسـه بجراياتها على الفقهاء والساكنين فيها ، بنى المدرسة الشرابية ببغداد وتسمى بالإقباليـة أحياناً في سوق العجم بالقرب من عقد سور السلطان مقابل درب الملاحين ، وفتحـت سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) [4] وكان لفقهائها رواتب يومية ، كمـا رتـب فيهـا خمـسة وعشرون فقيهاً لهم مخصصاتهم الشهرية [5] .

أما الوزراء فقد كان لهم دور بارز في حياة المجتمع البغدادي كـونهم همـزة وصل بين الخليفة ورعيته ، فتوفير الأمن والأمان والاستقرار الاجتماعي يتمثـل فـي دور الوزير في الحياة العامة ، كما يتمثل دوره في العمل الخيري والإحسان إلى الناس فنجد الوزير نظام الملك كان مولعاً ببناء المدارس ، والإنفاق في الأعمال الخيرية ، من تلك المنشآت بنائه مكتباً للأيتام بمحلة العتابين ببغداد ، حيث أوقف عليه الوقوف كـان يعيش فيه الأيتام مكفولين إلى أن يبلغوا الحلم بنفقتهم وكـسوتهم وطعـامهم وتعلـيمهم الآداب وحفظ القرآن [6] . فقد اشتهر نظام الملك ببنائه العديد من المدارس والمـساجد والربط في بلاد كثيرة ، وأجرى عليها الأوقاف المستديمة [7] ، فقد كان يحب العلـم ، كما اعتاد أن يحضر الفقراء على طعامه ، حتى اتهمه أعدائه بالإسراف فـي الإنفـاق

(1) المصدر نفسه ، ج٤ ، ق١ ، ص١١ .
(2) القرشي ؛ محي الدين أبي محمد عبد القادر : الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، طبعة حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٧٢هـ ، ج١ ، ص٢٢٢ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٦ ؛ ناجي معروف : المدارس الشرابية ، ص١٠٧-١٠٨ .
(4) وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتيين ببغداد ، وعمل بصحنها قبـاب الحلـوى وحمل منها إلى جميع المدارس والربط . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٦-٣٧ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٦ .
(6) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٢٩ ؛ الحسيني : زبدة التواريخ ، ص١٤٢-١٤٤ .
(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٥ .

على بناء المدارس والربط ، ووشوا به إلى السلطان ملكشاه بحجة أنه أخل بقدرة البلاد العسكرية فقالوا : " أنه ينفق في كل سنة على أرباب المدارس والرباطات ثلثمائة ألف دينار ، ولو جيش بها جيشاً ليبلغ باب القسطنطينية " [١] ولم تقتصر نفقات نظام الملـك على الفقهاء في المدارس النظامية بل شملت فئات أخرى في بغداد ، فقد كان ينفق في كل سنة " مائتين وثمانية عشر ألف دينار ، وهي من نصيب الفقراء والمحتاجين " [٢] . كما سار ابنه الوزير أبو نصر أحمد على نهجه في مساعدة الناس ذكرت المصادر أنه حين عزم المسترشد على عمارة سور بغداد قسط على الناس خمسة عشر ألف دينار ، فقام الوزير أبو نصر وأداها من ماله [٣] .

ولعل أبلغ مثال نذكره على دور الوزراء الاجتماعي في هذه الفترة هو الـوزير ابن هبيرة وجهوده التي بذلها في القضاء على الفساد الإداري والاجتماعي في بغـداد ، فقـد بدأت الخلافات المذهبية وأعمال الشطار والعيارين تزول مـن المجتمـع أيـام وزارته ، فأعاد للخلافة هيبتها في نفوس الناس وتأييدهم لها فـي عمليـة الإصـلاح والقضاء على المفسدين ، منع الناس من شرب الخمر وأمر بـالمعروف ونهـى عـن المنكر وبالغ في ذلك [٤] ، كما كان أيضاً كثير البر والمعروف له مبرات وصدقات من مالـه الخاص ، كانت نفقاته تشمل الفقراء وأصحاب الحاجـات والعلمـاء قـال ابـن الجوزي : " وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء وكانـت أمواله مبذولة لهم وللتدبير ، فكانت السنة تدور وعليه ديون " ، وقال ابن هبيرة : " ما وجبت علي زكاة قـط " [٥] ، وكان من مبراته سماط تقدم فيه ألوان الأطعمة كان أغلـب مـن يحـضرها الفقـراء والعميان فقد اهتم بالطبق في شهر رمضان حتى أنه أنفق في سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) ثلاثة آلاف دينار خلال شهر رمضان [٦] ، كما أسس مدرسة في الجانب الغربي مـن بغداد في محلة باب البصرة سنة (٥٥٧هـ/١١٦٢م) لتعليم الطـلاب والنفقـة علـيهم

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٨٧ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٦ .

(3) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٢٩٤ .

(4) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٢٣١ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٢٧ ؛ العسيري : الوزير العالم ، ص٣٧٢ .

(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٧٧ .

جارية وإعاشتهم ، غير أنها لم تدم طويلاً في تقديم تلك الخدمات لأنها اندثرت بوفـاة مؤسسهـا [1] . فقد تحسنت أحوال الناس الاقتصادية ورخـصت الأسعـار أيـام وزارته [2] ، ذكر ابن الجوزي في أحداث سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م " وفي هـذه الأيـام رخص السعر فبيع اللحم أربعة أرطال بقيـراط وكثر البيض ، فبيـع مائـة بيـضـة بقيراط ، والعسل كل من بطسوج ، والخوخ كل عشرة أرطال بحبة ونصف " [3] .

كما وصِفَ الوزير أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء بحبه للفقراء وإكرامه لهـم ، وصف ابن الجوزي طبقه في رمضان سنة (٥٦٦هـ/١١٧٠م) فقال : " كان للـوزير طبق جميل طول الشهر وكان يحضر فيه من الخبز كل ليلة ألف رطل وأربعمائة رطل حلاوة سكر " [4] .

كذلك كان الوزير أبو المظفر فخر الدولة بن المطلب من الوزراء الذين اهتمـوا بإنشاء مؤسسات البر ووقف عليها الكثير من الأموال ، منها تأسيسه للرباط الذي عرف باسمه في الجانب الغربي من بغداد عند قصر عيسى [5] ، صرف الكثير مـن الأموال على عمارته مما أهله لأن يكون أحد الجوامع التي تقام فيها صلاة الجمعـة ، أوقـف عليه أيضاً الكثير من الأوقاف لتفي بحاجات ساكنيه من فقراء الصوفية ، كـذلك انـشأ رباطين أحدهما للصوفية من الرجال عند دار الذهب وهي مدرسته التي أوقفها بجـوار هذا الرباط [6] أشار إليه الأيوبي بقوله : " وعمر مدرسته المعروفة بـدار الـذهب .. وعمر رباطاً للصوفية مجاوراً لمدرسته وأوقف عليه جملة كثيرة " [7] ولم نتبين مقدار ونوع الأوقاف التي وصفت بالكثرة لهذا الرباط ، أما الرباط الثاني فقد خصصه للنساء

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠٣ .
(2) ابن رجب : الذيل ، ج١ ، ص١٨٢- ١٨٣ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص١٤٨ .
(4) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٣٥ .
(5) المصدر نفسه : ج١٠ ، ص٢٦٣ ، وقصر عيسى محله كبيرة ذات سوق ، وكان فيها قـصر منـسوب إلـى عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس وهو أول قصر بناه الهاشميون ببغداد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٧١ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٦٣ ؛ الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٣٠ .
(7) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٣٠ .

المتصوفات ، قال عنه ابن الديثيني : " رباط النساء بقراح ابن رزين وغير ذلك مـن مواضـع الخير وقف على ذلك من أملاكه ما يصرف في عمارته ومؤونة من يكـون فيه " [١] .

والجدير بالذكر أن البعض من العامة كان يقصد الوزراء وكبار رجال الدولـة لحل مشكلة ما ، أو النظر في قضية أو شكوى ، غير أن بعض الوزراء كان يأنف من النظر في شكاوى الفقراء ، ويبلغ ببعضهم الأمر إلى تمزيق رقعة الشاكي وطرده مـن المجلـس من أولئك الوزراء ابن العطار عسفَ على الرعية وأظهر في وزارته الترفع والتكبر ، ذكرت المصادر أن بعض الأتراك عمر حماماً وجعل مجراته تجوز على دار بعض الجيران ، فتأذى الجار بتلك المجراة فشكا ذلك إلى الوزير فنهره ووبخه ، ولـم يأخذ بيده ، وقال له : إن لم تسكت وإلا جعلت رأسك في المجـرآة فيقـال : إن ابـن العطار لما سحبه العوام ومثلوا به اجتازوا به على باب الحمام المذكور ، فاتفق أنه وقع في المجرآة فسحبوه فيها خطوات فتعجب الناس من ذلك [٢] .

بليت دولة الخلافة في هذه الفترة بالكثير من الوزراء الذين أستاء منهم الخلفـاء على حياة الناس ، غير أنهم لم يكونوا على مستوى المسئولية والأمانة والدين ، فحـين تصل خلافاتهم وعسفهم وهضمهم الحقوق دار الخلافة يعزلون ويصادرون وتستـصفى أموالهم وتشرد أسرهم ذلك أنه في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م قبض الخليفـة المستـضيء على وزيره عضد الدين أبي الفرج ابن رئيس الرؤساء وعزل واستصفى وكـان ابنـه كمال الديـن سبب نكبتـه فقد كان ظالماً جباراً ، فدخل الأتـراك والجنـد إلـى داره فأطبق داوته [٣] ، واستولى على جميع ما في داره من المال والثياب ، والمتاع والخدم والمماليك والخيل ، وكسرت صناديق الأبنوس والعاج وأخذ ما كان بها من أموال [٤].

(1) ابن الدبيثي : ذيل تاريخ بغداد ، ج١٥ ، ص١٦٧ .
(2) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٠٩ .
(3) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٢٢ .
(4) ابن الجوزي : المنتظـم ، ج١٠ ، ص٢٣٨ ؛ ابن الطقطقـى ، ص٣٢٠ ؛ الـذهبي : دول الإسـلام ، ج١ ، ص٧١ ؛ ابن الأثير ، ج٩ ، ص٢٤٩ .

العلماء ودورهم في الحياة العامة :

إن ما حظى به علماء بغداد من أهمية اجتماعية ومكانه رفيعة فـي المجتمـع ، كان من خلال الدور الخطير الذي لعبه علماء بغداد في بناء مجتمعهم وإصلاحه ، لأن صلاح المجتمع بصلاح علمائه ذلك أن العلماء الصادقين كان لهم دور عظيم وفاعل في المجتمعات الإسلامية في كل زمان ، فلم يقتصر دور العالم على العملية التعليمية فقـط ، بل تعداه إلى أبعد من ذلك فقد كان ولا يزال عضواً مهماً وفاعلاً في المجتمع الذي يعـيش فيه ، فهو مكاف بالدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإصـلاح ذات البين ، ونصرة المظلوم ، والدفاع عن الحق ، والاهتمام بمصالح المجتمع وشؤونه ، إن تقييم دور العلماء من وجهة النظر العلمية البحته لا يقتصر على مستواهم العلمي وعدد مؤلفاتهم وتلاميذهم ، بل لابد من تسليط الضوء على دورهم الاجتماعي كونهم شريحة اجتماعية تعيش وسط مجتمع قد تسوده الاضطرابات والخلافات والجهل ، مما أوجـب عليهم مسؤوليات سياسية واجتماعية ، بوصفهم حملة العلم والثقافة فهم يمثلـون الفئـة الواعية المدركة لمجريات الأمور فكان لابد أن يؤثروا فـي المجتمـع ويتـأثروا بـه ويتفاعلون معه .

كان من الصعوبة بمكان الفصل بين الدور السياسي والاجتماعي لعلماء بغـداد خلال هذه الفترة لما بلغوه من منزلة سياسية واجتماعية ، فقد التف الناس حول العلماء يحضرون مجالسهم ويستمعون لخطبهم ومواعظهم ودروسهم ، فكثرت حلقـات العلـم ومجالس الوعظ وامتد تأثيرهم الاجتماعي حتى شمل الخلفاء والسلاطين وكبار رجـال الدولة ، الذين أخذوا يحضرون دروسهم ويستمعون إليها كما ذكرنا في الشواهد السابقة على ذلك (1) .

لقد لجأ الناس إلى العلماء لثقة الناس فيهم وحاجتهم إليهم في حـل مـشكلاتهم ، لإدراكهم مكانة العلماء وكلمتهم المسموعة لدى الخلفاء ورجال السلطة فاشتهر الكثيـر من العلماء بحل مشكلات الناس والوساطة لدى الخلفاء والأعيان ، فهذا عبد العزيز بن

---

(1) انظر ما سبق ، ص٦٦ .

أبي دلف بن أبي طالب بن دلف البغدادي المقرئ الحنبلـي (ت٦٣٠هـ ـ/١٢٣٢م) [١] كان مسارعاً إلى قضاء حوائج الناس والسعي بنفسه إلى دور الأكابر للشفاعة للناس في إطلاق المعتقلين ودفع الضرر عنهم ، قال عنه ابن الساعي : " كان له حرمـه عنـد الدولة ، خصوصاً عند المستنصر ، وكان لا يمل من الشفاعة وقضاء حوائج النـاس ، حتى لو قيل إنه لم يبق ببغداد من غني ولا فقير إلا قضاه حاجة لكان حقاً " [٢] .

كما تسابق العلماء في إنفاق أموالهم في وجوه الخير والإحسان ، والتخفيف عن الفقراء ومساعدتهم وتقديم الطعام لهم وأمثلة ذلك كثيرة ، فلقد وصف الشيخ عبد القادر الجيلي بأنه " كان يقف مع الصغير ويوقر الكبير ، ويبدأ بالسلام ويجـالس الـضعفاء ويتواضع للفقراء ، وما قام لأحد من العظماء ولا الأعيان ، ولا ألم ببـاب وزيـر أو سلطـان ، وكان له غرام بإطعام الطعام والإنفاق على ذوي الحاجة والعاهة ، وكـان يقول : فتشت عن الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام ، ولا أشـرف من الخلق الحسن ، وأود لو كانت الدنيا بيدي أطعمها لجائع " [٣] .

كما أسهم العلماء ليس في إنفاق الأموال والسعي في حوائج الناس بل في توجيه المجتمع وبشكل فعال في إنكار المنكر والأمر بالمعروف ، بسبب انتـشار التيـارات الفكرية ، والانحرافات المذهبية ، والسيطرة الأجنبية ، فقد ذكر أن المعمر بن علي بن المعمر بن أبي عمامة البقال أبو سعد البغدادي الفقيه الـواعظ (ت٥٠٦هـ ـ/١١١٢م) خرج مرة فلقي مغنية قد خرجت من عند تركي فقبض على عودهـا وقطـع أوتـاره فعادت إلى التركي فأخبرته فبعث من كبس دار أبي سعد ، وأفلت واجتمع بسبب ذلـك الحنابلة وطلبوا من الخليفة المستظهر إزالة المنكرات كلها [٤] .

كما كان الشيخ أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي أحد الأئمة الأعـلام (ت٥١٣هـ/١١١٩م) عظيم الحرمه له الحظوه عند الخلفاء والسلاطين ويواجه الأكابر بإنكار المنكر أرسل مرة إلى حماد الدباس مع شهرته بالزهد وتكالب العامة عليـه ،

---

(1) ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص٢١٧-٢٢٠ .
(2) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢١٩ .
(3) محمد سعد الدين : العلماء عند المسلمين ، ص٢٨ .
(4) ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص١٠٧ .

أرسل يتهـدده في أمر كان يفعله ، ويقول له : إن عدت إلى هذا ضربت عنقـك [1] .
أيضاً كتب مره إلى الوزير عميد الدولة بن جهير لما بنى سور بغداد وأظهر العوام في الاشتغال ببنائـه المنكـرات [2] . كذلك كتب إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه ، وكان الباطنية أفسدوا عقيدته ودعوه إلى إنكار الصانع فكتب إليه يقول : " أيها الملك أعلم أن هؤلاء العوام والجهال يطلبون الله من طريق الحواس فإذا فقدوه جحـدوه ، وهـذا لا يحسن بأرباب العقول الصحيحة الخ .. " [3] . فعاد السلطان ملكشاه إلى الصواب ولعن أولئك وكُشف إليه ما يقولون له [4] .

كما كان محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الملقـب بناصـر الـدين (ت٦٠٩هـ/١٢١٢م) من مشاهير علماء عصره ، وكان رباطه مجمعاً للفقراء وأهـل الدين وغيرهم من أكابر الرحالة لطلب العلم ، قال أبو الفرج الحنبلي : " لمـا قـدمت بغداد سنة (٥٧٢هـ/١١٧٦م) نزلت الرباط ولم يكن فيه بيت خال فعمـرت بـه بيتـاً وسكنته ، وكان الشيخ محمود وأصحابه ينكرون المنكر ويريقون الخمـور ويرتكبـون الأهوال في ذلك ، حتى إنه قام على جماعة من الأمراء وأراق خمورهم ، وجرت بينه وبينهـم فتن وضرب مرات ، وهو شديد في دين الله إقداماً وجهـاداً ويـسمى شـحنة الحنابلة " [5] .

أيضاً كان العالم إسحاق بن أحمد بن محمد بن غانم الثعلبي الزاهد القدوة ، أبـو الفضل (ت٦٣٤هـ/١٢٣٦م) قيل أنه لم يكن في زمانه أكثر إنكار للمنكرات منه ، وله رسائل كثيرة بعث بها إلى الأعيان بالإنكار عليهم والنصح لهم ، أرسل إلى الخليفة كما أرسل إلى الشيخ علي بن إدريس الزاهد رسالة طويلة تتضمن إنكاره للرقص والسماع

(1) ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص١٤٧ .
(2) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٤٩ .
(3) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٤٩ .
(4) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٤٩ .
(5) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٦٤ ؛ ابن العماد الحنبلي : الشذرات ، ج٥ ، ص٢٣٨ .

والمبالغة فيه ، كما أرسل رسالة مطوله أيضاً إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ينكـر عليه فيما يقع في كلامـه من الميل إلـى التأويل [١] .

كما تصدى العلماء للرد على أهل الإلحاد والبدع الذين نشطوا خلال هذه الفترة وما بعدها ، فسخر العلماء أقلامهم للرد عليهم والدفاع عن العقيدة الصحيحة ، فكان من أهل الإلحاد رجل يقال له أبو جعفر بن سعيد بن المشاط أذن له فجلس فـي الجـامع ، فكان يسأل ، فيقال له " آلم الكتاب " كلام الله ؟ فيقول : لا ويقول في القصص هذا كلام موسى وهذا كلام النملة ، فأفسد عقائد الناس إلا أنه توفي [٢] ، فتصدى له علماء هـذه الفترة وعلى رأسهم العلامة عبد الرحمن ابن الجوزي والذي يقـول : " ظهـر أقـوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب وأعانني الله تعالى عليهم وكانت كلمتنـا هـي العليا " [٣] .

فالعلاقة بين العلماء وعامة الناس قد توطدت من خلال المعايشة المباشرة مـع الناس فقد كان غالبية العلماء كما ذكرنا فيما سبق أصحاب مهن إلى جانب كونهم علماء ومعلمين وقد دلت عليه ألقابهم كالدهان والنجار وغيرها من الأعمال التي ساعدت على اتصالهم بالناس من خلال معاشرتهم لهم في أنشطتهم وحياتهم .

وفي الوقت الذي مزقت فيه العصبيات العرقية والانتمـاءات أفـراد المجتمـع البغدادي ما بين عرب وفرس وترك ، كانت هناك صلات اجتماعية وحياتيـة جمعـت بينهم تمثلت في العلم ، فالصلة العلمية جمعت بين هذه العناصـر البـشرية المختلفـة فتمازجت الثقافات وأسهم العلماء في قيادة المجتمع والحفاظ على وحدة المجتمـع [٤] . وإلى جانب دور العلماء في لحمة المجتمع كانـت هنـاك صـلة اجتماعيـة ظهـرت بالمصاهرة والتزاوج فيما بينهم وفيما بين شرائح المجتمع المختلفة ، فقد أحب العلمـاء بعضهم بعضاً بغض النظر عن العرق والجنس فقد جمع بينهم العلم والـدين ووحـدة الثقافة ، فقد كانت فخر النساء شـهده الأبريـة بنـت أحمـد بـن الفـرج الأبـري

---

(1) ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص٢٠٥ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٤ .

(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٩٤ .

(4) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج١ ، ص٢٥٤-255 .

(ت٥٧٤هـ/١١٨٧م) وهي الكاتبة زوجة علي بن محمد بن يحيى بن الحسن الـدريني المعروف بثقة الله ابن الأنباري (ت٥٤٩هـ/١١٥٤م) كان يخدم أبا نصر بـن أحمـد الأبـري فزوجـ ـه ابنتـه شـهده [١] ، كـذلك الـشيخ موفـق الـدين البابـصري (ت٦٥١هـ/١٢٥٣م) الفقيه الحنبلي كان لحسن ظنه واعتقاده في الشيخ جمـال الـدين عبد الرحمن بن يوسف الجوزي أن صاهره لأنه كان موصوفاً بالعقل وحسن الطريقـة إلا أنه توفي وهو شاب ولم تزف عليه زوجته ولا رآها [٢] . وهو بذلك احتذى خطـى والده عبد الرحمن ابن الجوزي الذي زوج ابنته رابعة من حسام الـدين قـزا وغلـي المملوك التركي وكان من مماليك الوزير العالم ابن هبيرة وكانت رابعة قـد سـمعت الحديث والوعظ والنحو من أبيها فكانت أم للحفيد السبط شمس الدين أبي المظفر يوسف (٥٨١-٦٥٤هـ/١١٨٥-١٢٥٦م) الذي اجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فقد سمع مـن جده لأمه وكان عالماً بالتفسير والحديث والفقه ، ومن مصنفاته تفسير كبير في تـسعة وعشرين مجلداً ، وهو صاحب كتاب مرآة الزمان في وفيات الفضلاء والأعيان ، الذي يعتبر من أوسع كتب التاريخ الإسلامي [٣] . وكانت تلك العلاقات الاجتماعيـة إحـدى صور المجتمع الحسنة التي سادت بغداد خلال هذا القرن .

خدمة العلماء للمجتمع وتصديهم للأعداء :

حين خلت بغداد من القيادة السياسية القادرة على مواجهة الغزو المغولي ، كان علماؤها هم قادة المجتمع في مواجهة الغزاة ، ولقد أدرك المغـول دور العلمـاء فـي التصدي لهم فعملوا على استمالتهم وعزلهم عن المجتمع ، فحين حاصر هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أمر بكتابة مناشير تفيد : " أن القضاة والعلماء والتجار وكل من لا يحاربنا لهم الأمان منا " وربطوا تلك المناشير بالنبال وألقوها علـى المدينـة مـن جوانبها الستة [٤] ، غير أن وعود هولاكو لم تجد نفعاً ليتخلى العلمـاء عـن دورهـم

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٦٥-٢٦٦ .

(2) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٧٥ .

(3) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ص٤٠ ؛ ابن رافع السلامي : تاريخ علماء بغداد ، ص١٩٠ .

(4) الهمذاني : جامع التواريخ ، م٢ ، ص٢٨٧ .

السياسي والاجتماعي ومسئوليتهم في التصدي للغزو لذلك أنزل بهم أقسى العقوبات بعد دخوله بغداد ، فأمر بقتل كل من وقع بأيدي أتباعه فضلاً عمن خرج مع الخليفة لمقابلة هولاكو والذين قدرتهم المصادر بثلاثة آلاف من السادات والأئمة والقـضاة وأعيـان المدينة [(١)] ، كان من بينهم أستاذ دار الخلافة محي الدين يوسف بن الجوزي المحتسب والواعظ بالمدرسة المستنصرية وأولاده الثلاثة عبد الرحمن ، وعبد الله ، وعبد الكريم كما قتلوا أيضاً العالم صدر الدين بن النيار وابن أخيه عبد الله ، وداود بـن المختـار ومحمد بن طاووس وعبد الرحمن الطبال ، كما قتلوا الخطباء والأئمة وحملـة القـرآن [(٢)] . إضافة إلى الكثير من العلماء الذين ذكرتهم المصادر سواء من استـشهد مـنهم أثنـاء دخول المغول لبغداد أو ممن وقع في الأسر وقتل بعد ذلك ، فضلاً عمن اضطر مـنهم إلى مغادرة العراق إلى الشام ومصر والحجاز واليمن مفضلين ذلك علـى الخـضوع لحكم المغول [(٣)] .

وبعد استقرار المغول في بغداد عمل العلماء على التصدي لهم ، ومحاولة حماية مجتمعهم منهم والعمل على إخراجهم من بغداد بأقلامهم وألسنتهم ، فدفع الكثير مـنهم حياته ثمناً لذلك ، منهم أحمد بن محمد البغدادي نسب إليه هولاكو إنه قد بعث صبياً من أولاد الأسرة العباسية إلى الشام على يد بعض أصحابه فتم قتلـه سـنة (٦٥٨هـ ـ / ١٢٥٩م) [(٤)] . لقد كان موقف السواد الأعظم لعلماء بغداد من الغزو المغـولي موقفـاً بطولياً قوياً رفضوا التعاون مع الغزاة المحتلين ، إلا فيما تقتـضيه مـصلحة العبـاد والمسلمين إذا لزم الأمر فيما تقتضيه أمور الحيلة والمسايسة ، حتى بعد دخول المغول في الإسلام لم يركن إلى ذلك التعاون إلا أقلية محددة من العلماء ، وهم علماء الـشيعة الرافضة بزعامة ابن العلقمي أما السنة فقد هربوا أو قتلوا الذين سرعان ما تراجعـوا وندموا ، أما من سار إلى ذلك لمصالح ذاتية فإنه كان ينال احتقار المجتمع مثلما حصل

---

(1) الهمذاني : جامع التواريخ ، م٢ ، ص٢٩٠ ؛ أبو الفداء : مختصر أخبار البشر ، ج٦ ، ص٩٩ .
(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٣٥ .
(3) نوري عبد الحميد العاني : علماء العراق بين القرنين السابع والحادي عشر الهجريين ، مجلة بيت الحكمـة ، العدد ٢٢ ، الأديب البغدادية المحدودة ، ١٩٩٨م .
(4) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٣ ، ص٩٩ .

للوزير مؤيد الدين بن العلقمي وولده عز الدين حيث عوملا بأنواع الهوان مـن اراذل المغول ، وحل بهما لوم مجتمع بغداد ونقمته لأنهما قبلا الوزارة بعد مقتـل الخليفـة[١] ، كذلك سليمان بن محمد الشيرجي كان في أواخر العصر العباسي ناظراً للوراقين وأقره نواب التتار على ذلك فلما مات سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م منع الناس من تـشييع جنازتـه لذلك طردوهم وما بقي معه غير ولده[٢] .

(1) الكتبي : عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ج٢ ، ١٩٣ .
(2) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٤٤٨ .

الفصل الثاني

فئات العامة ودورهم في حياة المجتمع

المبحث الأول : نقابة الأشراف ودورها في الحياة العامة .

المبحث الثاني : النقابات الأخرى ودورها في الحياة العامة .

المبحث الثالث : الشطار والعيارين ودور العامة في قيادة الرأي العام .

المبحث الرابع : أهل الذمة ودورهم في الحياة العامة .

المبحث الأول : نقابة الإشراف ودورها في الحياة العامة .

أطلق اسم الأشراف على أقرباء النبي ﷺ وأهل بيته ، أي المنتمين إلى النبي ﷺ نسباً ، وهو نوع من شرف النسب أوجده الإسلام (١) ، فمفهوم الشرف يستند إلى النسب الكريم والمعتمد النبيل (٢) ، ويلاحظ أن هذا اللقب حدد بالعباسيين والعلويين منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (٣) . وكان الأشراف يتقاضون أموالاً راتبة من دار الخلافة (٤) ، وكثرت أعدادهم في المجتمع الإسلامي ، حتى أصبحت لهم نقابة عرفت " بنقابة الأشراف " .

وتذكر المصادر أن الغرض الذي أسست من أجله نقابة الطالبيين ، هو أنه لمـا بلغت سطوة بني العباس في سائر الأقطار ونظروا إلى شؤون الدولة فرأوا أن وجـود آل أبي طالب في مماليكهم ، قد ينذر بعدم دوام ملكهم وخراب سلطانهم ، خاصة لمـا لآل أبي طالب من مكانة في نفوس الناس لقربهم من الرسول ﷺ ، فأراد آل العباس بن عبد المطلب أن يحدثوا ما يعرقل خطاهم وتقدمهم ، فأحدثوا النقابة فيهم يرأسها شخص منهم ويكون من أشهرهم نسباً وأفضلهم علماً ، وأقبلهم في النفوس ليألف فيمـا بيـنهم ويحكم عليهم ويقمع الفتن والثورات داخل البلاد (٥) . والراجح أن الغرض الذي قامت من أجله نقابة الأشراف هو " لصيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكـافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف " (٦) خاصة بعد ازدياد نفوذ الأتراك فـي الدولـة العباسية في منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، نجـد أن أول ظهـور لنقابة الأشراف كان سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م ، في عهد خلافة المستعين بالله بن المعتـصم

---

(1) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج٢ ، ص٢٥٠-٢٥١-٢٨١ ؛ متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٢٦٢ .

(2) البلاذري : أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعـارف بمصر ، ج١ ، ص٢٠ .

(3) دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٣ ، ص٢٦٨ ، مادة شريف .

(4) الصابئ : الوزراء ، ص٢٢٨ .

(5) الحسيني : السيد عبد الرزاق كمونة : موارد الإتحاف في نقباء الأشراف ، ج١ ، ص٥ .

(6) الماوردي للأحكام السلطانية ، ص١٢١ ؛ الصابئ : رسائل الصابئ ، تحقيـق شـعيب أرسـلان ، ص١٢ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١ .

بن الرشيد [١] فقد حضر السيد المحدث الكوفي حسين بن أحمد بن حمد بن يحيى بـن الحسين ذي الدمعة من المدينة وطالب الخليفة المستعين بتعيين رجـل مـن الطـالبيين ليتولى إدارة شؤونهم ويدفع عنهم سلطة الأتراك ، فعينه الخليفة لهذه المهمـة بعـد أن شاور الطالبيين وقدموه عليهم [٢] ومنذ ذلك الوقت أخذت النقابة تنتقل من بيت علـوي إلى بيت علوي آخر حسب الكفاءات العلمية والنفوذ الشخصي .

ونقابة الأشراف ديوان يرأسه عادة النقيب ومهمته تولي أمور الأشراف وضبط أنسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم وينهاهم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم مـن ارتكـاب المآثم ويطالب بحقوقهم ، ويدعوهم إلى أداء الحقوق كما يمنع النسوة من الزواج مـن غير الأكفاء إلى غير ذلك مما ينسب إليه من الوصاية العامة . ويساعد النقيب كاتـب وحاجب كما يوجد له نائب أيضاً [٣] . وكان من أحكام النقابة توافر شروط يتم بموجبها اختيار النقيب ، منها : أن يكون خيرهم ، وأجلهم بيتاً وأكثرهم فضلاً ، وأجزلهم رأياً ، كما أن من أحكام النقابة أن ترتيب النقيب يتم من قبل الخليفة أو من يفوضه في تـدبير الأمر كالوزير أو أمير الإقليم ، أو نقيب عام الولاية [٤] ، بعهد من الخليفة يتضمن ذلك العهد مهام النقيب ، وهو ما أورده ابن الساعي في العهد الذي يتعلق بنقيـب العلـويين أبي الحسن فخر الدين محمد بن المختار الكوفي وكان العهد من الخليفة الناصـر إلـى النقيب في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦هـ [٥] .

والنقابة على ضربين خاصة وعامة ، والعامة أهم من الخاصة وذلـك لكثـرة الصلاحيات والحقوق التي يتمتع بها النقيب العام والتي منها [٦] :

(1) المستعين بالله أحمد بن المعتصم ، خلافته (٢٤٨هـ-٢٥٢هـ/٨٦٢م-٨٦٦م) ، السيوطي : تاريخ الخلفـاء ، ص٢٨٠ .
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٤ ، ص٢١١ ، سنة ٢٥١هـ ؛ الحسيني : نقباء الأشراف ، ص٦ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٧١ ، ج١٠ ، ص٢٤٣ .
(4) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١٢١ .
(5) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٩٣ .
(6) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١٢١ .

١- الحكم فيما يتنازع فيه أفراد الطائفة .

٢- إقامة الحدود عليهم فيما ارتكبوه من أعمال .

٣- الولاية على أيتامهم مما ملكوه .

٤- تزويج الآيامى اللاتي لا يتعين أوليائهن أو قد تعين فيعضاوهن .

٥- إيقاع الحجر على من عنه منهم أو سفه وفكه إذا أفاق .

وعليه تعتبر نقابة الأشراف مؤسسة اجتماعية تهتم بشريحة محددة من شـرائح المجتمع الإسلامي وهم الأشراف ، وأهم مهامها : حفظ حقهم في النـسب والمطالبـة بمالهم من حقوق ، كما كان لنقابة الأشراف دور اجتماعي هام جداً لـيس فـي بغـداد فحسب بل في العالم الإسلامي أجمع ، فقد كان لها تـأثير فـي البيوتـات الـشريفة ، وإصلاح أحوالها وتدبير شؤونها ، مما أدى إلى إجلال الناس لهم وتوقيرهم ، وكان لهم تأثير في الناس ، وطاعتهم لهم ، فيأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ممـا عـاد علـى المجتمع بالنفع الكبير [1] .

هذا وقد كان هناك نقابة للهاشميين " العباسيين " ونقابة للعلـويين " الطـالبيين " وكلاهما له نفس الدور ويسمى بنقيب النقباء [2] ، ولم يكن هناك نقابة واحدة في العالم الإسلامي بل عدة نقابات بحسب المكان الذي يوجدون فيه ، فهناك نقيب فـي مـصر والحجاز والعراق ، أما بغداد فكانت مقراً لنقيب النقبـاء العباسـيين وكـذلك بالنـسبة للعلويين كونها عاصمة الخلافة [3] وكثيراً ما يرد عمل نقيب العباسيين مع عمل نقيـب العلويين كما تتداخل مسؤولياتهما ، وذلك لمكانتهما الاجتماعية في نفوس الناس ، ففـي سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م ، عندما أقتتل أهل الكرخ مع أهل السنة ببغـداد ، كتـب أهـل الكرخ من الشيعة على أبواب دورهم " محمد ويعطف علي خير البشر " مما أدى فتنـة عظيمة بين السنة والشيعة أحرق فيها أهل السنة قبور " آل البيت " فما كان من الخليفة القائم بالله ، إلا أن بعث إلى نقيب العلويين عدنان الرضي مع أبي تمام الحسن بن محمد

---

(1) الحسيني : موارد الأتحاف ، ص٧ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٩ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٢٨ .

(3) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٣ ، ص١٧ .

الزيني إلى مقابر قريش ، وذلك لمكانتهما في نفوس كلاً مـن أهـل الـسنة والـشيعة وتأثيرهما على الطائفتين فأصلحا بينهم وأخمدا الفتنة [١] .

كما استدعى كلاً من نقيب العباسيين ونقيب العلويين سـنة ٤٦٦هـ ـ/١١٧٣م للإشراف على سد البثوق الحاصلة في سداد نهر دجلة لحماية بغداد من الغرق نتيجـة الفيضانات . فكان نقيب العباسيين يشرف على مواضع في أعلى البلد ونقيب الطالبيين يشرف على مواضع في الجانب الغربي [٢] ، فقد كان نقيب النقباء يتولى عدة أعمـال إلى جانب نقابة النقباء كالوزارة ونيابة الوزارة ، أو الإشراف على المخزن ، كما حدث سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م ، حين خلع المسترشد على نقيب النقباء أبي القاسم بـن طـراد الزينبي واستوزره [٣] . كما بلغ بالنقباء أن عهد إليهم الخلفاء بإمـارة الحـج وديـوان المظالم فيكون النقيب ممثلاً للخليفة [٤] .

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٨٩ .
(2) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٢٨٦ .
(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٩ .
(4) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٩ .

المبحث الثاني : النقابات الأخرى ودورها في الحياة العامة .

النقابات مفهوم أطلق على التنظيمات الحرفية في المجتمع الإسلامي [(١)] ، وقد عرفها الباحثون المحدثون بعدة تعريفات منها ما ذكره ماسينون : " أنها مؤسسة نقابية تقوم بتنظيم الحرفة وحفظ أسرارها وتثبيت أسعار عادلة للمنتجات الصناعية والحفاظ على مستوى البشرية " [(٢)] نشأت النقابات الإسلامية من تلقاء نفسها كمؤسسات شعبية من أجل تلبية حاجات الصناع ونجد أن النقابات الإسلامية تميزت عن النقابات الأوروبية بأنها ضمت أفراداً من مختلف الطوائف ، فكانت مفتوحة للمسلمين وأهل الذمة على السواء ، في حين نجد أن النقابات الأوروبية أبعدت اليهود عن صفوفها حيث كونت الأساتذة والصناع فئة واحدة . كما كان اهتمام النقابات الإسلامية بالنواحي الدينية والخلقية أكثر من اهتمامها بالنواحي المادية على اختلاف مع النقابات الأوروبية [(٣)] .

ونتيجة للتطور السريع في بغداد والذي شمل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ظهرت النقابات لتنظيم الأسواق ، فمن تنظيماتها أنها جعلت لكل حرفة مسئول من أعضائها تعينه الدولة وتعترف به وهو شيخ الصنعة [(٤)] .

هذا وقد ضمنت كتب الحسبة معلومات غزيرة عن التعاليم والوظائف التي يفرضها المحتسب على أهل الحرف بمساعدة الشيخ أو العريف الذي كان شخصاً ثقة من أهل الصناعة بصيراً وعارفاً بها . وقد كان هناك تنظيم متدرج بين أهل الحرف وأصحاب المهن ، فهناك شيخ الصنف ، والأستاذ والخلفة ، والصانع والمبتدئ ، ثم ظهرت في عصر متأخر رتبة النقيب ، فقد وجد لكل حرفة شيخ فللبزازين شيخ [(٥)]

---

(1) الشيخلي : صباح إبراهيم سعيد : الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها ، بغداد ، ص٩٨ .

(2) ماسنيون : الإسلام ، ص٢١٥ .
Massignon, Islamic Guid E.s.s,vol.7.p.2.75 .

(3) الشيخلي : الأصناف ، ص١٦٨ .

(4) ابن الأخوة : معالم القربة ، ص١٢٣ ؛ ابن بسام : محمد بن أحمد المحتسب : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م ، ص٣٩ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٧٢ .

والنخاسيين شيخ للملاحين شيخ وللأطباء شيخ يسمى بالرئيس ، كما كان يوجد رئيـسياً للخياطين ، ورئيساً للتجار ، ورئيساً للخدم [١] .

ويتم اختيار الشيخ وفق شروط أهمها : أن يكون عارفاً في دينه خبيراً بأسـرار الصنعة ، ويتم انتخابه من قبل أعضاء الحرفة أو الصنعة ويعينه المحتسب [٢] .

وأهم مهام شيخ الصنعة أن له السلطة على بقية أعضاء الصنف ، ويمثل طائفته في كافة القضايا العامة ، ويتدخل في تحديد الأسعار بالتشاور مع المحتسب ، كما كان يستشار في أمور صنعته فيعتبر هو المرجع عند حصول التنازع في أمر مـن أمـور الصنعة ، وله الحكم على أبناء الصنعة ، كذلك الموافقة على انتماء الشخص إلى طائفته إذا رآه أهلاً لذلك [٣] .

أصبح للنقابة أهمية كبيرة في التنظيم الحرفي في فترة متأخرة والنقيب هي رتبة سابقة لرتبة الشيخ [٤] ، والنقيب أقدم وأفضل من الشيخ ، يقول الحسن البصري : كان يتفقد ويسأل عن النقباء أكثر من تفقده وسؤاله عن المشايخ [٥] ، وأهم شروط النقيب أن يكون عارفاً عالماً بصناعته ومن ذوي العدالة ، وللنقابة ثلاث درجـات هـي النقيـب الكبير وهو المقدم عليهم وله الفضل ويكون النقيبان الآخران تحت إمرته وله مكانتـه المسموعة بينهم [٦] .

وكان هناك مراسيم خاصة يتم فيها الانتماء للـصنعة أو الحرفـة وأهـم تلـك المراسيم هو القيام بعملية الشد : وهي أحد الرسوم الضرورية للانتماء للمهنة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، عند أصحاب الحرف من الشيعة ، وهي من

---

(1) التنوخي : نشوار المحاضـرة ، ج٨ ، ص٦٧ ، ج٣ ، ص٧٠ ؛ القفطـي : أخبـار العلمـاء ، ص١٩١ ؛ السقطي : أبو عبد الله محمد بن أبي محمد : آداب الحسبة ، باعتناء كـولن وليفـي ، بـاريس ، ١٩٣١م ، ص٩٠ .
(2) ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص٣٠ .
(3) السقطي : آداب الحسبة ، ص٢٣ ؛ ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص١٠١-١٠٨ .
(4) الشيخلي : الأصناف ، ص٣٥ .
(5) المرجع نفسه ، ص١٢٧-١٢٨ .
(6) المرجع نفسه ، ص١٢٨-١٢٩ .

أهم مهام النقيب [١] . وقبل السماح لشخص ما في الانتماء إلى حرفة ما ، ويجب عليه أن يختار أستاذاً يعلمه أسرار الصنعة ، حتى إذا ما أتقنها يأخذ التلميذ العهد من أستاذ صنعته يتضمن سيرته وتعلمه وخدمته وأدبه فإذا كان غير لائق لا يعطى له العهد [٢] . ولا بد من حضور عدد من الأشخاص من أهل المهنة ليشهدوا على ذلك فيذهب إلى شيخ ، ونقيب صنعته للقيام بمراسيم الشد ، وبعد الموافقة لطلب الشيخ أخذ رضى الأستاذ ثم لابد من أخذ رضى وموافقة جد الشخص إذا كان موجوداً ، لأن العقد يتم باسم الجد وبعد ذلك يتفق الشخص الراغب في الانتماء للحرفة على يوم يقيم فيه وليمة يدعوا إليها أبناء تلك المهنة والحرفة [٣] .

فعلى كل شخص ينتمي لحرفة ما إقامة وليمة ولا يجتمع أكثر من واحد في إقامة وليمة واحدة ، وإذا كان الشخص فقيراً غير قادر على إقامة الوليمة فإن النقيب يقوم بمساعدته [٤] . وكان للشد مراسيم يعمل بها هي ترتيب المشدود وأستاذه ، قراءة الفاتحة ، وذلك العهد والوصايا ، والقسم بالله العظيم ، ومواعظ وآيات وأحاديث نبوية [٥] . ثم يتولى النقيب شد العقد ، ويكون شد العقد إما حول وسطه ، وإما حول رأسه ، وإما حول كتفه بمحزم من النسيج أو بفوطة أو منديل أو زنار من الحديد أو الصوف أو بأي شيء مقبول [٦] . والنقيب يشد أربعة عقد ولكل عقدة شروط : قال عقدة الأولى هي عقدة الأستاذ وعند عقدها تقرأ مقدمة بمثابة التعريف به ، ثم بآيات من القرآن والعقدة الثانية عقدة الجد ، حيث يذكر التبريك به وآيات من القرآن ، والعقدة الثالثة هي عقدة البيرة [٧] ، وهنا يذكر النقيب الكلام الخاص بالبير ويقرأ آيات من

(1) ماسنيون : دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٣ ، ص١٧٩ ، الشد .
(2) إخوان الصفا : الرسائل ، ج١ ، ص٢٩٤ .
(3) ماسنيون : دائرة المعارف الإسلامية ، ص٦٤ .
(4) الشيخلي : الأصناف ، ص٢٦ ، ١٠٩ .
(5) المرجع نفسه ، ص٣٣ .
(6) ماسينون : الشد : دائرة المعارف ، ج٣ ، ص١٨٠ .
(7) الأبيار : هم دعاة أصحاب الحرف وكانوا عادة من الصحابة والتابعين والبير تعني المقتدي بالتركية وتعني الشخص الذي تنسب إليه الصنعة ويكون أول من مارس الحرفة كما تعني بالفارسية شيخ المشايخ . ابن المعمار : الفتوة ، ص٩٧ .

القرآن [1] . وأما العقدة الرابعة فهي عقدة الإمام علي رضي الله عنـه ، ويـردد هنـا النقيب الكلام الخاص بالإمام علي ، ثم يقرأ بعضاً من آيات القرآن وبعد ذلك يقوم بشد عقدتين أخيريتين أحدهما للحسن والأخرى للحسين ويقـرأ الكـلام الخـاص بالحـسن والحسين مع قراءة بعض الآيات وبعد شد العقد يبدأ النقيب بتلاوة دعوات مأثورة لـه وللمسلمين وولاة الإسلام والعلماء والسلطان [2] وهذه من عادات الشيعة التـي غلبـت كثيراً على المجتمع البغدادي .

وهناك عادة عند أهل الحرف أن هذا الشد ينحل عندما يرتكب المشدود فاحـشة ما ، فإذا تاب يعيد النقيب شده ، كما على الداخل في الحرفة واجبـات إزاء الجماعـة عليه أن يؤديها [3] .

ومما سبق يتضح لنا أن النقيب كان ينبغي عليه تجاوز الثلاثة رتـب وهـي : المبتدأ والصانع والنقيب ، وحل على العهود ، وفي عملية الشد لابد من حضور شـيخ من المشايخ ، وهم شيخ الأطباء وشيخ الحلاقين ، وشيخ السقائين ، وشيخ العتابية ، كما يستطيع الشيخ السليماني " شيخ الحلاقين أن يشد لصناعته وغير صناعته " [4] .

وكان من مهام النقيب أن يتفقد أهل المهنة ويقوم بتزويد طائفته بكافة التوجيهات عن أمور مهنتهم ، وحث أهل مهنة على طاعة الشيخ والقيام بواجبهم نحوه ، وكانـت السلطة المالية في يد النقيب فكثيراً ما يجمع الأموال من الأساتذة لإعطائها إلى من ليس له وارد ومساعدة مشدود في إقامة وليمة الشد له إذا كان فقيراً [5] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص٩٧ .
(2) الشيخلي : الأصناف ، ص٣٩ .
(3) ماسنيون : الشد ، دائرة المعارف ، ج٣ ، ص١٨٠ .
(4) الدوري : النقابات الإسلامية ، مجلة الرسالة ، العدد (٣٥٦) ، القاهرة ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م ، ص٧٣٦ .
(5) الشيخلي : الأصناف ، ص٣٦ .

نقابات المهن ودورها الاجتماعي :

كان لأصحاب المهن والصناعات دورهم الاجتماعي بالإضـافة إلـى أهميـتهم ودورهم الاقتصادي ، تمثل باشتراكهم بالمناسبات الاجتماعية ، بصفتهم المهنية ، وذلك بإقامة مراكب يظهرون فيها تجاراتهم وأعمالهم فكل طائفة تعرض ما يدل على صنعتها اعتزازاً بها ومشاركة في المناسبات ، كما اعتادوا أن يظهروا الزينة في أسواقهم فـي المناسبات المفرحة وتلك مشاركات اجتماعية تشهد لهم بالتكافل الاجتماعي فنجد حـين تقرر بناء سور الحريم سنة ٤٨٨هـ/١١٩٥م أذن للعوام في الفرحة والعمل وهنا تبادر أهل المحلات والأصناف في عمل المراكب فعمل أهل باب المراتب من البوادي المقرة على صورة الفيل وتحته قوم يسيرون به ، وعملوا زرافة على هذه الشاكلة ، وأتى أهل قصر عيسى بسفينة كبيرة وفيها الملاحون يجدفون ، أهل سوق يحي فجـاؤا بنـاعور تدور معهم في الأسواق وعمل أهل سوق المدرسة قلعة من خشب تسير علـى عجـل وفيها غلمان يضربون بقسى البندق والنشاب وأخرج قوم آخرون بئر على عجل وفيها حائك ، واشترك في الموكب السقلاطيون ، والخبازون الذين جاءوا بتنور وتحتـه مـا يسير به والخباز يخبز ويرمي الخبز على الناس (1) .

وفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م في أحد احتفالات الدولة عمل الذهبيون ببغداد فيلـه عليها صور بعض الأمراء بحركات تدور وتطحن الدقيق ، وعمل الملاحـون سـفينة تسير على عجل (2) . ومن هذه المواكب نستطيع أن نصل إلى أن أهـل كـل حرفـة اتخذوا شعاراً خاصاً يميزهم ويدل على صنعتهم ومهنتهم فشعار الطحانين الارحـاء ، وشعار الملاحين السفينة ، وشعار الخبازين التنور ، وشعار الحاكة البئـر ، وشـعار الأساكفه المداسات (3) . وقد شاهد ابن جبير في بغداد " فرجة " بسبب بـرء الخليفـة

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٨٤ ؛ مناقب بغداد ، ص١٧ .

(2) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٤٨-١٤٩ .

(3) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٣٨-٨٥ ، ج١٠ ، ص١٤٩ .

الناصر من كسر أصاب يده " فزين أهل كل سوق سوقهم وعلقوا بحلو زينتهم الحلل وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً " [١] .

كما شارك أصحاب المهن في المناسبات المحزنة أيضاً وكثيراً ما تغلق الأسواق عند وفاة أحد رجالات الدولة ومن المناسبات الاجتماعية التي شارك فيها أهل الأصناف والحرف يوم عاشوراء وهو العاشر من محرم يفرح به أهل السنة لأنهم يصومونه لأن الله نجى فيه موسى عليه السلام من الغرق ، أما الشيعة فيحيونه بالبكاء مدعين أنهم تقاعسوا عن حماية الحسن رضي الله عنه يوم مقتله وصحبه ، حيث تغلق الأسواق ويعطل البيع فلا يذبح الجزارون ولا يطبخ الهراسون ويظهر الناس الحزن والبكاء [٢] . ولا زالت هذه العادة جارية في بغداد والعراق إلى يومنا هذا . حيث يغلق أرباب الحرف والمهن حوانيتهم ويشتركون في مواكب العزاء التي تحمل أسماء حرفهم عادة . كما كان أصحاب المهن يشاركون في حماية مجتمعاتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد كان أبو طليق معتوق المعروف بابن شقير ، الشهير بالمنكر ، كان بقالاً من أهل قراح ظفر ، فإذا بلغه موضوع فيه جماعة مجتمعين على مسكر مضى وأنكر عليهم وأراقه ولا يبالي بضربهم وإهانتهم ، وإذا رأى أحداً من رؤساء النصارى واليهود راكباً أنزله وأهانه ، وقد فعل ذلك بالحكيم ابن توما وبولده من بعده ، وبابن كرم اليهودي ، ومضى مره إلى دار يدغمش زعيم بلاد العراق حيث ورد بغداد ، وهجم عليه وعنده مسكر فأراقه وكسر ما حوله ولم يمكن أصحابه من أذاه ، فأخذ إلى دار الوزارة وأنكروا عليه وقيل له : هذا جهل بالشرع كيف تقوم على ما ليس لك فعله ؟ ! إذا علمت بأمر فأرفعه إلينا ، ثم وكل به إماماً في الحجرة بباب النوبي [٣] .

كما أن التماسك الاجتماعي بين الصناع والحرفين ، لم يكن بين أبناء الصنعة الواحدة فقط بل كان بين أبناء الصناعات والحرف المختلفة فقد ينفق الشؤاؤون على شراء الرؤوس الكاسدة من الرواسين وبيعها مع الشواء بسعره ، وقد يرفوا الرفاؤون

---

(1) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٢ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص١٥ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٢٤ .

للغسالين والقصارين شيئاً من المتاع الذي تلف بأيديهم دون على صاحبه [1] وقد يتفـق القصار مع الطرار في تغير رسم ثوب له من دون علم صـاحبه أيـضاً كمـا يتفـق الجباسون مع البنائين بأن يكتموا قلة نضج الجبس لقاء أخذ هدية أو رشـوة ، وكـان المحتسب دائماً ما يكشف هذا التعاون ويقف معه موقف المعارض ويمنعـه [2] . كمـا كان من عادات أهل الحرف والصناع الاجتماع فيما بينهم لقضاء أوقات الفراغ للتسلية وللتباحث في أمـور مهنتهم ، فقد كانت سـوق الـوراقين ببغـداد مجلـساً للعلمـاء والشعراء [3] ، فقد ظهر العديد من المفكرين والأدباء والشعراء من أصحاب الحـرف والصناع .. كما كان للدولة اهتمام بأعضاء نقابات المهن وبتقديم المـساعدات الماليـة كنوع من الضمان والتأمين الاجتماعي ضد النكبات ، فقـد كانـت محظيـة الخليفـة المستنصر بالله شاهان سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م تصرف شهرياً إلى الزراكشة والـصاغة والتجار والبزازين والجوهريين وأرباب الصنائع علـى اخـتلاف صـنائعهم حـوالي خمسمائة وستين ألف درهم على سبيل البر والصدقة [4] .

(1) ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص٣٧-٨٤-٦٣-١٤٠ ؛ السقطي : آداب الحسبة ، ص٦٣ .
(2) ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص٨٤ ؛ السقطي : آداب الحسبة ، ص٦٣ .
(3) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٦ .
(4) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص١١٩-١٢٠ .

المبحث الثالث : الشطار والعيارين ودور العامة في قيادة الرأي العام .

دور العيارين في حماية المجتمع :

إن الأبعاد الاجتماعية البيئية لبغداد أفرزت حركة الشطار والعيـارين ، الـذين اتخذوا من العنف أحياناً وسيلة لرفع الظلم وأخذ حقوقهم الاجتماعية ، وتحقيق العدالـة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي لبقية فئات المجتمع ، فالراجح أن الشطار والعيـارين هم شريحة اجتماعية متمردة لا عدوانية ، خيرة لا شريرة ، حاولـت حمايـة فقـراء المجتمع ، وأخذ حقوقهم من الأغنياء وأرباب الأموال ، فمن خـلال المفـاهيم والآداب التي تعارف عليها الفتيان مـن العيارين ، أنهم اتصفوا بالشجاعة والرجولة والجـرأة والحمية للعرض [1] ، منها ما قاله عثمان الخياط الزعيم الذي وضع الأسس والمبـادئ الحرفية والأخلاقية التي ينبغي أن يتسم بها العيار حيث قال : " ما سرقت جارا ، وإن كان عدوا ، ولا كريماً ولا كافأت غادراً بغدره " [2] كما قال لأصحابه : " اضمنوا لي ثلاثاً أضمن لكم السلامة ، لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ولا تكونوا أكثر من شريك مناصف وإن كنتم أولى بما في أيديهم لكـذبهم وغـشهم وتـركهم إخـراج الزكـاة ، وجحودهم الودائع " [3].

وبذلك تعتبر ثورات العيارين صرخة في وجـه الظلـم ونـوع مـن التمـرد الاجتماعي على الأوضاع السياسية والاقتصادية الجائرة ، لذلك كان ضـحاياهم مـن مياسير القوم وكبار الأثرياء ، ذكر لنا الراغب الأصفهاني قصة سليمان وكان من أجلد الفتيان فقال : " خرج سليمان بأصحابه إلى دار بعض الصيارفة فاختفوا ، فلمـا أرادوا الانصراف قال بعض أصحابه : دعنا نقم على مفارق الطرق لنأخذ من بعض المـارة نفقة يومنا ، فقال : على أن لا تبطشوا بهم ، فقالوا : وهل يفعل ذلك إلا الجبان ؟ فبينما

---

(1) النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص١٤٣ .

(2) الراغب الأصفهاني : الحسين بن محمد : مختارات من محاضرات الأدباء ومحاورات الـشعراء ، القـاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٩٦٠م ، ج٣ ، ص١٩١.

(3) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٩١-١٩٢ .

هم كذلك إذ مر شاب ذو هيئة ، فلما قرب سلم عليهم فرد عليه السلام بعضهم ، فقام إليه بعضهم ، فقال رئيسهم : دعه فإنه سلم ليسلم ، وأجابه بعضكم فصار له ذمة بذلك ، قالوا : فنخلي سبيله قال : أخاف عليه غيركم ، ليذهب معه ثلاثة يوصلونه إلى منزله ففعلوا فلما بلغ ، دفع لهم مالا وقال : لأحوطنّكم بمالي وجاهي لما عاملتموني به ، فلما عادوا بالدراهم قال رئيسهم : هذا أقبح من الأول تأخذون مالاً على قضاء الذمام والوفاء بالعهد ، لا أبرح أو تردوا إليه المال ، فقالوا : قد افتضحنا بالصبح ، فقال : لئن نفتضح خير من تضييع الذمام وقال : ما خنت ولا كذبت منذ تفتيت " [1] .

وعليه يتضح أن فكر العيارين كان فكراً مسالماً غير أنهم اعتبروا أن المال لله وينبغي استعادته ممن لم يخرج الزكاة ويكذب في معاملات الناس ويجحد الودائع [2] ، كما أنهم يحمون الذمام ويحفظون الحرمات وفي ذلك حماية للمجتمع ، فمما وصف به الفتيان قولهم : " إن الفتى لا يزني ولا يكذب ، ويحفظ الحرم ، ولا يهتك ستر امرأة ، ومع ذلك لا يتحاشون الأخذ من أموال الناس " [3] ، فما أتصف به الفتيان من شجاعة وجرأة دعتهم إلى رفض واقع عصرهم ، فاتخذوا من السلب والنهب وسيلة للتعبير عن هذا الرفض للدولة والمجتمع مع حفظ حرمات الآخرين .

نلاحظ أن طوال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كانت هجمات العيارين تكاد تكون مستمرة ، ومع نهاية القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، أخذت أخبار العيارين تتراءى بقلة ، بسبب إحكام قبضة السلاجقة على بغداد وتحويلها إلى شحنكية يرأسها شحنة وكان يمثل سياسة السلاطين في العمل على جباية أكبر قدر من المال [4] ، ومع اقتراب سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م حين شرع السلطان مسعود في محاصرة بغداد وسائر محالها ، ثار العيارون في بغداد وأفسدوا ونهبوا وكانت ثورتهم تلك بمثابة انتفاضة شعبية في وجه الظلم وضد تسلط السلاجقة ، ذلك أن بعض الأغنياء حضروا عند الأتابك زنكي

(1) الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ج٣ ، ص١٩١-١٩٢ .
(2) النجار : حكايات الشطار ، ص٤٩ .
(3) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٤٥ .
(4) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤٢٣ .

وأشاروا عليه بنهب الحريم الطاهري فأخذ منه من الأموال الشيء الكثير [١] ، لأن الناس قد نقلوا أموالهم إلى الحريم الطاهري بقصد حمايتها من العيارين ، فوقعوا في يد من هو أشد وطأة وأكثر ضرراً من العيارين وهو شحنة بغداد ، فالعيارون لم ينهبوا إلا أموال التجار والأثرياء ، أما الشحنة فقد فتك بأموال الناس كافة غنيهم وفقيرهم ، فكانت ثورة العيارين ثورة شعبية ضد ظلم السلاجقة ، بدليل تعاطف أبناء الجانب الغربي وانضمامهم لهم ففي ذلك يقول ابن الأثير : " وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها وفتكوا بالبلد ونهبوا الأموال ظاهراً وكثر الشر ، فقصد الشحنة الحاكم العسكري لبغداد شارع دار الرقيق ، وطلب العيارين فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم ، وأحرق الشارع فأحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم إلى الحريم الطاهري فدخله الشحنه ونهب فيه مالاً كثيراً " [٢] .

فقد كانت ثورات العيارين تعبر عن غضب العامة بسبب الوضع الاقتصادي والقهر الاجتماعي ، غير أن هناك من استغل حركتهم في الشروع بنهب الناس مستترين تحت اسم العيارين فحين كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه " ثار العيارون ببغداد ونهبوا الأموال وقتلوا الرجال ، حتى أنهم كانوا يقصدون أرباب الأموال ظاهراً ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الأمتعة على رؤوس الحمالين فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب وكثر الظلم منه ، وأخذ المستورين بحجة العيارين فجلا الناس عن بغداد " [٣] ، إن تنكيل البقش بالناس وسرقته لهم بحجة القضاء على العيارين ، زاد من غضب العيارين دفاعاً عن الناس من عسف وظلم الشحنة ، فقد خرج زعيمان شعبيان من زعماء العيارين هما ابن بكران العيار ورفيقه ابن البزاز فأزداد نشاطهما حتى كاد أن يسكان السكة باسميهما [٤] ، فأتهم البقش بالتراخي في أمر العيارين وقبض عليه ثم أمر بقتله ، وأستعمل أمير تكريت مجاهد الدين الغياثي مكانه شحنة لبغداد سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م ، إلا أن تغيير الشحنة ، لم يقضي على شغب

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٧٢٩ ؛ النجار : حكايات الشطار ، ص٣٣١ .
(2) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٧٢٩ .
(3) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٧٤٤ .
(4) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٧٤٤-٧٤٥ ؛ النجار : حكايات الشطار ، ص١٣٢ .

العيارين ، فأرسل الشحنة ووزير الخليفة شرف الدين علي بن طـراد الزينبـي إلـى الوالي أبي الكرم وخيروه بين قتله لأبن بكران أو قتله هو ، فدبر أبي الكرم مـع ابـن أخيه قتل ابن بكران فقد كان يأتي إلى ابن أخيه للمنادمة والشرب ، وحين أتـاه علـى عادته وشرب قتله ، ثم أخذ بعده رفيقه ابن البزاز وصلب [1] .

وحين قدم السلطان مسعود لبغداد سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م ورأى تسلط العيـارين وفسادهم ما ساءه أعاد بهروز إلى شحنكية بغداد [2] ، غير أن سياسة تغييـر الـشحنة وإعطائها لرجل شديد كبهروز لم تجد نفعاً في القضاء على حركـات العيـارين ، لأن بعض أفراد البيت السلجوقي كان قد انضم إلى التنظيمات السرية للعيارين ، وكان لهم نصيـب فيما يأخذه العيارون ، كان منهم ابن الـوزير وابـن قـاروت أخـا زوجـة السلطـان ، فلم يقدر بهروز على منعهم وحماية الناس من شرورهم ، إلى أن حـضر نائب الشحنة وهو إيلدكز المملوك وكان حازماً مقداماً ، حضر عند السلطان ، وأخبره بشأن صهره وابن وزيره وشرح له الحال ، فأقسم السلطان ليصلبه إن لم يـصلبهما ، وبذلك قبـض على ابن قاروت وصلبه ، أما ابن الوزير فقد هرب ، ثم قـبض علـى أكثر العيارين [3] ، وعليه نلاحظ أن هناك من أمراء السلاجقة ، قـد اسـتغل حركـة العيارين ، للحصول على الأموال ، وللانتقام من أعدائهم ، فأثـاروا بـذلك الفوضـى والاضطراب في حق مجتمع بغداد .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٩٥-٩٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١١ .
(2) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٧-١٨ .
(3) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١٨ .

دور العيارين في الدفاع عن بغداد :

إن الدور الحقيقي للعيارين وحمايتهم لمجتمعهم ظهر في دفاعهم عـن بغـداد ، فنجد أن نشاطهم أنحصر ضد جند السلاجقة المرتزقة وكبار التجار والأمراء وهو مـا يؤكد أن ثورتهم تلك كانت ضد الظلم ، فكان لهم دورهم البارز في الدفاع عن بغداد ، فلقد أدرك الخليفة المقتفي لأمر الله قوة العيارين وتأييد العامة لهم وخـضوعها لأوامـرهم ، فجند كثيراً من الفتيان في الجيش الجديد الذي اعتمد عليـه فـي محاربـة الـسلاجقة وطردهم والاستقلال بالحكم في العراق وبغداد [١] ، غير أن النصوص التاريخية فـي عدد من المصادر أغفلت نعتهم بالعيارين أو الشطار وجاء ذكرهم بلفظ " العامة " لقـد كانت المقاومة بأيديهم والقيادة العامة لقوات الخلافة [٢] ، ففي سنة ٥٥١هـ ـ/١١٥٧م حين حاصر السلطان محمد شاه بغداد " فرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المجانيق والعرادات وخرجوا لقتال عسكر محمد شـاه ورموه بـالنفط وغيـره ، ثـم عاودوا القتال .. وعبر كثير من أهل بغداد سباحة في السفن فقتلوا " [٣] ، وكان معظمهم كما يقول ابن الجوزي : " من الصبيان المسلحين بالسيوف والمقاليع والنشاب " [٤] . ويعني ابن الجوزي بالصبيان هم الفتيان من العيارين ، وإن ما يؤكد ذلك ويثبته قولـه : " كـان صبيان بغداد يعبرون إلى أصحاب السلطان محمد شاه بالمقاليع ، وزراقـات النـار ، فيردون العسكر الكثير ، ويتلقون النشاب بميازر صوف ، وكان القتال تحت قمريـة قـصر عيسى وضرب الصبيان يوماً أميراً منهم بقارورة نفط ، فرمت به الفـرس ، فقتلـوه " [٥] ، وبذلك يتضح لنا دورهم الفاعل في تخلص الخلافة من سيطرة السلاجقة بما اتصفوا به مـن روح قتالية وشجاعة وإقدام .

تذكر المصادر قصصاً طريفة عن فرق العيارين أثناء قتالهم للجيش الـسلجوقي فمن ذلك أن الخليفة أمر فنودي أن كل من جرح فله خمسة دنانير ، فكان كلما جـرح

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١١٥ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٦٨ .
(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١١٥ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٦٩ .
(5) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٦٩ . فالميازر الصوف كانت من لباس العيارين .

إنسان يحضر عند الوزير ابن هبيرة فيعطيه خمسة دنانير ، فاتفق أن بعـض العامـة جرح جرحاً ليس بكبير فحضر يطلب الدنانير فقال له الوزير : " لـيس هـذا الجـرح بشيء ، فعاود القتال ، فضرب فأنشق جوفه وخرج شيء من شـحمه ، فحمـل إلـى الوزير فقال : ياMولانا الوزير أيرضيك هذا ! ؟ فضحك الوزير منه وأضـعف لـه ، ورتب له من يعالج جراحته إلى أن برئ " (١) . فيقول ابن النجار : " هذه الفاقة وهـذه الشجاعة والظرافة ، إنما هي من أخلاق العيارين الظريفة " (٢) .

لقد نجحت دار الخلافة في مسعاها في التخاص من سيطرة السلاجقة بمـساعدة العيارين ، غير أن سياسة العيارين في نهب الأغنياء استمرت حتى أن محاولة الخليفة الناصر سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ومحاولته التي قام بها في الاستفادة من طوائف الفتيان ، وتوجيه قدراتهم لما يفيد المجتمع ، لم تستمر طويلاً ، وذلك بسبب استمرار الظـروف التي أدت إلى ظهورهم في المجتمع من تمايز طبقي وتباين اقتصادي ، إضـافة إلـى الصراع المذهبي والتفرق الطائفي الذي كان يزخر به المجتمع البغدادي ، كـل ذلـك شكل دافعاً لاستمرار حركات العيارين وبصورة نشطة خاصة في خلافـة المستعـصم بالله ، فقد كثرت كبساتهم على بيوت الأمراء وكبار رجال الدولة حتى أن محمد بن أبي الفرج ابن رئيس الرؤساء ، وكان أحد رجال الديوان ، أحضر بنّاء وأمـر ببنـاء دار يكون حائطها في غاية الإحكام بحيث إذا شرع العيارون في نقبه من آخر الثلث الأول من الليل يفرغون منه وقت السحر ، فجعل البناء عرضة ست آجرات بالقالب الكبير ، فلما فرغ أمر جماعة أن ينقبوه من الثلث الأول من الليل ففعلوا وفرغوا منـه نـصف الليل ، فقال : للبناء زد ثلاث اجرات آخرى (٣) ، كل ذلك كـان بـسبب خوفـه مـن العيارين . إن خلفاء بني العباس الذين جاءوا بعد الناصر اتبعـوا أثـره فـي العنايـة بالفتـوة ، ولكنهم لم يكونوا كالناصر في تمثيل الفتوة والانخراط في سـلك الفتيـان ، فنجد أنهم نقلوها بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وإحيائها

---

(1) النجار : حكايات الشطار ، ص١٢٩-١٣٠ ؛ العسيري : الوزير العالم ، ص٣٩٥ .
(2) المصدر نفسه ، ص١٣٠ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٩٩ .

في القاهرة فانتشرت بين بيئات المتصوفة ، وانتهى بها الأمر إلى ما يعرف بـ " فتوة الأصناف " أو الطوائف من أصحاب الحرف وأهل الصنائع (1) .

دور العامة في توجيه الرأي العام :

لقد ظهرت قوة الرأي العام للعامة في هذه الفترة ، فكثيراً ما كان يأخذ الخلفاء بعين الاعتبار بآراء العامة وتنفيذ رغباتهم ، خاصة وأن العامة قد اتخذوا من التظاهر والعنف وسيلة للتعبير وإيصال رأيهم للسلطة ، للوقوف في وجه الاعتداءات الخارجية من أعداء المسلمين كالصليبيين وأمثالهم ، ففي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) في أول جمعة من شعبان حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب إلى جامع السلطان فتجمع حوله الفقهاء والصوفية ، والعامة من أهل بغداد ، فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وصاحوا وبكوا بما لحق بالإسلام من الصليبيين من قتل للرجال وسبي للنساء والأطفال ، ومنعوا الناس من الصلاة ، فأخذ كبار رجال الدولة يعدون العامة بإنفاذ العساكر والانتصار للإسلام ، ثم عاد العامة في الجمعة الثانية إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ما فعلوه في جامع السلطان من الاستغاثة والنحيب ، فأنكر الخليفة المستظهر ذلك ، غير أن السلطان محمد بن ملكشاه عذر الناس وأمر الأمراء بالتأهب للسير للجهاد (2) .

كان هناك وسائل أخرى تعبر بها العامة عن غضبها وعن رفضها للظلم والتجبر من السلطة نفسها بصورة غير مباشرة كقتل بعض المسئولين ، فكثيراً ما يثب العوام على حرس المحال ويقتلونهم . ففي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م وثب أهل باب البصرة وقتلوا أربعة أشخاص آخرين وسحبوهم وألقوهم في دجلة ، كذلك فعل أهل سوق الثلاثاء بحاميهم ، وأهل محلة الجعفرية (3) . إن سلوك العامة على هذا النحو يشير إلى أن غضبهم موجه ضد السلطة نفسها وليس ضد حارس المحلة بذاته ، وقد يعير رجال الدولة اهتماماً لذلك الاحتجاج ، وقد لا يأبهوا به ، مثلما حصل سنة

---

(1) النجار : حكايات الشاطر ، ص١٦٠ ؛ عبد العزيز الدوري : النقابات الإسلامية ، ص٧٣٦ .
(2) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٧٣ .
(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٤٦ .

٦٥٣هـ/١٢٥٥م عندما وثب أهل النيل [1] ، على الشحنة بها وقتلـوه لكونـه سـيء السيرة فيهم فكان يهجم على نسائهم ويفتك بهن ، فتظلموا إلى الخليفـة المستعـصم ، والوزير وصاحب الديوان ، فلم يلتفت إليهم ، وحين وصل خبر قتله إلى الخليفة أمـر الأمير سيف الدين قليج بالمسير ومعاقبة من فعل ذلك ، فسار إليهم وقتل منهم جماعة ، وقطع أعصاب آخريـن ، وأحرق دوراً كثيرة ونهب أموال أصحابه [2] .

وعليه يبدو أن دار الخلافة والسلطة كثيراً ما ترضـخ لـرأي العامـة وتنفيـذ رغباتهم بعزل عمال السوء ، مثلما حدث حين قتل العوام أحد أتباع فخر الـدين أيبـك الأرنباني شحنة بغداد ، وكان يدعى ابن محاسن ، فبعد ما سحبوه وهو حي ألقوه فـي دجلة ثم أخرجوه وأحرقوه ، فخرج لهم الأرنباني في عسكره فوثبـوا عليـه ، فجـرد أصحابه السلاح وقتلوا من العامة جماعة وخرج آخرين فهيجوا البلد وأغلـق النـاس دكاكينهم وأقبلوا بقتلاهم في مظاهرة كبيرة إلى باب البدرية فعزل الشحنة وسجن [3] ، إلا أن العامة لم تكتف بهذا بل ثارت على المسالحة بباب النوبي وقتلت جماعة منهم ، ولم تقف السلطة مكتوفه بل قبضت على اثنين من قتلة ابن محاسن وصلبتهما على باب البدرية ، فكف العامة عن تطاولهم [4] .

فقد أدرك الخلفاء وكبار رجال الدولة مدى قوة الرأي العام فحاولوا كسبها بشتى الطرق ، فعندما تولى المستعصم الخلافة أمر وزيره بإسقاط المكوس والمـؤن التـي أحدثها عمال السوء وكان يتولى أخذها حاجب باب النوبى ، حتى أنه لما أراد العـوده إلى داره صحبه الوزير خوفاً عليه من العامة ، كما أرسل الأمير فلك الدين محمد سنقر لحراسة داره من العوام [5] .

---

(1) النيل بليدة في سواد الكوفة ، قرب حلة بني مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير حفره الحجـاج بن يوسف وسماه نيل مصر . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٣٣٤ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١٩ .

(3) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٢٦-٢٢٧ .

(4) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٢٢٧ .

(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٢ .

المبحث الرابع : أهل الذمة ودورهم في الحياة العامة .

لم يكن أهل الذمة بمعزل عن واقع الحياة العامة في بغداد ، فلقد تعـايش أهـل الذمة مع أفراد المجتمع البغدادي وأثروا وتأثروا بهـم من خلال التعامـل المباشـر معهم ، فقد كان التجار وأرباب الأموال من الصيارفة والصاغة ، وأرباب الـصناعات من العطارين والمخاطين والكسارين من أهل الذمة خاصة النصارى [1] ، كمـا كـان أشهر أطباء بغداد في تلك الفترة من النصارى أيضاً ، وقد كان لقربهم من دار الخلافة وتطبيبهم للخلفاء آثار سلبية كبيرة ، فقد كان لابن صفيه أبو غالب النصراني دور فـي اغتيال الخليفة المستنجد حيث كان طبيبه الخاص ، فوصف له الحمام وقد أوقـد عليـه ثلاثة أيام بلياليهن ، فما أن أغلق عليه باب الحمام حتى توفي من ساعته [2] .

ولم يختص النصارى وحدهم بالقرب من الخلفاء إلا أنهم كانوا الأكثر خدمة في ديوان الخلافة ، وقد أخذ على مجد الدين أبي المعالي هبة الله بن المطلب الوزير أنـه كان يكثر من استعمال الذميين في دواوينه مما دعى بالسلطان ملكـشاه الـسلجوقي أن يطلب من الخليفة عزل الوزير وحين سمع السلطان بإعادته إلى وزارته ، شرط شروط كان من ضمنها أن لا يستعمل أهل الذمة [3] . غير أن النصارى كانوا يتولون الأعمال الديوانية وكان لهم حرية التصرف بالأموال والأعمال في الدولة ، فقد كان أبو الفضل جبريل بن زطينا كاتباً نصرانياً قبل أن يسلم ثم أسلم في خلافة الخليفـة الناصـر [4] ، كذلك كان شمس الدولة أبو الخير سهل بن توما النصراني اليعقـوبي ، كـان ذا جـاه وحرمه وقرب من الخلفاء وكان الخليفة المستنصر بالله يراسل به الوزير القمي ، ثـم ابن الناقد في تقرير القواعد والولايات ، وحين توفي وحرزت تركته كانت ستمائة ألف

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٦-٦٧ .
(2) ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء ، ص١٤٧ .
(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٥٣٦ .
(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٤ .

دينار ، ثم تولى أخويه فخر الدولة ماري وتاج الدولة أبي ظاهر في جميع الأعمال التي كان يتولاها من الوكالات والنظر في الأقرحة وغيـر ذلك (١) .

فلقد تمتع أهل الذمة بامتيازات اجتماعية ، ومناصب مهمة في سـلك الدولـة ، وكان لهم دورهم الفاعل في الحياة العامة خاصة النصارى من خلال تـوليهم لأمـور الناس في ديوان الخلافة ، كما كانت أديرة النصارى في بغـداد مـأوى لهـم ومبعثـاً للدراسة والبحث والتأليف ، وبمرور الزمن أصبحت أماكن للنزهة ومـأوى للـشعراء والمجون ، حيث يلجأ إليها الذين يحتسون الخمر ويقولون الشعر ، وتتوفر فيها أسباب الراحة والمتعة النفسية ما بين الهواء العليل والحدائق والبساتين التي تحيط بها ، كمـا تقام فيها أعيادهم التي يشاركهم فيها المسلمون منها دير العاصية ، كانت تقـام أعيـاد الصوم الأحد الأول ، والأحد الثاني ، في دير الزراقية ، والأحـد الثالـث فـي ديـر الزندورد (٢) ، والأحد الرابع في ديرمالس (٣) الذي يجتمع فيه نصارى بغـداد ، كمـا كانوا يخرجون في أحد الشعانين (٤) .

وكما كان للنصارى دورهم الاجتماعي كذلك كان لليهود الذين كان منهم الصاغة والصيارفة والجهابذة ، وأمثالهم من الآلاف من اليهود في بغداد يعيـشون فـي ظـل الخليفة ، وكان لهم في بغداد عشر مدارس مهمة ، بينهم كبـار العلمـاء ورؤسـ ـاء المشيبه ، وعلماء الدين والتجار وذوي اليسار (٥) .

وأثناء دخول المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وقتلهم للنساء والأطفال ، كان لبعض أهل الذمة من النصارى دور كبير في حماية الكثير من المسلمين ، حيث التجـأ

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٦١ .

(2) دير الزندورد في الجانب الشرقي من بغداد ، وأرضها كلها فواكه وأترج وأعناب وهي من أجود الأعناب التي تعصر ببغداد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥١٣ .

(3) دير مالس في رقة باب الشماسية ببغداد قرب الدار المغربية ، وهو نزه كثير الأشـجار والبـساتين . يـاقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٩ .

(4) الشابشتي : الديارات ، ص٣ ، ٤ ، ١٤ ؛ ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٣٩ .

(5) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٥-١٣٩ .

خلق كثير إلى بيوت النصارى فسلموا عندهم ، فقد عين النصارى لهم شحان حرسـوا بيوتهم ، وبذلك لم يعتد عليها المغول [1] .

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٣٦ .

الباب الثالث

حياة الأسرة في المجتمع البغدادي

الفصل الأول : المنازل والدور .

المبحث الأول : قصور الخلفاء .

المبحث الثاني : دور السلاطين والوزراء والأعيان .

المبحث الثالث : منازل الأمراء والوزراء والأعيان .

المبحث الرابع : دور العامة .

المبحث الأول : قصور الخلفاء .

تعتبر مدينة بغداد من أهم المدن الإسلامية الحضارية التي اشـتهرت بمنـشآتها المعمارية التي ما زال بعضها شامخاً إلى اليوم ، وهي من المدن التي أسست بتخطيط مسبق سواء من حيث اختيار الموقع أو التقسيم أو البناء أو التحصين .

فإلى جانب مركزها السياسي والحضاري ، كان مركزهـا الاجتمـاعي ، ممـا جعلهـا تتفوق على المدن المنافسة لها في مجال التطور الحضاري الاجتماعي في ذلك الوقت ، فلقد صحب اتساع مدينة بغداد ازدياداً في ثرواتها وسرعة عمرانها وازدهارها الحضاري ، فحفلت بعدد كبير من القصور المحاطة بالحدائق الواسعة والدور الفخمـة والعمارات الفسيحة ، مما جعلها أحدوثة الزمان .

بناء القصور :

كان لاعتماد العباسيين على الفرس في قيـام دولـتهم واسـتخدامهم للعناصـر الفارسية ، تأثيره في التكوين الاجتماعي للمجتمع ، والامتزاج الحضاري فيمـا بيـنهم وبين سكان بغداد ، فلقد بدا تأثر العباسيين بالفرس واضحاً في بناء قـصورهم ، ففـي منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي - عرف العباسيون نمطاً جديداً مـن القصور يعرف باسم الحيري أو الكمين (1) . وهو مختلف عن القصور القديمـة التـي بنيت على نمط الحصون (2) ، وأول من أحدث بناء الحيري هو الخليفة المتوكل علـى الله (3) ثم اتبعه الخلفاء من بعده . والحيري أو الكمين أصله يوناني شـرقي ، وينقـسم إلى ثلاثة أقسام : الباب الأكبر في الوسط وإلى جانبيه بابان صغيران ، وفي الطريـق الموصل إلى القصر ثلاثة أبواب ضخمة ، يدخل فيها الفارس برمحه ، أما الرواق فكان

---

(1) الحيري : منسوب إلى الحيرة وإلى ضرب من الثوب المصنوع فيها ، والحير اسم قصر كان بـسامراء انفـق على عمارته المتوكل أربعة آلاف درهم . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٢٨ .

(2) الشرقي : محمد طالب : القصور العباسية ، ص١٦٣ .

(3) الخليفة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم خلافته من (٢٣٢هـ -٢٤٧هـ ـ/٨٤٧م- ٨٦١م) . الـسيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٤٦ .

فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان ، به من يقرب إليه من خواصه ، وفي اليمين منها خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق (١) .

لقد أكثر العباسيون من بناء القصور وأصبحت مناجعهم ودروبهم المطروقة في مواعيد ومواسم معينة محفوفة بها كطريق مكة وغيرها ، ومما أسهم في الإفراط في بناء القصور توزع الخلافة في ولايات شتى ، وكثيراً ما كانت هذه القصور تتهدم وتزول مع أفول نجم صاحبها (٢) .

قصور دار الخلافة في بغداد :

كانت دار الخلافة مدينة قائمة بذاتها ، بقصورها وبساتينها وجنائنها ، وما يتصل بها على مساحة كبيرة وصفها ابن الجوزي بقوله : " وهي بنفسها بلد " (٣) ، أما عن موقعها وحريمها ، فهي على شاطئ دجلة تحت نهر المعلى ، ومنها القصر الحسني الذي كان قصراً للحسن بن سهل ، أول من أنشأه جعفر البرمكي وكان يعرف بالقصر الجعفري ثم تبدل اسمه بعد أن أقام فيه المأمون فسمى المأموني كما سميت المحله الواقعة بجواره بالمأمونية نسبه إلى هذا القصر ، قال ياقوت : ثم انتقل القصر إلى المأمون واقتطع جملة من البرية عملها ميداناً للركض وفتح له باباً شرقياً إلى جانب البرية وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى ، وابتنى فيه منازل برسم خاصته وأصحابه سميت المأمونية ، وكان سكن فيه الفضل بن سهل ، فلما توفي صار لابنته بوران زوج الخليفة المأمون ، فأستنزلها المعتضد بالله ، وهنا يشك الخطيب البغدادي في صحة الخبر إذ يذكر أن بوران توفيت سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م وقد بلغت ثمانين عاماً ولم تعش إلى أيام المعتضد (٤) ولعل هلال الصابئ وهم برواية

(1) المسعودي : مروج الذهب ، ج٧ ، ص١٩٢-١٩٣ ؛ ميخائيل عواد ، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١م ، ص٨ ؛ وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص٣٧-٣٨ .

(2) وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص٣٨ .

(3) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٦ .

(4) الخليفة المعتضد بالله أحمد أبو العباس ابن الموفق طلحة بن المتوكل ، خلافته (٢٧٩هـ-٢٨٩هـ/٨٩٢م-٩٠١م) كان ذا هيبة وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء وكان يسمى " السفاح الثاني " لأنه جدد ملك بني العباس . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٨٩ .

الخبـر وأبـدل اسم المعتمد [1] فجعله المعتضد [2] فأستنظرنه أياماً في تفريغهـا وتـسليمها للمعتمد ، ثم رقتها وعمرتها وحصنتها وبيضتها بأجمل الفرش وأحسنه ، وعلقت على أبوابها أصناف الستور ، وملأت خزانتها بكل ما يخدم الخلفاء ، ورتبت فيها من الخدم والجواري ما تدعوا الحاجة إليـه ، فلما فرغت من ذلك انتقلت وأرسلت إليه بالانتقـال فانتقـل الخليفـة المعتمد بالله إلى الدار فوجد فيها ما استكثره واستحسنه ، ثم استضاف المعتضد بالله إلى الدار ما وسعها به وكبرها ، وعمل عليها سوراً جمعها به وحصنها ، ثم شـيد المعتـضد قـصر الفردوس بجوار القصر الحسني في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر المعلى بدجلة . كمـا بنى قصر الثريا ، وأخيراً وضع أسس القصر الذي أصبح مركز الخلافة الرسمي وهو قصر التاج الذي أكمله المكتفي وزاد عليه [3] .

ومما لاشك فيه أن القصر الحسني كان نواة دار الخلافة العباسية ، وقـصورها حيث أقيمت قصور الخلفاء الملحقة بها في هذه المنطقة التي تمتد على ضفة دجلة وكان من أهمها ، قصر التاج ، ودار الشجرة ، والدار المثمنة التي جلـس فيهـا الطاغيـة هولاكو عند استيلاءه على بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة والدواوين .

ومن هذه القصور نذكر ما يلي :

أولاً : *قصر التاج* .

هو من أشهر دور الخلافة ببغداد ، كان أول من وضع أساسـه وسـماه بهـذه التسمية الخليفة المعتضد ، ولم يتم بناؤه في أيامه فأتم عمارته ابنه المكتفي [4] ، وكان المعتضـد وضع أساسـه بما نقضه مـن القصر المعـروف بالكامل ، ومن القـصر

(1) الخليفـة المعتمـد على الله أبو العباس أحمد المتوكل بن المعتـصم ابـن الرشـيد ، خلافتـه (٢٦٠هـ - ٢٧٩هـ/٩٧٣م-٩٩٢م) هو أول خليفة قهر وحجر ووكل به من قبل أخيه الموفق الـذي استولـى علـى الأمور ، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ٢٨٥-٢٨٨ .

(2) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١١٥ .

(3) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١١٥ ؛ ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٦-٢٧ .

(4) الخليفة المكتفي بالله ، أبو محمد علي بن المعتضد خلافته (٢٨٩هـ-٢٩٥هـ/٩٠١م-٩٠٧م) سار في النـاس سيرة جميلة فأحبه الناس ودعوا له غير أنه توفي شاباً . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٩٥ .

الأبيض [١] الكسروي الذي لم يبق منه بالمدائن [٢] سوى إيوانه ، وتولى أمر بنائه أبو عبيد الله النقري وأمره بنقض ما بقي من قصر كسرى ، فكان الآجر ينقض من شرق قصر كسرى وحيطانه فيوضع في مسناة التاج ، وكانت تصل إلى دجلة ، ثم حمل ما كان من أساسات قصر كسرى وبنى به أعالي التاج وشرفاته ، وقد ذكر أن أبا عبد الله النقري بكى عند ذلك وقال : " مما نراه لمعتبر نقضنا شرفات القصر الأبيض وجعلنها في مسناة التاج ، ونقضنا أساساته فجعلناها في شرفات قصر آخر ، فسبحان من بيده كل شيء حتى الآجر " [٣] .

ثم بنيت حوله الأبنية والدور من جملتها قبة الحمار وسميت بذلك لأنه كان يصعد إليها في مدرج وحولها حمار لطيف وهي عالية مثل نصف الدائرة : أما تصميم التاج الداخلي فكما ذكرنا فيما سبق قد اتبع في تصميمه قصر الحير ، وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين خمسة أذرع ، وفي سنة (٥٢٤هـ/١١٢٩م) أمر بهدم التاج لأنه قد أشرف على الوقوع ، وأعيد بناؤه [٤] ، وقيل أنه حينما نقض التاج وجد في أعلاه في الركن الشمالي مصحف جامع في غلاف خشبي من الساج ولبس بصحائف الرصاص في رق بخط كوفي [٥] . ووقعت في أيام المقتفي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م صاعقه فتأججت منها النيران في القبة وفي دارها التي كانت القبة أحد مرافقها وبقيت النار تعمل فيه تسعة أيام ثم أطفئت وقد صيرته كالفحم ، ثم أعاد المقتفي بناء القبة على الصورة الأولى ولكن بالجص والآجر دون الأساطين الرخام ، وأهمل إتمامه حتى مات وبقي على تلك الصورة الحسنة إلى ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، حينما قام الخليفة المستضيء بنقضه وإبراز المسناة التي بين يديه إلى أن تحاذي مسناة التاج ، واستعملت انقاض التاج مع ما كان أعد من الآلات لعمل هذه المسناه ووضعت موضع الصحن الذي تجلس فيه الأئمة للمبايعة [٦] .

---

(1) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٤ .
(2) المدائن ، مدينة رومه ، وبالفارسية طيسفون ، ولما فتحت على يد سعد بن أبي وقاص سنة ١٦هـ/٦٣٧م ، سماها العرب المدائن لأنها سبع مدائن . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٧٤ .
(3) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣٤ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤ .
(5) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٤ .
(6) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥ .

دار الشجرة :

هي من أبنية الخليفة المقتدر بالله [1] ، وسميت بذلك لشجرة كانت هناك صنعت من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة أمام إيوانها وبين شجر بساتينها ، ولها من الذهب على شكل الثمار وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها بانت عجائب من أنواع الصفير والهدير وفي جانب الدار عن يمين البركة عمل تمثال لخمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ومثله عن يسار البركة ، وقـد ألبسوا أنواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارق يتحركون على خـط واحد ، فيظن الناظر أن واحداً منهم على صاحبه قاصداً [2] .

ومن أبنية دار الخلافة الدار المربعة والدار المثمنة وهي من عمـارة الخليفـة المطيع لله [3] كما كان من دور الخلافة ببغداد دار عظيمة **تـسمى دار الخيـل** وهـي عظيمة وواسعة عادية البناء لها صحن واسع كان ألف ذراع في ألف ذراع ، وكانـت أكثرها أروقة بأساطين رخام كان يوقف فيها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد ، وفي كل جانب منها خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضة ، وكان كل فـرس منها علـى يد شاكري بالبزة الجميلة [4] .

وصارت كل هذه الدور تعرف باسم دار الخلافة ، وقد اتخذها العباسيون مقـراً لحكمهم ، وسورت دار الخلافة بسور على هيئة نصف دائرة ، وجميع ما يشتمل عليه السور الدائري يسمى حريم دار الخلافة [5] ، ويضم قصور الخلفاء كما يـضم محـالاً وأسواقاً ودوراً كثيرة للرعية ويجتاز سور له أبواب يقع شرقي دار الخلافـة ويعزلهـا

---

(1) المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد ، خلافته (٣٠٥هـ - ٣٢٠هـ /٩١٨م-٩٣٢م) تـولى الخلافـة وعمره ثلاث عشرة سنة ولم يل الخلافة قبله أصغر منه ، اختل النظام في أيامه لصغره ، غلب عليـه حـب النساء ، فتغلبن على الأمر في عهده . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٩٧ .

(2) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١١٨-١١٩ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٠-٤٢١ .

(3) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٣ .

(4) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١١٨ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤١٩ .

(5) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٥٠ .

عن منازل السور من الشرق ونهر دجلة من الغرب ، ويحيط بدار الخلافـة والحـريم سور ذو تسعة أبواب رئيسية أشهرها باب الغربة ، وباب الخاصة ، وبـاب النـوبى ، وباب العامة .

أما باب الغربة فهو أولى أبواب دار الخلافة من جهة الشمال وسمي بذلك لوجود شجرة غرب ثابتة بالقرب منه ، عندها يبدأ حريم دار الخلافة وقربه داخـل الحـريم قصران هما دار خاتون ودار السيدة وكانتا لابنة الخليفة المقتدى وشيد المستظهر بـالله في محلها قصراً سماه **دار الرياحيين** ، نسبة إلى سوق الريحانيين ، وكانت هذه الـدار ذات وجوه أربعة متقابلة ، وكان قد بدء بعملها سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م وفرغ منها فـي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م [1] .

وثاني أبواب السور باب سوق التمر وهو قريب من باب الغربة وسمي البـاب القائمي أيضاً وإلى جانبه الدار القطنية ، وهما قصران على مشرعه الإبـريين الـذين يبيعون الإبر وذكر لنا ياقوت أن هذا الباب والدار الملاصقة به أغلـق فـي أول أيـام الناصر لدين الله أي بعد سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وذكر أن المسترشد خرج منه فأصـابه ما أصابه فتطيروا به وأغلقوه [2] .

ثم باب بدر أو باب البدرية نسبة إلى بدر من مماليك الخليفة المعتـضد وكـان يسمى بباب الخاصة أول الأمر لدخول الخاصة من الناس منه إلى دار الخلافة ، وعليه أنشأ المستظهر منظرة يشرف بها على ساحة قصور الخلفاء وعلى سوق ويعرف الباب الرابع من أبواب السور بباب النوبى نسبة إلى حاجب يجلس عنده اسمه سعيد النوبي ، كما يعرف بباب العتبة نسبة إلى العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد وهذه العتبة اسطوانية من الرخام الأبيض موضوعة أمام الباب الداخلي [3]. وفي أيام الخليفة المسترشد بالله وحربه مع السلطان محمد بن ملكشاه أمر الخليفة ببناء أبواب السور وإغلاقها ، وبقي باب النوبى وحده دون أن يغلـق .

---

(1) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٠ .

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢١ .

(3) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٥١ .

وخامس الأبواب باب العامة ويعرف بباب عمورية أيضاً لأن المعتصم بالله جلب أبواب الحديد التي به من مدينة عمورية ولم ير مصراعان أكبر منها [١] ، ثم يأتي باب النصر [٢] .

والباب الثامن باب البستان وكانت عليه منظرة تشرف على موضع الأضاحي حيث كانت تنحر في عيد الأضحى [٣] ، وآخر الأبواب في السور باب المراتب ويقع بالقرب من ضفة النهر في الجنوب وهو من أجل أبواب دار الخلافة وأشرفها له حاجب عظيم القدر ، داخل محلة كبيرة كان يسكنها الأكابر والتجار والأشراف وذوي البيوتات القديمة [٤] .

أما تاريخ إنشاء سور دار الخلافة فيبدو أن المعتضد بالله شرع ببنائه وأتمه الخلفاء المتأخرون واتصلت العمارات حول دار الخلافة ، ففي منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي - أنشئت المدرسة النظامية إلى الشمال من دار الخلافة ثم أنشئت شمال هذه المدرسة المستنصرية في الثلث الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي [5] ، وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد حيث أصبح العمران منتشراً حول دار الخلافة ، فكانت دار الخلافة أصلاً لمدينة بغداد الرئيسية التي ظهرت في العهد الأخير ، وفي سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م في مستهل حكم الخليفة المستظهر بالله شرع في إنشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بالمدينة الجديدة ويضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي أنشأ حولها ، وكان هذا السور وخندقه يبدآن من دجلة شمالاً وينتهيان إلى دجلة عند الباب الشرقي جنوباً ، وكان الشروع في إنشاء هذا السور في خلافة المستظهر لكنه لم ينجز سوى قسم يسير

---

(1) المصدر نفسه .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٥٢ .

(3) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٥١ ؛ عبد الله السوداني : أسوار بغداد ، العدد ٤ ، م٨ ، ص٥٢.

(4) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣١٢ .

(5) صبري فارس الهيتي : تخطيط مدينة بغداد عبر العصور ، مجلة المورد ، العدد الرابع ، مج٨ ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، ص١٥ .

منه في خلافته وأُكمِلَ إنشاؤه في سنة ٥١٧هـ-١١٢٣م [١] ، وقد ظـل قائمـاً حتـى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة ، أي حوالي الثمانمائة عام [٢] .

أبهة القصور وزينتها :

لقد أسهب المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور التي تضمها دار الخلافة ، فمن ذلك ما روي عن وجود طريق معقود بإزاج تحـت الأرض وسـراديب تـصل القصور ببعضها البعض ، خاصة بالجواري والسراري [٣] ، كما كانت قصور الخلفاء تضم دوراً وبساتيناً ومسطحات مظللة بالأشجار ، كما تضم قباباً وأروقة ، وكانت تزيد في جمالها البرك والأنهار المرصصة يجري فيها الماء ، وكانوا يرصصون الأنهـار الصغيرة والسواقي " أي يبلطون أسافلها بالرصاص القلعي شديد البياض وهو أجود من الفضة المجلوة لكي لا يذهب الماء سدى " [٤] .

وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني بحـسب الغلمـان أو الحرس الذين يجتمعون فيها . وكان الأمراء إذا جاءوا إلى دار الخلافة دخلوها راكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذي ينزلون فيه ترجلوا ودخلوا والحجاب بين أيديهم[5] .

وكان الخلفاء كثيراً ما يعتنون ببناء القصور وتزيينها ويظهر لنا ذلك من وصف أبي المطهر الأزدي لها فيقول : " بها الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ، مع الأواوين والأساطين ، فقد غشيت سقوفها بالساج وزينت تعاريجها بـالأبنوس والعـاج " [٦] . كمـا وصفها بنيامين في رحلته فقال : " وقصر الخلافة واسع الأرجاء تنوف استدارته على ثلاثة أميال تتوسطه روضة غناء فيها أشجار مثمرة من كل صنف وفيها من الحيـوان ضروب كثيرة ، وفي الروضة أيضاً بحيره واسعة يأتيها الماء من حدقل " دجلـة " ..

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٤٣ – ٥١٧ سنة في خلافة المسترشد .
(2) صبري الهيتي : تخطيط مدينة بغداد ، ص١٥ .
(3) عبد الله السوداني : أسوار بغداد ، مجلة المورد ، العدد ٤ ، مج٨ ، ص٥٠ .
(4) متز : الحضارة الإسلامية ، م٢ ، ص٢١٥ ؛ ميخائيل عواد : صور مشرقة ، ص٩ .
(5) متز : الحضارة الإسلامية .
(6) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٥-٣٦ .

وفي قصر الخلافة من الأبنية ما يحير العقول ، ففيه من الرخام والأسـاطين المزوقـة بالذهب المزينة بالحجارة النادرة المنقوشة بالريازة البديعة تكـسوا الحيطـان ، وفـي القصر كنوز وافرة وخزائن طافحة بالذهب والثياب الحرير والجواهر الكريمـة " [1] .

فقد كانت قصور الخلفاء من الأبهة والفخامة ، حتى كانت تكتظ بالتحف والأواني مـن الذهب والفضة ، والأثاث الفاخر ، فقد ذكر لنا البغدادي أن عدد ما علق فـي قـصور الخليفة المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المزينة بصور الفيلـة والخيـل والسباع والطرد ، والستور الأرضية والواسطية ، والستور الدبيقية المطرزة حـوالي ثمانمائة وثلاثين ألف ستر – وهو عدد ضخم جداً – منها الستور الديباج المذهبة وعـددها إثنا عشر ألف ستر وخمسمائة ستر عدا البسط الطويلة الجرهمية والدورقة فـي الممـرات ، سوى ما في المجالس من الأنماط الطبري والدبيقي إثنان وعشرون ألف قطعة [2] . كما ذكر لنا أبو المطهر الأزدي عن فرش القصور في تلك الفترة فقال : " فرشت بالطنافس والمخـاد المذهبـة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب " [3] ، كما قال في فرش مجالسها : " مفروشة المجالس بالزلالي المغربية ، والطنافس الخرشنية والنخاخ الأندلسية والقرطبية ، والمطـارح الأرمنية ، والقطف الرومية والمقاعد التسترية والأنطـاع المذهبـة المغربيـة ، والمخـاد المذهبة الدبيقية ، والطراحات القبرصية ، والنمارق التي ترى البيت منها كأنه قراح منثـور ولا لام حصر سامان ولا عباداني يطوى بالعرض كما تطوى الثياب من أجل الزرابي وأنعم من الخز السوسي لطيفة العمل بديعة الصنعة دقيقة النسيج ، والدسوت الـشيقرية المفـصلة بالذهب ودسوت ممزوجة بذهب عراقي وديباج مثقل ومحير ومطارح محشوه بريش الصعو الهندي والديباج التستري المقصب المذهب " [4] .

إن حياة الترف كانت واضحة في قصور الخلفاء ، خاصة في جمعهـم لأوانـي الذهب والفضة ، ذكرت المصادر عن حريق دار الخلافة في سنة ٦٠١هـ ـ/١٢٠٤م بأنه بلغ ما أحترق بدار الخلافة أكثر من نصف مليون دينار ، كذلك في سنة ٦٥١هـ/

(1) بنيامين ، الرحلة ، ص١٣١-١٣٣ .
(2) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١١٧ .
(3) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٦ .
(4) المصدر نفسه ، ص٣٨ .

١١٥٣م حين وقع الحريق بدار الخلافة فاستخرج بعد إطفائه من الأواني ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار [١] .

كمـا كانـت قصـور الخلفـاء تضـم خزائـن مختلفـة الأغـراض ملئـت بأنواع الطرف ورتب فيها ما يحتاج إليه الخليفة وجواريـه وخدمـه ، فكانـت أولـى بالخزائن في قصر الخلافة هي :

١- **خزانة الكتب** ، وهي من أجل الخزائن وأعظمها شأناً عندهم ، وكان فيهـا من المصاحف الشريفة المكتوبة بالخط الكوفي والأندلسي وغيرها ، ومن الكتـب مـا يزيد على مائة ألف كتاب مشتملة على أنواع العلوم مما يدهش الناظر ويحيره ، وربما اجتمع بالخطوط المنسوبة ، كخط ابن مقلة وابن البواب ومن جرى مجراها " [٢] .

ويلحظ أثر المؤدبين العلمي للأبناء من خلال حرص الخلفاء على الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة في قصورهم فأنشأ الناصر لدين الله في قصره خزانة كتب ضخمة ، حوت فرائد المؤلفات ونوادر المصنفات ، يستدل على عظم هذه الخزانة مما نقل منهـا إلى خزانة المدرسة النظامية وإلى دار المسناة فذكر القفطي : أن الناصر نقـل إليهمـا وإلى غيرهما في خزانة كتبه الخاصة ، واعتمد على ابن الرشيد بـن بـشر الـرازي (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) في اختيار تلك الكتب [٣] ، أما الخليفة المستنصر فقد أنشأ خزانة كتب قريبة من مجلسه حوت أنواعاً من الكتب العلمية والأدبية [٤] ، كما أمر الخليفـة المستعصـم بالله بإنشـاء خزانتين للكتـب متقابلتين في قصره وجعل فيهمـا نفـائس الكتب مـن سائـر العلـوم ، سلـم إحداهمـا إلـى مؤدبـه وشيخـه علـي ابـن النيـار [٥] .

---

(1) الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص٨٠ .
(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٤٥-٥٤٦ .
(3) القفطي : أخبار العلماء ، ص٢٣١ .
(4) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٥٩ .
(5) القفطي : أخبار العلماء ، ص٣٣٣ .

٢- **بخزانة الكسوة** وهي خزانتان أحدهما الظاهرة وهـي الخزانـة الكبـرى والمعبر عنها بخزانة الخاص ، وكان فيها من الحواصل من الـديباج الملـون علـى اختلاف ضروبها والشري الخاص والديبقي والسقلاطون [1] وغير ذلـك مـن أنـواع القماش الفاخر ما يدل على ملكهم وإليها يحمل ما يعمل بدار الطراز بتنـيس ودميـاط والإسكندرية من مستعملات الخاص ، وفيها يفصل ما يؤمر به من لباس الخليفة ومـا يحتاج إليه من الخلع والتشاريف وغير ذلك ، أما الثانية فهي معدة للباس الخليفة خاصة وإليها ينقل القماش المفصل بالخزانة الأولى من قماش الخليفة [2] وكانت توضع جواهر الخلافة في قلايات على درج مغشاه بالديباج الأسود [3] .

٣- **خزانة الشراب** ، وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات القائمة التي لا توجد إلا فيها ، والآلات النفيـسة والآنيـة الصينية من الزبادي والصحون والبراني والأزيار ما لا يقـدر عليـه غيـر الملوك .

٤- خزانة الطعام وكانت تحتوي على عدة أصناف مـن القلويـات والفـستق والسكر والقند والأغسال أصنافها ، والزيت والشمع وغير ذلك ، ويخرج منها راتـب المطابخ خاصاً وعاماً وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقيعات في كل شهر ولا يحتاج إلى غيرها إلا في اللحم والخضر [4] .

٥- خزانة السروج وهي قاعة كبيرة بالقصر بها السروج واللجم مـن الـذهب والفضة ، وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة ، ثم منها ما هو قريب من الخاصة ، ومنها ما هو وسط برسم من هم من أرباب المواكب ولأرباب الخدم .

---

(1) انظر الملابس والأزياء ، ص٢٩٩ .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٤٥-٥٤٦ .

(3) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٥٤٦-٥٤٧ .

(4) المصدر نفسه .

أما الخزانة السادسة فهي ٦- **خزانة السلاح** ، وكان موضعها بالقصر بـالقرب من دار الخليفة يحضر إليها من غير جلوس ، ويطوف بها ويسأل عن أحوالها ، ويأمر لها بما تحتاج من احتياجات وحملها إليها (١).

أما الحرم فقد كان لأم الخليفة دار خاصة بدار الخلافة يعبر عنها بالحجرة الشريفة ، وفيها يخلع على الوزراء ، كما كانت تقف دابة النوبة والمعول عندها من الأبواب عليه فيقال له باب الحجرة لأنه باب أم الخليفة ، ولها فضل ، كما كان عند هذا الباب ينادى للصلاة لكل فريضة ، ويجتمع القراء الذين يقرؤون القرآن (٢) . وكانت دار الطبل قرب هذه الدار وهـي عامرة بالساعاتية ويقال لهم " المبنمكين " (٣) لإدراك وقت التأذين فإذا دخل وقـت الـصلاة ضربت النوبة في جميع الأوقات (٤) . كما كان لبنات الخلفاء قصر خاص يوضعن به ، فقـد كن فيما سبق يجعلن في قصر أم حبيب بن الرشيد بن المهدي ثم صرن يجعلن فـي قـصر المهدي بالرصافة (٥) .

وسائل التبريد :

اهتم الخلفاء كثيراً بوسائل التبريد والتهوية في أيام الصيف الحارة فـي قـصورهم ، منها اتخاذهم السراديب (٦) تحت الأرض ، والإكثار من الباذهنجات (٧) وتنصيب الخـيش (٨)

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٤٦-٥٤٧ .

(2) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص١٧ .

(3) المبنمكين : هم الذين يوكل إليهم النظر في البنكامات وهي آلات يقدر بها الزمان ، وهي أصـناف رمليـة ، ومائية ، ودورية أي معمولة بدواليب يدير بعضها بعضاً . حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص٢٥٥ .

(4) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص١٧ .

(5) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٥ .

(6) السرداب هو بناء تحت الأرض للصيف والكلمة مركبة مـن " سـرد " أي بـارد ومـن " آب " أي مـاء . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج١ ، ص١٧٨ .

(7) الباذهنج : تعني ما يعرف بالباذ كير وأجاد بعضهم في تسمية " رواق النسيم " ومعنى " الرواق " : المصفاة . وهو المنفذ الذي يجيء منه الريح . الخفاجي : شفاء العليل ، ص٤٧-٤٨ .

(8) الخيش : نسيج متخلخل ، غليظ الخيوط ، يتخذ من مشاقه الكتان ، فهو أشبه ما يكون النسيج الـذي يـسمى الجنفاص . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج١ ، ص٨٠٨ .

وأن أول من علق له الخيش لاتقاء الحر أمير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، كذلك هو أول من نقـل لـه الثلج ، ووضع في بيت الشراب . البيهقي : المحاسن والمساوئ ، ص٥٠ .

وبله بالماء البارد ، وقد غلب اتخاذ الخيش وسيلة للتبريد أيام الصيف في قصور الخلفاء ، فمما ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة العباسي المنصور كان يطين له في أول خلافته بيت في الصيف يقيل فيه ، فاتخذ له وزيره ثياباً كثيفة تبل وتوضع على الآلة التي يقال لها " سباية " فوجد بردها فاستطابها ، وقال : ما أحسب هذه الثياب لو اتخذت أكثف إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل ، وكانت أبرد ، فاتخذ له الخيش [1] ، واستمر استخدام الخلفاء للخيش في تبريد الدور وكان هناك بيت خاص يسمى بيت الخيش ، ثم تطور استخدامهم للخيش عن طريق صنع مروحة من الخيش تكون شبيهة بشراع السفينة وتعلق في السقف ويشد بها حبل يحركها ، وتبل بالماء وترش أحياناً بماء الورد ، فإذا أراد الإنسان في القائلة أن ينام جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء ، فيهب عليه منها نسيم بارد طيب الريح فيذهب عنه أذى الحر ، وهي فوقه ذاهبة وجائية [2] .

موظفو دار الخلافة :

كانت قصور الخلفاء تضم من الخدم والمماليك والحرس ما يعد بالمئات ، وكان لهم ديوان خاص يعرف بديوان الخلافة ينفق على قصر الخليفة وحواشيه فقد كان يدير قصر الخليفة عدد من الموظفين الذين أوكلت إليهم مهام تولي شؤون دار الخلافة وحاشية القصر ، والقيام على خدمتهم من أهمهم :

أستاذ الدار : يتولى شؤون دار الخلافة بما تحويه من موظفين وخدم ، ويقوم على حراستها ، كما يتولى أمور الأسرة العباسية المقصورة في دار الخلافة [3] ، فهو بمثابة رئيس الديوان ، ويتم تقليد أستاذ الدار إما مشافهة أو تحريراً عندها يؤتى بالشخص المرغوب فيه ويسكن في الدار المخصصة للأستاذ داريه ، وهي دار تقع مقابل أحد أبواب دار الخلافة المسمى بباب الفردوس ، وبعد أن يتم تعيينه يدخل عليه

---

(1) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٢١٥ ؛ ميخائيل عواد : صور مشرقة ، ص١٧ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩ ؛ ميخائيل عواد : صور مشرقة ، ص١٨ .
(3) المقريزي : الخطط ، ج٣ ، ص٦٤ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠ .

الناس مهنئين له ثم يعود إلى داره ويستمر في عمله بدار الأستاذ داريه [1] ولا يقتصر عمل الأستاذ دار على إدارة شؤون دار الخلافة والاعتناء بها أو مراقبة أبوابهـا عنـد غلقها وفتحها ، بل أصبح ذا سلطة ، توازي سلطة الوزير ، كما كان أبو الفرج محمـد بن رئيس الرؤساء ابن المسلمة الذي تولى بعد أبيه أستاذية الدار في عهد المقتفي ثـم ولده المستنجد ، وبلغت سطوته هذه إلى أن تولى البيعـة للخليفـة المستـضيء سـنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، لذلك ولاه الوزارة بعد ذلك [2] ، وبلغت سطوة أستاذ الدار إلى أن دعي له على المنابر ببغداد بعد الدعاء للخليفة وهذا ما شاهده وسمعه ابن جبيـر عنـد مجيئه إلى بغداد سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م [3] ، ولم يكن أستاذ الدار على شاكلة واحـدة ، فقد كان عضد الدين أبو الحسن علـي بـن بختيـار البغـدادي زاهـداً رتـب سـنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، وعزل عن منصبه في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م [4] ، كما كان عبيـد الله بـن يونس وزيـراً سابقاً ولي الوزارة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ثم تـولى أسـتاذية الدار [5] ، وهناك من تولى الحسبة ببغداد قبل أن يكون أستاذاً للدار ، ومنهم من كـانوا رسل الخلفاء عند الملوك ، منهم محي الدين يوسف ابن الجوزي حيـث تـولى سـنة ٦٤٠هـ/١٢٤٤م أستاذ دارية الخليفة المستعصم بالله [6] .

موظفو دار التشريفات : لم يرد عن عمل موظف دار التشريفات سوى إشـارة فيما جاء من مشرف دار التشريفات أنه أمر أن يحضر عند أستاذ الدار شـمس الـدين أبي الأزهر الناقد سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م وأن يتفقا على القبض على نائب الوزارة مؤيد الدين ابن القمي [7] كان بدار التشريفات كتاباً مثل مؤيد الدين أبي طالب ابن القمي .

الفراشون : كانوا يقومون بأعمال مختلفة منها الاهتمام بـالفرش وهـو أصـل مهنتهم وكنس دار الخلافة ، وكان لهؤلاء الفراشين عريف في الدار ، ومعه عدد مـن

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥٣ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٣٣ .
(3) ابن جبير : الرحلة ، ص١٧٧ .
(4) الصفدي : فوات الوفيات ، ج٢٠ ، ص١٦١ .
(5) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٠٧ .
(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٥٣ .
(7) المصدر نفسه ، ص٤٣ .

الغلمان تحت عرافته مهمتهم رش الخيش ، والكنس [1] ، وكان ينبغي على كل عريف في الدار أن يدخل مع عدد من الفراشين مرة في الأسبوع إلى دور الحرم لرش الخيش وكنسه [2] ، وكان للفراشين رؤساء يسمى أحدهم مهتر الفراشين ، أمثال عبد الغني بن فاخر ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م فقد قيل أنه كان شيخاً ظريفاً لطيفاً حسن الزي مليح الملبوس كثير التنعم متشبهاً بالملوك في ترتيب داره وكانت تشتمل على عدة حجر في كل حجرة جارية وخادم تسمى تلك الحجرة باسم ذلك الخادم ، وكانت نفقته في الشهر تزيد على مائة وخمسين دينار ، عدا ما تحتاج إليه أسطح الطيور وهو نحو عشرين دينار والمقصود بالطيور هي التي تعود للخليفة والتي تستعمل في المراسلات ، وعلى المهتر العناية بها إضافة إلى مراقبة الفراشين والاهتمام بأمرهم [3] . كان مقدم الفراشين مقرباً من الخليفة ، يتولى حمل المطالعات من الخليفة إلى أرباب الدولة على يده ، والمشافهة على لسانه كعمر ابن جلدك ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م [4] .

الحجاب : مهمتهم الوقوف بباب الخلفاء والوزراء وأرباب الدولة لحجب الناس عن مقابلة المحجوبين وعدم إدخالهم إلا بعد الإذن بذلك ، ذكر لنا الكازروني مهام الحاجب فقال : " هو صاحب سيف الإمام المنفرد بالسياسة في العوام ، بالعدل في الأحكام ، فمن سرق قطعة ومن أنتهك المحرمات ردعه ومن قتل قتله وأقتص للمظلوم ممن ظلمه ، وبين يديه النواب والأعيان والحجاب يتقلدون ذلك أجمع ويقتصون في ملأ ومجمع " [5] .

وكان هؤلاء الحجاب فئات أنواع منهم حجاب الخليفة ، كأبي الفتح ت٥٥٦هـ/١١٦٠م حاجب باب الخليفة المسترشد ثم الخليفة الراشد [6] . هناك حاجب المجالس وكان من عمله إمضاء المراسيم ، وتولى جلوس الناس في الديوان ، بترتيب معين وهذا الترتيب لابد أن يتم حسب المكانة الاجتماعية والعلمية للداخل إلى الديوان [7] .

---

(1) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج٢ ، ص١٣٧-١٣٩ .
(2) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٣٩ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٩٦ .
(4) المصدر نفسه ، ص١٣٤ ، ٢١٧ .
(5) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص٢٣ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠٢ .
(7) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص١٩ .

ذكر لنا ذلك ابن الكازروني فقال : " وحاجب المجلس بصدد إنفـاذ التقـدمات إمضاء المراسيم وإبرام المهمات والحجاب على اختلاف طبقاتهم بين يديه ، والنقباء في أماكنهم إلا أنهم أهون عليه ، فحجاب المناطق كالعرائس في صدور المجالس أو كالأقمار في الليـل الدامس والقيـام قياماً لا يزالـون ، والنقباء بعدهم في الخدمة يقفون " (١) .

كما كانت تتوارث بعض العوائل الحجابة مثل أبناء المعوج الذين ولـي مـنهم الحجابة جماعة منهم محمد بن علي بن محمد أبو عبد الله بن سعيد المعـروف بـابن المعوج ، فقد كان مـن بيت مشهور بالحجابة (٢) ، ولم يكن الحجاب من الخـدم بـل كانوا يختارون من الأدبـاء والعلماء ومن الأسر ذات المكانة الاجتماعية البارزة فـي المجتمع ، لذلك نجد أنهم كثيراً ما ينقلون من الحجبة إلى دواوين أخرى .

الشرابي : وهو من أكابر الخدم وأخصهم في الدولة عمله تقديم أنواع الأشـربة المعمولة من السكر والفواكه ، والاهتمام بها وتقديمها بأواني من الصيني الفـاخرة أو من اللازوردي ويساعده عدة غلمان ، كما له المشاهرة من الخبز واللحم (٣) ويـساعده الكواز دار ومهمته حمل الماء وحفظه صالحاً للشرب (٤) .

حياة القصور :

لقد أفرط العباسيون في التباهي بالقصور والدور ، وذكرنا فيمـا سـبق كيـف اعتنوا ببناء القصور وزينتها وتنظيمها ، وما تضمه من حواشي ، كانوا يعيشون فـي ترف كبير فكيف كانت هذه القصور ؟ وكيف كان العيش بين جدرانها ؟ وما الذي كان يجري فيها ؟ فالخلفاء الذين تولوا الخلافة هم بشر عاديون لهم زوجات وأبناء ، ولهـم حياتهم الأسرية الخاصة كالتي يجري فيها ما يجري بين الناس من مـشاكلات الحيـاة بحلوها ومرها مثلهم مثل بقية أفراد المجتمع . لقد حرص العقلاء من الخلفـاء علـى جاريا على العادة على تربية أبنائهم وتعليمهم حتى يكونوا مؤهلين لتحمل الأعباء التي

---

(1) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص١٩ .
(2) ابن النجار : الذيل ، ج١٧ ، ص٢١ .
(3) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٥٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ .
(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ .

ستعهد إليهم مستقبلاً ، كما حرص الكثير من الخلفاء على أن تسير الحياة الاجتماعية داخل القصر على نسق معين ، فكيف كانت حياة دار الخلافة الاجتماعية هذا ما ستصوره الورقات التالية :

تربية وتأديب أبناء الخلفاء :

انتدب أغلب الخلفاء لأبنائهم أفضل علماء عصرهم ديناً وخلقاً وعلماً ، كانت وظيفة المؤدب هو تعليم أبناء الخلفاء محاسن الآداب ومكارم الأخلاق التي يجب أن يتربى عليها أبناء الكبراء ، إضافة إلى تعليم الصبي القرآن الكريم والنحو ونوادر العرب ومأثوراتهم [(١)] ، فمما يبين لنا حرص الخلفاء على تربية أبنائهم ما ورد من روايات وأخبار عن المؤدبين ومن يقومون بتأديبهم ما رواه لنا ابن جماعة فقال : " دخل المكتفي على الموفق ولوحه بيده فقال : مالك لوحك بيدك ، فقال : مات غلامي واستراح من الكتاب قال : ليس هذا كلامك كان الرشيد أمر أن يعرض عليه ألواح أولاده فعرضت فقال لإبنه ما لغلامك ليس لوحك معه قال : مات واستراح من الكتاب ، قال : وكان الموت أسهل عليك من الكتاب قال ثم جئته فقال : كيف محبتك لمؤدبك قلت : كيف لا أحبه وهو أول من فتق لساني بذكر الله ، وهو مع ذلك إذا شئت أضحكني وإذا شئت أبكاني قال راشد : أحضرني ثم ابتدأت في أخبار الخلفاء ومواعظهم فبكى بكاء شديداً قال : وابتدأت فذكرت نوادر الأعراب فضحك ضحكاً كثيراً ثم قال لي : شهرتني شهرتني [(٢)] . يقول ابن جماعة في ذلك : " انظر إلى تأديب الخلفاء أولادهم واختيار المؤدبين لهم لاختبار أذهانهم " [(٣)] . ونستشف ذلك من الوصايا الموجهة للمؤدبين والتي تعد نبراساً لممارسي تلك الصناعة كوصية الشافعي لمؤدب أولاد هارون الرشيد [(٤)] .

---

(1) عبد الرحمن السنيدي : التأديب والتثقيف الموجه نحو الخلفاء العباسيين وأبنائهم في مرحلة ما قبل العهد البويهي ، مجلة العصور ، م١٢ ، ج١ ، العدد ٧٩-٩٩ (٢٠٠٢م) ، ص٨١ .

(2) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص٨٦ .

(3) المصدر نفسه ، ص٨٦ .

(4) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٣ ، ص١٨٧ .

ومما لا شك فيه أن التأديب الموجه إلى أبناء الخلفاء العباسيين تأديـب متميـز قياساً إلى ظروف ذلك العصر ، مثلهم في ذلك مثل أولاد الخاصة من وزراء وكتـاب حيث كان يناط بتأديب أولاد الخلفاء إلى نخبة من حذاق النحو واللغة [1] .

وقد كان هؤلاء المعلمون والمؤدبون يخضعون للإشراف والملاحظة من جانب الخليفة ، أو الحاجب ، ومن الطبيعي أن يعنَى الخليفة العباسي بتأديب أبناءه لاعتبارات عدة منها أهمية دور التأديب في تأهيل رجل الدولة والمرشح لنيل الخلافـة ، كمـا أن الاهتمام بتربية وتأديب الأبناء مما عِني به الخلفاء الأوائل ، وبكل تأكيد فإن خلفاء هذه الفترة ينظرون بعين الاعتبار إلى خطوات الخلفاء الأوائل على أنهـا أنمـوذج ينبغـي الاحتذاء به ، مما يجعلهم يبذلون مزيداً من الجهد في سبيل تثقيف الأبناء والأحفاد ، فقد كان للمؤدبين أثر في حياة أبناء الخلفاء ، ومن مطالعتنا للمصادر التاريخيـة والأدبيـة نلحظ أن هناك عدداً من المؤدبين الذين عملوا في دار الخلافة ابتداء من عهد المستظهر بالله وحتى عهد المستعصم ، ويغلب على أولئك أنهم من علماء النحو واللغة ، ومـنهم من برز في علوم أخرى فمن هؤلاء أبو البركات أحمد بـن عبـد الوهـاب الـسيبي (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) [2] اختص بتأديب أولاد الخلفاء ، فقد كـان مـؤدب المقتـدي ، كمـا كان يعلم أولاد الخليفة المستظهر فأنس بالمسترشد ، كذلك كـان مؤدب الخليفـة المقتفي لأمر الله [3] ، كما كان إسماعيل بن موهوب بن أحمد بـن محمـد الجـواليقي ت٥٧٥هـ/١١٧٩م كان إمام أهل الأدب مختصاً بتأديب أولاد الخلفاء اللغة والأدب [4] . كما تلقى الخليفة الناصر لدين الله علومه على عدد من العلماء منهم علي بن عـساكر بـن المرحب المقرئ (٥٧٢هـ/١١٧٦م) وروى عنـه بالإجـازة [5] ، كمـا أجـازه أحمد بن محمد بن كرم البندنيجي (ت٦١٥هـ/١٢١٨م) [6] وسمع أيضاً من شهـده

(1) ذكر ابن الأثير أن المؤدب هو من يعلم الناس اللغة والأدب . اللباب في تهـذيب الأنـساب ، دار صـادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ج٣ ، ص٥١ .

(2) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٩ ، ص٢٦١ .

(3) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢١٩-٢٢٠ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٦١ .

(4) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص٣١٣ .

(5) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٦ ، ص٣١١ ؛ ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص٣٣٦ .

(6) ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص١٠٨ .

الأبرية [1] ، أما الخليفة الظاهر بالله فقد تلقى علومه على يد عدد من العلماء ، فقرأ القرآن على يد الشيخ أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن أحمد البغدادي المعروف بابن الأشقر (ت٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) وبلغ احترام الظاهر لشيخه ابن الأشقر أن أكرمه وأعطاه بغلة والده الناصر فركبها [2] . كما أخذ الظاهر عن والده الناصر ، فأجازه برواية مسند الإمام أحمد بن حنبل [3] ، كذلك تتلمذ الخليفة المستنصر على يدي الشيخ المؤدب هبة الله بن الحسن المعروف بابن الأشقر وكان يدخل عليه ويقرئه القرآن [4] .

ومما يدل على اهتمام الخلفاء بتربية أبنائهم وأحفادهم نجد أن الخليفة المستنصر كان منذ مبدأ عمره متشاغلاً بالعلوم الدينية والأدبية ، وحين ألمح به جده الخليفة الناصر الذكاء والفطنة حرص على تقريبه منه وإحضاره مجالسه وكان يسميه القاضي ، لعقله وهديه وإنكاره المنكر [5] ، كما كان الفقيه الفاضل أبو المظفر علي بن محمد ابن النيار (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) مؤدب أولاد الخليفة المستنصر منهم الأمير المؤيدي أحمد بن عبد الله [6] ، ثم تولى تأديب وتعليم المستعصم وأخيه فحفظا القرآن على يديه وقربه المستعصم وسلم إليه سائر الربط وسماه شيخ الشيوخ ، كما عرض عليه الوزارة فأبى [7] .

ومما لا شك فيه أن خلفاء هذه الحقبة حرصوا على إحياء هيبة الخلافة من جديد ، فبذلوا جهوداً متشعبة من ضمنها إنشاء جبهة داخلية متماسكة تستهدف إصلاح أخلاق أبناء الخلفاء وتأهيلهم لتولي شؤون الخلافة ، لذلك كان التركيز في دروس التأديب على تعليم النحو واللغة العربية والشعر العربي ، وربما أصبح ذلك ضرورياً

---

(1) شهده الأبرية الكاتبة المعروفة فخر النساء بنت أبي نصر الدينوري سمعت الكثير ، وعنى بها أبوها وأحضرها مجالس السماع على الشيوخ وعمرت وصارت أسند أهل زمانها (ت٥٧٤هـ/١١٧٨م) . ابن الدبيثي : الذيل ، ج١٥ ، ص٣٩٤-٣٩٢ .

(2) الأربلي : خلاصة الذهب ، ص٢٨٤ ؛ ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص٢١١ .

(3) ابن رجب : الذيل ، ج٤ ، ص٢١٨ .

(4) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢١١ .

(5) الكتبي : عيون التواريخ ، ج٤ ، ص١٧٠ .

(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٢ .

(7) الكتبي : عيون التواريخ ، ج٤ ، ص١٧٠ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٢ .

لشيوع اللكنات الأعجمية واللغات الأجنبية في محيط القصر ، كالرومية والفارسـية ، مما شاع وذاع في أركان ذلك المحيط نتيجة لزواج الخلفاء بالإماء والجواري فقد كانت الرومية من أدوات التخاطب بين الخليفة ومماليكه (١) ، كما تضمنت دروس المـؤدبين القصص والمواعظ ذات المغزى الأخلاقي والوعظي كما أثر ذلك عن شيخ الحنابلة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي والشيخ عمر السهروردي (٢) .

البيئة المحيطة بأبناء القصر :

إن تأثير المؤدبين السلوكي والأخلاقي على أبناء الخلفاء وإن كان من مقاصـد التأديب ، إلا أننا لا نبالغ إذا قلنا أنه قد قل وضعف لوجود مؤثرات أخـرى أسـهمت بشكل كبير في صياغة شخصيات الأبناء ، من أهمها ضعف جهاز الخلافة فإن وجـود خليفة قوي يعد من عوامل الدعم لتربية الأبناء حيث يتولى الإشراف على تربية وتأديب ابنه وفلذة كبده بجلب أفضل الكفاءات في مجال التأديب (٣) ، إلا أن ضعف الخلافة نتج عنه تحكم جماعات ومراكز قوى منذ عهد المقتدر ، تنظر بريبة وتوجس إلى عمليـة تربية وتأديب الأبناء ، ذلك أن الوزراء وحرم القصر المتحكمين في الدولة لا يـسرهم أن يتلقى الأبناء المهيئون للخلافة علماً ومعرفة نفتح أمامهم سبل الممارسة الـصحيحة للحكم ، فكانوا يرون حجب من يرشح للخلافة لينشأ غراً جاهلاً فينصرف إلـى لهـوه ولذاته ، ويترك لهم أمور الخلافة وبذلك نرى عملية حجب الخلفاء والأسرة العباسـية داخل القصور ، كأنها عملية حجر على الأبناء (٤) .

كما أن الأجواء المحيطة بالأبناء وأولاد الخلفاء لم تكن في مجملها ممـا يخـدم تربيتهم تربية صحيحة مبكرة ، حيث عاش الأبناء منذ أيام المعتضد في جـو متـرف وعيش رغيد يمتلئ بالملذات والمغريات إلى حد الإفراط ، فمما ما ذكره أبو المطهـر الأزدي في وصفه لمجالس السلاطين والخلفاء ، ويذكر في هذه المجالس من المغنيـين

---

(1) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٨٩ .
(2) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٤٥ .
(3) عبد الرحمن السنيدي : التأديب والتثقيف الموجه ، ص٨٦ .
(4) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٣ .

الذين يأخذون بمجامع القلوب إذ يملئون الأذان سروراً ويقدحون في القلوب نوراً [١] ، وكانت المغنيات يغنين في مجالس الخلفاء من وراء ستار ، أما في مجالس السراة وعلية القوم والنوادي فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويطيل أبو المطهر في الإشادة بمغنيات بغداد وزماراتها وطبالاتها ، ويصف إحداهن ممن يضربن العود قائلاً : " تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجري عليها غلاله جري الماء ، ورداء قصب مزين مرصع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفي عنقها سبحه وعقد ، من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجواري يحملن ذيول ثوبها ، وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق تبدو منقبة ، لا يرى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتلقي بحديث كزهر الجنان أو صوت الحمام ، أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر النقاب وتتناول عوداً من الساج منقوشاً بالعاج ، وتجس أوتاره وتفتتح غناء أعذب من تيار الفرات وتفتنه في مجاري الحلق وتكسره في مجاري النفس ، وهناك لا نسمع إلا شهقة عالية ومقلة باكية ، وجيباً مشقوقاً وفؤاداً يطير خفوقاً " [٢] . نستدل من ذلك أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، وأن هذا الازدهار بقي حتى غزو المغول لبغداد ، وبقيت منه أسراب في الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م يذكر أنه رأى السلطان الإلخاني أبا سعيد في سفينة بدجلة يتنزه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، وكما يذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان في أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكره وطبوله ، وكان يتقدم الموكب الحجاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل كانوا يغنون في مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون والغناء بينهم ، حتى ينزل أبو سعيد ، فإذا ركب عادت المجاميع إلى الطرب والغناء [٣] .

ومن الطبيعي أن يولد التشاغل بالشهوات ونيل الملذات إلى إضعاف همة الأبناء وصرفهم عن متابعة تحصيلهم العلمي ، كما أن هذا التشاغل يؤدي إلى تعطيل الذهن

---

(1) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٥-٤٦ .

(2) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٠ .

(3) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢٠٢ .

وبلادة الفكر ، كما كانت من العوامل المؤثرة على أبناء الخلفاء ، البيئة المحيطة بهـم من حاشية ونسوة ومماليك وقد تجلى تأثير تلك الفئة في عهد المستعصم بالله حيث بـدأ الخليفة مسيراً بقرارات تصدرها هذه الفئة ، فقد غلب على الأمر النساء وكان ضعيف الرأي كثير الغفلة عما يجب لتدبير دولته (١) ، ولقد كان لهذه الفئة المكونة مـن نـساء ومماليك دار الخلافة تأثيرها على ثقافة الخليفة وعوائده ، وبوجه عام فإن وجود الإماء والجواري والمماليك بدار الخلافة قد ترك أثرهم على كثير مـن الخلفـاء وأبنـائهم ، خصوصاً أن تلك الفئة المشار إليها تنتمي إلى أصول أجنبية لهـا عوائـدها وخلفيتهـا الحضارية ، وبمعاشرتها والاحتكاك بها اكتسب الأبناء ألواناً من السلوك وأنماطاً مـن العادات الأجنبية ، كنتيجة طبيعية لعيشهم ضمن هذا الوسط وبالمقابل ضعف شأن القيم الدينية ومعطيات الثقافة العربية عندهم .

وإذا انتقلنا من جو دار الخلافة إلى فئة لصيقة بالخلافة هم الوزراء وكتاب الـدواوين نجد أن فريقاً من هؤلاء كان له أثره على الخلفاء وإشغالهم مما لا يؤدي إلى تحسين قدراتهم الذاتية ورفع كفاءتهم في الجانب السياسي ، وأكبر مثال على ذلك هـو دور الـوزير ابـن العلقمي في حياة الخليفة المستعصم بالله . وفي إنهائه لحال بعض الأمراء ، فقد كان يكتـب فـي آخر كلامـه " وهو مدبر " وكان المستعصـم يوافق على كلامـه بمعاقبـة الأمـراء وسجنهم (٢) ، كما أحضر مدرسي المستنصرية إلى دار الوزارة وطلب منهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام المشايخ ، فأجابة جمـال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمـع والطاعة ، وعارضـه عـدد مـن المشايخ ، فتقدم المستعصم إليهم بأن يلتزموا بذكر كلام المشايخ (٣) ، ثم ممالأتـه للمغـول والتواطئ معهم ، وما لعبه من دور خفي في حمايته للشيعة ونصرته لهم في فتنتهم المذهبية التي كانت تنخر في جسم المجتمع البغدادي (٤) .

---

(1) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٢٥٤ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٦٨ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٧٢ .

(4) مصطفى جواد : قضية الوزير ابن العلقمي ، مجلة الرسالة ، العدد (٢٦) ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ ـ/١٩٣٤م ، ص٣٢٥ .

نساء القصر :

إن الخلفاء هم أفراد من المجتمع لهم حياتهم الخاصة ، ولهم زوجه أو زوجات ويقع بينهم وبين زوجاتهم ما يقع عادة بين الأزواج والزوجات من نفور وخصام ، وتقاطع في بعض الأحيان ، إلى غير ذلك فيما يختص بالحياة الداخلية الخاصة ، فنجد أن خلفاء هذه الفترة قد اهتموا بخصوصية حياتهم مع زوجاتهم ، من خلال اهتمامهم ببناء الدور الخاصة للاختلاء بزوجاتهم ، منها الدار التي بناها الخليفة المسترشد بالله لأجل عروسة ابنة السلطان سنجر (١) ، كذلك القصر الذي بناه على مسناة باب الغربة ، وكان قد جمع فيه من الأواني والأثاث والزي من كل طريف ، وكان في غاية الحسن ، كان قد انتقل إليه الخليفة المقتفي لأمر الله بجواريه وحظاياه وكان قد اجتمع فيه بزوجته خاتون وعزموا على المقام فيه ثلاثة أيام إلا أن حريقاً وقع في القصر في تلك الليلة التي اجتمع فيها بخاتون ، وكان الحريق بسبب شمعة كانت بيد إحدى الجواري فعلقت بأطراف الخيش فوقع الحريق ، وسلِم الخليفة وأهله (٢) ، فقد كان نساء القصر يعشن في ترف شديد ، حتى كن يبالغن في زينتهن ، فيقال أن زوجة الخليفة المستضيء كانت تزين نعالها باللآلئ الكبار (٣) ، فما بالنا بما تتخذه وراء ذلك من الحلي والجواهر ، كما جاء أيضاً عن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته في شهر للزراكشه والصاغة والبزازين " تجار الملابس " والجوهريين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم (٤) ، وكان على رأس نساء القصر قهرمانتان ، إحداهما للخليفة والأخرى للسيدة والدته ، وكان يسلم للأولى كبار المعتقلين ليحبسوا عندها مكرمين حبساً هيناً (٥) .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٤٩-٢٥٠ ؛ الكتبي : عيون التواريخ ، ج٢ ، ص١٥٥ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١١٨-١١٩ ؛ الكتبي : عيون التواريخ ، ج١٢ ، ص٤٠٧ .

(3) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٢٣ .

(4) المصدر نفسه ، ص١٨٣ .

(5) متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٢٧٢ .

كما كان هناك أطباء يختصون بنساء القصر والحواظي من أشهرهم كان الطبيب المسيحي أبي البقاء النيلي ويعرف بابن العطار (ت٦٠٨هـ/١٢١١م) [١] .

ففي تلك الحقبة برزت ظاهرة التمازج الحضاري بين العرب وغيرهم من الذين دخلوا الإسلام ، وانتشر الزواج من غير العربيات ، وأدى توجه الخلفاء العباسيين للزواج من الجواري والإماء إلى ترشيح أبنائهم لمنصب الخلافة وذلك يخالف ما جرى عليه العرف أيام الأمويين حيث كانوا لا يستخلفون أبناء الإماء ، وبسبب التطورات الاجتماعية المتسارعة ازداد تدخل نساء الخلفاء وأمهاتهم في الشؤون السياسية ، بشكل لا يمكن إغفاله ، وسيطرن عليه بشكل كبير جداً ، فقد ذكر أنه في عهد المقتدي كانت قهرمانته شمس النهار قوية ، ولما سقط المقتدي مغشياً عليه حلت إزرار ثوبه فوجدته وقد ظهرت عليه إمارات الموت ، ولما حاولت جارية أخرى الصراخ قالت لها شمس النهار : " ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء فإن صحت قتلتك ، وأحضرت الوزير فأعلمته الحال وشرعوا في البيعة لولي العهد المستظهر بالله " [٢] . كما كان للخليفة الناصر حظية هي ست شمائل وأسمها شجر الدر التركية ، كانت مقربة إليه وتكتب خطاً جيداً كما كانت تقرأ له المطالعات الواردة عليه لما ضعف بصره ، وكان يملي عليها الأجوبة ، وشاركها في ذلك خادم اسمه تاج الدين رشيق فصارت المرأة تكتب في الأجوبة ما تريد مرة تصيب ومراراً تخطئ ، ومرة وقف الوزير القمي على مطالعة أجوبة لها وإذا فيها إخلال بين ، ثم استدعى الحكيم صاعد ابن توما وسأله عن ذلك سراً وعرف ما الخليفة عليه من عدم البصر والسهو ، وما تعقده المرأة والخادم من الأجوبة [٣] .

---

(1) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٤١٩ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٨٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٣٦٦ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٨٨ وذكرها ابن العبري في مختصر الدول ، ص٢٤١ ، بأنها ست نسيم : فقال استحضر امرأة من النساء البغداديات تعرف بست نسيم وقربها وكانت تكتب خطاً قريباً من خطه.

المبحث الثاني : دور السلاطين .

دار السلطنة :

هي القصر السلجوقي ومن علامات سيطرة السلطان على أرجاء دولته ، فبعد دخول طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وسقوط دولة بني بويه وقتل الملك الرحيم البويهي آخر ملوكها (١) ، انتقلت قصورهم إلى السلاجقة حيث اتخذها طغرلبك لنفسه مقراً ، لحكمه ينزل فيها عند زيارته بغداد (٢) ، إلا أنه أراد بعد ذلك أن يكون له قصراً سلجوقياً خاصاً ، فأمر بهدم مائة وسبعين من القصور الشاطئية البويهية ، وأخذ أنقاضها وبنى بها قصوراً جديدة في الجانب الغربي من القصور البويهية عرفت بـ دار السلطنة ، أو دار السلطان ومدينة طغرلبك (٣) .

ثم في سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م جمع طغرلبك الصناع لبناء سور حول دار السلطنة ، ادخل فيه قطعة من المخرم ، دار الحريم الطاهري ، ودار الفيل (٤) ، وكان السور واسعاً وبنى عليه أبراجاً (٥) ، هذا وقد تم إعادة بناء دار السلطنة عدة مرات ، وذلك بسبب الحرائق التي تعرضت لها تلك الدار فقد نشب حريق في سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م – ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وكان طغرلبك غائباً عنها وخرب الكثير منها وأعيد بناؤها مرة أخرى (٦) ، ثم في سنة ٤٨٥هـ/١١٩٢م قام السلطان ملكشاه ببناء سوق بجانب دار السلطنة وبنى فيها خانات للباعة ودروب (٧) ، كما أضيف إلى ذلك في سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م جامع السلطان حيث تمت عمارته على يدي بهروز الخادم

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٥٩ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٤ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٩ ، ص٤٠٤ ؛ جورج مقدسي : خطط بغداد ، ص٣٩-٤١ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٤ ؛ جورج مقدسي : خطط بغداد ، ص٢٥ .

(4) دار الفيل من المعالم العمرانية في بغداد . صالح العلي : بغداد ، ص١٨٥ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٩ .

(6) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٩ ، ص١٢٠ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٨١-١٩٠ .

(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٠ .

وكان السلطان ملكشاه قد أمر بعمارته ، وجلب أخشابه من جامع سامراء ، وقد كـان هذا الجامع على دجلة ، وكانت تقام فيه صلاة الجمعة (١) .

وفي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م تمت عمارة الدار التي استجدها بهروز الخادم فـي الدار السلطانية ، وحمل إليها أعيان الدولة الفرش والبسط والآنية واسـتدعى القـراء والفقهاء ، فقرؤوا فيها القرآن ثلاثة أيام (٢) . كما وقع حريق في سنة ٥١٥هـ/١١٢١م في تلك الدار التي استجدها بهروز الخادم وذهب من الفرش والآلات والأواني واللؤلؤ ما يزيد قيمته على ألف ألف دينار ، وكان الغسالون يغسلون التراب فيظفروا بالـذهب والحلي والسبائك ولم يسلم شيء من الدار (٣) ، وعاد السلطان إلى دار المملكة وأمـر ببناء دار جديدة على المسناة (٤) المستجدة ، وأعرض عن الدار التي احترقت وقال : إن أبي لم يتمتع بها ولا امتد بقاؤه بعد انتقاله إليها ، وقد ذهبت أموالنا فلا أريد عمارتها ، يكفينا دار المملكة العتيقة (٥) ، وظلت دار المملكة أو السلطنة السلجوقية ببغداد مقراً لهـا خـلال سيطرة السلاجقة عليها إلى أن أمر الخليفة الناصر بنقضها سنـة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م (٦) .

وكانت دار السلطنة السلجوقية تحتوي على قاعات مخصصة للطعام ، وأخـرى للجلوس ، وعنابر للغلمان والخصيان ألحقت بسراي القصر (٧) ، كما جعـل سـلاطين السلاجقة دور الحريم في مكان خاص بهن في الدار السلجوقية ، كما كـان للـسلطان

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٠ .
(2) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١٨٢ .
(3) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٢٢٣-٢٢٤ .
(4) المسناة المستجدة التي بنيت لعلها التي أشار إليها ابن الجوزي في كلامه في حوادث سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وحيث قال جددت على الزاهر مسناة كان لها أساس قائم وغرس ونخل وشجر ، وسور عليها وذلـك بـأمر السلطان ملكشاه . المنتظم ، ج٩ ، ص٣٨ .
(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٢٤ .
(6) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٠٦ ؛ أحمد صالح العلي : الـوزارة والـدواوين ، المـورد ، ع٤ ، م٨ ، ص٤٧ .
(7) نظام الملك : سياسة نامه ، ص١٥٩-١٦٠ .

السلجوقي غلمانه ومماليكه وخدمه الخاص ، كان لـزوار الحـريم خـصيان ونقبـاء وجواري ومطربات وإماء ومغنيات (١) .

أما الدركاه وهو باب السلطنة السلجوقية فقد اهتم به سلاطين السلاجقة اهتمامـاً كبيراً حيث كان عليها غلمان قائمون على خدمة القصر ، ويعمل بالدركاه ومن يحـق لهم دخولها : أمير الأمراء والأمير السلجوقي ، وغيرهم من الموظفين القائمين علـى خدمة القصر (٢) .

وفي دار السلطنة كانت الخزانة الخاصة وقد كـان هنـاك خزانتـان الخزانـة الأصلية ، وخزانة الإنفاق ، وكانت الخزانة الأصلية تحتوي على المال الكثيـر ، ولا ينفق منها إلا للضرورة القصوى ، أما خزانة الإنفاق فكانت الخزانة التي ينفقون منهـا في حياتهم اليوميـة ، وتوجد في قاعة السلطان ، وتعتبر الخزانة الأصلية هي الرصيد المالي للدولة (٣) ، وكان للخزانة خازن خاص بها ، وكان السلطان يـضع الجـواهر واللآلئ النفيسة بالخزانة الخاصة (٤) .

حياة السلاطين :

تميزت فترة وجود السلاجقة ببغداد بصفة اجتماعية بارزة ، هي عدم الاستقرار وثبات الأوضاع على حال ، لذلك ظلت حياة السلطان السلجوقي الخاصة داخل قصره شبه مجهولة ، حيث وجدنا أمهات الكتب التي تناولت عصر السلاجقة ضنينة في ذلك ، إلا أننا ومن خلال النزر البسيط الذي استطعنا جمعه من المعلومات نحـاول أن نصف ولو بصورة مبسطة حياة السلاطين ورسومهم داخل القصر السلطاني ، فقـد أضـفى سلاطين السلاجقة الهيبة على دار السلطنة السلجوقية من خلال من يعملون في خدمـة السلطان داخل قصره ، فقد كان يعمل في خدمة السلطان بعض المـوظفين الـذين تختلـف مهامهـم والذين من خلالهم نصل إلى كيفية تحرك السلطان وتعاملاته داخل القصر وهم :

---

(1) البنداري : آل سلجوق ، ص١٨٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٤٠ .
(2) نظام الملك : سياسة نامه ، ص٢٩ .
(3) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٢٤ ؛ نظام الملك : سياسة نامة ، ص٩٣ .
(4) ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص٩٨ .

البروناه : وهي كلمة فارسية معناها الحاجب اعتمد السلطان على الحاجب لينظم الاتصال بينه وبين عامة الناس ، كما كان للبروناه نفوذٌ كبير حتى أصبح يستشار في الأمور العسكرية ويشرف على احتفالات القصر ، وبلغ نفوذ بعض الحجاب ما جعلهم يتدخلون في شؤون السلطان والوقوف في وجه السلطان نفسه (١) .

الوكيلدار : هو أخص من منزلة الحاجب لأنه ملتصق بالسلطان ، وعليه أن يختار الوقت المناسب لإبلاغه بالأمور الهامة أو إقناعه باتخاذ المواقف ، حتى أصبح ينوب عن السلطان في غيابه ، وكان يقيم في القصر السلجوقي ، ليعرف أخلاقه ومزاجه ، ويقف على ما يرضيه وما يغضبه حتى لا يحدثه في أمر دون اختيار الوقت المناسب (٢) .

الأتابك : وهي كلمة تركية مشتقة من لفظين هما أتا بمعنى آب ، وبك بمعنى شيخ أو نبيل ، وكان يعهد إليه تربية أولاد الأمراء السلاجقة وكان يسمى بمربي الأمير (٣) .

كما كان يتولى مجلس السلطان **أمير المجلس** ويرافق السلطان حتى أثناء حملاته العسكرية ، إضافة إلى ترتيب مجلس السلطان السلجوقي أينما كان (٤) .

الوكيل الخاص يتولى الإشراف على تموين السلطان وتمويل مطبخه ، واصطبله ، وقصوره الخاصة ، وولده وحاشيته ، وخدمه ، وكان عليه أن يمثل شهرياً أو يومياً في أي وقت أمام السلطان ليعرض أعماله على السلطان (٥) ، أما **الأستاذ دار** فإنه يشرف على كل ما يتعلق ببيوت السلطان وتوفير الطعام والشراب

---

(1) الراوندي : راحة الصدور ، ص٣٣٧ .

(2) العمري : ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى القاضي : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ، ص٦٥ ؛ البنداري : آل سلجوق ، ص٩١ .

(3) شبارو : السلاطين في المشرق ، ص٤٥ .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢١ ، ج٥ ، ص٤٦٨ .

(5) نظام الملك : سياسة نامة ، ص١٢٥ .

لها [١] ، يساعده في ذلك **الجاشنكير** الذي مهمته تذوق الطعام والشراب قبل الـسلطان حفاظاً على حياته حتى لا يدس له السم [٢] . كما كان يتولى **الجامه دار أو الخازنـدار** خزانة الملابس السلطانية الخاصة بالسلطان ، فقد كانت توضع في دار طراز خاصـة بها ، وكان أبو الغنائم تاج الملك الشيرازي ممن تولى هذه الوظيفة للسلطان ملكشاه [٣] .

وكان السلطان يرتدي رداءاً خاصاً عند لقاء الناس هو الوزاري والبيـاض [٤] ، أما **الغلمان** فقد كانت لهم قاعدة متبعة في التدرج في رفع درجتهم على قـدر خـدمتهم وفضلهم ولياقتهم ، بحيث أنهم كانوا إذا ابتاعوا غلاماً يستخدم أولاً في الركـاب وهـو راجل يلبس القباء الزندنيجي ولم يكن يؤذن لهذا الغلام في ركوب الخيل ، فإذا انتهـت السنة أخبر عريف الغلمان الحاجب بذلك ليعطى قباء وجواداً تركياً له سرج من جلـد ولجام من معدن ثم يخدم سنة وبعدها يقلد سيفاً ، وفي السنة الرابعة قوساً وكنانة ، وفي السنة الخامسة يعطى سرجاً أجمل ولجاماً ويخلع عليه القباء الـداري ، وفـي الـسنة السادسة يأمر بالسقاية مع صاحب الخيل ، وفي السنة السابعة ، يلبس لبـاس الـشرف وفي السنة الثامنة يعطى خيمة ذات ستة وعشرون وتد ، ويجعل في خيله ثلاثة غلمان ممن اشتروهم حديثـاً ويلقب بعريف الغلمان ويرتدي قلنسوة من لبـد أسـود موشـى بالفضة ، ثم ما يزالون يزيدون في وجاهته وترفيعه وخيله حتى يصبح عريف خيل ولا يعقدوا له لواء الإمارة إلا إذا بلغ الخامسة والثلاثين [٥] .

والمختارون : يسمون في الغالب الخاصكية أو الحرس الخاص وهـم حـرس يختارون من الغلمان للمواكب وملازمة السلطان أوقات جلوسـه ، ومقامـه مـن أول النهار إلى آخره ، كما يوجد في القصر مائتا رجل يختارون حسب المظهـر الحـسن

---

(1) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلميـة ، بيـروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٩٦ .
(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢١ ، ج٥ ، ص٤٢٩-٤٣٢ .
(3) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٠٧ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٣١ .
(4) البنداري : آل سلجوق ، ص٤٨-٤٩ ؛ الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص٢٢-٢٣ ، والوزاري نـوع من الثياب طول كل ثوب منه إذا كان تام خمسون ذراعاً في عرض شبرين ونصف ويـصنع مـن الحريـر الأبيض والكتان . الدمشقي : محاسن التجارة ، ص٤٦ .
(5) نظام الملك : سياسة نامه ، ص١٤٠-١٤١ .

والطول الفارع وذلك لملازمة السلطان في حله وترحاله ، ويظهرون بألبسة جميلة ومعهم السلاح [١] .

وكان للسلطان **ندماء ومضحكون** يأخذهم معه في مجالسه ، ومجالس تنزهه وأنسه ، وصيده ولعبه لإيناس السلطان ، ويفضل أن يكون النديم من الأطباء أو المنجمين ، أو من ذوي التجارب والأسفار وممن خدموا العظماء والأكابر ، وكان لكل نديم مرتبة ومقام ، كما كان لندماء السلطان رواتب مخصصة لمعيشتهم [٢] ، أما **الخوان سالار** هو مقدم الخوان وكبير رجال المطبخ السلطاني وهو مركب من لفظين خوان بمعنى ما يؤكل عليه ، وسالار أي مقدم [٣] ، فقد كان الخوان السلطاني ينصب في الصباح الباكر ، حتى يصيب منه اللاذين يقبلون على الخدمة مع الصباح الباكر شيئاً منه ، وإذا لم يرغب أحد الخواص في الطعام في ذلك الوقت يقدم له الطعام حين يشتهي ، وكان السلطان يتكلف في نصب الخوان فيحضر ألوان الطعام وأطيبها ، كما كان يأمر بكل ما هو أفضل ، حتى إذا خرج للنزهة والصيد فإنه يهيئ له الطعام ويوضع في الصحراء ، وكان من الكثرة بحيث يثير عجب الأمراء والخواص أثناء تناولهم للطعام ، فقد كان من رسوم الملك لدى السلاجقة أن يوسعوا في الطعام على عمالهم في المطبخ [٤] . فقد كان ألب أرسلان يطبخ في مطبخه خمسون رأساً من الغنم للفقراء ، كما خصص راتباً من الخزينة للسماط اليومي [٥] .

الشراب دار وهو الساقي ويعرف بساقي السلطان فكانت مهمته الإشراف على مد الأسمطه التي تقام في المواسم والأعياد ، وتقديم المشروبات والماء في أثناء الطعام وبعده ، وعند استقبال سفراء الملوك [٦] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص١٣١-١٣٢ .
(2) نظام الملك : سياسة نامه ، ص١٢٦-١٢٨ .
(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٤٢ .
(4) نظام الملك : سياسة نامه ، ص١٦٥ .
(5) البنداري : آل سلجوق ، ص٤٨-٤٩ .
(6) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٢٦-٤٤٠ .

الطشت دار هو صاحب الطشت المسئول عن صب ماء الغسيل للسلطان ، وكان من الطبيعي أن السلطان بحاجة إلى من يساعده في صب الماء عند قيامه صباحاً ، وقبل وبعد وجبات الطعام ، وعند دخول الحمام ، وكان لابد لمن يتولى هذه المهمة أن يكون من المقربين والمخلصين جداً للسلطان وبلغت أهمية الطشت دار أن السلطان يستشيره في بعض المسائل الخاصة ، فكان لابد أن يكون شخصاً أميناً ومخلصاً [١] .

وكان **المجفدار** هو متولي خدمة المحفة السلطانية [٢] .

أما **البشمقدار** كان يحمل نعل السلطان أو الأمير ، وهو مركب من لفظين أحداهما تركية البشمق وتعني النعل ، ودار بمعنى ممسك [٣] ، أما مهمة الإشراف على الخيول والاصطبلات كان يتولاها قائد الاصطبلات وهو **آخو سالار** وقد كان يمنح قلنسوة ذات ركنين ، وهي مستمدة من دواوين الغزنويين ، وكان يساعده **المهمرد – ماه الكبير** وكان يتولى هذا حفظ قماش الجمال أو قماش الاصطبل والسقائين ، كما يساعده غلام يتولى خدمة الخيل [٤] .

وكان السلطان السلجوقي مولعاً بالصيد ، وكانت له طيور خاصة معدة للصيد يحملها **الباز دار** فكان يحمل الطيور الجوارح وسمي بالباز نسبة لأحد أنواع الطيور الجوارح ، وكان يحمل للسلطان طيوره التي يصطاد بها ، فقد كان السلطان ملكشاه محباً للصيد وكان له كتاب في الصيد اسمه " شكار نامه " يروي فيه رحلاته للصيد فمما يذكر أنه استطاع أن يصيد سبعين غزالاً وكان من عادته أن يتصدق على الفقراء والدراويش بدينار لقاء كل صيد يصيده ، كما بنى الأبراج من حوافر الغزلان وحمر

---

(1) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص٤٤٠ .

(2) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص٤٤١ .

(3) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص٤٣١ .

(4) البيهقي : محمد بن الحسين أبو الفضل : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م ، ص٦٣٢-٦٦٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٣٣-٤٤٢ .

الوحش في كل مصيده من مصائده في العراق [1] ، ويعاون الباز دار **الجوندار** الـذي يقوم على خدمة طيور الصيد من الكراكي وغيرها في موضع تعليم الجوارح [2] .

وكان لزوجة السلطان السلجوقي وزير خاص يدير شؤونها الخاصة ، كما كـان يعهد إليه بتولي شؤون الملابس السلطانية ، وبذلك يكون مختصاً بالـشؤون الخاصـة بالسلطان إلى جانب إدارته لشؤون زوجة السلطان [3] ، هذا وقد اتبع سلاطين السلاجقة ووزراؤهم الخلفاء العباسيين في كثير من المظاهر الاجتماعية الخاصة بالخلفـاء فـي قصورهم خاصة فيما يتعلق بتربيتهم لأبنائهم واختيار المؤدبين لهم ، فقد كان انشروان بن خالد بن محمد وزيراً للسلطان محمود بن ملكشاه ثم استوزره الخليفة المـسترشد ، فكان حريصاً على أن يسمع أولاده مسند الإمام أحمد فأحضر إلى داره أبا القاسم بـن الحصن ليسمع أولاده منه [4] ، كما كان الحسن بن سلمان بـن عبـد الله الـشهرواني (ت٥٢٥هـ/١١٣٠م) يؤدب أولاد الوزير نظام الملك [5] ، إلا أن حياة الترف قد طغت كثيراً على أبناء السلاجقة ، فكان من المظاهر المعيشية البارزة في حيـاة الـسلاطين انغماسهم في الترف فقد كانت تعقد في قصورهم مجالس الغناء ، كمـا كانـت القيـان والنساء يلبسن الثياب الملونات في مجالسهم مما أدى إلى تفشي المجون والاسـتهتار ، فقد كانوا يسرفون في تقديم الطعام والتفنن في ألوانه ، والإكثار من الورود والرياحين لتضفي جواً من البهجة على المكان [6] ، إضافة إلى ولعهم بالصيد فقد كانوا مـولعين بالرماية ولعب السيف والترس وسباقات الخيل ولعب الشطرنج [7] .

---

(1) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٠٥-٢٠٦ .
(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٤١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص١١٣ .
(3) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٠٧ .
(4) الكتبي : عيون التواريخ ، ج١٢ ، ص٣٤٠ .
(5) المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص٣٤٠ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٧٢ ؛ الراوندي : راحة الصدور ، ص٥٧٨ .
(7) الراوندي : راحة الصدور ، ص٥٩٣-٥٩٧ .

المبحث الثالث : منازل الأمراء والوزراء والأعيان .

لم يقتصر تشييد القصور الفخمة على الخلفاء العباسـيين بـل حـذا الأمـراء والوزراء وكبار رجال الدولة حذوهم في ذلك ، في تزيين القصور والـدور ، وبنـاء القاعات ذات القباب والأروقة والبساتين ، فقد كان للوزير دار يقيم فيها في دار الخلافة ليكون قريباً من الخليفة ويتقلى أوامره ، وكانت دار الـوزير تـسمى بـدار الـوزارة باعتبارها مقر الوزارة ، ذلك أن المعلومات المتـوفرة فـي المـصادر تـذكر أن دار الوزارة هي مقر الوزارة ويسكنها الوزراء خلال شَغْلِهم ذلك المنصب ، وإن ملكيتهـا تعود إلى الدولة ، كدار ابن الفرات التي يذكرها الصابئ فيقول : " إن ابن الفرات فـي وزارته الثانية سنة ٣١١هـ/٩٢٣م اشتهى أن يجمع حرمه وبناته وإخوتـه وأصـاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان من الدار الكبرى ، المعروفة بدار سـليمان بـن وهب فتقدم بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج إليه في تبيضها وإعدادها فبلغت النفقة خمسيـن ألف دينار وجلس وهم فيها يوماً واحداً ولم يعد بعد ذلك إلى الجلوس معهـم فيها " [١] .

وفي هذه الفترة كانت منازل الأمراء والوزراء تقع في محلة باب الطاق مما يلي نهر دجلة من الجهة اليمنى عند سوق يحيى ، فإنها كانت تمتد من عند الجـسر إلـى أوائل الزاهر وهو البستان [٢] ، وهو ما ذكره أبو الوفاء بن عقيل يقول : " محلتي هي واحدة من عشر محال كل محلة كبلد من بلاد الشام وهي المعروفة " بباب الطاق " أما شوارعها فشارع مما يلي دجلة من أحد جانبيه قصور على دجلة ، طراز ممتد من عند الجسر إلى أوائل الزاهر " وهو بستان الملك نحو مائتي جريب وجانبه الآخر مـساجد أرباب القصور ومساكن غلمانهم ، وفي خلال ذلك اصطبلاتهم ثم يليه من يمنته عنـد الجسر سوق يحيى الجامعة بين دور الوزراء والأمراء مما يلي الـشط كـدار شـادي

---

(1) الصابئ : الوزراء ، ص١٩٩ .

(2) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٤١-٤٢ .

والربيب وابن الأوحد وقصر الوافي الذي كـان عليق دوابـه كـل يـوم ألـف مخـلاة " [١] .

فنجد أن منازل الأمراء والوزراء وأعيان الناس ببغداد كانت تتألف من قـصور كثيرة شيدت على طراز واحد هو طراز " الحيري والكّمين " وكانت تنقسم إلى ثلاثـة أقسام فمما يلي الأبواب من داخل القصر البهو ومقدم الدار ، وأعلاها بناء يقف شامخاً تزينه الشرفات ، ثم مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجـالس الـسلام الخاصـة بالضيافة ، ويحيط بها حدائق غناء إلى جانب القباب والأروقة [٢] . ومن أشهر الـدور التي شيدت على طراز الحيرى والكمين في هذه الفترة كانت دار أبي القاسم علي بـن أفلح [٣] كان شاعراً عاش في أيام المسترشد بالله ، وكان قد شيد داره هذه بعد أن غرم عليها ألف ألف دينار وكان طولها ستين ذراعاً في أربعين ، وقـد موهـت بالـذهب وعملت فيها الصور ، وفيها الحمام العجيب فيه بيت مستراح فيه أداة سمي البثيون [٤] إن حركـه الإنسـان يمينـاً خـرج المـاء حـاراً وإن حركـه شمـالاً خـرج بـارداً [٥] .

ومـن خـلال ما ذكـره المؤرخـون فـإن منـازل الأمـراء والـوزراء وأهـل الثـراء من النـاس ، كانت تشتمل على طابقين مبنية بالجص والآجر الـذي كان شائع الاستعمال في بناء الدور ببغداد [٦] ، أما سقوف الدار فقد كان أكثرهـا مـن الساج المذهب ، كما كانت تزين الدورالرواشن [٧] التي تشرف علـى خـارج الـدار

(1) المصدر نفسه ، ص٤١-٤٢ .

(2) وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص٣٧ .

(3) انظر ترجمته : ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٨٠-٨٤ .

(4) البثيون هو البزال الذي يعمل من أنبوبة تعبأ وتركب في الثقب أنبوبة أخرى منتصبة تدار فيه للفـتح والـسد والأنبوبة المركبة في الإناء تسمى الأنثى والأنبوبة المركبة في ثقب الأنبوبة تسمى الـذكر ، والكلمـة مـن اليونانية . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص١٤٤ . شبيه بالحنفية أو صنبور الماء في الوقت الحالي .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٨٠ .

(6) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٤٢ ؛ الدخيل : سليمان الدخيل : الفوز بالمراد في تاريخ بغداد ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م ، ص٨٣ .

(7) الرواشن منظرة تشرف عادة على خارج البيت وتعرف اليوم بالشرفة وهو الكوه ، كلمة فارسية .

والرجاشات [١] ، وبما أن تلك القصور شاطئية على شاطئ دجلة فإن أصحابها حرصوا على امتلاك السميريات والمـراكب المسرجة بيـن يدي رواشينهـا ، إضافـة إلـى الخيطية والزبزب لركوب الشط [٢] .

الأحوال المعيشية للأمراء :

مـن الملاحظ أن أمراء هذه الحقبة تمتعوا بحياة مترفة ، دلت عليها ثـرواتهم ووجاهتهم في المجتمع ، فقـد كان قطب الدين قايماز المستنجدي ، أرمنياً من أكـابر الأمراء ومتقدميهم ، حيث عمد إلى أكابر أمراء الدولة فزوجهم ببناته [٣] ، ومما ذكـر عن جاريته ملكشاه بن عبد الله التركية كان لها من الجـواري والخـدم ، وأوانـي الذهـب والفضـة ، والجواهـر النفيسـة والثيـاب الفاخـرة شـيء كثيـر [٤] . فكانـت معيشـة الأمراء تتـراوح مـا بيـن الألـف دينـار إلـى الـستـة آلاف دينـار ، عدا الإقطاعـات التـي قـد يصـل دخلهـا إلـى مائـة ألـف دينـار فـي السنـة .

ويعتبـر نظـام الملـك هـو أول مـن ابتكـر نظـام الإقطـاع ، فـي منتصـف القـرن الخامـس الهجـري / الحادي عـشر المـيلادي ، فقـد رأى أن الأموال الباهظة التي تصرف كمرتبات لموظفي الدولة ، قد أرهقـت الإدارة الماليـة

---

(1) الرجاشية بالجيم من زينة الأبنية وتقويتها وبديع محسناتها . ويقال أنها من أصل آرمي مبني ومعنى نسبه إلى مدينة أرجيش . انظر : الزبيدي : تاج العروس ، ج١٧ ، ص٢١١ ؛ ابن الجوزي : مناقب بغداد ، حاشـية رقم٣ ، ص٤٣ .

(2) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٤٣ ، والسمريات ، والخيطية ، الزبزب : جميعها ضـرب مـن الـسفن . المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٣٢ ؛ الزبيدي : تاج العروس ، ج٣ ، ص٨ ، ج١٢ ، ص٨٤ .

(3) ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص٣٤٧ .

(4) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١١٢ ، إلا أنه انتهى بها الحال إلى أن تطلب ما تقتات به ، وقـد ماتت ، ولم يكن لها ما تكفن به ولا وجد تحتها حصير ، فأحضروا لها خرقة من الوقف العام وكفنـت بهـا . المصدر نفسه ، ج٩ ، ص١١٢ . وهذا يوضح لنا أن كثرة البذخ والإسراف لا تحمد عقباه .

للدولة ، وذلك لاتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليهـا [1] وأرادوا إبـدال ذلـك بالإقطاعات .

يذكر لنا البنداري فيقول : " وفي وزارة نظام الملك تولى الوزارة والملـك قـد اختل نظامه ، والدين قد تبدل في أواخر دولة الديلم وأوائـل دولـة التـرك ، وعمـر الولايات وولي العمارات ، وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد وصرفها على الأجناد ، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع ، فرأى نظام الملك أن الأمـوال تحـصل مـن البـلاد لاختلافهـا ، ولا يصـح منهـا ارتفـاع لاعتلالهـا ، ففرقهـا علـى الأجنـاد إقطاعاً وجعلهـا لهـم حاصـلاً وارتفاعـاً ، فتوفـرت دواعيهـم علـى عمارتهـا " [2] .

والجدير بالذكر أن نظام الإقطاع الذي أنشأه نظام الملك هو الإقطاع الحربـي ، وهو الذي يعطي الحق للمقطع باستغلال الأرض والاستفادة من خراجها دون ملكيتها ، وتبقى رقبتها ملكاً للدولة ، ويمنح الإقطاع لفترات محدودة قد يسترد قبل نهاية الفترة إذا أراد الخليفة أو السلطان ، وبذلك يحقق أهدافه المرجوة في التعويض عن الراتب النقدي للمدنيين والعسكريين ، ويضمن عدم استغلال أصحاب الإقطاع للناس ، وهذا ما يتضح لنا من خلال قول نظام الملك : " ينبغي لأهل الإقطاع أن يعلموا أن لـيس لهـم علـى الرعية من أمر إلا أن يجبوا منهم المال الحق الذي عهدت إليهم جبايته بالحسنى ، فإذا جبوه وجب أن يأمن الناس على أنفسهم ونسائهم وأموالهم وعيالهم ، ويطمئنـوا علـى أسبابهم وضياعهم ، وما لأهل الإقطاع عليهم بعد ذلك من سبيل ، وكل من سار مـن

(1) المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار التحريـر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٢٧٠م ، ج١ ، ص ١٩ ؛ العسيري : الحيـاة العلميـة فـي العـراق ، ص١١ ؛ عبد الله سعيد الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القـرن الـسابع الهجري ، جامعة أم القرى ، مكة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص٢٩٦ .

(2) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٦٠ .

المقطعين في الناس بغير ذلك وجب أن تغل يداه وأن يسترد منه إقطاعه وأن يؤخذ على ذلك حتى يعتبر به الآخرون " [١] .

واستمر منح الأمراء ، والوزراء رواتبهم عن طريق الهبات والإقطاعات كنظام معمول به في الخلافة العباسية خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وما أعقبتها من الدول الإسلامية كالدولة الأيوبية والمملوكية [٢] . فقد كانت المخصصات المالية لعز الدين قراجه المستنصري ٦٤٥هـ/١٢٤٧م ألف دينار وعدته خمسون فارس [٣] ، وكذلك كانت معيشة أبي المظفر سنجر بن عبد الله الناصري ألف دينار وعدته خمسون فارس [٤] ، كما وصلت معيشة الأمراء إلى خمسة آلاف دينار ، فقطب الدين أبو المظفر سنجر بن عبد الله البكلكي كانت معيشته خمسة آلاف دينار[٥].

إضافة إلى ذلك يمنح الأمراء الهبات والنثريات والهدايا في مختلف المناسبات ، والتي زادت من ثرائهم ، فقد أعطى الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي في ليلة دخوله بزوجته ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف دينار من الخليفة المستنصر بالله [٦] ، كذلك الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك أهدي إليه في ليلة زفافه من الأواني المذهبة والفضية ، والثياب والجواهر ما مقداره ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف دينار ، كما أهدى إليه من رقيق الترك والخدم الحبوش ، والخيل وآلة الحرب ، وغير ذلك من جميع الزعماء وأرباب الدولة [٧] .

---

(1) نظام الملك : سياسة نامة ، ص٦١ ، وقد قدم مريزن عسيري عرضاً عن الإقطاع الحربي في العصر السلجوقي ، والتدابير الوقائية التي اتخذها نظام الملك وتتضمن حقوق كل أصحاب الإقطاع والمزارعين ، في بحثه الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، عند حديثه عن الأوضاع الاقتصادية ، ص٩٨-١٠٩.

(2) لمزيد من المعلومات انظر: عبد الله بن سعيد الغامدي : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، ص٢٩٦ .

(3) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٨١ .

(4) المصدر نفسه ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٤ .

(5) المصدر نفسه ، ج٤ ، ق٤ ، ص٦٤٥ .

(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٠٥ .

(7) المصدر نفسه ، ص٨٦ .

فكانـت الهبات والهدايا التي تمنح للأمراء تعد مصدراً آخـراً مـن مـصادر ثرواتهم ، حتى جعلوا لها وكلاء خاصين لإدارتها ، فإقبال الشرابي بعد أربع سـنوات من تقريب الخليفة المستنصر له وجعله شرابياً عنده كثرت أمواله حتى بلغ وكلاؤه ستة وكلاء ، ومـن جملة أملاكـه دور ودواوين لـه ببغداد والحله ، حتى أنشأ المـدارس في واسط ومكـة وبغداد كما كان أيضاً يمنح الهبات والهدايا للأمـراء تعـد بـآلاف الدنانير [1].

الأحوال المعيشية للوزراء :

إن الأحوال المعيشية دائماً تختلف باختلاف الطبقـات الاجتماعيـة ، فنجـد أن أحوال الطبقة الخاصة تختلف عن أحوال الطبقة العامـة ، مـن الناحيـة الاقتـصادية والاجتماعية ، فحين ننظر للوزراء من الناحية الاجتماعية نرى أنهم في عـداد الفئـة الحاكمة وهي التي تشكل الطبقة الخاصة بالنسبة للمجتمع العباسي ، فقد كان للـوزراء مكانتهم الخاصة بين رجال الدولة ، وبالتالي منحوا امتيازات خاصة تميزهم عن بقيـة موظفي الدولة ، ومن تلك الامتيازات التي منحت للوزراء جامكية شهرية ، ففي أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، أجري للوزير مرتب ثابت قدره خمـسة آلاف دينار ، كما كان يعطى لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار كـل شـهر وهـو مبلـغ يسـاوي مرتـب وزيـر [2] ، ثـم ازداد بعـد ذلـك فقـدره الصابئ بسبعـة آلاف دينـار [3] .

وقـد وصـف المـاوردي الوزراء بقوله : " بأنهم ساسـة الأعمـال وحـازة الأموال " [4] إلا أن أغلب من تولى الوزارة إبان القرن السادس الهجري الثاني عـشر الميلادي إن لم يكن جميعهم من الأثرياء سـواء وزراء الخليفـة أو وزراء الـسلطان السلجوقي ، فلم تكن الجامكية دافعاً لهم للتطلع للوزارة ، فقد كان الوزير ظهير الـدين

(1) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٦١ .
(2) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص١٦٨ .
(3) الصابئ : الوزراء ، ص٣٧٨ .
(4) الماوردي : أدب الوزير ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م ، ص٩ .

أبو شجاع الروذراوري حين تولى الوزارة للمقتدي سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م يمتلك مبلغاً مقداره ستمائة ألف دينار ، وكان ما يصرفه على وجوه البر والصدقات ما قدره مائة وعشرون ألف دينار [١] .

وكان نظام الملك وهو أشهر وزراء السلاجقة ، ينفق كل سنة على الفقهاء والقراء والمتصوفة ، ستمائة ألف دينار ، وقيل سبعمائة ألف [٢] ، وكذلك أولاده الذين تعاقبوا على الوزارة كانوا من الأثرياء ، وكان حرصهم على الوزارة يفوق حرصهم على الحصول على جامكية شهرية من خزينة الدولة ، فيذكر لنا الراوندي : " أن فخر الملك بن نظام الملك قدم للسلطان بركياروق عند توليه الوزارة هدية عظيمة من التحف والآلات والخيام والطبول والأسلحة ، والأدوات المرصعة بالجواهر والخيول العربية الفارهة والصقور المدربة على الصيد ، والدروع الجميلة " [٣] وكذلك كان عز الملك أبو العز طاهر بن أحمد البروجردي [٤] ، وزير السلطان مسعود بن محمد ملكشاه ، كان ثرياً حتى قيل أنه يجري في ملكه أربع مائة قرية [٥] ، ولما وزر ظهير الدين ابن العطار [٦] للخليفة المستضئ

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٩٠ ؛ ابن الطقطقي : الفخري ، ص٢٩٧ .

(2) العروضي : جهار مقاله ، ص٨٣ ؛ الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص٦٧ .

(3) الراوندي : راحة الصدور ، ص٢٢٠ .

(4) عز الملك أبو العز طاهر بن أحمد بن سعيد البروجردي الوزير كان شجاعاً متصرفاً من كبار الأمراء ، وأرتفع قدره وعلا أمره إلى أن وزر للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، كان وزيراً للأمير أبي المظفر الأحمد يلي صاحب أذربيجان ، كان سمح الوجه حسن الأخلاق ، تغيرت نية السلطان مسعود عليه فسلمه إلى مؤيد الدين المرزبان ابن عبد الله الأصفهاني ، فأستصفى أمواله ومات سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م . ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص١٧٣.

(5) المصدر نفسه ، ج٤ ، ق١ ، ص١٧٣ .

(6) ظهير الدين أبي بكر منصور بن القاسم نصر بن العطاء ، كان تاجراً ثم وزر للمستضئ ، وكان متجبراً على الرعية ، فكانت العامة تبغضه ، وهو آخر وزراء المستضئ ، وبعد وفاة المستضئ أقره الناصر في الوزارة أياماً ، ثم نكبه وقبض عليه وحبسه في دار الخلافة وبعد أيام خرج ميتاً وسلم إلى أخته لتجهزه وتدفنه ، فغسلته وأخرجته في تابوت على رأس حمال ، فتعلق العوام بنعشه ورموا به وأخرج من أكفانه وجروه برجله في الأسواق طوال النهار حتى أخذه مشيخة البلدة وسلمه إلى أهله فدفن . ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٢١ ، ٣٢٣ ؛ ابن الدبيثي : المختصر المحتاج إليه ، ص٣٤٢-٣٤٣ .

كان تاجراً قبل توليه الوزارة وذكر أنه أنفق على المستضئ فاستوزره [1] .

وقد تأثر خلفاء بني العباس بسلاطين السلاجقة في كثير من رسومهم خاصة حينما منحوا وزرائهم رواتبهم عن طريق الهبات والاقطاعات [2] .

وكان الوزراء يوكلون إدارة إقطاعاتهم إلى وكلاء عنهم في إدارتها ، فكان أقصى ما حصل عليه الوزير العباسي خلال العصر السلجوقي ألف دينار سنوياً [3] ، وخلال هذه الحقبة كانت مشاهرة الوزير ابن هبيرة في كل سنة ألف دينار [4] .

وقد تعرض الكثير من مؤرخي هذه الحقبة إلى ذكر الأموال التي كان يصادرها الخلفاء ويستولون عليها بعد نكب وزرائهم وعزلهم . فمما ذكر عن الخليفة الناصر أن وقته كان مصروفاً إلى تدبير أمور الدولة ، وإلى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الأموال ، ويقال عنه أنه ملأ بركة من الذهب فرآها يوماً ، وقد بقي شيء يسير وتفيض فقال : ترى أعيش حتى أملأها ! فمات قبل ذلك [5] .

فكان غالباً ما يكون سبب عزل الوزراء هو الظلم ، ومصادرة أموال الناس ، ونهب المنازل ، والتعسف في جباية الضرائب ، فنجد أنهم كانوا يعاملون بما عاملوا به الناس بالمصادرة ونهب دورهم ، ففي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م قبض الخليفة المستضئ على وزيره عضد الدين أبي الفرج ابن رئيس الرؤساء وعزل واستصفي ، وقد كان ابنه كمال الدين سبب نكبته فقد كان ظالماً جباراً ، فدخل الأتراك والجند إلى داره

---

(1) ابن الطقطقي : الفخري ، ص٣٢١ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٩٠٩ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٩٠ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٥٠ .

(4) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٣١٢ .

(5) المصدر نفسه ، ص٣٢٢ .

فأطبق داوته [1] ، واستولى على جميع ما في الدار من المال والثياب والمتاع والخدم ، والمماليك والخيـل ، وكسرت صناديـق الأبنوس والعـاج وأخذ ما كـان بهـا مـن أموال [2] .

---

(1) فقد كان عنوان عزل الوزراء هو أن تطبق داواة الوزير .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، الحاشية ص٢٣٨ ؛ ابن الطقطقـي : الفخـري ، ص٣٢٠ ؛ الـذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص٧١ ؛ ابن الأثير ، ج٩ ، ص٢٤٩ .

المبحث الرابع : دور العامة .

إن غالبية العامة ببغداد لم يتوفر لهم ما توفر للطبقة الخاصة المترفة ، من رفاهية في العيش وسعة الدور وفخامة بنائها ، إلى غير ذلك من مظاهر الرفاهية والراحة إلا أن أغلب تلك الدور التي يسكنها عامة الناس ، كانت دوراً بسيطة البناء مجهزة بالمرافق المنزلية ، والمرافق الصحية ، فكانت تلك الدور إما ملك يسكنها مالكها أو مؤجرة لغيره ، ولم يكن إيجار البيوت ميسراً لفقراء العامة ، فقد يشترك عدة أفراد في إيجار دار وسكناها [(١)] ، ومنهم من بنى أكواخاً للسكن خاصة المعدمين والزهاد من الصوفية ومن لا يستطيع شراء داراً أو إيجارها [(٢)] .

وكانت دور العامة ببغداد تبنى على مثال واحد ، فتبنى في الغالب من طابق واحد ، أو طابقين [(٣)] ، لها سطح مكتمل الخدمة والتجهيز لأنه من الأمور المهمة لسكان بغداد خاصة في الصيف حيث اعتاد الناس النوم فوقه ليلاً وكلما كان السطح أكثر ارتفاعاً . كان ذلك أفضل لأنه يكون أكثر عرضة للهواء وبذلك يكون أبرد [(٤)] ، أما داخل الدار فإنه أول ما يلي الداخل للدار بعد الباب الخارجي دهليز مسقوف يصل باب الدار بالصحن الذي يتوسط الدار فمن الناس من يهتم بدهليز الدار ومنهم من لا يعطيه أهمية فقد يجعل فيه كنيفاً " مستراحاً " [(٥)] وفي نهاية الدهليز في بعض الدور هناك باب للصحن سمي باب الصحن ، وتكون غرف الدار مشرفة على الصحن وهي غرف مربعة متجاورات للسكن وللمرافق المنزلية ، ولم يكن هناك عدد محدد للغرف في دور بغداد فقد كان عددها بحسب الحالة المالية لصاحب الدار ، كما كان في معظم الدور أفنية صغيرة ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً [(٦)] .

---

(1) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص٥١ ؛ ذم الهوى ، ص٤٥٣ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٨٩ .
(3) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص١٠ ؛ ذم الهوى ، ص١٣٢ .
(4) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص١٤٨-٧٢٤ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٥٧ .
(5) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٣ ، ص٣٦٩ .
(6) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص١٣٤ ؛ ابن الجوزي : الأذكياء ، ص٨٢ ؛ صفة الصفوة ، ج٢ ، ص٢٨٢ .

كما كانت بيوت ميسوري الحال من الناس كالتجار وغيرهم مقسمة في الغالـب إلى ثلاثة أقسام قسم للاستقبال وقسم للحرم ، وقسم للخدم [(١)] ، كـذلك كانـت الـدور تحتوي على الكنيف والمستراح ، وقد كان الأغنياء مـن النـاس لهـم فـي دورهـم مستراحات خاصة لا يستعملها غيرهم من خدمهم [(٢)] ومجاري تحت الأرض وكثيراً ما يكون فيها آبار [(٣)] .

وكانت دور العامة تحتوي على سراديب والتي كانـت أحـد وسـائل التهويـة والتبريد في فصل الصيف ، حيث اتخذها الناس للسكن في فصل الـصيف ، غيـر أن ميسوري الحال من الناس كانوا يستعيضون عن دخول السراديب بنـصب قبـة مـن الخيش ، أو بيت الخيش الذي يبلونه بالماء وهو من الأمور المألوفة ببغداد [(٤)] ، ومنهم من يتخذ السرداب مخبأ يختبئ فيه الفارون من الحكومة [(٥)] .

كذلك كانت الدور مزودة بميازيب لإخراج ماء المطر من على سطح الدار فـي فصل الشتاء ، ومنهم من يجعل عوضاً عنها مسيلاً محفوراً في الحائط يجري فيه مـاء السطح ويقذف بالمياه إلى الطريق [(٦)] .

أما مواد البناء المستخدمة في ذلك الوقت فكان بالإضافة إلـى الآجـر الجـص والكلس والنورة ، والأسفيدداج [(٧)] واستخدموا الأخشاب في أسقف الدار منهـا جـذوع النخل وأخشاب أشجار أخرى [(٨)] وأهل الثراء من الناس كانوا يستخدمون خشب الساج في السقوف ويزينون تعاريجها بالأبنوس والعاج [(٩)] كما كانوا يطينون أسـطح الـدور

(1) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص١٦ .
(2) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٤ .
(3) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص١٥ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٨١ .
(4) الأصفهاني : الخريده ، ص٨٤-٢٨٥ ؛ وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص٣٦ .
(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠ .
(6) الصابئ : الوزراء ، ص٨٤ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٤ .
(7) البنداري : تاريخ آل ، ص٢٠٢ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٣١ ، والأسفيدداج رماد الرمح والانك ، الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج١ ، ص١٩٤ .
(8) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٤٢ ؛ الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٢٥٥ .
(9) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٣-٣٤ .

حماية لها من تسرب مياه [1] الأمطار ، ويبيضون حيطانها ويطلونها بالأصـباغ [2] ، كما كان لمعظم دور بغداد شبابيك للتهوية والإنارة تقفل بألواح من الزجـاج المتنـوع الألوان [3] ، وتزينها الرواشن من الخارج التي كانت تطل على الطريق ، أو تطل على نهر دجلة إذا كانت الدار قريبة منه ، وغالباً ما تكون فـي الطـابق الـسفلي للـدار ، يصطدم بها راكب الدابة إن لم ينتبه [4] .

أما أبواب الدور فكانت تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، يرتقي إليها الداخل بدكة أو مصطبة مرتفعة بعض الشيء عن الطريق وتكون ملاصقة للبـاب [5] ، كمـا يوجد على الباب حلقة تدور بلولب يطرق بها الباب ، والأغنياء من الناس يـستعملون خشب الساج الهندي لأبواب دورهم [6] .

تجهيز الدور :

التجهيزات الداخلية للدار وأثاث الدار دائماً ما يتوقـف علـى الحالـة الماليـة لصاحب الدار فنجد أن تجهيز وتأثيث أغلب بيوت العامة يقتصر على استعمال الحصر والمخاد والغضائر والجرار ، والكيزان [7] ، أما أغنياء العامة كالتجار وغيرهم فـإن بيوتهم أكثر زينة وأثاثاً وهي في فخامة أثاثها شبيهة بقصور الخلفاء والـوزراء ، فقـد فرشت بالبسط المختلفة والزرابي المغربية والطنافس الخرشنية والقطـف الروميـة ، والمخاد المذهبة الديبقية ، والديباج التستري المقصب بالذهب [8] ، كما أرخيـت فيهـا

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١١٩ .
(2) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص٣١٨ .
(3) متز : الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٢١٠ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١١٧ ؛ القفطي : أخبار العلماء ، ص٣٩٨ .
(5) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٣٨٥ ؛ ابن الأخوة : نهاية الرتبة ، ص٧٨ .
(6) متز : الحضارة الإسلامية ، م٢ ، ص٢١ .
(7) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ج١ ، ص٣٠٠ ، ج٢ ، ص١٤١ ؛ ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص١٣٢ .
(8) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٣-٣٤ .

أنواع الستور لتزيين الجدران وبها نقوش وتصاوير في الغالب تكون خاصة ببيوت النصارى وكانوا جزءاً من نسيج المجتمع البغدادي آنذاك [١] .

ومن جملة أثاث دور العامة كانت القدور المستعملة في الطبخ والصواني والغضائر ، وأدوات الشراب كالأقداح والطاسات ، والحباب التي يوضع فيها الماء ، والتي لا يستغني عنها أحد من الناس وكذلك الكيزان [٢] ، ومن الأدوات المستعملة في غسل الأيدي كالطست والإبريق علاوة إلى الأشنان [٣] ، والمناديل لتنشيف الأيدي بعد غسيلها [٤] ، كما كانت هناك أدوات للزينة أقتصر استعمالها على الأغنياء من العامة مثل قماقم الذهب والفضة المستعملة في حفظ ماء الورد [٥] ، كما اعتاد أصحاب البيوتات الكبيرة تجهيز دورهم بالمواد الغذائية الضرورية في مواسمها كالحنطة والشعير والعسل والسمسم إلى غير ذلك [٦] . وكانت الدور تضاء بالسرج والقناديل والشموع [٧] .

ولقد ذكرنا فيما سبق استعمال البغداديين للخيش في الصيف كوسيلة من وسائل التبريد التي اعتادوا استعمالها خاصة الأغنياء ومتوسطي الحال ، فكان الخيش يعمل على شكل مراوح في بيوت خصصت لذلك [٨] ، كما ولع الناس ببغداد بالماء المزمل بالثلج في أيام الصيف إذ لا تخلو خزائن الخلفاء والوزراء وأماثل الناس وأعيانهم من الثلج ، فقد استخدم لتبريد الماء والأشربة الأخرى [٩] ، وكان الثلاجون ينتهزون فرصة سقوط البرد فيجمعونه ويكبسونه في مثالج تحت الأرض معدة لذلك حتى إذا أقبل

---

(1) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٢٨ ؛ ابن الأخوة : نهاية الرتبة ، ص٥٦ .
(2) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص١٣٢-٥٥٤ ؛ الشيرازي : نهاية الرتبة ، ص١٩ .
(3) الأشنان نوع من الصابون .
(4) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤١-٤٢ .
(5) ابن الأخوة : نهاية الرتبة ، ص٧٧ .
(6) الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص٦٠ .
(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٤٤ ، ج١٠ ، ص٥٨ .
(8) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٦٦٤ ؛ الأصفهاني : الخريدة ، ص١٨٤-١٨٥ .
(9) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٦٦٤ ؛ ميخائيل عواد ، صور مشرقة ، ص٢٠-٢١ .

الصيف يبيعونه بثمن عال ، وقد أُثري غير واحد من أولئك القوم ببيعهم للثلج ، وأصبحوا أصحاب ثروات طائلة [١] .

حياة العامة :

تعتبر الأسرة هي عماد المجتمع البغدادي ، فكانت عادات الخطبة والزواج من التقاليد العربية الموروثة ، وكان الرجل إذا أراد الزواج يكلف إحدى قريباته أو معارفه لتختار له الفتاة التي يتخذها زوجة له ، وكان أهم ما يوصي به الرجل الخاطبة هو ملاحظة جمال وأخلاق المخطوبة ، فإنه لا يستطيع أن يرى الفتاة حتى تزف إليه [٢] ، إلا أنه كان هناك أماكن يمكن أن يلتقي فيها الرجال بالنساء ، كالأسواق وشطوط الأنهار ، وأبواب الحمامات النسائية وعند زيارة القبور ومراجعة الدواوين [٣] . ويبدو أن جسور بغداد وأسواقها وحدائقها ومنتزهاتها كانت ملتقى لكافة الفئات الاجتماعية ، وجميعهم يطلب مراده [٤] ، وكان بين فئات المجتمع أصحاب المغامرات الاجتماعية المنبوذة [5] ، ومنهم من كان من أصحاب الهوى العذري [٦] .

وكان الأب هو ولي أمر الفتاة وأخذ موافقته أمراً ضرورياً ، كما كانت العادة جارية في أن يسأل والد الفتاة الناس عن الرجل المتقدم لخطبة ابنته ، ومدى صلاحه كزوج لأبنته [٧] ، كما كان من التقاليد أن يتزوج الرجل ابنة عمه ، ولا يستطيع أن يتزوج بإمرأة سواها فإن فعل ذلك فإن عليه أن يسلك سبيل الكتمان ، وإلا جاب على نفسه كثيراً من المشاكلات [٨] ، كما قد يجمع الرجل في بيته زوجتين يسكن إحداهما الطابق السفلي والأخرى في الطابق العلوي ، أو قد تكون له ثلاث زوجات في وقت

(1) ميخائيل عواد : صور مشرقة ، ص٢١ .
(2) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٦٣٥ .
(3) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٠٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٢٧٨ .
(4) ابن الجوزي : أخبار الظراف والمتماجنين ، ص٩٨ .
(5) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص٦٠ ؛ المنتظم ، ج٩ ، ص١٤٨ .
(6) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٢٦٨-٦٥٦ .
(7) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١١٤ .
(8) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٤٧٩ .

واحد ، فكان عليه أن يعدل بينهن حتى في لياليه إلا أنه قد يميل إلى إحدى نـسائه دون الأخريات فيخصها بحبه وعنايته [١] .

وكون المجتمع البغدادي كان يضم أهل الذمة ، فكان يقبل أن يتـزوج الرجـل المسلم من امرأة مسيحية إذ يعتبر ذلك موافقاً للشرع [٢] . فـالمجتمع البغـدادي كـان مفتوحاً على بعضه إلى حد بعيد ، وكثيراً ما تسوق كتـب الأدب والتـاريخ حكايـات اجتماعية وروايات لكثيرين من الرجال تزوجوا بنساء غير مسلمات [٣] ، كما تـسوق حالات نادرة لبعض المسلمات ممـن إنـساق وراء هـواه كمـا حـدث فـي سـنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م إذ ارتكبت إحدى النساء المسلمات الخطأ من رجل غير مـسلم ممـا أدى إلى حرقها [٤] .

فقد كانت هناك قيود شرعية اجتماعية تحول دون اختلاط النـساء بالرجـال ، وكان المحتسب لا يسمح حتى للزوجين أن يجتمعا في طريق خال مـن المـارة ، وأن يفصل بين الرجال والنساء أثناء ركوب الزوارق عند عبور دجلة [٥] ، كما صدر أمر في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م يمنع النساء من العبور مع الرجال في الزوارق وقد تكـرر هذا الأمر في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م [٦] ومع ذلك كان النساء يحضرن مجالس الـوعظ في المساجد كما كن يخرجن ليلاً لحضور صلاة التراويح [٧] .

وكثيراً ما نجد أن صعوبة العيش بصورة عامة قد تسبب المشاكلات العائلية فمن ذلك ما ذكر عن إحدى الزوجات تشكو زوجها مما كانت تعانيه من ضيق فتقول له : " والله ما يقيم الفأر في بيتك إلا لحـب الوطـن ، وإلا فهن يـسترزقـن مـن بيـوت الجيران " [٨] . ولقد كانت دور العامة متجاورة وملاصقة لبعضها البعض ، لذلك نشأت

---

(1) ابن الجوزي : الأذكياء ، ج٥٩-٨٠ ؛ تلبيس إبليس ، ص٣٨٥ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٣٠ .
(3) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٤٥٩ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٥٨ .
(5) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ٣١١ ؛ ابن الأخوة : نهاية الرتبة ، ص٢٢٢ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٥٩ ، ج١٠ ، ص١١٧ .
(7) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٧٥-١٢٣ .
(8) ابن الجوزي : أخبار الظراف والمتماجنين ، ص٩٨ .

ألفة خاصة فيما بينهم خاصة في مراعاة حقوق الجوار فكان الجار يحترم جاره ، كما كان الغني يساعد جاره الفقير ، وقد يقدم بعضهم الطعام للبعض الآخر على سبيل المحبة [1] . ذلك أن حفظ الجوار من أهم الأمور التي حث عليه الإسلام ويعتبر من التقاليد العربية الأصيلة المتوارثة والتي حافظ عليها المجتمع العربي المسلم إلى يومنا هذا .

تربية الأبناء :

كانت الأسرة في المجتمع البغدادي مكونة من الزوج والزوجة أو الزوجات والأولاد من البنين والبنات إضافة إلى الجد والجدة والإخوة والأخوات إن وجد [2] . فكان استقبال المولود الجديد للأسرة البغدادية والعناية به لا يختلف كثيراً في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي عما كان عليه فيما سبق ، فقد كانت تستدعى القابلة إلى الدار حين وضع المرأة بينما الزوج يجلس ينتظر في مكان آخر [3] .

وكانت هناك عادات خاصة يتبعونها بعد مجئ المولود ، فقد كانت الأسر تفضل المولود الذكر بصورة عامة على الأنثى ، فإذا كان المولود ذكر يصاحب بضجة وسرور ، ويقوم أحد الأتقياء ليحنكه فيضعون في فم الطفل بعض الحلوى كالتمر إذ يعتبرون ذلك سنة نبوية ، ويؤذن في إذنه ، ويختارون له إسماً بعد أيام من ولادته وكانوا يذبحون للمولود الذكر عقيقة " شاتين ، وللأنثى شاة واحدة " وربما ذبحو شاة لكل منهما [4] .

وكانت الأسرة تتولى تربية أبنائها بوجه عام يساعدها في ذلك المعلمون في الكتّاب ، فيقوم كلٌ من الأب والأم بغرس الآداب السلوكية في الأبناء كآداب المجالس وآداب الطعام وآداب المحادثة ، كأن يعود الطفل على قلة الكلام والاستماع لمن هو

---

(1) ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج٢ ، ص٢٣٠ .
(2) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٢٩ .
(3) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٧ ، ص١٩٩ ؛ مقامات الحريري : ص٣٤٠-٣٤٢ .
(4) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٣٢ ؛ الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ٥٤-٥٧ ؛ فهمي عبد الرزاق : العامة ، ص٢٤٠ .

أكبر منه سناً وتعويده على طاعة والديه ومعلميه [1] ، أما تعليمهم فكان يتم في المسجد والكتّاب إذ يتعلم الطفل القرآن الكريم في المسجد ويحفظ منه ما تيسر ، ثم بعـد ذلـك يرسل إلى الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة . إضافة إلى الحساب والنحو والفقه ، كما يقوم معلم الكتاب بتأديب الصغار وحثهم على طاعة الوالدين واحترامهم ، وكان يضربهم إذا أساؤا الأدب [2] ، وكان من الأبناء من يخرجه أبوه من الكتّاب ليساعده في أعمالـه إن كان تاجراً أو صاحب مهنة [3] .

وقامـت ببغداد صناعـة لعب الأطفـال والدمى ، وكان لها سوق خاص سمي " بسوق اللعب " [4] ولأنه لم يكن هناك أماكن خاصة للهو ولعب الأطفال ، فقـد كـان يلعب الأولاد قرب النهر أو السباحة فيه أو التفرج من الجسر ، أو اللعب في الـدروب بالكرة والألعاب الأخرى [5] . بينما البنات كن يلعبن بالدمى المـصنوعة مـن الطـين كهيئة حيوانات [6] أو إنسان وقد كان صناع الدمي يغتنمون فرصة المناسبات كحلـول العيدين لبيع تلك الدمى [7] .

(1) ابن الجوزي : تنبيه الغمر في مواسم العمر ، ضمن كتاب التحفة البهية والطرفة الشهية ، مطبعة الجوانـب ، القسطنطينية ، ١٣٠٢هـ ، ص٥٨ .
(2) ابن الجوزي : أخبار الحمقى ، ص١٤٨-٥٧ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٠٣ .
(3) فهد : العامة ، ص٢٧٨ .
(4) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٣١٣ ؛ ابن الأخوة : معالم القربة ، ص٣٦ .
(5) ابن الجوزي : لفتة الكبد ، ص٨١ ؛ صفة الصفوة : ج٢ ، ص٣٤ .
(6) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٦٧ .
(7) ابن الأخوة : معالم القربة ، ص٥٦ .

الفصل الثاني

مظاهر الحياة الاجتماعية في بغداد

المبحث الأول : الاحتفالات والمناسبات والأعياد .

المبحث الثاني : الطعام .

المبحث الثالث : الألبسة والأزياء .

المبحث الرابع : الصحة العامة ونظافة البيئة وتصريف المياه .

المبحث الخامس : الحمامات العامة والخاصة .

المبحث السادس : وسائل التسلية والترفيه .

المبحث السابع : المنتزهات .

المبحث الثامن : المجالس المختلفة .

- مجالس العلم .
- مجالس الوعظ والوعاظ .

المبحث التاسع : عادات مختلفة ومتنوعة .

المبحث الأول : الاحتفالات والمناسبات والأعياد .

تعددت صور الحياة الاجتماعية ببغداد خاصة في هذا العصر ، تلك الصور الاجتماعية أتسمت بها البيئة البغدادية خاصة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية التي اختلفت باختلاف عناصر السكان التي ضمها المجتمع البغدادي كالعرب والفرس والأتراك والتركمان وغيرهم الذين اقتبس منهم البغداديون الكثير من العادات والتقاليد التي تتعلق بمظاهر حياتهم الاجتماعية ، كما اختلفت تلك العادات والتقاليد باختلاف المناسبات فثمة عادات تبرز في المناسبات والأعياد التي شارك فيها المسلمون والمسيحيون ، غير أن الطابع الإسلامي للمجتمع ظل أحد سمات المجتمع البغدادي في مظاهر احتفالاته بالمناسبات الدينية طيلة القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

فمن المناسبات الدينية ببغداد كان يوم الجمعة ، فقد اكتسبت صلاة الجمعة أهمية خاصة ليس في بغداد فقط ، بل في كافة العالم الإسلامي ، إذ هو عيد الأسبوع بالنسبة للمسلمين أجمع ، كانت الجمعة كالعيد ببغداد ، وكان المسلمون يحافظون على طهارتهم في هذا اليوم بدخولهم الحمامات وارتدائهم الثياب الجميلة (1) .

وتقام الجمع عادة في جامع المدينة ، وجامع الرصافة وجامع السلطان ، وجوامع المحال ببغداد فقد كانت صفوف المصلين في جامع المدينة تمتد إلى الشاطئ ، حكى ابن محفوظ فقال : " كنت أمضي إلى الجامع بالمدينة لصلاة الجمعة فربما وصلت إلى باب خراسان في دجلة وقد ضاق الوقت وقامت الصلاة وامتدت الصفوف إلى الشاطئ فأصلي هناك " (2) . وكان إعلان الصلاة يتم بقرع النوبه بدار الخلافة ، في الدار الخاصة بالمبنمكين لإعلان وقت التأذين ، فإذا دخل وقت الصلاة ضربت النوبة (3) . وكان عادة الخلفاء أن يصلوا الجمعة بجامع القصر ، وقد رتبوا حاجباً خاصاً للمنبر بجامع القصر ، يكون متأهباً ليوم الجمعة بإزاء المنبر ، وعليه الثياب

---

(1) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص٢٦٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٥٦ ؛ مناقب بغداد ، ص٣٦.

(2) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٣٧ .

(3) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص١٨ .

السوداء ويشد وسطه بمنطقه ، متقلداً بسيف حليته فضة ، وكانت مهمـة الحاجـب أن يقف بين يدي المنبر يأخذ من المتظلمين شكواهم ويستعلم عن أحوالهم [١] ، وكان لـه جماعة من الغلمان المستخدمين مقيمين بباب العامة ينفذون أوامره ويـستخدمهم كيـف يشاء وإذا تكاملت الرقاع معه أخذها في منديله ، فإذا أنقضت الصلاة سلم تلك الرقـاع للوزير أو نائب الوزير ، الذي جرت العادة أن يصلي في مقصورة الجامع ، وبعـد أن يشرح للوزير أحوال أرباب تلك الرقاع فما يحتاج عرضها على الخليفة ، يرجع بهـا إلى الخليفة وما لا يحتاج يقضي فيها الوزير أو نائب الوزير [٢] .

وكان للبغداديين في يوم الجمعة أوقات يقضونها في غير الـصلاة ، كالفرجـة والتنزه ، فكان من عادتهم الخروج للنزهة بجامع المنصور كل جمعة [٣] .

أما الأعياد الدينية الإسلامية ، فكان شهر رمضان عيد في جميع أيامه ، وكـان المسلمون يمارسون شعائر خاصة في هذا الشهر الذي أنزل فيه القرآن ، فكانـت دار الخلافة تعتني فيه بالمساجد حيث تضاء ليلاً بالمصابيح والقناديل ، كـذلك تـضاء دار الخلافة ويتعالى منها التكبير ، وتفتح دور الضيافة الرمضانية ، منذ أول الشهر للعامة والفقراء ، كذلك تبادر إلى توزيع الصدقات على الفقراء والمحتـاجين [٤] . وينقطـع العامة عن الممارسات العادية في حياتهم اليومية ، فيحيون لياليه إمـا بالـذهاب إلـى المساجد لصلاة التراويح ثم يقومون بعد ذلك بزيارة الأقارب والأصدقاء ، ثـم ترفـع قناديل التسحير وتبدأ شحارير التذكير في المساجد ، فكانت أيامه كلها أعياداً وأوقاتـه طاعة وعبادة [٥] ، حتى إذا بقي من الشهر أربع ليالي أي قارب بالانتهـاء أخرجـت الأنعام والخلع من دار الخلافة فتشمل الخاصة والعامة [٦] .

---

(1) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٨٢ .
(2) المصدر نفسه ، ص٨٢-٨٣ .
(3) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٣٨ .
(4) الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٥ .
(5) المصدر نفسه ، ص٢٥ .
(6) المصدر نفسه ، ص٢٥ .

ثم يبدأ الناس بالاستعداد لاستقبال عيد الفطـر المبـارك حيـث وصـف ابـن الكازروني العيد ببغداد فقال : " يتهيأ الناس للعيد المشهود والمجتمع المحشود الذي تكل عن حسن وصفه السنة البلغاء وتعجز عن إدراك وصفه عقول الألباء فلا ينتهي إلـى نعته قول قائل ولا يصل إلى مثله الأواخر ولا الأوائل ولا حكى أن لهم مثلـه أو مـا يقاربه " [1] . فقد كان الناس يحتفلون برؤية هلال شهر شوال ، فتبدأ مراسيم إعـلان يوم العيد ، بعد الشهادة لدى القضاة ومنها إلى الخليفة حيث يصدر أمره بأذان العيـد ، فيخرج الناس بملابسهم الجديدة إلى المصلى لأداء صلاة العيد [2] .

وقد حرص الخلفاء على مشاركة الناس احتفالات العيد ، وكان الخليفة يخـرج مبكراً في الموكب وقد ارتدى أجمل ملابسه ويمتطي عند خروجه جواداً ، وهو مرتدي بردته المقصبة بالذهب والفضة ، ومعه كبار رجال الدولة ، وكان الناس يقفون علـى جانبي الطريق لرؤية موكب الخليفة ، وبعد الانتهاء من صلاة العيد يلقي الخليفة خطبة العيد وبعدها ينهض المصلون بالدعاء له ، ثم يعود إلى داره ليستقبل المهنئين [3] . ثـم يبدأ الاستعراض العسكري الذي يظهر فيه الجنود ببغداد بملابسهم الفاخرة وقد ركبـوا الخيـل يحملون الشموع الموكبية الضخمة ، سوى غيرهم من أصحاب النفط وعددهم أكثر ، ويخرج الناس لرؤية الموكب والعساكر فيقفون على جانبي الطريق أو من خلال شرفات منازلهم ، بينما يكون الخليفة وكبار رجال الدولة في مكان معد لهذه المناسـبة يستعرضون الجيش ، ويستمر ذلك الاحتفال طيلة أيام العيد وفي بعض الأحيان ثلاثـة أيام [4] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٧١ .
(2) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٦ .
(3) المصدر نفسه ، ص٢٦ ؛ بنيامين : الرحلة ، ص١٣٣ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٣٥-١٥٧ ؛ ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٦ .

كما كان العامة من الناس في هذه المناسبة يخرجون مـن أمـوالهم صـدقات ويقيمون المآدب ، كذلك كانوا يجعلون لعائلاتهم نفقات خاصة بالعيد ، ويتبادل النـاس الزيارات والتهاني بالعيد [١] ، وتعلق الزينات ببغداد بالأقمشة الحريرية ذات الألوان ، وبالأعلام ، وتضرب فيها الأبواق والطبول [٢] .

ومن المناسبات الدينية في بغداد بعد انقضاء عيد الفطر حيـث يبـدأ الاحتفـال بحلول موسم الحج ، فمنذ بداية شهر ذي القعدة يبدأ الحجاج بالتوافد على بغداد فيخرج البغداديون للترحيب بهم ، ومعظم هؤلاء الحجاج الوافدين ، يأتون من مدن العـراق ، ومناطق فارس وخراسان ، وينزلون بغداد ويجعلونها محطة لهم لينضموا إلى ركـب الحج العراقي [٣] . قال : ابن الكازروني عن موسم الحج ببغداد : بأنـه مـن أعظـم المناسبات ببغداد ، فيخرج فيه الناس إلى الجانب الغربي ما بين ماشي أو ممتط صهوة جواد عربي ، وتدوم هذه المظاهر الاحتفالية عدة أيام ، وتفتح دور ضيافة الحاج ، كما تقيم الحكومة أماكن مخصصة لشرب الماء ، وتقدم لهم الأطعمة إلى أن يحين موعـد رحيلهم [٤] . كما كانت دار الخلافة تهتم بتنظيم مسيرة الحاج من بغداد إلـى الحجـاز وعودتهم إلى بغداد مرة أخرى بعد انتهاء موسم الحج ، فكانت تنظم بعثة الحج وذلـك باختيار أميرا للحاج من الأشراف الطالبيين ، حيث كانوا هم الذين يتولون إمارة الحـج فيما سبق ، غير أنه ومنذ بداية القرن السادس الهجـري الثاني عشر المـيلادي كـان أمير الحاج يختار من بين الأمراء المماليك الأتراك [٥] ، كما كان اختيار أمير الحـاج يجري في احتفال رسمي في دار الخلافة بحضرة الخليفة والأشراف وقاضي القـضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة ، ويخلع فيه على أمير الحج بالخلع ثم يكال بالأنعـام [٦] ، ثم يتقدم موكب الحج كل من حامل العلم وضارب الطبل ، ثم الجنـد الموكـل إلـيهم حراسة الموكب ، والقراء يقرءون والدعاة يدعون ، وعند خروج الموكب يكـون فـي

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٥٧-١٥٨ .
(2) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٥٨ ؛ بنيامين : الرحلة ، ص١٣٣ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٧٦ ؛ الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٤ .
(4) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٤ .
(5) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص٢٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج5 ، ص٢٣٢ .
(6) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٥٤ .

توديعه كبار رجال الدولة ومن خلفهم العامة [1] وصف بنيامين في رحلتـه الاحتفـال الذي شهده في بغداد أثناء زيارته لها سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ورأى كيف اجتمع الحـاج ببغداد ، ودخلوا دار الخلافة هاتفين " يا سيدنا نور الإسلام ، وفخر المسلمين أطل علينا بطلعتك الميمونة " [2] .

وإذا كان العاشر في ذي الحجة احتفل الناس بعيد الأضحى ، فيخرجون مرتدين الثياب الجديدة مكبرين لأداء صلاة العيد ، كما كانت بغداد تزين بالأقمشة والأعـلام ، وتسير فيها المواكب ، وبعد صلاة العيد ، يخطب الخليفة بالناس خطبـة العيـد مبينـاً للناس أحكام شريعتهم ومناسكهم [3] . ثم يأمر الخليفة على عادته بذبح الأضاحي على أبواب دار الخلافة تحت المنظرة الشريفة [4] ، فقد حرص البغداديون علـى اخـتلاف طبقاتهم على نحر الأضاحي وتوزيع لحومها على الفقراء والمحتاجين [5] ، فقـد كـان الناس يوزعون لحوم الأضاحي ويتهادونها ، وهو ما يميز عيد النحر ، فلا يخلو منهـا دار يوم العيد حتى الفقراء منهم [6] .

ومن العادات والتقاليد التي أعتاد عليها البغداديون في احتفالاتهم بالعيد عادة دفن العيد فإنهم بعد أسبوع من العيد يخرجون للفرجة والتنزه ، ويقولـون " نـدفن العيـد " فيخرج معهم رؤساء المحال والأعيان ، ويحضر العامة شخصاً يتمـسخرون عليـه ، فيكفنونه كالميت ويبكون عليه ، فإذا طابوا ولعبوا ساعة من يومهم قام ذلك الـشخص الذي كفن كالميت ، ويضحكون ويلعبون معه [7] . وفي سنة ٥٨٠هـ ـ/١١٨٤م أمـر

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٨ ؛ ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٤ .

(2) بنيامين : الرحلة ، ص١٣٢ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٣٢ .

(4) المنظرة : موضع مشرف ينظر منه ، وهي منظرة محكمة البنيان في وسط السوق في آخر محلة المأمونيـة ببغداد قرب الحلبة كان أول من يناهز المأمون وكانت في أيامه تشرف على البرية ثم أصبحت في وسط البلد أمر المستنجد بالله ينقصها تجديدها ليجلس منها ونستعرض الجيوش أيام الأعياد . ياقوت الحمـوي : معجـم البلدان ، ج٥ ، ص٢١٢ .

(5) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٦ ؛ بنيامين : الرحلة ، ص١٣٤ .

(6) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٦.

(7) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٨٧ .

الخليفة بدفن العيد عند بستان ابن يحيى [1] ، فبعد انقضاء أيام العيد طاب ابن يحيى من رؤساء المحال ومتقدمي العامة أن يخرجوا لدفن العيد في ذلك البستان ، فخرج خلـق كثير من الرجال والنساء والأطفال ، والخليفة ينظر إلى العامة من الشباك ، وقد أتـي بالشخص الذي كفنوه كالميت وحمل فيما بينهم وهم يبكون ويصرخون ، وقوم يعـزون وآخرون يندبون ، ويعملون تعزية العيد ، فإذا ضجروا ألقوا بالميت في المـاء فيبقـى ساعة والخليفة يضحك وهو ينظر إليهم ، ثم ينزل عريف الفراشين ومعه مائة دينـار ويقول للعوام هذه المائة دينار لأجل الميت ، حينئذ يقوم الميـت المكفـن مـن المـاء فيتصارخ الناس ويضحكون ويدعون للخليفة [٢] ، وكان المماليك الخـواص وأسـرهم ينظرون إلى هذا الاحتفال من سطح دار الخليفة ، فبعد أن ينقضي دفن العيد يخرجون وتحت كل واحد منهم حصان عليه سرج مذهب وتخت وعليهم ملابس الـزركش فـي أحسـن حلية ، فكان أهالي بغداد يرجعون من دفن العيد يتفرجـون علـى المماليـك ويقولون : " كنا نتفرج على الميت فلم لا نتفرج على هؤلاء الذين خرجوا " [٣] .

وعودة الحجاج من الحجاز كانت تعتبـر مناسـبة أخـرى للاحتفـال فيخـرج المستقبلون بالزينة وقد أظهروا الفرح والسرور وعلقوا الزينـات فـي الأسـواق [٤] ، ويصف ابن الكازروني ذلك بقوله : " وإذا رجعوا سالمين ، فهو موسم ثاني للمتفرجين يفض فيه من التشريفات على الحاشية والولاة ، ما يدهش الناظر ويجلوا النواظر ، وما منهم إلا قد بخبخ بسلامة أهله فرحين بما آتاهم الله من فضله " [٥] .

ولأصحاب المذهب الشيعي ببغداد احتفالات خاصة بهم ، ففي الثامن عشر مـن ذي الحجة يحتفلون بعيد الغدير غدير خم وفيه يزعمون أن الرسول ﷺ أوحـى لعلـي بالولاية وأنـه قال : " إن كنـت وليـه فعلـي مـولاه " وكـان ذلـك منـذ سـنة

---

(1) انظر : المنتزهات ، ص٣٢٩ .
(2) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٨٨ .
(3) المصدر نفسه ، ص١٨٨ ، وتعتبر هذه من العادات الدخيلة على مجتمع بغداد .
(4) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٥ .
(5) المصدر نفسه ، ص٢٥ .

٣٥٢هـ/١٩٦٣م [١] ، وهذا العيد عندهم عبارة عن إحياء لخطبة الرسول ﷺ بالمدينة أثناء عودته من حجة الوداع فكانوا يحيون عليه بالصلاة ويشعلون النيران ويلبسون الملابس الجديدة وينصبون القباب وينحرون في صبيحته الذبائح ويعتقون الرقاب ويزورون مقابر الأولياء ببغداد والكوفة [٢] وبقي الاحتفال بعيد الغدير مستمراً طيلة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ولكن كثرة الفتن المذهبية بين السنة والشيعة خلال هذا القرن حالت دون الاحتفال به [٣] .

ومن احتفالاتهم الاحتفال بيوم عاشوراء يصومه المسلمون جميعاً وهو اليوم الذي أنقذ الله فيه موسى وهو ذكرى استشهاد الإمام الحسين عند الشيعة ، ويظهر فيه أصحاب المذهب الشيعي الحزن الشديد ، ويغلقوا الأسواق ويعلنون النوح على أهل البيت رضي الله عنهم والإنشاد ، ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح ، ويخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه وقد شققن ثيابهن ، يدرن في البلد بالنواح ويلطمن وجوههن ، على الحسين بن علي ، كما كان من تقاليدهم زيارة كربلاء ، ويكره الشيعة في هذا اليوم تجديد الأواني والأثاث خاصة أهل المختارة ومحلة الكرخ وهما أماكن تركز فيها الشيعة [٤] . كما تكثر فيه مجالس الوعظ [٥] . قال ابن الجوزي : " ما أكثر ما يسألون الناس عن معاوية ويزيد ويكلفونني شرح أحوالهم ، ما يكتمون في هذه الأيام أنني أرجم لهم أبا بكر وعمر وأنا مخاطر " [٦] .

ولم تقتصر الأعياد الدينية ببغداد على المسلمين فقط بل كان أهل الذمة يمارسون حياتهم محتفلين بأعيادهم الدينية بحرية يشارك فيها البغداديون قاصدين التنزه واللهو في مناطق أديرة بغداد التي تضم الحدائق والبساتين ، وعليه يمكن القول بأن احتفالات أهل الذمة كان يحتفل بها عامة بغداد ، فمن تلك الاحتفالات احتفالهم بيوم السبت الذي

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص٢٠٥ ، وكان أول من أوجد هذا العيد هو معز الدولة البويهي ، المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٣٨٨ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص١٦-١٤٦ .
(3) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٥٠ ؛ فهد : العامة ، ص١٩٩ ، وهو من الأعياد التي حاربها أهل السنة ببغداد .
(4) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٢٢ .
(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ١٨٣ .
(6) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٢٢ .

اعتبروه عيداً فيقول ابن الكازروني واصفاً هـذا اليـوم ببغداد : " ففي كل سبت عيـد جديد وموسم سعيد يخرج الناس إلى الرياض والأزاهير لسماع أصـوات الـشحارير والناس في أغيد عيش وأطيب زمان وأعدل وقت وأصفى أوان " [١] ، فقد كان عيـداً عند أهل الذمة يخرجون فيه للتنزه والفرجة حول شطوط الأنهار وفي الحدائق[٢] .

ومن تلك الاحتفالات احتفال نصارى بغداد بليلة الميلاد هو عيد رأس الـسنة ، فيسهرون ليلتها ، كما من عاداتهم إشعال النيران واللعـب بـالجوز ، وتقـام بعـدها المهرجانات التي يحضرها رأس الجالوت ورأس المثيبة [٣] . ومن الأعياد النـصرانية أعياد الصوم [٤] التي تقام في الأديرة وهي مقسمة عليها ، وتقع هذه الأعياد في أربعة آحاد ففي الأحد الأول منه عيد دير العاصية وهو على ميل من دير برسمالو ، والأحد الثاني عيد دير الزراقية ، والأحد الثالث عيد دير الزندورد ، ويعتبر عيده من أحـسن الأعياد حيث تجتمع إليه نصارى بغداد كما يقصده الشعراء ومحبي التنزه مـن أهـالي بغداد فيقيمون فيه أياماً يقضونها بالتنزه في بساتينه ومزارعـه ويـستمتعون بمنظـر النصارى المجتمعين وبطريقة تعييدهم ، ثم بعده عيد دير مالس [٥] ، وكانوا يحتفلـون بصوم العذارى بدير العذارى الذي يقع على نهر الدجاج في الجانب الغربـي ، وكـان ديراً للراهبات السريانيات ، ويكون صومهم ثلاثة أيام فإذا انتهت اجتمعوا فيه وأقـاموا شعائرهم الدينية [٦] .

وبدير اشموني يحتفل النصارى بعيد القديسة اشموني في الثالث مـن تـشرين الأول ويعتبر الاحتفال بهذا الدير من المناسبات البغدادية حيث يجتمع فيه أهالي بغـداد كاجتماعهم في الأعياد الإسلامية يخرجون له لابسين ملابسهم الجميلة ، والميـسورون

(1) ابن الكازروني : مقامه في قواعد بغداد ، ص٢٧ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٩٦ ؛ بنيامين : الرحلة ، ص١٤٣ .
(3) المصدر نفسه ، ص١٤٤ .
(4) الصوم الكبير يقع في ثمانية وأربعين يوماً أولها يوم الاثنين وفطرهم يوم الأحد التاسع والأربعـين مـن أول صومهم ، ويسمونه الشعانين ومن شروطهم وقع الفصح بين الشعانين والفطر وهو الأسـبوع الأخيـر مـن الصوم . البيروني : الآثار الباقية ، ص٣٠٢ .
(5) الشابشتي : الديارات ، ص٣ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٦٠ .
(6) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٦٧٩ .

منهم يحملون معهم الخيم ، راكبين السفن ، كالسميريات والزبازب والطيـارات وهـم يتزاحمون على شط دجلة [1] . ومن أعياد النصارى كذلك عيد الفصح ، واحتفالاته تتم في دير سمالو ، الذي يعد من متنزهات بغداد المشهورة حيـث تحـيط بـه البـساتين والمزارع ، فيقصده الناس سواء من النصارى أو المسلمين للتنـزه ، خاصـة محبـي الطرب واللهو والظرف واللعب والقيان [2] .

كما شارك بعض عامة بغداد بالمهرجانات الفارسية كاحتفالهم بعيـد النيـروز ويعني التحول من فصل الشتاء إلى الربيع [3] ، وهو يبتدئ عنـد الانقـلاب الـصيفي بابتداء فصل الربيع من السنة الجديدة والاحتفال بهذا العيد كان منـذ أيـام العباسـيين الأولى ، ولم يقتصر الاحتفال به على بغداد فقط بل كانت بعض الأقطـار الإسـلامية الأخرى تحتفل به [4] وكانت مدته عند الفرس ستة أيام يـشعلون فـي ليلـة النيـران والشموع ويتبادلون الهدايا والتهاني ، فكان أهالي بغداد يخرجون مع الصباح الباكر إلى نهر عيسى بالمحول يتنزهون وبغيطانه يلهون [5] . وصفه ابن الكازروني فقال : " أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويجتمعون وينثالون كأنهم إلـى نصب يوفضون ، فينزلون الجواري في رهط الجـواري ، ويـدخلون نهـر عيـسى ويباكرون نحو قصده تغليسا فيجتمعون بالمحول ، إذ عليه في الحسن المحول فيخرفون أشجاره ويقطعون ثماره وأنواره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ، وينزلـون غيطانـه وأنهـاره ، ثم تعزف القيان وتصطخب العيـدان ، وتـصفق الغـدران ، وتـرقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما وسع الرواق طاب المشوق ، وكلما بكـت الـسحاب ضحك الحباب ، وكلما طرب العود زمجرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحـة واجتمعوا للاستراحة كذلك أياماً لا يطمعون مناماً [6] .

---

(1) الشابشتي : الديارات ، ص٣٠-٤٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان .
(2) الشابشتي : الديارات ، ص٩ ؛ ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص٤٣٢ .
(3) النويـري ؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنـون الأدب ، دار الكتـب المـصرية ، القاهرة ، ج١ ، ص١٧٨ .
(4) متز : الحضارة الإسلامية ، م٢ ، ص٨٧-١٩١ .
(5) ابن الكازروني : المقامه ، ص٢٧-٢٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص١٨٧ .
(6) ابن الكازروني : المقامه ، ص٢٧-٢٨ .

أما المهرجان فإنه يبدأ مع الانقلاب الشتوى وبه يعلن بدء فـصل الـشتاء [(١)] . وفيه يغير الناس ملابسهم وفرشهـم استعداداً لاستقبال فصل الشتاء ، كمـا يتبـادلون الهدايا ، وتضرب فيه بالطبول والبوقات ويعلقون الزينة [(٢)] . ومن أعياد الفرس القديمة وعيد السذق أو الصدق يسمى بليلة الوقود لأن في ليلته تشعل النيران بأنواع مختلفة من الدهان [(٣)] . وصف ابن الجوزي صورة احتفال عامة بغداد بالصدق أو الـسذق أثنـاء فترة وجود السلاجقة ببغداد في أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر المـيلادي وكان الاحتفال بدجلة ، قال : " وقد أشعلت النيران والشموع الضخمة في الـسميريات والزوارق الكبار وعلى كل زورق فيه شموع كبيرة ، وخرج أهل بغداد للفرجة فبـاتوا على الشواطئ ، وزينت دجلة بإشعال النار وأظهر أرباب دار المملكة زينتهم ما قدرو عليه حملوا في السفن بأنواع الملاهي ، ونزل أهالي الجانب الغربي يحملون الشموع ، وكان على سطح دار المملكة مما يلي دجلة حبال أحكم شدها وفيها سيمرية يصعد بهـا الرجل في الحبال ثم ينحدر بها وفيها نار " [(٤)] .

---

(1) النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص١٨٧ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٥٧ ؛ البنداري : آل سلجوق ، ص٣٦ .

(3) النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص١٨١-١٨٢ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٤١٢ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٥٧ .

الأعراس والاحتفالات :

حفلات الأعراس من المناسبات المفرحة التي يحتفل بها المجتمع البغدادي ، وعادات الاحتفال بهذه المناسبة لا تختلف كثيراً بين الخاصة والعامة في المجتمع فجرت العادة ببغداد أن تجهز العروس قبل العرس ، ويتولى والدها تجهيزها فينفق على ذلك الأموال التي تتفاوت بتفاوت الأوضاع المالية لكل أسرة ، فبعض الأسر تصوغ للعروس دستاً من الفضة وأنواع الجواهر ، ويتم تجهيز هذا الدست لبنات الخلفاء والوزراء والعائلات الغنية (١) ، أما حفلة العرس فبعد أن تهيئ دار العريس بعدها يضعون على بابها بواباً حتى لا يدخلها أحد ، وتقدم الأطعمة والأشربة المتنوعة احتفالاً بالعرس ، كما تنثر دنانير الذهب والفضة عند زفة العروس والعريس إلى عروسه (٢) ، وفي صبيحة اليوم التالي للبناء فإن على العريس أن يقدم لزوجته هدية وتسمى بالصبحية وقد تكون طعاماً أو مالاً (٣) .

وكان زواج الخليفة أو السلطان من المناسبات العامة التي يشترك فيها الخاصة والعامة فتعلق الزينات ببغداد وتنصب فيها القباب ، وتضرب الطبول ، ويخرج العامة للفرجة على الاحتفال ، فعند زفاف ابنة السلطان ملك شاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م علقت الزينة بأسواق بغداد وزينت المحال والدروب بها كما نصبت القباب (٤) وكان جهازها حوى من الجواهر والأموال والآلات والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجواري ما حمل على اثنين وستين جملاً وسبعة وعشرين بغلاً ، واحتفل الناس مع الخليفة بالفرجة على الزفاف (٥) ، كذلك عند زواج السلطان مسعود ببنت عميد الدولة ابن جهير سنة ٥٣٢هـ/١١٢٨م أمر السلطان بأن تلعق الزينات ببغداد سبعة أيام ، كما ضربت الطبول والزمور ، علق ابن الجوزي على

---

(1) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٣٨ .

(2) ابن الجوزي : الأذكياء ، ص١٣١ .

(3) ابن الجوزي : أخبار الظرفاء والمتماجنين ، ص٨٩ ، وهذه العادة ما زالت سارية في مجتمعنا العربي إلى وقتنا الحاضر ولكنها الهدايا تقدم أشياء عينية كالذهب .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٦٦ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص٩ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٦٦ ؛ ابن القلانسي : ذيل فتح دمشق ، ص١٧٣ .

ذلك فقال : " فظهر بالتعاليق فساد عظيم " يتزاحم الناس ، وارتكاب الجرائم أللأخلاقية والبذخ ، الاختلاط والسفور [1] ، كذلك عند زواجه بابنة عمه قاروت احتفلـت عامـة بغداد مدة ثلاثة أيام [2] ، كما زينت بغداد سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م عند دخـول الـسيدة خاتون زوجة الخليفة المقتفي مع أخيها السلطان مسعود ، وكانت قد دخلـت فـي زي عجيب ، ونثرت الدنانير ، وقرعت الطبول احتفالاً بوصولها وخرج النـاس للفرجـة مظهرين الفرح والسرور [3] حيث كان من العادات البغدادية في احتفالات الأعـراس لدى العامة والخاصة كانت عادة النثار ، وهي نثر الجواهر ودنانير الذهب والفـضة ، فمن الخلفاء من فرش له حصير من ذهب ونثر عليه الجوهر الكثير [4] ، فعندما زفت ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى الأميـر مجاهـد الـدين بـن أيبـك علـى المستنصري المعروف بالدويدار الصغير نثر عليها خادم زوجها ألف دينار عند دخولها الدار [5] .

ومن المناسبات التي يحتفل بها عامة بغداد الاحتفال بالمولود الجديد للخليفـة أو السلطان ، والاحتفال بختان الأولاد ، فقد احتفل أهالي بغـداد عنـدما رزق الـسلطان مسعود بولد ذكر فعلقت الزينة ببغداد واستمرت الأفراح مدة سبعة أيام والناس في فرح وابتهاج [6] ، وفي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م احتفل بختان أولاد الخليفـة وأولاد أخويـه وكانوا اثني عشر ولداً فعلقت الزينات وعملت القباب ، وعملت السيدة خـاتون ببـاب النوبى قباباً علقت عليها ثياب الديباج [7] ، والجواهر كما عملت قبة بـدرب الـدواب وعلقت عليها غرائب منحوتة وستران من الديباج الرومي وقد كتب على أحدهما اسـم المتقي لله وعلى الآخر المعتز بالله ، وقد خرج الناس احتفاء بهـذه المناسـبة بأجمـل

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٧٢ .
(2) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٧٢ .
(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٨٥ .
(4) ابن الساعي : نساء الخلفاء ، ص٦٧-٧٠ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٨٥ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٨٥-١٠٣ .
(7) الديباج من الدبج وهو النقش والتزين وهو نوع من الثياب الخضر . ابن سيدة : المخصص ، ج٤ ، ص٧٦ .

الثياب والجواهر واستمرت الاحتفالات والأفراح ببغداد سبعة أيام [(١)] كذلك في سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م عندما ختن ولد الخليفة وختن معه جماعة من أولاد الأمراء أعلنت الأفراح ببغداد احتفالاً بهذه المناسبة [(٢)] ، وفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ختن أولاد الخليفة فصنع من الطعام الشيء الكثير حيث ذبح ثلاثة آلاف دجاجة وألف خشكنانه [(٣)] وحين ختن الخليفة الناصر ولديه الأمير أبو نصر محمد والأمير أبي جعفر على سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م حضر أرباب الدولة الأمراء وكبار رجال الدولة إلى دار الخلافة ، على جارياً على العادة وأمر بحضور المغنيين والمطربين وأصحاب الملاهي ، وأمر بعمل مأدبة أنفقت عليها الأموال الكثيرة حيث تعددت أصناف الأطعمة والمآكل ، واستمر الفرح والطرب ببغداد مدة سبعة أيام بلياليهن [(٤)] .

ومن صور الحياة الاجتماعية ببغداد الاحتفال بختمة القرآن ، ويكون مقصوراً على الأحداث ، الذين يتمون حفظ القرآن الكريم ، فتنظم احتفالاً بذلك المواكب ويظهرون فيها بأحسن الأزياء يجوبون طرق المدينة منشدين الأناشيد وقد لبسوا أفخر الثياب وتقام المآدب ، كما توزع الخلع على المؤدبين والعلماء [(٥)] ويحضر الاحتفال بختم القرآن الرجال والنساء وأصحاب المحلة [(٦)] ، فقد احتفل أهالي بغداد بختم الأمير أحمد والأمير أبي القاسم عبد العزيز أبني الخليفة المستنصر بالله [(٧)] وهذه العادة شائعة في بغداد منذ أيام العباسيين الأوائل .

وهناك مناسبات تقام لها احتفالات رسمية ترعاها دار الخلافة ، وتفرح بها العامة كالانتصارات العسكرية أو بناء الأسوار لبغداد ومحالها حماية للسكان ، فيخرج العامة للمشاركة في بناء الأسوار وهم يحملون الأعلام والأبواق ويضربون بالطبول كما حدث سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م حيث تم تجديد بناء السور في عهد الخليفة المسترشد

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٤٥ .
(2) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٨١ .
(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٤٠ ، والخشكنانه تصنع من السميد . انظر الطعام .
(4) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٧٥-٧٦ .
(5) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٣٨٢-١١٠ .
(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٧٠ .
(7) المصدر نفسه ، ص٧٠-٨٣ .

وأذن للناس في الخروج والمشاركة في البناء وكان أهل المحال يتناوبون فيما بينهم بناء السور ، وكانت كل محلة تعمل فيه لمدة أسبوع (١) .

كما كانت انتصارات الخليفة على السلطان مناسبة وطنية يفرح بهـا العامـة ، فعندما وصل الخبر لبغداد بموت السلطان مسعود جهز الخليفة جيشاً أخضع فيه واسط والكوفة والحلة وجعلها تابعة مباشرة له ، وحين عاد الجيش إلى بغـداد احتفلـت دار الخلافة مدة أسبوع وعلقت الزينة ببغداد ، وفي أثناء ذلك خطب لـولي العهـد علـى المنابر ، وساهمت العامة في هذا الاحتفال فصنع بعضهـم قبباً تدور وعليها تـصاوير لحيوانات وثمار وأشخاص ، وقام أهل محلة باب الأزج بتنصيب أربعة رحـى تـدور وتطحن الدقيق ، وهم يغنون ويرقصون فرحاً ، كذلك صنـع الملاحون سميرية تـسير على عجل ، وكان بقية الناس يتفرجون على تلك الاحتفالات التي فيما (٢) . كما احتفل أهالي بغداد إثر هزيمة السلطان محمد ملكشاه الـذي كـان محاصـراً لبغـداد سـنة ٥٥٢هـ/١٠٥٧م ، خرج العامة إلى نهر عيسى بأنواع الملاهي واللعب والمضحكات ، ومعهم الذين كانوا يقاتلون منهم جماعة سموا العضامية وكذلك الفتيـان الـذين كـانوا يقاتلون مع جيش الخلافة وقـد اتخذوا زرديات من بعر الغنم وسلاحاً ، وأخرجوا طبلاً وبوقاً ونصبوا خشباً وصلبوا جماعة تحت أباطهم ، يلعبون ويضحكون محتفلين والناس يتفرجون ويشاركونهم فرحهم (٣) .

وحين وصلت البشارة لبغداد في سـنة ٥٦٧هـ ـ/١١٧١م بالخطبـة والـدعاء بالخلافة للخليفة المستضيء بمصر ، علقت الزينة في أسـواق بغـداد للتهنئـة بتلـك المناسبة ، وكانت قد قطعت دعوة بني العباس عن مصر حوالي مائتين وعشرين سـنة واستمر الفرح والزينات ببغـداد عـدة أيـام (٤) ، وحينمـا تـم فـتح إربـل سـنة ٦٣٠هـ/١١٣٢م وضربت الطبول على باب النوبى وأخرج جميع السجناء فرحاً بالفتح

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٤٥ ؛ مناقب بغداد ، ص١٧ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤٨ . فيما يشبه العيد الوطني .
(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٧٥ .
(4) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢٤٣ ، ٢٤٦ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص١٧ .

والنصر [1] ، كذلك كان شفاء الخليفة مناسبة من المناسبات التي كان يحتفل بها أهـالي بغداد ففي سنة ٥٥٤هـ/١٠٥٩م احتفلت بغداد بشفاء الخليفة المقتفـي لأمـر الله مـن مرض ألم به فعلقت الزينات ببغداد مدة أسبوع وفرقت الصدقات على الفقراء ، وذبـح كل واحد من أرباب الدولة أعداداً من البهائم ، كما فرقوا الكسوة على الفقـراء فرحـاً بشفاء الخليفة [2] . ومشاركة العامة في هذه الاحتفالات الرسمية كانت دلالة على تلاحم المجتمع وتماسكه ووطنيته من خلال إعلانهم عن فرحهم ، بالمناسبات الخاصة بالخليفة أو انتصاراته ، أما احتفالات التشريف فإنها اقتـصرت علـى الخلفـاء والأمـراء ، والوزراء وكبار رجال الدولة ، فقد جرت العادة أن يخلع الخليفة على الأمير أو الوزير أو أحد موظفي الدولة وكذا للعلماء والفقهاء ، حيث يلبسون الخلع في حفلات تشريف لا يحضرها سوى الخاصة [3] .

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٣ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٨٩ .

(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٤ ، ٤٧ ، ٥١ ، ص١٦٠ ؛ مليحة رحمة الله : صـور مـن الحيـاة الاجتماعية في المجتمع العباسي ، المجلة التاريخية المصرية ، م٧ ، ١٩٧٠م ، القاهرة ، ٢٥ .

المبحث الثاني : الطعام .

إن من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية ببغداد والتي دلت علـى رقـي المجتمـع البغدادي ، العناية بالطعام وتعدد أنواعه التي أشتهر بها المطبخ البغدادي ، نتيجة للحياة المترفة التي سادت في المجتمع البغدادي ، إضافة إلى تأثرهم بعادات وتقاليد العناصر الأجنبية من الفرس والأتراك وغيرهم ، ولم يقتصر الاهتمام بالطعام على فئة معينـــة دون غيرها ، بل يشمل كافة فئات المجتمع ، على اختلاف مـستوياتهم الاقتـصادية ، ومما يوضح لنا مدى اهتمام الناس بالطعام اعتبارهم أن علم الطبخ علم قـائم بذاتـه ، فألفوا فيه الكتب التي تعكس مدى اهتمامهم بالطبيخ وآدابه ، قال القفطي ناقداً لكتاب ابن مسكويه الذي ألفه في نوع من أنواع الأطعمة " بأنه قد أحكمه غاية الإحكام وأتى فيـه من أصول علم الطبخ وفروعه بكل غريب حسن " [١] .

الموائد وآدابها :

لقد اعتنى البغداديون بالموائد عناية خاصة ، وكانوا يسمونها خوانـاً ، وأجـود الموائد ما صنع من الخشب أو الرخام ، كما اتخذوها الخلفاء من الذهب والفـضة [٢] ، وصفها أبو المطهر فقال : " خواناً قوائمه من خلنج خرساني بلا وصل ولا كسر محمر في بياض كأنه طبق منثور أو فص بلور أو ثوب وشي يشتغل الإنسان بالنظر إليه عن الأكل عليه [٣] وهناك آداب للموائد ، أولها غسل الأيدي قبل الطعام في وعـاء واحـد يسمى بالطشت ويبدأ رب البيت بالغسيل قبل البدء بالطعام بينمـا يغـسل يديـه بعـد الضيـوف عند الانتهاء من الطعام [٤] وقد ذكرها لنا الغزالي في كتاب آداب الطعـام ومنها [٥] :

---

(1) القفطي : أخبار العلماء ، ص٤٣٨ .

(2) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤١ .

(3) المصدر نفسه ، ص٤١ .

(4) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص١٦ ؛ أبو المطهر الأزدي ، ص٤١ .

(5) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص١٦-١٨ .

١- تعجيل الطعام إذ يعتبر من إكرام الضيف ، وترتيب الطعام وذلك بأن يبدأ بتقديم الفاكهة أولاً إن وجدت ثم الطعام بعد ذلك وأن يبدأ بأفضله وهو اللحم ثم الثريد .

٢- أن يقدم من الألوان أطيبها حتى يستوفي من يريد ولا يكثر الأكل بعده .

٣- عدم رفع الألوان من الطعام قبل تمكين الضيوف من الاستيفاء منه إذ لو رفع لربما بقيت في نفس أحدهم حاجة إلى لون يفضله وأن يقدم الطعام قدر كفايته ، إذا التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة منه تضيع ومراءاة ، وخاصة إذا كان صاحب الدعوة بخيلا لا تسمح نفسه بأن يأكلوا كل ما يقدم إليهم ويستثنى من ذلك الكريم الطيب النفس .

وبعد أن يرفع الطعام ، يأتي فراش متهلل الوجه ، يرتدي ملابسه النظيفة ، ويحمل بيده الخلال ، لتنظيف الأسنان بعد الأكل وأكثر ما يستعمله الناس هو التخلل بالسواك وهو أنواع منه السواك المأموني [١] ، وأكثر ما يستعمله العامة ، ثم الغسل بعد ذلك بالأشنان ، وكان الأغنياء وكبار رجال الدولة يضيفون إليه مواد مطيبة كالأرز المطحون أو الصندل الخرساني والكندر [٢] والمسك والكافور والورد الجوري ، عند ذلك يصبح سلطانياً ويرغي كما يرغي الصابون ، ويزبد كما يزبد السدر [٣] ، ثم بعد ذلك يغسل الضيوف أيديهم في طشت ثم التنشيف بالمنديل الأبيض [٤] .

وجرت العادة عند البغداديين أن يبخر صاحب الدعوة المدعوين ويطيبهم بالطيب الهندي وعلى المدعوين أن يشكروا صاحب الدعوة ويدعو له بالبركة [٥] .

---

(1) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤١ .

(2) الكندر : هو اللبان وأجود أنواعه ما جاء من اليونان . ابن البيطار : مفردات الأغذية ، م٢ ، ص٢١٥ .

(3) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤١ .

(4) المصدر نفسه ، ص٤٢ .

(5) الخطيب البغدادي : التطفيل ، ص٨٦ ؛ أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤١ ، وهذه العادة ما زالت سارية في مجتمعنا العربي .

فمن الآداب العامة للطبيخ لدى البغداديين هو اختيار الطباخ بحيث يكون ماهراً عارفاً بقوانين وأصول الطبيخ ، وأن يتميز بالنظافة العامة والنظافة الشخصية ، يتعهد بقص أظافره ، ولا يتركها تطول لئلا تجتمع الأوساخ تحتها [١] ، وكان اختيار الطباخ خاص بالخاصة والأغنياء من الناس أما عامة الناس فإنهم يعتمدون على خدمة نسائهم أو يقومون بأنفسهم بالطبيخ في منازلهم ، كما أن هناك آداباً عامة تتعلق باختيار أدوات الطبيخ في القصور ، فقد كانوا يفضلون القدور البرم ثم الفخار ، وهما أفضل ما يمكن الطبخ فيه ، ثم عند الضرورة يمكن الطبيخ في قدور النحاس المبيض ، واعتبـروا أن أردأ ما يمكن الطبخ فيه قدور النحاس الغير مبيضة [٢] .

وكان من الآداب أيضاً اختيارهم للحطب الذي يوقد عليه ، فيختارون اليابس منه وهو ما ليس له دخان ساطع كحطب الزيتون والسنديان ، وأن يتجنب الطبخ على مـا فيـه نداوه ، وحطـب التين لأنه كثير الدخان وأن يعرف الطباخ مقدار ما يحتاج من وقود [٣] . كما كان من آداب الطبيخ اختيار المطيبات والنكهات واختيار أفضلها ومـن ذلك أن يختار الملح النقي الأبيض الخالي من التراب والحجارة الصغار ، وأن يختـار أجوده وهو ما حل وعقد ، وأما الأبازير كالكسفره يختار الحديث منها ويكون أخـضر اللون يابساً والكمون والكراويا كذلك ، وأن يبالغ في تنقية الأبازير وطحنها طحناً ناعماً في رحى أو هاوند نحاس ، أما المصطكى وهي من المنكهات عليه أن يختار ما كـان منها حباته كبار وبراقة غير قديمة [٤] . كما كانوا يعتنون بنظافة الأواني المستعملة في الطبخ فتغسل بالطين وتدعك بالأجر والأشنان ، والورد والياسمين المدقوقين ، ثم بورق الأترج الطري [٥] .

---

(1) البغدادي : محمـد بن الحسين بن محمد الكاتب البغدادي : كتـاب الطبـيخ ، ط١ ، دار الكتـاب الجديـد ، ١٩٦٤م ، ص١١ .

(2) المصدر نفسه ، ص١١ .

(3) الخطيب البغدادي : كتاب الطبيخ ، ص١٢ .

(4) المصدر نفسه ، ص١١ .

(5) المصدر نفسه ، ص١٢ .

ولاعتماد المطبخ البغدادي على اللحوم كمادة أساسية فإن هناك قواعد لطبخـه ، فكان يختار الهاوند من حجر لدق اللحم [١] ، وإن يكثر الطباخ من استخدام الأبازير في طبخه ، وقبل أن يطبخ اللحم يغسل بالماء الحار والملح حتى لا يبقى فيه دم أو وسـخ وأن ينقى من الغدد ، وإذا غلت القدر تأخذ الرغوة والزبد ووسخ اللحم وما يطفوا على رأس القدر وينحى عنه [٢] ، كذلك يدهن اللحم بالدهن قبل سلقه ، ومـن عـاداتهم أن الطبيخ عامة يترك على نار هادئة لمدة ساعة قبل غرفه [٣] .

إن كثرة أنواع الطعام وتعدد ألوانه كان شائعاً ببغداد منذ العهود العباسية الأولى خاصة لدى الخلفاء والوزراء وأهل الثراء من الناس ، وقد كان عدد هذه الألوان مـن الأطعمة يبلغ مبلغاً حدث جعفر بن محمد وكان أحد العشرة الذين اختـارهم المـأمون لمجالسته ومحادثته من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم – قال : " تغدينا يوماً عنـده أي المأمون فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون ، وكلما وضع لوناً نظـر إليه المأمون فقال : هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا [٤] مما يدل على أن المأمون كـان على علم بالطب . ومما يؤكد ما ذكرناه أن الرشيد كان ينفق على طعامه في كل يـوم عشرة آلاف درهم ، وأنه ربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لوناً من الطعام [٥] .

كذلك في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي لم يختلف الأمر كثيراً إن لم يكن ازداد في كثرة الألوان من الأطعمة التي تهيأ للخلفاء أو في المآدب والدعوات ، فقد أعدت أنواع الحلوى وأنواع الأطعمة ما تجاوز حد الكثرة ، عند افتتـاح المدرسـة المستنصرية [٦] " تناوله الحاضرون تعبئةً وتكويراً " [٧] وعند افتتاح المدرسة الشرابية

---

(1) المصدر نفسه ، ص١٢-١٣ .
(2) المصدر نفسه ، ص١٢-١٣ .
(3) المصدر نفسه ، ص١٣ .
(4) ابن طيفور : بغداد ، ص٣٦ ؛ المنجد صلاح الدين : مآكل الخلفاء العباسـيين ، الرسـالة ، العـدد ٦٥٣ ، ١٩٤٦م ، ص٦١ .
(5) المسعودي : مروج الذهب ، ج٣ ، ص٣٥٥ ؛ متز : الحضارة الإسلامية ، م٢ ، ص٢٤٧ .
(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٠ .
(7) المصدر نفسه ، ص٦٠ .

التي أنشأها مشرف الدين إقبال الشرابي ، عمل من أنواع الأطعمة وأنواع الحلوى وعبئ في صحنها على شكل القباب ، وحمل إلى جميع المدارس والأربطة[1] .

ومن خلال ما ذكره لنا المؤرخون من أنواع الأطعمة وتعددها وشيوعها في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي واستمرار شيء منها حتى وقتنا الحاضر ، في بغداد ، نصل إلى أن هناك أنواع من الطعام أختص به الخلفاء وكبار رجال الدولة والأغنياء من الناس ، فقد كان الخلفاء أكثر ميلهم إلى اللحوم وخاصة الدجاج ، والطيور ومنها الدراج [2] ولحوم الجداء ، وهو طعام مكلف يحتاج إلى المطيبات [3] ، وكان بعض الخلفاء ترسل إليه الأطعمة من النواحي المختلفة ذكر لنا ابن الفوطي أنه في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م حمل فخر الدين ابن المخرمي صاحب الديوان إلى والدة الخليفة من البصرة ، ما حمل على ستة عشر جملاً من الحلوى وأقراص ماء الليمون ومخلط [4] وبسر مطبوخ وماء الورد والخل وقشر الطلع وليمون أخضر وأترج وتفاح وكمثرى وخوخ ونارنج ورمان وعنب وباذنجان وماء الليمون والحصرم [5] وخل العنب [6] . أما طعام الفقراء فقد كان يعتمد على الحبوب كالباقلاء والعدس وغيرهما ، وعلى لحوم البقر الغليظ التي يكرهها الأغنياء لصعوبة هضمها وبطون الماشية وأمعائها وأكارعها ورؤوسها ولحوم الجمال إذا توفرت [7] ، وهناك طعام شاع بين الناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم ، كالسمك والباقلاء والهريسة وغيرها .

---

(1) المصدر نفسه ، ص٦٠ .

(2) الدراج نوع من الطيور . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج١ ، ص٢٩٣ .

(3) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٩-٤٠ ؛ البغدادي : كتاب الطبيخ ، ص١٤ .

(4) المخلط : أنواع من الفواكه المجففة أو خليط من الحلويات اليابسة . ناجي معروف : المدارس الشرابية ، ص٥٩ .

(5) الحصرم : هو غض العنب ما دام أخضر ، وحصرم الثمر الذي تعاصى عن النضج . ابن البيطار : مفردات الأغذية ، م٢ ، ص٢٢ . وما زال إلى الآن غض العنب يطلق عليه اسم الحصرم في بلاد الشام وخاصة سوريا .

(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٤٩ .

(7) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤٢ .

ولا يسعنا المجال للخوض في تعداد أنواع الأطعمة في بغداد في هـذا العـصر والتي أشارت إليها كتب الطبيخ غير أننا نقتصر على ذكر نماذج من طعام تلك الفتـرة والتي توضح لنا مآكل كل فئة من فئـات المجتمـع حـسب مـستوياتهم الاجتماعيـة والاقتصادية .

مآكل الخلفاء وأغنياء الناس :

كما ذكرنا فيما سبق أن البغادده اعتمدوا كثيراً على اللحوم كغذاء أساسـي فـي طعامهم ، وأن طبخ اللحوم يحتاج إلى كثير من المطيبات والأبازير ، وهو يعد طعامـاً مكلفاً بالنسبة للفقراء ، لذلك نستطيع أن نصنفها ضمن أطعمة الطبقة المترفة من الناس كالخلفاء والأغنياء ، فكانت اللحوم وخاصة الدجاج من الأطعمة المفـضلة للخلفـاء ، سواء كان صغاراً كالدراج والفراريج أو كباراً [١] ، لذلك كان سـعر الـدجاج غاليـاً بالنسبة للأطعمة الأخرى فعلى سبيل المثال كان سعر الدجاج بدينار ، بينما الباذنجـان يباع المائة بدانق [٢] .

وكانت مبادئ طبخ اللحوم واحدة إلا أنها تختلف باختلاف المواد المضافة إليهـا من المطيبات ، فقد كان يؤخذ لحم الدجاج ويسلق ثم يقطع ويعـرق فـي الـشيرج [٣] الطري المضاف إليه الكسفرة والمصطكى والدارصين [٤] ، ثم بعدها يطبخ حسب مـا يريـد الطبـاخ طبخها من أنواع الأكلات ، ولا يستعمل البصل والثوم فـي طبـائخ الدجاج [٥] . بل كان البغداديون يجعلونه في الحوامض بحيث يوضع لحم الدجاج فـي ماء حب الرمان أو ماء الليمون ، أو الحصرم أو الخل والسكر ثم يضاف إليها اللـوز

---

(1) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص١٠٠ ؛ أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٣٩ .

(2) الخطيب البغدادي : التطفيل ، ص٧٩ ، والدانق سدس الدرهم وربما قالوا للدانق دانقان ، الكرملي : ماري : النقود وعلم النميات ، القاهرة ، مكتبة لويس سركيس ، ١٣٣٩هـ ، ص٢٦ ، ٣٨ .

(3) الشيرج هو الدهن المستخرج من السمسم .

(4) الدارصين بالفارسية شجر الصين هـو نبات لونه مائل للحمرة وأعواده ملتفة ، ابـن البيطـار : مفـردات الأغذية ، م٢ ، ص٨٣ .

(5) البغدادي : الطبيخ ، ص٥٠-٥١ .

المدقوق ناعماً والذي سبق وأن نقع في الماء وأزيل قشره ، ثم يـرش بمـاء الـورد ويوضع فوقه نعناع يابس [١] .

وإذا نقع الدجاج في الخل ثم طبخ سمي مصوصا ثم بعد سـلقه يطـرح عليـه الكرفس والخل مصبوغاً بالزعفران [٢] ومن الناس من يجعل عليه عيون البـيض [٣] ويسمى اسفيذراج إذا سلق بالمصطكى والدراصين ، وإذا أضيف اللوز الحلو الناعم مع الحمـص المقشور والشبـت وجعلت عليه عيون البيض سـمي ذلـك خـشكنانه أو فالوذجيه ، إذا نقع في الخل ثم طبخ سمي مقموره ، وبعد أن يغرق لحم الـدجاج فـي الخل ومري بمقدار متساوي ، ثم يوضع عليه شيء مـن مـاء الـسلق ، وإذا طجـن بالشيرج سمي مطجنه [٤] .

ومن الأكلات المترفة ببغداد ما يعرف بالسكباج ولصنعها كـان يقطـع اللحـم السمين أوساط ويوضع في قدر ويغمر بالماء ، ثم يضاف إليـه الكـسفرة الخـضراء والدارصين والملح قدر الحاجة ، وبعد أن يغلي ترمى رغوته وزبده ، تـضاف إليـه الكسفرة اليابسة وتنحى عنه الكسفرة الخـضراء ، وإذا كـان أوان البـصل الأبـيض والكرات والجزر ، أو الباذنجان يقشر الجميع ويوضع كل ذلك في قدر أخرى فيها ماء وملح للسلق نصف سلقه ، ثم ينشف من مائه ويترك في دبس أو عسل أيضاً إلا أنهـا بالدبس أليق ثم تمزج في الحموضة والحلاوة مزجاً معتدلاً ثم يصب في القدر ويتـرك على النار لتغلي ساعة من الزمن ثم يرفع من على النار ويؤخذ من مرقه قليلاً ويضاف إليه قدر الحاجة زعفران ويوضع عليه ، ثم يضاف إليه اللوز المقشر الحلو مع قليـل من العناب [٥] ، والزبيب والتين اليابس ، ويغطى ساعة على نار هادئة ، وخلال ذلـك

---

(1) المصدر نفسه ، ص٥٠-٥١ .

(2) الزعفران : من أسمائه الكركم والريهقان حسن اللون وشعرته بيضاء هش ساطع الرائحة . ابـن البيطـار : مفردات الأغذية ، م٢ ، ص١٦٢ .

(3) البغدادي : الطبيخ ، ص٥١ .

(4) البغدادي : الطبيخ ، ص١٣ ، والمري نوع من أنواع المطيبات . المصدر نفسه هامش رقم (٢) .

(5) العناب : نوع من الشجر له شوك وأغصانه معقوفة ويحمل نوعاً من الأثمار سمي بنفس الاسم ؛ الدينوري : النبات ، ص١٦-٢١ .

تمسح جوانب القدر بخرقة نظيفة ويرش على القدر ماء الورد ، ثم يرفع عندما يصبح جاهزاً للأكل [1] .

كذلك كانت الإبراهمية من الأكلات المترفة ، وطريقة صنعها هـي أن يقطـع اللحم أوساطاً ويوضع في القدر مع غمره بالماء وذر القليل من الملح بقـدر الحاجـة وتركه ليغلي ، ثم يجمع كل من كسفره وزنجبيل وفلفل مدقوقة ناعماً وتوضع في خرقة كتان مشدودة وتلقى عليه ، مع قطع دارصين ومصطكى ، وتقطـع ثـلاث بـصلات صغاراً وتلقى عليه ، ويدق لحم أحمر ويعمل كيساً على القانون ويلقى في القدر ، فإذا نضجت نحيت تلك الأبازير التي في الخرقة على القدر ، وتمرق بماء الحصرم العذب العتيق فإن لم يوجد فماء الحصرم الطري يعصر باليد أو بالخل ، ثم يـصفى ويرمـى باللوز الحلو المدقوق بالماء ناعماً ، ثم يحلى يسيراً بالسكر ، ولا يكن شديد الحموضـة ويترك مدة ساعة حتى تهدأ النار ، ثم تمسح جوانب القدر بخرقة نظيفة ، ويرش بمـاء الورد ثم يرفع من على النار [2] .

وكانت المضيرة من الأطعمة البغدادية المـشهورة وتحتـاج إلـى المطيبـات والنكهات ، وطريقة صنعها أن يختار لها اللحم السمين مع الإليه ويقطع ويوضع فـي قدر ثم يضاف إليه ماء وملح ويغلى ، وتزال رغوته من على سطح الماء ، فإذا قارب النضج يؤخذ البصل الكبار والكرات النبطي أيضاً ويقشر ويقطع ثم يغسل بماء وملـح وينشف ، ثم يضاف اللحم في القدر ، وتضاف معه كسفره يابسة والكمون والمصطكى والدارصين المدقوق ناعماً ، فإذا نضج ونشف الماء منه ولم يبقى سوى الدهن غـرف في صحن ، ثم يؤخذ اللبن الفارسي [3] قدر الحاجة ويوضع في قـدر ويـضاف إليـه الليمون المملوح والنعنع الطري ويترك حتى يغلي ، ثم يبعد عن النار فإذا سكن غليانه يضاف إلى ذلك اللحم والتوابل إليه ، ثم تمسح جوانب القدر ويترك حتى يهدأ [4] .

---

(1) البغدادي : الطبيخ ، ص١٤ .

(2) البغدادي : الطبيخ ، ص١٤ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٤ .

(4) اللبن الفارسي هو اللبن الحامض ، داود الجلبي هامش كتاب الطبيخ للبغدادي ، ص٢٣ .

أما البازماورد ، ذكره لنا البغدادي ضمن المطجنات والبوارد في المطبخ البغدادي ، وطريقة صنعه هو أن يؤخذ الشواء الحار الذي قد فتر قليلاً ويقطع ويجعل عليه ورق النعنع وقليل من الخل والليمون المملح واب الجوز ، ويرش عليه قليلاً من ماء الورد ويدق بالساطور دقاً ناعماً ، ولا يزال يضاف الخل إليه حتى يشربه جيداً ، ويؤخذ الخبز السميد [١] الملبب ويخرج لبه ، ثم يحشى من ذلك الشواء جيداً ويقطع بالسكين قطعاً متوسطة مستطيلة ثم يؤخذ مركن فخار ويبل بالماء وينشف ويرش فيه ماء ورد ثم يفرش فيه نعنع طري ويعبئ فيه بعضه فوق بعض ثم يغطى بشيء من النعنع ويترك ساعة ثم يؤكل ، كما يؤكل البازماورد بارداً أيضاً ويكون طيباً [٢] . وكان يقال عنه أنه سمي في العصر العباسي بلقمة الخليفة ولقمة القاضي ونرجس المائدة [٣] ، مما يدلنا على أن الخلفاء والقضاة كانوا يفضلونه ويحلون به موائدهم .

وبدون شك فإن معظم أطعمة المطبخ البغدادي كانت أجنبية المصدر مما يدل على التمازج الحضاري بين عناصر المجتمع المختلفة ، مثال ذلك الديكبريكه وهي طعام أصله آرمي وتلفظ " يكابريكا " وتعني الديك المبارك ، وقد شرح البغدادي طريقة طبخها في كتابه فقال صنعها أن يقطع اللحم ويترك في القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع وكرات ، ويطرح عليه غمرة ماء ويغلى ثم تؤخذ رغوته وتنحى عنه ، ويلقى عليه خمر وخل ومري ويلقى فيه قليل فلفل مسحوقاً ناعماً ، ويطبخ حتى يبين طعمه ، ومن الناس من يحليه بقليل سكر ، وإذا نضج طرح فيه أظفار الطيب ، ويترك حتى يهدأ على النار ويرفع [٤] .

الأطعمة الشائعة :

كان هناك أطعمة شائعة بين الناس على اختلاف مستوياتهم المالية والاجتماعية ، وهي عديدة ومتنوعة ، من أهمها السمك ويؤكل السمك إما مقلياً أو

---

(1) الخبز السميد نوع من الخبز يأكله الأغنياء . البغدادي : التطفيل ، ص٩١ .
(2) البغدادي : الطبيخ ، ص١٤٠ .
(3) الخفاجي : شفاء الغليل ، ص٩٨ .
(4) البغدادي : الطبيخ ، ص١٢ .

مشوياً أو مطبوخاً إلا أن المقلي الأكثر استعمالاً وكانوا يأخذون السمكة ويقطعونهـا أو تترك على حالها ثم ينظفونها بإزالة الجلد والقشور عنها ، وبعد ذلك تجفف من الماء ثم تقلى بالشيرج ، وينثرون عليها البهارات . وهناك طريقة أخرى لأكلها وهي بعد قليهـا تؤخذ وهي حارة فتطرح في لبن قد جعل فيه ثوم مدقوق وترش بـالكمون والكـسفره والدارصين وتؤكل إما حارة أو باردة حسب الرغبة [1] ، أما المشوي من السمك فلـه عدة طرق لعمله منها أن تؤخذ السمكة بعد تنظيفها وإزالة قشرها ويشق جوفها وتنظف جيداً وتنشف من الماء ويرش عليها المطيبات كالسماق وغيره ويدق ثوم ناعماً ويخلط مع الدارصين والمصطكى والكمون وتعجن جميعها بالشيرج ويضاف له الملح حـسب الرغبة وتحشو به السمكة ، ثم تدهن بالشيرج والزعفران المخلوط بماء الورد باطنهـا وظهرها وتربط بخيط كتان قوي وتوضع في سيخ حديدي وتوضع في التنور على نار هادئة حتى تنضج وتؤكل حارة أو باردة [٢] .

وهناك العديد من الأطعمة الشعبية الشائعة خاصة البحرية منها التي تعمل بمـا يصطاده الملاحون كالروبيان والصف والسمك النهري كالشبوط والسلوق وغيره [٣] . وهي أكلات شائعة إلى وقتنا الحاضر ويأكلها الناس كافة . كذلك نجد مـن الأطعمـة الشائعة بين الناس الرؤوس والأكارع [٤] ، كانت تباع في الأسواق مطبوخة ونئية [٥] . وكان الخلفاء يفضلون أكلها في الشتاء خاصة رؤوس الحملان ، لأنها مـن الأطعمـة الحارة ولا يخلطون مع أكلها شيئاً آخر كما لا يشرب الماء بعدها [٦] ، والأرز كان من الأطعمة الشائعة الذي يؤكل مع اللبن ويقدم مع غيره من الأطعمة ، أو مع العدس وهو ما يعرف بالمجدرة ، وطريقة عملها أنه يجعل فيها مثل نصف الأرز عدساً ويطبخ مثله

---

(1) البغدادي : الطبيخ ، ص٦٠-٦٢ .
(2) البغدادي : الطبيخ ، ص٦٠ .
(3) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٢٢ .
(4) وهي تسمى بالباجة في الوقت الحاضر .
(5) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٣٠ .
(6) ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ص١٠٥ .

ويوضع الماء في القدر فإذا غلى يضاف إليه الأرز مع العدس على دفعات ، ولا يحرك ثم يغطى القدر ساعة حتى ينضج [(١)] ، وهي طعام متوسطي الحال .

كذلك الماء والحمص ، فبعد أن يعرق اللحم كعادة طبخه يـضاف إليـه الملـح والكسفره والكمون بقدر الحاجة وعود دارصيني وحمص مقشور وشـبت وبـصلـة مقطعة ، ثم يغمر بالماء ويوقد تحته إلى أن ينضج [(٢)] .

كمـا كانت الهريسة من الأكلات الشائعة التي تباع في الأسواق مـع الـصباح الباكر [(٣)] ، وتخرج العامة لشرائها مبكراً ، أما عملها فهو أخذ اللحم السمين ويلقى في القدر ويغمر بالماء ، ويترك حتى يقارب النضج عندها يخرج قطع اللحم فيزال عنـه العظم ويعاد إلى القدر مرة أخرى ويضاف إليها أربعة أرطال مـن الحنطـة الجيـدة المغسولة والمقشورة ، ويظل إبقاء النار تحت القدر حتى ينتهي ربـع الليـل ويكـون تحريكها مستمراً خلال ذلك الوقت ثم يضاف إلى القدر لحم ودجـاج مقطـع وعيـدان دارصيني وتترك فوق النار إلى منتصف الليل فتضرب ضرباً جيـداً ، حتـى ينعقـد الخليط فتصبح جاهزة ومتماسكة ثم ترفع عن النار وتترك إلى الفجر وتـسلى الأليـة الطرية وتجعل على وجهها كما يلقى عليها أيضاً الكمون والدارصين المدقوق ناعمـاً ، وتؤكل مع ماء الليمون الطري [(٤)] .

كذلك كانت الباقلاء من الأطعمة الشائعة والمفضلة لدى الناس وخاصة الفقراء ، فبعد تقشيرها وتنقيتها وشقها نصفين كانوا يضعون عليها الشيرج أو دهن الجوز لعمل ثريد الباقلاء [(٥)] ، وكانوا يأكلون الباقلاء مع ماء الليمون أو السماق المـدقوق ناعمـاً وتعتبر من المشهيات وكانوا يسمونها بحلية الخوان [(٦)] .

---

(1) البغدادي : الطبيخ ، ص٢٩ .
(2) المصدر نفسه ، ص٢٩ .
(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١١ ، ص١٧٨ .
(4) البغدادي : الطبيخ ، ص٥٢ .
(5) البغدادي : الطبيخ ، ص٣٤ ؛ الثعالبي : خاص الخاص ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ص٤٦ .
(6) البغدادي : الطبيخ ، ص٣٤ ؛ الثعالبي : ثمار القلوب ، تحقيق قصي الحسين ، دار مكتبة الهلال ، بيـروت ، ٢٠٠٣م ، ص٤٨٧ .

كما كان الكباب من الأكلات الرخيصة والمحبوبة لكونه من الأكلات الـشعبية ، وله أصول في طبخه ، فكان يؤخذ اللحم المشروح وهو ما شرح تشريحاً خفيفاً ، ونثر عليه الماء والملح وقليل من الليمون ويفرقها على المشترين لكي يرشوها على الكبـاب بعد نضجه [١] ، وله أنواع منها ما يسمى بالكباب الرشيدي [٢] .

طعام فقراء العامة :

كانت مآكل الفقراء من الناس رخيصة وبسيطة تتكون من الخبز ، فكان الفقراء والزهاد من الصوفية يأكلون خبز الحنطة وخبز الشعير [٣] . وكان الدبس والخل مـن أطعمـة الفقراء إذا لا يتوفر اللحم ، أما أغلب أطعمتهم فتعتمد على الحبـوب خاصـة الباقلاء ، وكذلك الباذنجان ، فمن الفقراء من يشتري ماء الباقلاء لينقـع فيـه رغيفـاً ويقتات به ، ومن الفقراء من يأكل مما يتصرف به الناس خاصة الذين اتخذوا المساجد والربط أماكن سكنى لهم [٤] .

الحلواء :

ومن الأطعمة المفضلة لدى أهالي بغداد كانت الحلواء ولها عدة أنـواع . ذكـر الشيزري عن كثرتها فقال : " لا يمكن ضبطها بصفة ولا عيار " [٥] ، فمنها الحلـوى البسيطة كالعصائد والتي تصنع وتباع في الأسواق منها عصيدة التمر وهي أن يؤخـذ مقدار من التمر ومقدار من الماء ويكون الماء أكثر من التمر ويجعل في قدر يوقد تحته حتى ينضج ثم يمرس مريساً جيداً ويصفى على منخل ويعاد القدر على النار فيـضاف إليه مقدار من السكر ومقدار من العسل ، ونصف درهم من الزعفران ومقـدار مـن الخبز المفتوت وشيرج وجوز مقشر حسب الرغبة ويحرك في القدر حتى ينضج وتزين

---

(1) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٣ .

(2) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبو القاسم ، ص٣٩-٤٠ .

(3) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٤٦ ؛ المنتظم ، ج٩ ، ص١١ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٧ ، ص١٦٢ .

(5) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٤٠ .

باللوز [١] ، وكان يعتبر العسل عسل قصب السكر من الحلوى والشاشن وهـو عـسل يوضع في إناء ليجمد ويصبح حلوى [٢] ، ومن الحلوى ما يسمى بالخبيص وتصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز ويرفع على النار ليجمد [٣] ، وقد تنوعت حلوى الخبائص منها خبيص القرع ، وخبيص اللوز وغيرها [٤] .

ومن الحلوى ما تسمى بالصابونية وتصنع من الدقيق بعد تحميـصه بالـسمن ، ويضاف إليه العسل ثم يضاف إليه اللوز المقشر ويدخل في الفرن حتى ينضج ، ويعمل كقوالب الصابون [٥] ، كذلك اللوزينج لعملها يؤخذ السكر ويسحق ناعماً مع مقدار مـن اللوز المطحون ناعماً ويخلط ويعجن بماء الورد ثم يؤخذ مقدار من الخبـز المـدقوق ويبسط الرقيق منه ويجعل عليه اللوز والسكر ثم يطوى ويقطع قطعاً صغيرة ويـصف بعضه إلى جانب البعض الآخر ويضاف عليه الشيرج الطري حسب الحاجة ، ثم يغمر بعد ذلك بالجلاب المخلوط بماء الورد وينثر عليه الفستق المدقوق ناعماً [٦] ، هذا وقـد ذكر لنا البغدادي أكثر من ثلاثة وعشرين صنفاً من أصناف الحلواء المعروفـة بـين البغداديين .

الفواكه :

أما الفواكه فقد كانت تقدم على الموائد قبل الطعام ، فكانوا يكثرون من تناولها ، وأشهرها لديهم التمور ، والأعناب ، ومنها الموز والنارجيـل ، والتفـاح والـسفرجل والكمثرى إلى غير ذلك من أنواع الفواكه [٧] .

---

(1) البغدادي : الطبيخ ، ص٧١ .
(2) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٤٠ .
(3) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٤٠ .
(4) البغدادي : الطبيخ ، ص٧٤ ؛ أبو المطهر : حكاية أبي القاسم ، ص٤١ ،
(5) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٢٢٢ .
(6) البغدادي : الطبيخ ، ص٨٠ .
(7) الخطيب البغدادي : التطفيل ، ص٨٩ ؛ أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٤٥-٤٦ .

الأشربة :

أما الأشربة فكانت تقدم على موائد البغداديين بعد الطعام وكان على رأسها الماء الذي اعتنوا به وبتبريده صيفاً [١] . ثم الألبان كلبن الإبل والبقر والأغنام ، ثـم يليهـا عصير الفواكه المستخرج منها سواء من الجزر أو الليمون والتفاح والتمر والـسفرجل وعرق السوس [٢] .

---

(1) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٦٦٤ .

(2) ابن هبل : مهذب الدين أبي الحسن علي بن أحمد ابن هبل : كتاب المختارات في الطب ، ط١ ، حيدر آباد ، الدكن ، مطبعة المعارف العثمانية ، ١٣٦٢هـ ، ج١ ، ص٥٣٩-٢٤٨ .

المبحث الثالث : الألبسة والأزياء .

تنوعت الألبسة والأزياء في المجتمع البغدادي تنوعاً كبيراً يعكس الامتزاج الحضاري بين عناصر المجتمع المختلفة والتباين الاجتماعي بين فئاته ، فقد كان لكل فئة من الناس لباساً خاصاً تميز به حسب الدرجة العلمية والوظيفة والمنزلة الاجتماعية ، فقد كان للخلفاء زيهم الخاص وللسلاطين زيهم وللأمراء زيهم الذي يميزهم كذلك لأهل العلم والقضاة وموظفي الدولة ، والجند كان لهم زيهم الخاص .

وعلى كلاً فإن السمة العامة التي جمعت بين فئات المجتمع المختلفة أن لهم ثلاثة أنواع للباس من حيث الغاية فلباس للرأس ولباس للبدن وآخر للأرجل ، ولكنهم اختلفوا في نوعية وشكل اللباس .

أولاً : ألبسة الرأس :

العمامة : كانت العمامة من لباس الرأس الشائع بين الناس وهي اسم لما يعقد ويلوى عليه من صوف أو قطن أو كتان أو نحو ذلك [(١)] . وهي لباس الرجال قال ابن الجوزي في إحدى خطبه : " يا رجال ما بانت رجولتهم إلا بالعمائم " [(٢)] .

والعمامة هي لباس موروث عربي الأصل ، اتخذت قبل الإسلام وبعده أصبحت شعاراً دينياً علاوة على كونها زياً موروثاً تعطي صاحبها الهيبة والوقار [(٣)] ، وقد استمر لبس العمامة في المجتمع البغدادي إلى القرن السادس الهجري ، فقد كان ينظر إلى الرجل الذي يعري رأسه بأنه ساقط المروءة وتارك للآداب [(٤)] ، وقد كان لابس العمامة وخلعها رسوم وآداب متبعة ، أنه عند الدخول على الخلفاء والأمراء والوزراء أن يدخلوا وهم معممون ، كما لا يسمح بخلع العمامة في دار الخلافة ومن يفعل ذلك

---

(1) الكتاني : محمد بن جعفر الكتاني الحسني : الدعامة لمعرفة سنة العمامة ، مطبعة الفيحاء ، دمشق ، ١٣٤٢هـ ، ص٣ .

(2) ابن الجوزي : المدهش ، ص١٦٩ .

(3) الكتاني : الدعامة ، ص٥٣-٩٢ .

(4) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٧٢-٧٧ ؛ ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢٥١ .

كان يتعرض للعقاب ، كما لا يجوز خلع العمامة وكشف الرأس إلا في المناسك والتعبد لله سبحانه وتعالى ، أو في تعزية الخلفاء [١] ، كما كانوا إذا أرادوا عقوبة شخص مـا خلعوا عمامته من رأسه [٢] .

وكانت العمامة من لباس الخلفاء ، إذ كان من لباسهم الرسـمي لـبس العمامـه السوداء ، فاللون الأسود هو اللون الذي اتخذه العباسيون شـعاراً لـدولتهم ، فكانـت العمامة السوداء تعتبر من جملة الملابس الرسمية للخلفاء والوزراء وكبـار رجـال الدولة ، وكذلك عامة الداخلين على الخليفة ، أو في المواكب والاحتفالات الرسـمية ، وفي المقابل منع العامة من لبسها [٣] . أما اللون الأبيض وهو الشائع عند المسلمين إذ يعتبر لبسه من السنن النبوية المتبعة [٤] . كما كانت أيضاً من لباس الخلفاء ، فعند بيعة الخليفة المستنصر بالله كان يرتدي عمامة قصب بيضاء [٥] ، قـال ابـن الـساعي : " حضرت بيعة فلما رفعت الستارة شاهدته وقد كمل الله صورته ، عليه ثـوب أبـيض وبقيار أبيض وطرحه قصب بيضاء " [٦] .

وكثيراً ما استعمل الناس الأصباغ في هذه الفترة ، فكانت ملابس الناس ألوانـاً مختلفة ، فقد شاع في هذا القرن لبس العمائم الكحيلة التي أعطيت للأمـراء وأمـراء الجنـد ، كما أعطيت من ضمن الخلع للمدرسين عند افتتاح المدرسة المستنصرية سنة ٦٣١هـ/١١٣٣م [٧] ، ومن ألوان العمائم كانت العمائم الخضراء التي شـاع لباسـها بين العلويين من الشيعة ، وكان الفلاحون وبعض المتصوفة يلبسون العمائم الملونة [٨] ، كذلك كان أهل الذمة إذا أجبروا على لبس الغيار لبسوا العمائم الصفراء ، تميزاً لهـم

(1) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢٥١ ؛ ميخائيل عواد ، صور مشرقة ، ص٤٨ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٨٩ .
(3) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٧٨ ، ٩١ ، ٩٢ .
(4) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٩٨ .
(5) الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص١٣٤ .
(6) ابن الساعي : الجامع المختصر .
(7) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٩ .
(8) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٨٦ .

عن المسلمين [١] . وكان الأغنياء وكبار رجال الدولة تكون لهم عدة أنواع من العمائم يلبس لكل مناسبة ما يناسبها [٢] ، فقد تفننوا في أنواع القماش المصنوعة منه العمائم ، فمنهم من اتخذها من الخز أو من الثوب الخار [٣] ، أما فقراء العامة وبعض الصوفية فقد اتخذوا من الخرق البالية عمائم [٤] ، كما كان الفلاحون يلبسون الفوط الملونة وهي قماش من الصوف غليظة الصنع [٥] .

وبذلك يتضح لنا أن من لباس الرأس كانت العمامة لدى جميع فئات المجتمع إلا أنها اختلفت في نوعيتها وشكلها ما بين الخلفاء وكبار رجال الدولة والأغنياء ، وعامة الناس .

ومن لباس الرأس كانت القلانس ، وهي من الأزياء الفارسية التي تأثر بها المجتمع البغدادي نتيجة لتأثره بالعنصر الفارسي في كثير من مظاهر حياته الاجتماعية ، فلبس الناس القلانس الطوال وقيل بأن المنصور هو أول من لبس القلانس المفرطة في الطول [٦] ، والقلنسوه هي لباس مستدير ومبطن من الداخل توضع على الرأس [٧] ، وهي لباس مشترك بين الخلفاء والأمراء وعامة الناس إلا أنهم يختلفون في شكلها ونوعيتها فالخلفاء وضعوا فوقها العمائم وجعلوها طويلة وأحياناً قصيرة [٨] . ومن القلانس الطاقية والدورقية والقلنسوه الدنية [٩] وهي قلنسوه بشكل الدن وهو " الجب " ، يلبسها القضاة [١٠] .

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٨ .

(2) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٠١ .

(3) الثوب الخار : الخز نوع من الثياب قيل أنه ينسج من الكتان والصوف والحرير وقيل الوبر والأرجح أنه من الكتان المنسوج . ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص٥٤ .

(4) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٩٨ .

(5) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٩٢٨ ؛ ابن سيدة : المخصص ، ج٤ ، ص٧٢ .

(6) وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص٣٥ ؛ ادي شير : الألفاظ الفارسية المعربة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٨م ، ص١٢٨ .

(7) الكتاني : الدعامة ، ص٣٣ ؛ ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص١٢٨ .

(8) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١١٧ .

(9) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٤ ، ص٦ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١١٦ ، ص١١٧ .

(10) ميخائيل عواد : صور مشرقة ، ص٥٣ .

وكان سلاطين السلاجقة يلبسون القلانس الطويلة عند جلوسهم لاستقبال العامة ؛ فقيل أن السلطان ألب ارسلان أن المسافة بين طرف لحيته وطـرف قلنـسوته بلغـت ذراعين كاملين كذلك السلطان ملكشاه كان يلبسها عند استقباله للرسل والأمـراء [1] . وتختلف القلانس حسب أماكن صنعها فمنها الشاشية نسبة إلى بلاد الـشاش وتلبـسها العامة ، والقلانس الرصافية نسبة إلى الرصافة ببغداد [2] ، وتـصنع القلانـس مـن الأقمشة الغالية الثمن كالحرير ، والديباج [3] وهناك الموشاه بالذهب والفضة [4] ، ومنها المجالسية وهـي التي تلبس في المجالس كمجالس المنادمة [5] ، أما بالنـسبة لعامـة الناس ، فإنها كانت بسيطة وتكون إما بيضاء أو سوداء [6] ، كما كانت تصنع القلانس من الجلد وتسمى بالسمورية [7] . وكما كان يمنع نزع العمائم عند الدخول على الخلفاء والأمراء كذلك كان يستنكر نزع القلانس في حضرتهم [8] .

ثانياً : لباس البدن :

من ألبسة البدن القباء ، وهو من الألبسة الفارسية المعربة وهو ثوب خـارجي طويـل قد يصل إلى الأرض ومفتوح عند الرقبة يبدو القفطان من تحته كمـا يفعـل الخلفاء [9] ويسمى بالزبون كما يسميه أهالي مصر والشام القنباز [10] ، والقباء أكمامه ضيقة ثم استحدثت له الأكمام الواسعة ، ومنه ما شق من الخلاف أو من لبس الأكمـام

(1) الراوندي : راحة الصدور ، ص١٨٦ ؛ البنداري : دولة آل سلجوق ، ص٤٨-٤٩ .
(2) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج٨ ، ص١٢ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٦ ؛ إبـراهيم : رجب عبد الجواد إبراهيم : المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعـاجم والنـصوص الموثقـة مـن الجاهلية إلى العصر الحديث ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ط١ ، ص١٩٥-١٩٦-٢٥١-٢٥٢ .
(3) ابن العماد الحنبلي : الشذرات ، ج٤ ، ص١٣ .
(4) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١٣ .
(5) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩١ .
(6) الكتاني : الدعامة ، ص٣٣ .
(7) الشابشتي : الديارات ، ص٢٧ .
(8) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩١ .
(9) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص٨٩ ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص٣٨٠ .
(10) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩١ .

الواسعة التي قد يصل عرضها ثلاثة أشبار [1] . والقباء هو اللباس الرسـمي لرجـال الدولة العباسية منذ القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حتى سـقوط بغـداد سـنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، فقد كان الخلفاء يلبسون قباء مولداً مصمتاً أو ملحماً أو خـزاً [2] ، أمـا الأمراء والـوزراء والقواد فقـد كانت الأقبية السوداء لباسـهم وأحيانـاً تكـون بيضاء [3] . كذلك كان القباء لباساً للمرأة وصغار الصبيان والحاشـية إلا أنـه كـان مختلفاً في الألوان عن اللباس الرسمي لرجال الدولة [4] .

ومن لباس البدن الجبة : وتلبس فوق الثياب وهي عبارة عن حلة تُلـبس فـوق الثـوب في الشتاء عادة تكون قصيرة الأكمام [5] وتعتبر الجبة لباسـاً لجميـع فئـات المجتمع ، إلا أنها تختلف من فئة إلى أخرى في نوعية قماشهـا ، فجبة الأغنياء وكبار رجال الدولة من الحرير الغالي أو الخز أو القطن أو الكتان وتكون مبطنة بالفراء [6] ، أما العامة من الفقراء والصوفية فتكون من الصوف وأكمامها طويلة مرقعة [7] ، ومن الفقراء من لا يمتلك جبة يرتديها لذلك يرتدي غلاله وهي ثوب رقيق يلبس تحت الثياب عادة [8] . وكانـت الجبة السـوداء تعطى خلعة للعلماء والمدرسـين وكبـار رجـال الدولة [9] .

---

(1) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٤٥ ؛ مليحة رحمة الله : الملابس في العراق ، المجلـة التاريخيـة المصرية ، القاهرة ، العدد ١٣ ، ١٩٩٧م ، ص١٩٥ .
(2) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩١ .
(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٧٢ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣١ .
(4) الشابشتي : الديارات ، ص٦٩-١٠٥ .
(5) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٧٢ ؛ ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٨٤ ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص١٠٥ .
(6) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٧٧ ؛ مليحة رحمة الله : الملابس في العراق ، ص١٩٣ .
(7) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٨٥ .
(8) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٧٢ .
(9) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٥٩ .

ومـن ألبسة البدن الدراعة : وهي كلمة آرامية معربة كالجبـة مـشقوقة مـن المقدمة [١] ، والدراعة لباس يلبسه كافة الناس ، فدراعة الوزراء ورجـالات الدولـة كانت مشقوقة من النحر أسفل الصدر بأزرار وعري ، وتصنع مـن الـديباج والخـز وتنسج بالذهب وترصع بالياقوت والجواهر [٢] ، وكانت الدراعة السوداء مـن الخلـع التي تعطى من قبل الخليفة عند الوزراء والأمراء وغيرهم من رجال الدولـة [٣] .

كذلك الدراعة تطلق الصدرية تلبسها البنات ، وعند العامة كذلك عبـارة عـن لباس على هيئة المعطف القصير ومطرزة الأكمام أحياناً ، ومن الدراعة ضرب يسمى المدرعة ولا تصنع إلا من الصوف الغليظ يرتديها الفقراء [٤] .

ومن الألبسة البغدادية ذات الأصول الفارسية كان الطيلسان : وهو عبارة عـن كساء لبس له أكمام أو جيوب خال من التفصيل لحمته أو سداه من صوف ويوضع فوق الكتف أو الرأس ويتدلى على الجبين ويغطى نصف الوجه [٥] . وقد يلـف الطرفـان الأماميان حول الرقبة ويتدليان على الأكتاف والخلفان منها على الظهر [٦] .

والطيلسان هو لباس الخواص خاصة القضاة والمشايخ والعلماء فـي مجـالس الخلفاء ومواكبهم [٧] ، وهو من الألبسة الغالية الثمن التي تلبس للتجمل لذلك أختص بها الخواص من القضاة والوزراء والأغنياء من الناس أما الفقراء فلم يكن شـائعاً بيـنهم

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص٣٧٦ درع ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص١٧١ .
(2) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٧٢ ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص١٧١ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٧ .
(4) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٧٢ ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص١٧١ ؛ مليحة رحمة الله : الملابس في العراق ، ص١٩٤ .
(5) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩١ ؛ أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥ ؛ ادي شير : معجم الألفاظ الفارسية ، ص١٥ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١١٩ .
(7) ابن النجار : ذيل بغداد ، ج١٦ ، ص٢٣-٢٤ .

لبسها [(1)] ، والطيلسان ملونة منها البيضاء والخضراء وفي هـذا القـرن شـاع لـبس الطيلسان الكحلية المقصبة [(2)] .

ومن ألبسة البدن الإزار : وهو لباس استمر خلال العصور العباسية ، وشـائع بين جميع فئات المجتمع الرجال والنساء على السواء يلبس للتستر [(3)] . وهو قطعة من القماش تلف الجسم وتعقد في وسطه من تحت السرة [(4)] . واستعمل الإزار لستر العورة في الحمامات للرجال والنساء ، ذكرها ابن الجوزي فقال : " دخل رجل إلى المستراح فأراد أن يحمل لباسه محمل إزاره .. " [(5)] ، وقد يلبس الإزار أسـفل البـدن أو فـوق الملابس ، فالمرأة تلبسه للتستر عند الخروج ذكره ابن الجـوزي فقـال : " إن امـرأة جاءت إلى جارة لها تستعير منها إزاراً لتمضي في حاجة وترده من ساعتها " [(6)] ، كما لبسه الرجال أيضاً فوق الملابس حيث قال الخطيب البغدادي : " أن فقيراً يأتينـا بـلا إزار ، ونقرأ عليه الحديث ونبره بالشيء " [(7)] . وذلك يبين لنا أن الرجال كانوا يلبسون الإزار فوق الملابس ويتلفعون به ، وقد أشار إلى ذلك أبو المطهر الأزدي فقال : " إذا حضر الفتى إزاره ، وقال لأهل المجلس اقترحوا أو استفتحوا .. " [(8)] .

(1) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٧ ؛ ادي شـير : الألفاظ الفارسية ، ص١٥ .
(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٤٧ ؛ ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص١٥ .
(3) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٤ ؛ ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٧٧ .
(4) ابن سيدة : المخصص ، ج٤ ، ص٧٦-٧٧ ؛ مليحة رحمة الله : ملابس العراق ، ص١٩١ .
(5) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٧٧ .
(6) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٧٧ .
(7) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٣٧٤ .
(8) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٨٥ .

ولقد اهتمت النساء خاصة بالإزار وخياطته وتطريـزه بخيـوط الابريـسم [١] والذهب ، وتبين المصادر المختلفة بأن هذه الأزر كانت تعمل بألوان مختلفة لاسيما تلك التي كان يلبسها النساء [٢] فكان منها الأبيض والأزرق [٣] .

أما أنواع الأقمشة فقد اختلفت باختلاف الحالة المادية للناس ، فمنها الغالية الثمن كالقصب والخز [٤] ومنها الرخيصة كالصوف والفوط وهو نوع من القماش عند الفقراء [٥] .

كما كان السروال من ألبسة البدن الشائعة بين عامة الناس الرجال والنساء [٦] . والسراويل من الألبسة الفارسية استخدمت في العصر العباسي ، وهـو لبـاس يـستر العورة أسفل الجسم [٧] ، ولقد اهتمت النـساء بلـبس الـسراويلات البـيض المذيلـة والمزينـة بتكـة [٨] الإبريسم ، أما عمال الحمامات فيلبسون ما سمي بالتبـان وهـو سروال صغير داخلي مقدار يسير يستر العورة المغلظة فقط [٩] .

أما الثياب فهي تختلف من فئة إلى أخرى ، فكان العامة من النـاس كـالفلاحين يلبسون الثياب القطنية الغليظة [١٠] ، والخلفاء والوزراء وأغنياء العامة كانوا يميلـون

(1) الابريسم لفظ فارسي معرب ، ويعني الثياب المتخذة من الحريد الخام ، وكانت ثيـاب الحريـر تنتجهـا دور الطـراز في بغداد وتصدر إلى الخارج . ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص٦ ؛ رجـب إبـراهيم : معجـم الملابس ، ص٢٦ .

(2) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٣-٥٤ .

(3) المصدر نفسه ، ص٥٤ .

(4) المصدر نفسه ، ص٥٤ ؛ الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩٨ .

(5) مليحة رحمة الله : الملابس في العراق ، ص١٩٢ .

(6) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٢٢٢ .

(7) الوشاء : الظرفاء ، ص١٧٦ ؛ ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص٨٨ .

(8) التكة كلمة آرامية معربة وأصلها بالآرامية تكتا وهي رباط وما يربط به الـسراويل والجمـع تكـك وسـتك بالحرير أي يتخذ منه تكة . الجواليقي : المغرب من الكلام الأعجمي ، ص٩٠ ؛ الزبيدي : تاج العـروس ، ج٧ ، ص١١٥ ، ١١٦ ، تكك .

(9) ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص٢٩٥ ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص٨٩ .

(10) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٢٢٨ .

إلى الثياب ذات النوعية الجيدة والغالية الثمن كالحريرية والمقصبة والثيـاب الموشـاة بالذهب والفضة ، ومنها الثياب الدبيقية [١] ، والبغدادية [٢] ، والثياب التسترية [٣] .

ملابس النساء :

اختلفت ملابس النساء باختلاف الطبقات الاجتماعية ، فنساء الخلفاء والـوزراء والأمراء والمترفات يلبسن الملابس الغالية الثمن ، وبطبيعة الحال فإن ملابس النـساء تختلف عن ملابس الرجال ، فكانت المرأة تلبس المقنعة [٤] وهي من ملابـس الـرأس كذلك الخمار والعصابة وهي التي تعصب بها المرأة رأسها وكانـت نـساء الخلفـاء يرصعنها بالجواهر والأحجار الكريمة [٥] ، كما كن يضعن النقاب علـى وجـوههن ، وهو ما كان شفافاً يرى الوجه من خلاله ، وقد يبين خدها وأطراف ذوائبها وله عـدة ألوان [٦] ، ويبدو للباحثة أنهن كن يضعن النقاب عند حضورهن لمجالس الوعظ ، أما الجواري والمغنيات فإنهن يضعنه لكن لا يلبثن أن يحسرنه عن وجوههـن [٧] .

ومن ألبسة البدن الداخلية كان القميص الداخلي وهو ما يـسمى بالتحتـاني [٨] والذي يكون عادة بدون أكمام تلبسه المرأة في الدار وعند الخلوة [٩] وله عـدة أسـماء

---

(1) الثياب الدبيقية ثياب منسوبة إلى دبيق بمصر ، وهي من دق البنات وكانت العمامة منها مائة ذراع ، والدبيقي نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التي تصنع في دبيق بمصر وكانت واقعة بالقرب من تنيس في الشمال الشرقي من محافظة الشرقية . ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص١٣٢٤ ؛ يـاقوت الحمـوي : معجـم البلدان ، ج٤ ، ص٢٨٨ .

(2) البغدادية منسوبة إلى مدينة بغداد وهو قماش حرير غالي مزين بالصور وموشى بالذهب وقد اقتصر استعماله على الكسوات السلطانية لغلاء ثمنه . رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص٨٩ .

(3) الثياب التسترية من الحرير والديباج وهي نسبة إلى محلة التسترين في الجانب الغربي من بغـداد . يـاقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣١ .

(4) المقنعة : التي تغطي بها المرأة رأسها ؛ ابن سيدة : المخصص ، ج٤ ، ص٣٨ .

(5) ابن سيدة : المخصص ، ج٤ ، ص٢٤٩ .

(6) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٤ .

(7) المصدر نفسه ، ص٥٥ .

(8) الثياب التحتانية : ثياب قطنية تلبس تحت الثياب ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص٩٠ .

(9) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٢٢٢ .

منها الأتب والصدر والقرقل والمجول والشوذر وهـي تختلـف مـن حيـث الطـول والقصـر [١] .

كذلك الغلاله [٢] وهي ثوب رقيق شفاف يلي الجسد ، ومنها الغلالـة الرخانيـة والقصب وأشتهر بها النساء الظريفات من الجواري [٣] .

وقد ذكرنا فيما سبق أن السروال من ضمن ألبسة البدن الداخلية أما ألبسة البدن الخارجيـة فإضافة لما ذكر منها كالإزار كان الرداء وله عدة ألـوان منـه المقـصب العودي [٤] .

ونلاحظ أن التباين كان واضحاً في أصناف الملابس بين نساء الخلفاء والأمراء والظريفات من الجواري ، وما بين نساء العامة وكان ذلـك يعكـس مكانـة المـرأة الاجتماعيـة فالمترفات من النساء كن يلبسن الألبسة الثمينة الغاليـة مثـل الـلاذ [٥] واللالجه [٦] والحرير والديباج والثياب الموشاة بالذهب والفضة ، أما بقية نساء العامـة فإنهن تتفاوت ما بين ترف المترفات والظريفات وبساطة المتصوفات الفقيرات ، فـي ملابسهن الخشنة الغليظـة مـن الصـوف ، أو القطن المسماة بالأسمال والخلقان [٧] .

وكان نساء هذه الفترة لا يختلفن كثيراً عما سبق في ميلهن إلى الملابس الملونة والمنقوشة ، أشار أبو المطهر الأزدي إلى تلك النقوش بأنهـا أفـضل مـن نقـوش الصيـن [٨] . ولعل تعدد الأجناس البشرية ببغداد أدى إلى تعدد الأذواق ممـا أثـرى صناعة الأقمشة ونسجها ، وذلك أدى ازدهار إلى صناعة الأقمشة ببغـداد واخـتلاف

---

(1) الثعالبي : فقه اللغة وأسرار العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٩م ، ص١٨١ .
(2) المصدر نفسه ، ص١٨١ .
(3) الوشاء : الظـرفاء ، ص٧ ؛ الرخانية : نسبة إلى رخان إحدى قرى مرو . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٨ .
(4) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٥ .
(5) اللاذ : ثوب حرير أحمر اللون فارسي ؛ ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص١٤٢ .
(6) اللالجه : من لباس القدم للمرأة . ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٨٩ .
(7) ابن الجوزي : المدهش ، ص٤٣٣ ؛ تلبيس إبليس ، ص١٨٤ .
(8) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٣ .

أشكالها وطرق زخرفتها وتنوع ألوانها ، وقد جرت العادة باختصاص بعـض النـساء بألوان معينـة حسب ظروفهن الاجتماعية ، فالمهجورات مـن النـساء كـن يلبـسن الملابس البيضاء ، والأرامل واللائي نزلت بهن نازلة أو مصيبة كن يلبسن الملابـس ذات اللون الأزرق والأسـود ، أما المترفات فلم يكن يلبسن سوى الألبسة التي تكـون ألوانها أصلية ، أما المصبوغة بالأحمر والأصفر والموردة فإنها كانت من ألبسة عامة النساء كالفلاحات [١] .

ثالثاً : لباس الأرجل .

الجوارب : كانت الجوارب تلبس بالأرجل وتشمل كافة الناس رجالاً ونساء ، إلا أنهم اختلفوا في نوعيتها وأشكالها ، فكثيراً كانت تلبس في الشتاء ، ووفقاً للتباين الطبقي الاجتماعي فقد كانت جوارب الأمراء والقواد سـوداء الـلـون مـن الخـز والقـز [٢] والمرعزي [٣] ، كذلك كان يلبسها الأغنياء [٤] ، أما الأقمـشة الرخيـصة كالـصوف والكتان فعلى الأرجح اختص بها الفقراء من العامة .

ومـن لباس الأرجل النعال : وهي أنواع منها اللكاك ومـن أنـواع الأحذيـة الفارسية ، وكانت من لباس الخلفاء خاصة اللكاك الحمراء ، أما السوداء فإنهـا كانـت لباس الأمراء والقواد وكانت تربط بزنانير [٥] واللكاك أيضاً من أحذية العامـة كـذلك الرجال والنساء ، وغير أن الداخل إلى دار الخلافة كان يمنع من لبس لكة حمراء لأنها لباس الخليفة [٦] ، والنعال أنواع منها الزنجية والكتانية المشعرة واليمانيـة [٧] ، وقـد

---

(1) الوشاء : الظرفاء ، ص١٠٣ ؛ ابن منظور : لسان العرب ، ج٨ ، ص٢٦٥ .

(2) القز : ثياب صوف وربما خالطها حرير . ابن سيدة : المخصص ، ج٤ ، ص٦٨ .

(3) المرعزي هو الزغب الذي تحت شعر الماعز وقيل اللين من الصوف . الجواليقي : المعـرب مـن الكـلام الأعجمي ، ص٣٠٧-٣٠٨ .

(4) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٩٢ .

(5) الزنانير : هو في الغالب نسائج ملونة من الحرير تصنع لأجل التمنطق فقط . البستاني : بطرس البـستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ص٢٨١ ؛ رجب إبراهيم : معجم الملابس ، ص٢١٥ .

(6) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٧٥ ؛ ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٨٩ .

(7) التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص١٤٣ .

اعتنت نساء الخلفاء والمترفات بالنعل وصناعته فكانت تصنع لهن النعل مـن الثيـاب الديبقية والمحشوة بالمسك والمخيطة بالحرير ، وكذلك المرصعة بالجواهر والأحجـار الكريمة [١] . وكانت نعال الصغيرات من النساء صراره أي تصر عند المشي [٢] .

كذلك كانت الخفاف من لبـاس الأرجل لدى جميـع الفئـات الرجـل منهـم والمرأة [٣] ، وهي أنواع منها الخفاف الهاشفية والمدارانية والمشعرة والخفيفة ، كـذلك تعددت ألوانها فمنها الأسود والأحمر والأصفر [٤] والأحمر من لباس الخلفاء ولا يسمح لأحد بلبسها في حضرة الخلفاء مثلها في ذلك مثل اللكاك الحمراء [٥] .

أدوات الزينة :

إن الاعتناء بالمظهر العام والتزين كان سمة من سمات البغداديين ، خاصـة إذا أراد أحدهم الخروج من المنزل فقد كانوا يعتنون بدهن الشعر وتسريحه للتحسين مـن منظره وكانت هناك أنواع كثيرة من الدهان سواء لشعر اللحية بالنسبة للرجال أو شعر الرأس بالنسبة للرجال والنساء [٦] ، كما استخدم الكحـل للزينـة ، فكـانوا يكتحلـون بالمكاحل والمراود التي هي من أدوات الزينة المشتركة بين النساء والرجال ، فبالنسبة للرجال كان الاكتحال بالكحل بالنسبة لهم إتباعاً للسنة فقد جاء عن النبي ﷺ أنـه كـان يستعمل الكحل خاصة كحل الأثمد [٧] ، أما بالنسبة للنساء فكان وما زال اسـتخدامهن الكحل لتجميل عيونهن كذلك الأمشاط والملاقط والمقابض التي تستخدم لحجر الحمـام الذي كان يستعمل لتنظيف القدم [٨] .

(1) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٣ ؛ ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٢٦٥ .
(2) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٧٣ .
(3) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٠٨ .
(4) الوشاء : الظرفاء ، ص١٨٦ .
(5) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٧٥ ، ٩١ ؛ ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٨ .
(6) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٦٤٧ .
(7) أبـي داود : سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي : سنن أبي داود ، دار إحياء السنة النبوية ، القـاهرة ، ج٤ ، ص٨ .
(8) ابن الاخوة : نهاية الرتبة ، ص٢٢٦ .

أما المرايا فهي من أدوات الزينة للرجال والنساء فالرجل ينظر في المرآة ليلبس عمامته وللتأكد من حسن مظهره الخارجي ليكون مقبولاً في أعين الناس [١] ، غير أن النساء أكثر استخداماً لها من الرجال ، ويمكن وصف المرآة بأنها كانت عبـارة عـن قرص مستدير يتفاوت في مقدار قطره ، وأنه مصنوع من البرنز والصاب وله أحيانـاً مقابض مصنوعة من قطعة واحدة مع القرص نفسه أو مضافة إليه ، وكانت المقـابض مزخرفة تختلف زخارفها عن باقي المرآة ، كما كانت بعض المرآيا تكفـت بالـذهب والفضة [٢] .

كما كان النساء يتجملن بالخضاب فكن يستخدمن الحنـاء لأطـراف الأصـابع والأرجـل كذلك الشعر [٣] ، كن يستخدمـن النشاذر [٤] لتحميـ ـر الخـدود وصـبغ الشفـاه [٥] .

أما الحلي فهي من أدوات الزينة للنساء منذ العصور الأولى للتاريخ وتطـورت من فترة لأخرى ، وكانت خزائن الخلفاء العباسيين تمتلئ بالأحجار الكريمة والثمينـة كالياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر فالكن نساء الخلفاء والمترفات من نساء الأغنيـاء أكثر استخداماً للحلي الثمينة [٦] . فكانت قلائدهن تصنع سبحة من العنبـر والـصندل كذلك كن يضعن على خصورهن أحزمة من ذهـب مرصـعة بالزبرجـد الأخـضر والياقوت الأحمر [٧] ، كما كن يتقلدن قلائد من عظام الحيوانات منها للزينـة وللحفـظ والسلامة أيضاً [٨] ، كذلك كانت الأساور والخلاخل من الـذهب والفـضة المرصـعة

---

(1) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٩٤ .
(2) حسن زكي : محمد حسن : دليل متحف الفن الإسلامي ، ..... ، ص٥٥ ، ٥٦ .
(3) الصابئ : الوزراء ، ص٦٥ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٢٣ .
(4) النشاذر صبغ أحمر يستخرج من النبات . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج٢ ، ص٩٤ .
(5) ابن الجوزي : الظراف والمتماجنين ، ص١٠٠ .
(6) القاضي : الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحـف ، حققـه محمـد حميـد الله ، ط٢ ، الكويـت ، ١٩٨٤م ، ص١٨٠-١٨١ ؛ الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٢٢٨ .
(7) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٥٣ .
(8) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص٤٧ .

بالجواهر [١] ، وقد اشترك كل من النساء والرجال في لبس الخواتم التي نقشت عليهـا أسماء وألقاب الأشخاص كالخلفاء ، وأما نسائهم وأمهاتهم فقد كن ينقشن على خواتمهن أسماء أبنائهن أو أزواجهن ، كما كانوا يتهادون الخواتم كرمز للمحبة أو للقطيعة [٢] .

---

(1) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٤٧٥ .

(2) المصدر نفسه ، ص٤٧٥ .

المبحث الرابع : الصحة العامة ونظافة البيئة وتصريف المياه .

رافق النمو العمراني ببغداد نمواً سكانياً ، كان ذلك النمو السكاني يتطلب رعاية صحية للمجتمع ، وكانت جهود الدولة المبذولة في بناء البيمارستانات وتجهيزها بالمستلزمات الصحية والوقائية للمرضى ، من أهم وسائل توفير الصحة العامة للمجتمع ، خاصة ما تقوم به من دور في توزيع الأدوية في أوقات انتشار الأمراض والأوبئة ، فكثيراً ما تعرضت بغداد لأوقات تفشت فيها الأوبئة والأمراض منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ففي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) في خلافة المقتدي انتشرت الأوبئة ببغداد فأمر الخليفة المقتدي بتوزيع الأدوية والأموال على الفقراء للحد من انتشار الوباء كما طلب من أطباء البيمارستانات بضرورة مراعاة المرضى وحسن معاملتهم [(1)] ، كذلك فعل عند انتشار الطاعون في سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) أمر المقتدي بتوزيع الأدوية والأشربة على محال بغداد كما أمر بتوزيع الأموال كذلك [(٢)] .

وفي سنة ٥١٨هـ/١١٢١م انتشرت أمراض ببغداد وعمت البصرة كان للبيمارستانات دور كبير في معالجة المرضى والحد من انتشار تلك الأمراض بين الناس [(٣)] غير أن هناك أمراض كانت تعتبر من الأمراض المستعصية في ذلك الوقت كمرض الجدري الذي أدى بحياة ابن الخليفة المسترشد بالله في سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م وكان عمره إحدى وعشرين سنة [(٤)] ، وفي سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م فشا الموت في الناس ببغداد وأدى بحياة الكثير من الناس حتى كان يموت في اليوم مائة نفس [(5)] . ومن الأمراض التي أدت بحياة الكثير من الناس كان مرض انتفاخ الحلق ، وكان ينتشر بين الناس في أوقات الجدب ففي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م انتشر هذا المرض بين الناس ،

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٥ .
(2) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٢٤٩ .
(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٠ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠ .
(5) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٦٨ .

بسبب قلة الأمطار حتى أشرفت المواشي على الموت من قلة العـشب وأدى انتـشار مرض انتفاخ الحلق بحياة الكثير من الناس [(١)] .

ولقلة المناعة وسوء التغذية لدى الأطفال فقد كانوا أكثر عرضة للعدوى وانتشار الأمراض فيما بينهم والتي أدت بحياة الكثير مـنهم ، ففـي سـنة ٥٥٢هـ ـ/١١٥٧م تعرضت بغداد للكثير من الشدائد بسبب كثرة الأمطار والفيضانات وشدة الشتاء ، فلـم يحتمل الناس ذلك ، فانتشر مرض الجدري بين الصغار وأدى بحياة الكثير مـنهم أمـا الكبار فقد فشا فيهم الموت بالأمراض الحادة [(٢)] .

وعلى كلٍ فإن جهود الدولة في بناء البيمارستانات وإسهامها في توزيع الأدويـة في أوقات تفشي الأوبئة والأمراض لم تحد كثيراً من انتشار تلك الأوبئة عـن طريـق العدوى بيـن الناس ، لوجود عوامل أخرى تقلل من فـرص الـشفاء والوقايـة مـن الأمراض ، منها سوء التغذية لشح المواد الغذائية بسبب غلاء الأسعار ، ففـي إحـدى السنوات بيعت الدجاجة بنصف دانق وتعذر وجود اللحم [(٣)] ، فإن سوء التغذية بـسبب شح المواد الغذائية في أوقات الجدب أو الفيضانات وانتشار الآفات الزراعيـة ، ينـتج عنها غلاء في الأسعار فيضطر الناس إلى أكل بعض اللحوم والنباتـات التـي تـضر بالصحة العامة ، ففي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م انتشر في الناس مرض في حلوقهم سمي بالخوانيق أدى بحياة الكثير ، بسبب كثرة الأمطار وشدة البرد والفيـضانات ، فقلـت الأسعار حتى بلغ الكر من الحنطة مائة دينار والشعير خمسين دينار [(٤)] .

ومن الإجراءات الوقائية التي اتبعت للحد من انتشار الأمراض ببغداد كان لقلـة وجود الحجر الصحي الذي يقلل نوعاً ما من انتشار العدوى بين الناس ، مثال ذلك في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م عندما أخرج المجذومون من البلد ونفوا إلى خارج البلد حتى لا

---

(1) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٢٠ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٧٦ .
(3) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص١٧٦ .
(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ .

ينتشر المرض بين أهالي بغداد [١] ، كذلك كان الحجر على أصحاب الأمراض النفسية والعقلية [٢] .

وهناك جهود فردية ساهمت في المحافظة على الصحة العامة للمجتمع في توفير المستلزمات الصحية والوقائية للناس ففي سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م حين عـزم الـوزير عضد الدين ابن رئيس الرؤساء على الحج قرر أن يصطحب معه ما يحتاجه المرضى من أطباء وأدوية [٣] قال ابن الجوزي : " اشترى ستمائة جمل وأقام منها للمنقطعـين وأخرج معه الأدوية ومن يطبب المرضى " [٤] . ومن الجهود الفردية التي أسهمت في الوقاية الصحية العامة ، ما كان يقوم به فتح الدين الشيباني (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) مـن توزيع الأدوية في داره في كل يوم جمعة من الأسبوع [٥] .

لقد أسهمت الجهود الفردية في توفير المستلزمات الصحية للوقاية من الأمراض إلا أنه وكما ذكرنا فيما سبق أن هناك عوامل كانت تقلل من فرص الشفاء والحد مـن انتشار الأوبئة ، مما ضر بالصحة العامة منها الفيضانات والكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية إضافة إلى فترات الجدب ، فبعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م قيل أن عدد القتلى ببغداد زاد عن ثمانية آلاف نفس عدى من لقي حتفـه مـن الأطفـال فـي الوحول ، ومن هلك في القنى والآبار والسراديب خوفاً وجوعاً ، إضافة إلـى تلـوث الهواء فانتشر الوباء بين الناس من شم روائح القتلى وشرب الماء الممتزج في الجيف ، حتى كان الناس يكثرون من شم البصل لقوة الجيف وكثرة الذباب الذي كان يسقط على الأطعمة فيفسدها ، ولم ينتفع الناس بسوى المساعدات من الأطعمة التي كانت تأتيهم من الحلة والكوفة [٦] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٦٣ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢١١ ؛ بنيامين : الرحلة ، ص١٣٥ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٧٣-٢٨٠ .

(4) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٨٠ .

(5) أبو المظفر الحسن بن محمد الشيباني . ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق٣ ، ص٣٤ .

(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٣٧ .

نظافة البيئة وتصريف المياه :

حظى الجانب الصحي والبيئي على اهتمام كبير من قبل الدولة ببغداد في هـذه الفترة في سبيل إعمار المدينة من حيث الاهتمام بالطرق والأسواق ونظافتها وصيانتها للمحافظة على نظافة البيئة ، فكثرة الأمطار والفيضانات كثيراً ما تـسببت فـي رداءة الطرق ، وكثرة الوحول فيها ففي خلافة المستضيء سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م تسببت كثرة الأمطار في امتلاء دروب بغداد بالوحل فأمر الخليفة بتنظيف الطرقات وتنحية الوحـل من الطرق بعد أن بقي أسبوعاً ، وأنفق الخليفة مالاً على ذلك إضافة إلى جمع أهـالي المحـال اثني عشر ديناراً لمن ينقل الماء في المزادات (1) ، وبـذلك تجلـى العمـل المشترك بين أهالي بغداد وحكومتها في المحافظة على بيئتهم ، فلو بقي الوحل بالمدينة لتسبب في تجمع الحشرات وبالتالي انتشار الأمراض .

وكان من مهام المحتسب في السوق حماية المجتمع مـن الأضـرار الـصحية والبيئية التي قد تسببها بعض الصناعات التي تحتاج إلى وقود نار كالخبـاز والطبـاخ والحداد لذلك نظم الأسواق بحيث أفرد لهذه الصناعات سوقاً يختص بها (2) ، حفاظـاً علـى نظافة الأسواق بما قد تسببه تلك الصناعات من تلوث الهواء بالـدخان داخـل السوق .

كما منع الباعة المتجولون الذين يضعون بضاعتهم على قارعة الطريق ، فقـد منع الخليفة المستنجد الباعة المتجولين من الجلوس علـى الطرقـات وأمـر بإزالـة الحوانيت الموجودة على الطرق والتي تسبب ضيق الطرق وعرقلة السير (3) .

ومما لا شك فيه أن اتساع مدينة بغداد وازدياد عدد سكانها كان يتطلب تزويدها بشبكة لمياه الشرب وأخرى لتصريف للمياه ، فقد كانت فيما سبق تروى بماء الروايـا وهي جلود تملأ ماء وتنقل إلى المدينة على بغال ولما شعر بصعوبة نقل المـاء فـي الروايا رأى الخليفة المنصور ما تحدثه البغال من أوساخ تضر بالنظافة العامة أمر بمد

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٧١-٢٧٢ .

(2) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١١-١٢ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٩ .

قنوات ، وأن تمد قناتين من دجلة إلى داخل المدينة [١] ، ويعتبر ذلك هو أول مشروع هندسي أمر به المنصور لتوفير مياه الشرب لسكان مدينة بغداد ، فتلك القناتين كانتا من خشب الساج وترفع إليها المياه من دجلة بواسطة دولاب نصب هناك والظاهر أن هاتين القناتين كانت مرتفعتين عن الأرض بما يكفي لانحدارهما التدريجي إلى أن تصل إلى رحبتها ومنها إلى قصر المنصور [٢] .

إن مشكلة إيصال المياه إلى مدينة بغداد تعتبر من المشاكلات التي واجهت المدينة منذ إنشائها في عهد المنصور وباتساع المدينة بشكل سريع على جانبي نهر دجلة وفي اتجاهات متباعدة ، وبالتالي استهلاك كميات كبيرة من المياه تتطلب وسيلة لنقل المياه إلى سكانها وإيصالها إلى دورهم ومساجدهم وأسواقهم لاستعمالها في حياتهم اليومية ، فمشكلة نقل المياه كانت موجودة حتى في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ذلك أنه من الصعوبة بمكان أن نجد فرقاً واضحاً بين وسائل نقل المياه المختلفة وما بين أنواع المياه الخاصة للغسيل أو الاستعمال اليومي أو المستخدمة في سقي الحدائق والبساتين والحيوانات إذ ليس من السهولة التفرقة ما بين وسائل نقل المياه " القنوات " ووسائل تصريف المياه الحارة " المجاري " .

وعلى العموم فإنه كان هناك نهران رئيسيان هما نهر عيسى ونهر الصراة كانا يأخذان من الفرات ويقطعان الجانب الغربي ليصبا في دجلة ، فعمد إلى حفر شبكة من الأنهار الصغيرة تأخذ من هذين النهرين الكبيرين وتمر بين الدروب والأسواق وتسمى بأسمائها وبذلك أمسى نهر الجانب الغربي نوعين من مصادر المياه الأول الأنهار الرئيسية القديمة والتي تخترق المنطقة ، والثاني الأنهار الفرعية التي استحدثت ، ويعتبر نهر عيسى من أهم الأنهار في الجانب الغربي ، وكان يخترق أحياء الجانب الغربي السكنية ، وفي كل محلة هناك قنطرة [٣] ، وكان نهر عيسى يمر بقنطرة الياسرية . ثم الزياتين " باعة الزيت " ، وعليه هناك قنطرة تعرف بقنطرة الزياتين . ثم

(1) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٦٠ .
(2) عماد رؤوف : مشاريع مياه الشرب ، مجلة المورد ، مج٤٤٨ ، ص١٦٧ .
(3) القنطرة : الجسر وهو إزاج يبنى بالأجر والحمار ، على الماء يعبر عليه. ابن منظور : لسان العرب ، ج5 ، ص٣٢٨ .

باعة الأشنان وعليه هناك قنطرة ، ثم باعة الشوك ، فباعة الرمان ، وله قنطرة تعرف بقنطرة الرمان ثم قنطرة المغيض وعنده الأرحاء [١] ، وذلك يدل أن مياه تلك الأنهـار تندفـع بقوة بحيث تكفي لسقي المناطق الزراعية ، ثم يصب في دجلة أسـفل قـصر عيسى [٢] ، أما نهر الصراه فإنه يأخذ من نهر عيسى فوق المحول ثم يجتاز الجانـب الغربي ، فيمر بقنطرة العباس ثم بقنطرة الصبات ثم بقنطرة رحـى البطريـق وهـي قنطرة الزيد ثم بالقنطرة العتيقة ثم بقنطرة الحديدة ثم يصب في دجلة [٣] ، ومن الصراة يخرج نهر يقال له نهر طاهر بن الحسين مما يلي الحربية ويصل إلى بـاب الأنبـار وعليه هناك قنطرة ، ثم يمر بباب الحديد وعليه هناك قنطرة ، ثم إلى بـاب قطربـل وعليه قنطرة ، وبعد مروره في قطعية أم جعفر يصب في دجلة [٤] . كذلك هناك نهر كرخايا يتفرع منه أنهار صغيرة تنتهي إلى سويقة أبي الورد ثم تمر ببركة زلزل إلـى أن يصب في الصراة أسفل القنطرة ومن الأنهار الصغيرة التي تخترق المحال وتنقـل الماء إلى الأسواق والدور نهر البزازين ونهر الدجاج ، ونهر القلائين . وهنـاك نهـر كان يأتي إلى الحربية في قنوات وهناك مقسم للماء يقسم الثلاثة أنهار فأحدهما يـذهب إلى بستان الزاهر ، والثاني نهر المعلى يمضي بين الدور إلى باب سـوق الثلاثـاء ، والثالث يدخل إلى دار الخلافة ويصب في دجلة [٥] .

وترى الباحثة أن هذه الأنهار كانت لأجل إيصال المياه التي تستخدم للاستعمال اليومي من غسيل وسقي للمزروعات إذ ليس من المتصور أن تبقى هذه الأنهار نظيفة صالحة للشرب ، وهي تجري في مجاري ضيقة مكشوفة لعوارض التلوث ، التي قـد تحدث بسبب مرورها بباعة الدجاج ، والزيت ، والأشـنان ، والـشوك ، والرمـان ،

---

(1) الأرحاء : جمع رحى وهي طاحونة الماء ذات الدولاب الأفقي وتعد أقدم آلة استخدمت فيها طاقة الماء ، وفي أسفل محور الحركة يوجد دولاب مغمور في تيار الماء وعلى محيطه مجموعة من الفراشات ويرتفع المحور للأعلى مارا بحجر الطحن السفلي ويرتبط المحور بحجر الطحن العلوي ارتباطاً وثيقاً ويـدور دولاب المـاء بواسطة المحور الواصل بينهما . ابن سيدة : المخصص ، ج٩ ، ص١٦٣ .

(2) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٣٠ .

(3) المصدر نفسه ، ص٣١ .

(4) المصدر نفسه ، ص٣١ .

(5) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٣٢ .

والقصابين ، فمن غير المتصور أن تبقى تلك الأنهار نظيفة ، فمن المؤكد أن فـضلات تلك المهن كانت تطرح فيها ، ولربما أنها تحولت إلى مجاري لتصريف المياه القـذرة من الحمامات خاصة القديمة منها (١) ، فقد كانوا يصرفون المياه الحارة فـي مجـاري وعليه ترى الباحثة أنه كان هناك مجاري لتصريف تلك المياه على هيئة أنهار صغيرة لاسيما وأنهم استخدموا البلاليع والمجاري فحين عمر أحد الأتراك حماماً جعل المجراة تجوز من داره إلى دار بعض الجيران فتأذى الجار بتلك المجراه (٢) ، فمن المحتمل أن تصريف تلك المجاري يتم عن طريق الأنهار خاصة إذا عرفنا أنه كان هنـاك شـبكة أنهار من نهر موسى لسكان بغداد الشرقية وتزويد المدينة بحيث كان يأخذ مياهه مـن نهر الخالص ويمضي بمياهه حتى مصبها عند قرية كلواذى جنوب بغداد ، وفرعاه نهر المعلى ونهر آخر يخترق بغداد من شمالها إلى جنوبها (٣) لنقل الميـاه واسـتعمالاتها اليومية بعد زيادة كثافة السكان ، كذلك تسمية أحد الأسواق الكبيرة سوق العطـش (٤) يدل على أن مشكلة مياه الشرب كانت من الخطورة بحيث تعجز عـن سـدها فـروع الأنهار (٥) .

وعلى أية حال فإن الباحثة ترى أن مياه تلـك الأنهـار كانـت تـستخدم أنهـا للاستعمال اليومي ، أما الشرب فكان السقاءون يقومون بسد حاجة أهالي بغـداد لميـاه الشرب وهناك موضع اشتهر باسم " درب السقاءين " (٦) في الجانب الشرقي نسبة إلى حرفة السقاية ، التي اعتنى السقاءون بنظافة مياههم وحسن عرضها ، وبعضهم يطيبها بالعطور الزكية كالمسك لتكون أحسن مذاقاً وأطيب فمن ذلك ما نقل عـن ذي النـون محمد بن عبد الله التميمي حين قال : " من أراد المروءة والظرف فعليه بـسقاة المـاء ببغداد ، فقيل له وكيف ذلك ؟ فقال لما حملت إلى بغداد رمي بي على بـاب الـسلطان

---

(1) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١١٧ .

(2) ابن الطقطقى : الفخري ، ص٢٥٧ .

(3) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٣٢ .

(4) سوق العطش ، محلة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلى . ياقوت الحموي : معجم البلـدان ، ج٣ ، ص٢٨٤ .

(5) عماد رؤوف : مياه الشرب ، ص١٧ .

(6) الجهشياري : الوزراء ، ص٢٨٩ .

مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمنديل ديبقي بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخـروط ، فسألت هذا ساقي السلطان ؟ فقيل لي لا هذا ساقي العامة ، فأومأت إليه أسـقني فتقـدم وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة مسك فقلت لمن معي ادفع إليه ديناراً ، فأعطاه فأبى وقال : لا آخذ منك شيئاً فقلت له : ولم ؟ فقال أنت أسير وليس من المـروءة أن آخـذ منك شيئاً فقلت كل الظرف في هذا " [1] .

وفي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي حمل السقاءون الماء علـى البقر [2] ، وأشرفت الدولة على السقائين وعلى نظافة آلاتهم ، فذكرت لنا كتب الحسبة الفرق بين السقائين ، وبين الروايا وهم صانعوا القرب . فكان رجال الحسبة يوصـون السقائين بنظافة أزيارهم وصيانتها بالأغطية وتغطية قربهم التي يسقون بها في الأسواق بالميازر ، ومنعهم من أن يسقوا بكيزانهم المجذوم والأبرص وأصحاب العاهات خوفـاً من انتقال العدوى ، وأن يطيبوا كيزانهم بشمع المسك والطيب والغسل كل ثلاثة أيام ، وكان لمهنة السقائين عريف يشرف على حرفتهم [3] . كما يعتمدون علـى الـسقايات المتوفرة والموجودة في معظم أسواقهم ومساجدهم والتي ذكرناها فيما سبق .

(1) ابن الجوزي : أخبار الظراف ، ص٣١ ؛ مناقب بغداد ، ص٣١ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٦٩ .
(3) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١١٧ ؛ عماد رؤوف : مشاريع مياه الشرب ، ص١٧٣ .

المبحث الخامس : الحمامات العامة والخاصة .

بلغت حمامات بغداد حداً بالغاً في الترف السعة في البناء والفخامة والروعة في الزخرفة ، استكمالاً لمظاهر الترف والراحة ، سواء كانت الحمامات العامة أو الخاصة منها.

فالحمامات العامة بلغت من الكثرة في عددها الآلاف منذ تأسيس بغداد وحتى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين (١) ، ثم أخذ عددها يتناقص حتى وصل في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مئة وخمسين حماماً (٢) ، ذكرت المصادر أنه في سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م بلغ عددها مائة وسبعين حماماً (٣) ، وخرب الكثير منها في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وذلك نتيجة للتسلط الأجنبي البويهي والسلجوقي فقد تعرض الكثير من محال بغداد في الجانب الغربي للحرائق والخراب ، حتى أصبح يوجد في السبعة عشر محلة في كل منها حمامان أو ثلاثة (٤) ، وبازدياد العمارة ببغداد في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، يبدو أن عدد الحمامات العامة قد ازداد عما سبق ببناء حمامات جديدة حتى تعذر على ابن جبير إحصائها أثناء زيارته لبغداد سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، وأنه سأل أحد شيوخها وأخبره أن بين جانبيها الشرقي والغربي ألفا حمام (٥) .

ثم ازداد هذا العدد في خلافة المستنصر بالله في سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ، بعد إعمار السلاجقة بظاهر بغداد مما يلي سوق السلطان لهم مساكن ودكاكين

(1) قيل أنها بلغت ٦٠,٠٠٠ حماماً ذكر ذلك ابن مهندار بعد أن قدر المبالغات التي كانت رائجة في عصره ، ثم أصبحت في أيام المقتدر بالله ٢٧,٠٠٠ حماماً وقيل ١٧,٠٠٠ حمام . ابن مهندار يزدجرد بن مهندار الفارسي : من أهل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي : فضائل بغداد ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٢م ، ص٥-٧ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٢٤ ؛ ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٤ ، وهي أرقام فلكية حتى أن عدد البيوت جميعها لا يصل إلى هذه الأرقام .

(2) الصابئ : رسوم دار الخلافة ، ص٢٠ .

(3) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٤ .

(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٥٥ ، ٥٦ ، ج٩ ، ص١٦ ، ٢٩ ، ٣٧ ؛ ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .

(5) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .

واصطبـلات ، وحمامات وكانت تلك المواطن التي عمرها السلاجقة تزيد على الألف موضع [١] ، فمن المؤكد أن تلك الحمامات التي عمرت قد زادت من مجموع الحمامات ببغداد عما كانت عليه .

ولقد بلغت حمامات بغداد من حسن العمارة والإتقان مبلغاً عظيماً فقـد وصـفها ابن جبير يقـول : " أكثرهـا مطليـة بالقار مسطحـة به ، فيخيـل للناظر أنه رخام أسود صقيل " [٢] ، إذ كانت الحمامات تطلى بالقار وتسطح به فيخيل للرائي أنها مبنية من الرخام الأسود ، وكان هذا القار يجلب من عين بين البصرة والكوفة [٣] ، وفي كل حمام كانت هناك مخادع كبيرة ، وكل مخدع مسطح بالقار ومطلي نصف حائطه ممـا يلي الأرض بالقار أما النصف الأعلى فإنه بالجص الأبيض ، وحتى تكامـل حـسنها بتضاد الألوان ، وفي داخل كل مخدع حوض من الرخام فيه أنبوبان يجري الماء فيهما في أحدهما الماء الحار وفي الآخر الماء البارد ، وبذلك ينفرد كـل شـخص بمخـدع بمفرده لا يشاركه أحد إذا أراد ذلك ، كما كان في زاوية كل مخـدع حـوض آخـر للاغتسال فيه أنبوبان يجريان بالماء الحار والبارد [٤] . كما كانت تشتمل على رحبـة واسعة خصصت لحفظ الملابس " أي مخلعاً " قبل الدخول مباشرة للاغتسال في هـذه الرحبة توجد دكاك لوضع الملابس عليها [٥] ، ويعطى الداخل للحمام ثلاثاً من الفـوط أحدها يأتزر بها عند دخوله والأخرى يأتزر بها عند خروجه والأخرى ينشف بها الماء عن جسده [٦] ، ولخدمة الداخلين للحمام هناك ستة أشخاص هم صاحب الـصندوق أو القيم وهو صاحب الحمـام ويكون جالساً في الرحبة ليراقب ملابس الناس أثناء خلعهم لها وأثناء لبسهم لها خوفاً من سرقتها ، ويقبض الأجر من الخارجين بعد الانتهاء مـن

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١١٠ .
(2) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .
(3) المصدر نفسه ، ص١٨٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ص٢١٣ .
(4) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٩٩ .
(5) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٧ .
(6) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢٠٠ .

الاستحمام [١] ، وهناك الحمامي أو المدلك ، والوقاد وهو الذي يوقد النار تحت الماء والزبال لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس ، وسقاء ومزين [٢].

فعند دخول الشخص للحمام وبعد أن يخلع ملابسه في الرحبة المخصصة لذلك يمر بحجرات في الحمام تسمى البيت ، فالأول وهو بارد رطب ثم يمر بالبيت الثاني وهو أكثر حرارة من الأول ، ثم يمر بالبيت الثالث وهو أكثر حرارة من الثاني [٣] ، وهو محل الاغتسال ويكون عادة عبارة عن ردهة واسعة فيها نوافذ زجاجية صغيرة مستديرة للإنارة والتهوية ، وحول الردهة مخادع كثيرة مفروشة بالفسيفساء ولكنها في الغالب تكون مفروشة بالقار [٤] ، وكما ذكرنا فيما سبق أن تلك المخادع تحتوي على أحواض من الرخام فيها أنبوبان للماء الحار والبارد ، وإلى جانب هذه الأحواض الصغيرة هناك حوض كبير داخل محل الاغتسال وهو الذي ينزل فيه المستحم ويغطس جسمه كله فيه ، وماء هذه الأحواض يأتي من خزانة للماء تكون في موضع مرتفع ومنها تأخذ الأنابيب المياه إلى الأحواض ، وغالباً هذه الخزانة يأتيها الماء عن طريق دولاب خاص بالحمام من مياه النهر أو بئر مجاورة للحمام [٥] ، أما تسخين مياه الحمام فإنه يتم عن طريق موقد خاص يكون في إحدى جهات الحمام [٦] ، وبعد أن يدخل المستحم إلى البيت الثالث وهو مكان الاغتسال يختار له مخدعاً للجلوس فيه وأثناء جلوسه يبقى مؤتزراً بإزاره ، وكان المحتسب وهو متولي الإشراف على الحمامات يمنع دخول الحمام إلا بمئزر ستراً للعورة ، ويشدد على دخول الحمام بمئزر ومن يخالف ذلك يشهر به [٧] ، وكان المستحم بعد أن يجلس في المخدع إلى جانب الحوض فإنه إما أن يغتسل مباشرة أو أنه يستلقي بعض الوقت ليعرق جسده قبل الاغتسال وقد

---

(1) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٦ ، ص٣٨٧ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٧ .

(2) ابن مهندار : فضائل بغداد ، ص١٥ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٦ ؛ متز : الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ص٢٢٥ .

(3) المصدر نفسه ، ص٨٧ .

(4) ابن جبير : الرحلة ، ص١٨٣ .

(5) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٧ .

(6) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٤٧٤ .

(7) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٣٨٥ ؛ المنتظم ، ج٩ ، ص١٢٩ .

يستعين بمدلك يغسل له جسده [١] ، وبعد الانتهاء من الحمام وقبـل الخـروج كـانوا يستحسنون غسل أرجلهم بالماء البارد إذ يعتقدون أنه أمان لهم من النقرس والتـورد ، كما كانوا يكرهون صب الماء البارد على الرأس عند الخـروج وكـذلك شـربه [٢] . وكانت الحمامات العامة للرجال أو النساء [٣] ، ذكر الشيزري أن أماكن الالتقـاء بـين الرجال والنساء هي : " أبواب حمامات النساء " مما يعكس الدور الكبير الـذي لعبـه الحمام في الحياة الاجتماعية ولم يكن استخدام الحمام من أجل الاستحمام فقط ، بل كان أيضاً من أجل إزالة الشعر الزائد من الرجال والنساء وذلك باستعمال النوره فقد كـان الناس يرون أن الإينار يطفئ الحرارة وينقي اللون [٤] ، كما كانوا يستعملون المحـاك لحك أرجلهم ، وورق السدر والخطمى والصابون لغسل أجسامهم [٥] .

ولقد كانت نظافة الحمام واشتماله على القواعد الصحية والنظافة العامة ، إضافة الالتزام بالجانب الأخلاقي كان محل اهتمام الدولة وتطبيق القواعد الصحية والأخلاقية فيه ، وهو ما وضحته لنا كتب الحسبة فالمحتسب كان هو عين الدولة فـي الإشـراف على الحمامات ونظافتها والالتزام الشرعي بها للداخلين إليها أو العاملين بهـا ، فكـان الحمام الجيد هو الحمام الحار المضيء ، والذي يكون ماؤه عذب ، وتكون يد المـدلك خشنة تزيل الأوساخ ، إذ كان المحتسب يأمر المدلك بتدليك يده بقشور الرمان لتـصير خشنة فتزيل الأوساخ [٦] ، كما لابد كذلك كما ذكرنا سابقاً مـن ضـرورة اسـتعمال الميازر بالحمامات ، ومنع الرجال من دخول حمامات النساء ، كمـا يمنـع المجـذوم والأبرص ومن يحاولون غسل اللبد والأديم حتى لا يتضرر الناس برائحة الأديم [٧] .

---

(1) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٣٤ .

(2) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٤٥ .

(3) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٦ .

(4) ابن بطلان : شرى الرقيق ، ص٢٢٦ .

(5) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٣٩ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٧٨ .
والخطمى هو صنف من الملوخية البرية للغسول . ابن البيطار : مفردات الأدوية ، ج٢ ، ص٦٣-٦٤ .

(6) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٦-٨٨ .

(7) ابن الأخوة : معالم القربة ، ص١٥٠ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٨ .
واللبد : نوع من البسط وما تحت السرج . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج١ ، ص٣٥٤ .

كذلك لابد من الحرص على طهارة ونظافة المياه ، فلم يكن يسمح بغسل الأواني أو الطاس [1] في أحواض المياه المعدة للاغتسال ، وكان لابد أن يتفقد القيم خزانة الماء التي تمد الحمام بالمياه ، وغسل الأوساخ المجتمعة في مجاريها ، وما قد يركد من أوساخ في أسافلها ، وإزالة المياه العكرة مرة كل شهر حتى لا يتغير طعم الماء ورائحته كما يجب عليه غسل رجليه إذا أراد الصعود إلى خزانة الماء لئلا يكون قد علق برجليه شيئاً من المياه القذرة ، وأن لا يسد الأنابيب بشعر المشاطة بل يسدها بالليف أو الخرق النظيفة [٢] ، وأن تكون أرضية الحمام مرصوفة بحجارة خشنة ولا تكون ملساء فتنزلق أرجل المستحمين ، كذلك يجب تدليك أرضية الحمام وغسلها وإزالة العالق بها من أوراق السدر والخطمى والصابون ، وأن يشعل البخور في كل يوم مرتين خاصة إذا شرع في غسل الحمام وكنسه وأن تبيت المحاك التي يحك بها المستحمون أرجلهم في الماء والملح لتطهيرها لئلا تكتسب الروائح ، كذلك لابد من غسل الفوط التي يأتزر بها المستحمون كل عشية بالصابون [٣] .

أما تصريف المياه القذرة من الحمامات فإنها كانت تعد من مشاكلات تصريف المياه ببغداد ، ففيما يبدو لنا أنها كانت تصرف في مياه الأنهار ، لأنه في فترات أمر المحتسبون بعدم إجراء مياه الحمامات إلى دجلة وأن يلزم أصحابها بحفر آبار لها [٤] وربما أشترك أهل المحلة جميعاً بإنشاء قنوات للمجاري لتصريف مياه منازلهم ومن ضمنها الحمامات إلى قنوات في الشوارع الرئيسية ومنها إلى حفير خارج المدينة [5] .

أما الحمامات الخاصة فهي التي كان يمتلكها الخلفاء والوزراء والقادة وكبار رجال الدولة والأغنياء من الناس في دورهم ، وقد احتوت على وسائل الترف والراحة من ذلك ما ذكر عن الحكيم أبي القاسم الأهوازي (ت٥١٨هـ/١١٢٤م) أنه أضاف يوماً

---

(1) الطاس هو ما يغرف به الماء من الحوض . الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٢٤ .
(2) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٣٤ ؛ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٨ .
(3) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٨ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٢٩ .
(5) عثمان : محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ص٣٥٢ .

الشاعر المعروف بالكاتب الدينوري أحمد بن محمد بن الفضل المعروف بالخازن [١] ، وكان في داره بستان وحمام فأدخله إليهما فقال في ذلك ابن الخازن [٢] شعراً .

كذلك ما ذكر عن الكاتب علي بن أفلح المكنى بأبي القاسم ، وقد كان شـيد داره وغرم عليها ألف دينار وأجريت بالذهب وزينت بالرسوم والصور ، وكان فيها حمـام فيه بيت مستراح فيه البثيون إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء حاراً وإن فركه شـمالاً خرج الماء بارداً [٣] ، ومن وسائل الترف والراحة التي كانت في الحمامات الخاصة ما كان في دار عبد الغني ابن فاخر مهتر الفراشين في خلافة المستعصم بـالله [٤] ، فقـد كان في حمام داره مخاد من الجلود كباراً وصغاراً وحين سئل عنها قال : أجعلها تحت كعبي وركبتي ورأسي إذا نمت لأجل تدليك جسمي [٥] ، وإضافة إلى تزيين الحمامات بالصور والرسوم كانت تزين بفوارات المياه في وسطها ، بحيث يخرج منهـا المـاء بأشكال مختلفة [٦] .

وارتبط هوامه الكثير من المظاهر الاجتماعية والـصحية ، فقـد كـان مكانـاً للاتصال بين سكان المحلة ومكان للتلاقي وزيادة الاتصال الاجتماعي للرجال والنـساء عامة ، مما زاد من الروابط الاجتماعية ، فقد جرت العادة على تحميم العـروس ، أو العريس في الحمام العام وسط احتفال الأهالي ، وما يتبع ذلك من تجميل للعروس [٧] ، كما كان للحمام فوائد صحية منها توسيع المسام واستفراغ الفضلات وتحلـل الريـاح وتنظيف الوسخ والعرق وذهاب الحكة وترطيب البدن وتجويد الهـضم ، ويفيـد فـي معالجة نزلات البرد والزكام ، وحمى الملاريا [٨] ، وقيل أن نومه في الـصيف بعـد

---

(1) الكتبي : عيون التواريخ ، ج١٢ ، ص١٥٧ .
(2) المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص١٥٧ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٨١ .
(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٩٦-١٩٧ .
(5) المصدر نفسه ، ص١٩٧ .
(6) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص١٤٥ ، والفوارات هي نافورات المياه حالياً .
(7) عثمان : المدينة الإسلامية ، ص٣٥٤ .
(8) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٦ .

الحمام تعدل شربة دواء وأن بوله في الشتاء في الحمام أنفع من شربة دواء [١] ، كمـا كان استحمام الشخص في الحمام بعد شفائه من مرضه يعد إعلاناً عن تمـام الـشفاء خاصة للخلفاء [٢] ، ومنهم من تم اغتياله في الحمام بحجة تعرضه للماء قبل الشفاء كما حدث للخليفة المستنجد بالله [٣] .

وعلى كلٍ فإن كثرة الحمامات ببغداد تدلنا علـى اهتمـام المجتمـع البغـدادي بالنظافة والصحة العامة ، إضافة ما تدره من ربح اقتصادي على أصحابها وكل ذلـك انعكس على نمو المدينة في هذه الفترة .

---

(1) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج١ ، ص١٤٥ .

(2) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص٤٠٣ .

(3) المصدر نفسه ، ص٣٤٧ .

المبحث السادس : وسائل التسلية والترفيه .

تعددت وسائل التسلية والترفيه التي مارسها البغداديون ، واشترك فيها الخاصة والعامة على حد سواء وكان معظمها موروث من العهود والسابقة والتـي تعـد مـن الرياضات الذهنية أو البدنية ، ومنها :

اللعب بالطيور : خاصة الحمام وهي هواية الكثير من الناس وكان لهـا سـوق خاص في الجانب الشرقـي من بغداد يعرف بـسوق الطيـوريين أو الطيـور للبيـع والشراء [1] ، وولع الخلفاء بصيد الطيور لهواية الصيد ولتزويـد حـدائقهم الخاصـة بأنواع الطيور ، فمن يلعب بالحمام كانوا يسمون بقباض الحمام واشتهر بها الكثير من الخاصة في عهد الخليفة الناصر ، فكان من يريد أن يتقرب إليه يقبض منه الحمام حتى عمرو دوراً للحمام لتربيتها والاعتناء بها [٢] ، وكان لأصحاب الحمام قول إذا حلـف أحدهم يقول " أصحاب الحمام " وهي من علامات الفتوة فلا يكذب أبداً [٣] .

كما شغف الخليفة المستعصم بالطيور وتربيتها ففي سنة ٦٤٣هـ/١١٤٨م أمـر بإرسال الطيور من الحمام إلى أربع جهات لتصنف أربعة أصناف منها مشهد حذيفة بن اليمان بالمدائن ، ومشهد العسكري بسر من رأى ، ومشهد غني بالكوفـة والقادسـية ، وأنفذ مع كل عدد من الطيور عدلان ووكيل ، وسـميت هـذه الأصـناف باليمانيـات والعسكريات والغنويات والقادسيات [٤] . وهناك من أتخذ اللعب بالطيور تسلية ومهنـة في نفس الوقت حتى سمي بالطيوري [5] .

---

(1) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٤٢ .

(2) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٨٠ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٨٠ .

(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٦٤ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٠٦ .

كما استخدمت الطيور للمراسلة كالطيور المناسيب والزاجل والزاجر [١] ، وقـد استخدم من قبل الحكومات لشدة سرعته [٢] ، فقد كانت تدرب حتـى يـصبح الطيـر عارفاً للطرق ويعود إلى موطنه بعد أن يقطع مسافات بعيدة [٣] .

وقد كان الصيد هواية الخاصة والعامة ، فكانوا يخرجون للبرية ويقيمون فيهـا عدة أيام للاستجمام والصيد ، وكانت الأسلحة المستخدمة في الصيد تختلف بـاختلاف الحيوانات التي يريدون صيدها فكانوا يستخدمون في صيد الطيور القسي وقد برع أهل بغداد في صناعتها كما كانوا يستوردون بعض أنواعها من بلاد بروجي في الهند ولـذا كانت تسمى بالبروجية [٤] ، ورمي البندق [٥] ، والذي كان يعد رياضة جعل لها الخليفة الناصر سباقاً ، وكان يلبس ثياب الرماة ويخرج مع الخواص والعوام لرمـي البنـدق وصيد الطيور حتى كان يخرج ليلاً أو في الصباح الباكر ، وكان يلبس قميصين مـن القطن الأزرق لذلك [٦] ، ومن شدة شغف الناصر بالطيور المناسيب منع من أن تكون لغيره إلا ما تؤخذ من طيوره ، كما منع الرمي بالبندق إلا لمن ينتمي لجماعات الفتيان فأجابه الناس بالعراق وغيره [٧] ، وكان رمي الحمام بالبندق هواية يتـسلى الخاصـة والعامة [٨] . كما استخدموا الكلاب في الصيد وكان من أهمها الكـلاب الـسلوقية [٩] السريعة الوثوب وقد اشتهر سلاطين السلاجقة خاصة باقتناء كلاب الصيد والاهتمـام

(1) ابن سيدة : المخصص ، ج١٠ ، ص١٧٠ .

(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٩٨ .

(3) ابن سيدة : المخصص ، ج١٠ ، ص١٧٠ .

(4) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص٢٩٩ .

(5) البندق كلمة فارسية تطلق على كرات صغيرة من الرصاص أو من الحجر أو من الطـين وكـانوا يقـذفونها بواسطة الأقواس والنبل وتستخدم في الحرب والرياضة . ادي شير : الألفاظ الفارسية ، ص١٧ .

(6) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٧٢-١٧٣ ، ١٨٠ .

(7) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٧٤٦ .

(8) ابن الفوطي : تلخيص الألقاب ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٤٣ .

(9) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص٣٠١ .

بأصولها وفروعها [1] ، وكانوا يقدمون الضباء هدايا للخليفة ، كما كان السلطان ملكشاه يصيد الغزلان ويسميها ويطلقها [2] .

وكان صيد السباع عادة طغت عليها العصبية لما تسببه من فتنـة تـسيل فيهـا الدماء ، فكان شباب المحال ببغداد يخرجون إلى مناطق صيد الأسود والسباع القريبـة من بغداد مظهرين بذلك فروسيتهم [3] ، وكانت تلك العادة قد شجعها الخليفة الناصر فقد كان ينعم على الشباب المشتركين بها بالمكافآت [4] فكان يخرج من كل محله مجموعة من الشباب ومعهم الدفوف والزمور والمغاني وسائر الملاهي ، لصيد السباع فإذا قتلوا سبعاً يطوفون به في محال بغداد ، وحين يمنعهم أهالي بعض المحال من المرور يؤدي ذلك إلى فتنة بين أهل المحلتين فيتجالـدون فيهـا بالـسيوف والنـشاب ففـي سـنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م حدثت فتنة بين أهل باب الأزج وأهل المأمونية حتى نهبت الـدور ، وبعد ثلاثة أيام منها نشبت فتنة بين أهل قطفتا ومحلة القرية [5] في الجانـب الغربـي لمنعهم أهل قطفتا من الطواف بالسبع في محلتهم ولم تهدأ الفتنة إلا بتدخل الديوان [6] ، كذلك في سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م منع أهل باب الأزج أهل المأمونية من العبـور لقتـل السباع مما أدى إلى فتنة عظيمة بين أهالي المحلتين خربت فيهـا عـدة دور وسـبيت النساء ونهبت الأموال فكف الجند الفتنة ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الخروج لقتل السباع بل استمروا في خروجهم حتى خرجت النساء حواسر [7] . وقد استمرت عـادة صـيد السباع وما تجره وما تسببه من عصبيات وفتن حتى بعد سـقوط بغـداد ففـي سـنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م اهتم الناس بقتل السباع وجرت فتن كثيرة ولم تنتـه إلـى أن أمـر الديوان بحرق السباع لإطفاء الفتنة ومنعوا بعد ذلك من الخروج لصيد وقتل السباع [8].

---

(1) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٩٩ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص١٥٥ .
(3) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٣٧ .
(4) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٨ .
(5) القرية محلة كبيرة كالمدينة بالجانب الغربي من بغداد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٣٠ .
(6) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٤٦-٤٨ .
(7) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٨-١٣٩ .
(8) المصدر نفسه ، ص٣١٠ .

كذلك كانت الفروسية وسباقات الخيل من وسائل التسلية الموروثة ببغداد والتـي كان يحضرها الخلفاء كما تحضرها العامة للفرجة والتشجيع وتهنئة صاحب الحـصان الفائز [١] ، وكان الشباب يرتدون لها ملابس خاصة ويحلقون رؤوسهم بأشكال معينـة مظهرين براعتهم في استعمال السلاح والضرب بالسيف والرمي بالنبال [٢] .

ومن ألعاب الفروسية اللعب بالصولجان والكرة التي اشترك في لعبها الخاصـة والعامة وكان يرغبها أولاد الخلفاء [٣] ، كذلك كان يرغبها سلاطين السلاجقة فقد جـاء عن السلطان ملكشاه أنه لعب بالكرة [٤] ، كما كان فـي دار الخلافـة ميـدان للعـب الصولجان والكرة وهي من الألعاب الخطرة فقد كان الأميـر قايمـاز شـغوفاً بلعـب الصولجان في ميدان دار الخلافة حتى أودت بحياته حين سقط عن فرسه وهو يلعـب فانكسرت ترقوته ومات من ساعته [٥] .

ومن الألعاب المشهورة ببغداد سباقات السفن حيث كان يقف المتفرجون علـى شاطئ دجلة بينما يتسابق المتسابقون بالسميريات والزبازب [٦] ، أو القيام بسباق لصيد السمك حيث يخرج العامة للمشاركة والفرجة خاصة عند ازدياد مياه دجلة فإنه معهـا يزداد السمك وتكون هواية ومهنة في نفس الوقت [٧] .

ومن وسائل الترفيه اللعب بالشطرنج [٨] وهي من الألعاب التـي تأخـذ جهـداً ووقتاً طويلاً من اللاعبين ، ووصفت بأنها لعبة المتعطلين وكانوا يتنافسون إلى درجـة التغايظ ، ومن أهداف اللعبة إغفال الند عن لعبة يوشك أن يلعبها وإثارته حتى يـسهو عنها [٩] وقد يؤدي التغايض بين اللاعبين إلى التشاتم وسب الحاضـرين فغالبـاً مـا

(1) ابن الجوزي : الحمقى والمغفلين ، ص١٣٦ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٩ ، ص٤٨-٤٩ .
(3) البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص٢٦٥ .
(4) المصدر نفسه ، ص٧٩ .
(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٦-١٩٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٥٥ .
(6) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٤٣ .
(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٢١ .
(8) الشطرنج لعبة فارسية معربة من الشطارة والتشطير . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، م٢ ، ص٣٠٣ .
(9) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٩٥ .

يلجـؤون إلى أساليـب تستفز الند بألفاظ ومصطلحات خاصة منها " تي " و " سي " و " شاهك " و " سر كلاهك " كذلك إهام الند بأنه كاد يقع في الفخ ، وينجذب المتفرجون الحاضرين ، وربما تدخل المتفرجون لتوجيه اللاعبين [١] .

فالشطرنج لعبـة حماسية ولع بهـا الناس كثيـراً علـى اخـتلاف طبقاتهـم الاجتماعية [٢] . وقيل في الشطرنج أنه : " معركة لا تطل فيها الدماء وميدان خيـل لا تجري فيـه الشهباء ولا الدهماء ، قد قرنت رخاخـه ونـصبت للخيـل فخاخـه ، وامتـدت أسوار بيادقه وقعدت شاهاته الملوك على نمـارقه ، ووسعـت في الأفكـار المجال ... " [٣] .

(1) أبو المطهر الأزدي : حكاية أبي القاسم ، ص٩٤ ، ٩٦ .
(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٠٦ .
(3) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص٢٨٧ .

المبحث السابع : المتنزهات .

التنزه في اللغة يعني التباعد والاسم المتنزه ، ومكان نزيه ، ونزهة بعيدة [١] ، وقال ابن السيدة : التنزه الخروج إلى البساتين والخضر والرياض [٢] .

وعليه فالبساتين والحدائق وأماكن التنزه سميت بالمتنزهات ذلك إن الطبيعة الإنسانية جبلت على حب المروج الخضراء ، وقد ورد ذكر الحدائق في قوله تعالى : ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۚ ﴾ [٣] . ذلك أن ولع البغداديين بالحدائق وهندستها كان منذ فترة طويلة ، إذ تعتبر حدائق بلاد الرافدين من أولى الحدائق التي ظهرت في التاريخ والتي دلت على براعة أهل الرافدين في إنشاء حدائقهم وهندستها ، فكانت حدائق بابل المعلقة من عجائب الدنيا السبع في العالم ، والتي استخدموا في زراعتها أشجار الفاكهة والأزهار والرياحين [٤] .

ولقد اقترن اسم مدينة بغداد منذ إنشائها بجمال حدائقها وبساتينها فسميت بأرض السواد لشدة اخضرار أرضها ، وكان الخلفاء والوزراء هم أكثر الناس عناية بأمر الحدائق والبساتين وإنشائها وتنسيقها فكما مر بنا أن قصورهم قد ألحقت بها الحدائق التي احتوت على أنواع الأشجار والثمار والورود والرياحين ، فقد كان بدار الخلافة حدائق وبساتين غناء وأشجار مثمرة بكل صنف من أصناف الفواكه والخضار ، كذلك كان بها بحيرة واسعة يأتيها الماء من دجلة في قنوات محكمة بالصاروج والآجر يجري فيها الماء صيفاً وشتاء ولا ينقطع ماؤها ، وكانت متنزهاً للخليفة وحرمه [5] ، ولكثرة

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ، ج٥ ، ص١٢٥ ، مادة نزه .

(2) ابن سيدة : المخصص ، ج٥ ، ص٣٧ .

(3) سورة النمل ، آية رقم : ٦٠ .

(4) الحفيظ : عماد محمد : حدائق ومتنزهات بغداد ، ضمن أبحاث ندوة بغداد مدينة السلام ، مركز إحياء التراث العلمي العربي ، ١٩٩٠م ، ص١٣٥ .

(5) بنيامين : الرحلة ، ص١٣١ .

بساتين النخيل والأشجار المحيطة بدار الخلافة فقد كانت ملجأً للطيور والبلابل ، فكان الخليفة يخرج إليها للصيد والنزهة [١] .

كما ابتنى الخلفاء لهم أماكن خاصة يخرجون إليها للراحة والاستجمام ، وكـانوا يختارون لها الأماكن البعيدة الطيبة الهواء ، أو على شاطئ دجلة ، فقد بنـى الخليفـة الناصر دار المسناة على شاطئ دجلة وهي أول دار بناها الناصر للنزهة وهـي مـن الدور المستحسنة التي عمرها طوابق ملونة أزرق وأحمر وسائر الألوان وكان كثيـر الملازمة لها [٢] ولا يدنو منها أحد إلا سائراً في سفينة وسط دجلة ، إذ كانت لها حرمة كحرمة قصر الخلافة [٣] .

ومن المتنزهات بستان تاج الدين ابن رئيس الرؤسـاء والـذي كـان ملاصـقاً للبيمارستان العضدي ، وحين حضر فيه الناصر سـنة ٥٨٠هـ ـ/١١٨٤م استحـسنه واشتراه من أبناء تاج الدين وعمر به داراً حسنة ، وكان كثيراً ما يخرج للبستان للتنزه خاصة وأنه كان يقع على شاطئ دجلة [٤] .

كذلك كانت دار الفلك من متنزهات الخليفة الناصر ، والفلك رجل ضرير مـات في خلافة المستضئ ، وكان ممن يلقى الدروس أمام الخليفة المستضئ ، وحين توفي لم يكن له وارث إلا بيت المال ، فأمر الخليفة الناصر بعمارة دار الفلـك لتكـون مكانـاً لنزهته وراحته وكان بينها وبين نهر دجلة خطوات [٥] ، وجمع لها الصناع والنجارين لعمارتها وأمر بتزيين بيت الخيش والذي كان يشرف على الشط بالصور فرسم عليـه صورة مملوك من مماليكه وزخرفت الدار بالذهب والفضة ، فكـان الناصـر إذا أراد النزهة صعد إلى تلك الدار من دجلة والناس تنظر إليه [٦] .

---

(1) بنيامين : الرحلة ، ص١٣١ .
(2) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٨٨ ؛ الشرفي : القصور العباسية ، ص٢٠٣ .
(3) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٨٨ .
(4) المصدر نفسه ، ص١٧٣ .
(5) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٧٦ .
(6) المصدر نفسه ، ص١٧٦ .

ومما يعكس اهتمام أهالي بغداد بالحدائق والبساتين ما بذلوه من جهد في تـوفير المياه وإيصالها إليها ، من ذلك ما ذكر عن بستان محمد بن يحيى وكان هذا البـستان مجاوراً لمحلة قطفتا على نهر عيسى فعمل له نهراً يجري فيه الماء إلـى البـستان ، وحمل إليه من سائر أنواع الأشجار وغرس فيه ، وبعد أن وصل الماء إلى ذلك المكان رغب الناس فيه وصارت محلة من محال بغداد ومحطة للقوافل ، فعمر ابـن يحيـى الخانات ملاصقة للبستان ، كذلك عمر داراً وجعلها تبيع الغزل ، وكان الخليفة الناصر كثيراً ما يتردد على بستان ابن يحيى للنزهة ، وأمر ابن يحيى بأن يـزرع الجزيـرة المجاورة للبستـان وأصبح ذلك المكان من أجمل المتنزهات تحفة الحدائق مـن كـل جانب [١] .

وبنى الخليفة المستنصر بالله بستاناً ملاصقاً للمدرسة المستنصرية ، فما يمضي يوم إلا وكان يركب إليه في السميريات ويتنزه فيه ، ويجلس وراء الستر وينظر إلـي المدرسة المستنصرية ويتفقد أحوالها وأحوال فقهائها [٢] .

كذلك كان بستان الصراه على شاطئ دجلة عمر به الخليفة الناصر داراً للراحة والاستجمام وسمي بستان الخالد وكان يطلق عليه بستان الخلد أحيانـاً [٣] كمـا كانـت المحول كثيرة البساتين والمياه مليئة بالفواكه وأنواع الثمار ، كانـت متنزهـاً للخليفـة المستعصم ، بنى بها داراً لنزهته بها [٤] .

أيضاً كان للوزراء والحجاب وكبار رجال الدولة البساتين الغناء التي يتخـذونها أماكن للترفيه والراحة [٥] .

ومن المتنزهات ببغداد بستان السمكة والذي كان لإقبال الشرابي [٦] كذلك كـان علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير مغرماً بالعمارات والمتنزهـات فممـا بنـاه داراً

---

(1) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٨٦-١٨٧ .
(2) ابن العبري : مختصر الدول ، ص٤٤٢ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٦٩ .
(4) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٦٦ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٣٨٧ .
(5) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٢٣١-٢٣٢ .
(6) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٦ .

بشرقي بغداد على شاطئ دجلة بجانب رباط الفلك ، وعمل بها بستاناً غرس فيه النخل والشجر والنارنج ولم يكن ببغداد مثله ، أستحسنها الخليفة المستعصم وطلبها منه ولكنه لم يسمح له بها [١] .

أما العامة فإنهم كانوا يقصدون البساتين للتنزه فقد جرت العادة لديهم أن يتهيئوا عصر الاثنين حاملين معهم الطعام والشراب ، ويذهبون إلى نهر عيسى لنزهة فيه وفي بساتينه ، وكذلك تحت الجسر في رحبة باب الغربة [٢] .

كما كانوا يتنزهون في النهر بالسميريات والزبايزب أو يقصدون قطربل [٣] أو القفص [٤] ، أو أوانا [٥] وغيرها من القرى المحيطة ببغداد والتي كانت مليئة بالمزارع [٦] ، فكان الجانب الغربي من بغداد تكثر به مزارع النخيل والبساتين فيخرج إليه أهالي بغداد للنزهة وصيد السمك خاصة عند ازدياد مياه النهر [٧] .

كذلك كانت الديارات ببغداد أماكن للراحة والاستجمام لخصوبة التربة بها وكثرة الزروعات والأشجار ووفرة المياه منها دير مالس واشموني وغيرها مما ذكرناه مسبقاً ، وكانت تقام بها سباقات السفن النهرية الصغيرة كالزبازب والسميريات الصغيرة ، كذلك كانت أماكن للطرب واللعب يقصدها المتنزهون البغداديون بحثاً عن اللهو [٨] .

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٠٥ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢١ ؛ الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص١٨٨ ؛ ميخائيل عواد : صورة مشرقة ، ص٨١ .

(3) قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر وهي متنزه للبطالين عن العمل . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٣٣ .

(4) هي قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريبة من بغداد من مواطن اللهو والتنزه ومجالس الفرح والاش . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٥٠ .

(5) أوانا كثيرة البساتين من نواحي دجيل كثيراً ما ذكرها الشعراء في أشعارهم . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٩٥-٣٩٦ ؛ ميخائيل عواد : صورة مشرقة ، ص٨١ .

(6) ناجية إبراهيم : ريف بغداد ، ص١٠٤-١٠٥ .

(7) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٢١ .

(8) العميد : طاهر : منتزهات الجانب الغربي ، أبحاث ندوة بغداد مدينة السلام ، ص٣٩٩ .

حظائر الحيوانات :

كانت حدائق الحيوان من المتنزهات الجميلة ببغداد فقد احتوت قصور الخلفاء على دور للطيور والحيوانات الوحشية ، وكانت تسمى " بالحير " أو " حير الوحوش " [(١)] فقد عني خلفاء بني العباس الأوائل بالأسود والنمور وأقاموا حدائق لأنواع الطيور [(٢)] ، فخلال العصور المتعاقبة ذكر لنا المؤرخون العديد من حدائق الحيوانات ، منها أنه كان في قصر المقتدر بالله حديقة للحيوانات ضمت أصناف الوحوش والأسود ، والفيلة المزينة بالديباج والزرافات وغيرها من أنواع الحيوانات [(٣)] ، كذلك اشتهرت حديقة حيوان الوزير ابن مقله [(٤)] ، فكانت بها شبكة من الأبريسم تفرخ فيها الطيور الغريبة ، كما عمل حائطاً فيه بيوتات تأوي إليه الطيور وتفرخ فيه ، وفيها من القماري والببغاء والشحارير وغيرها من أنواع الطيور التي جلبها من أقاصي البلاد ، وفي صحن الحديقة وضع الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وجعل خاف بستانه الغزلان والنعام والأرانب والإبل والبقر وحمر الوحش ، ولكل صحن أبواب تفتح إلى الصحن الآخر فيرى من مجلسه سائر ذلك [(٥)] .

كما كان يوجد في هذا العصر العديد من حدائق الحيوان التي ألحقت بقصور الخلفاء ، فقد ضمت حديقة دار الخلافة أنواع الحيوانات وأصناف الطيور والسمك [(٦)] الذي كان يرمي في بحيرة القصر [(٧)] .

---

(1) ميخائيل عواد : صور مشرقة ، ص٩٨ .

(2) عادل محمد علي : حدائق الحيوانات في بغداد مدينة السلام في العصر العباسي الأول ، أبحاث ندوة بغداد مدينة السلام ، ص١٤٤ .

(3) متز : الحضارة الإسلامية ، م١ ، ص٢٦٤ .

(4) هو محمد بن علي بن عبد الله أبو علي المعروف بابن مقله ، صاحب الخط الحسن المشهور استوزره المقتدر ، ت٣٢٨هـ . ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص٣٠٩-٣١١ .

(5) ابن مسكويه : تجارب الأمم ، ج٥ ، ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص١٩٥ ؛ ميخائيل عواد : صورة مشرقة ، ص١٠١ .

(6) بنيامين : الرحلة ، ص١٣١ .

(7) المصدر نفسه ، ص١٣١ .

كذلك كان في بستان الخالد أو الخلد حديقة حيوان ضمت أصـناف الحيوانـات الغريبة منها أنه في سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م أحضر للخليفة المستعصم عجل في سـنامه حافـر وظلاف وبعد أن شاهـده الخليفة أمر بـه أن يجعل في حديقة بستان الخلد [١] .

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٠٧ .

المبحث الثامن : المجالس المختلفة .

أ- مجالس العلم :

كانت مجالس العلم ببغداد عامرة بعلوم الفقه والحديث واللغة والاجتماع ، والعلوم الطبيعية ، فقد كانت بغداد مقصداً لطلاب العلم والعلماء على حد سواء ، برز العشرات من كبار العلماء في الدراسات الدينية ، واللغوية والعلوم الطبيعية وما تركه العلماء من تراث علمي كبير في هذا العصر لهو دليل على التطور العلمي الذي بلغته بغداد فقد كانت المساجد والجوامع عامرة بحلقات العلم المنتشرة فيها ، ولم تقتصر المجالس العلمية على بغداد فقط بل شملت مدن العراق الأخرى [1] .

أشتهر العديد من العلماء بملازمتهم للتدريس والوعظ بالمساجد ، فقد كان جامع المنصور ببغداد مرتحلاً لطلاب العلم تعقد به المجالس العلمية لكبار العلماء منهم علي بن عبيد الله المعروف بابن الزاغوني (ت٥٢٧هـ/١١٣٢م) كان مجلسه يعقد قبل صلاة الجمعة ، ثم يعظ بعد الصلاة . كما كان يجلس فيه يوم السبت [2] كما كانت تعقد المجالس الأدبية في جامع المنصور عصر كل جمعة فعلى سبيل المثال لا الحصر كان من النحاة هبة الله بن علي الشجري (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) [3] .

كذلك كان جامع القصر مجمعاً لآلاف العلماء وطلاب العلم ، تعقد به المجالس العلمية والتي يحضرها الخلفاء كذلك فمن علماء الحديث الذين حدثوا به كان محمد بن عبد الباقي (ت٥٣٥هـ/١١٤٠م) [4] وكان من تلاميذه العالم ابن الجوزي [5] .

---

(1) العسيري : الحياة العلمية في العراق ، ص٢٢٣ .
(2) ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص١٨٠ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٣٠ .
(4) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٩٤ ؛ ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص١٩٢ .
(5) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٩٢ .

ومن المجالس الأدبية التي كانت تعقد بهذا الجامع مجلس إمام اللغة موهوب بن أحمد الجواليقي (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م) [1] ، ولقد مر بنا كيف كانت مجالس الخلفاء والسلاطين والوزراء تعج بالعلماء والدروس العلمية ، وتعقد في قصورهم مجالس لخيرة علماء هذا العصر .

ولم تكن المجالس العلمية مقتصرة على الجوامع والمساجد وقصور الخلفاء والوزراء ، بل كانت منازل العلماء أيضاً من أماكن العلم التي تدور بها المناظرات العلمية في شتى فروع المعرفة ، فقد كانت دار أبي القاسم عبيد الله بن علي بن محمد بن الحسين (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) مجمعاً للعلماء [2] . كذلك كان الشيخ أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي الضرير الفقيه الشافعي (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م) الذي كانت داره مقصداً للعلم وطلابه [3] ، كما كانت حوانيت الوراقين وباعة الكتب عامرة بمجالس العلماء والأدباء ومحبي العلم قال ابن الجوزي واصفاً سوق الوراقين ببغداد : " إنها مجالس للعلماء والشعراء " [4] .

لقد كانت مجالس العلم تمثل تيار الإصلاح للمجتمع ، إذ كانت عامرة بعلوم الفقه والحديث واللغة ، وكان يحضرها عدد كبير من الناس فكان أثر هذه المجالس كبيراً جداً على عامة الناس ، فكانت تعتبر مجالس العلم مجالس علم ووعظ .

---

(1) ابن رجب : الذيل ، ج٣ ، ص٢٠٤ .
(2) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٤ .
(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٥٠٣ .
(4) ابن الجوزي : مناقب بغداد ، ص٢٦-٢٨ .

ب- مجالس الوعظ :

من أهم الظواهر الاجتماعية التي ميزت القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي كثرة مجالس الوعظ والوعاظ ببغداد ، فقد انتشرت مجالس الوعظ بصورة كبيرة ، وتصدى الكثير من العلماء للوعظ ، مما يعكس حرية التدريس والوعظ ، حتى تصدى للوعظ من لم يكونوا أهلاً للوعظ ، قال ابن الجوزي : " خسئت هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص ، وما يعجب الجهلة ، وتنوعت البدع في هذا الفن " [١] .

كان طابع هذا العصر التناقض نظراً للظروف السياسية والاقتصادية التي أحاطت به ، فقد كان المجتمع يجنح إلى التطرف والتصوف حيناً بينما يجنح إلى الفساد والخلاعة والمجون حيناً آخر ، مما أدى إلى أن يتصدى للوعظ والتذكير من يتبع تيارات مذهبية وفكرية معينة ويود بث أفكاره في عقول العامة بمجالس الوعظ ، وهو ما حدى بمجالس الوعظ أن تنحرف عن مهمتها الأساسية إلى القصص الديني والسياسي [٢] . فقد كان العامة من الناس يتأثرون كثيراً بالوعاظ ويتعصبون لهم ، تبعاً لروح التعصب المذهبي الذي كان سائداً في هذا العصر ، فإذا ما عجبت العامة بأحد الوعاظ تركوا أعمالهم وتسابقوا لحضور مجلس وعظه [٣] ، مما دفع ببعض الوعاظ إلى استغلال عقول العامة بقدرتهم على السيطرة عليها بيسر وسهولة لبلوغ أغراضهم خاصة أصحاب النفوس الضعيفة والعقول البسيطة بالكذب والحيل والخرافة رغبة في الحصول على المال والجاه ، فقد كان بعض الوعاظ يرتزق بالوعظ منهم محمد بن حير بن عمر العلوي أبو علي بن أبي المناقب الكوفي الواعظ ، كان يتنقل في البلدان ويتكلم على الناس وكان له شعر ينظمه في وعظه [٤] فرق ابن الجوزي بين المشتغلين

---

(1) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٥١ .

(2) المصدر نفسه ، ص١٥٢ .

(3) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٨ .

(4) ابن القفطي : المحمدون من الشعراء ، ... ، ص٣١٠-٣١١ .

بالوعظ وبين المذكرين الذين يغلب علـى مجالسهـم القصص القرآني الحديثي بقوله : " إن لهذا الفن ثلاثة أسماء : قصص وتذكير ووعظ " [1] .

لقد كان للقصاص أثر على الحياة الاجتماعية فقـد نـشر بعـضهم الخرافـات والمعتقدات البدعية في مجالس قصصهم الديني ، إذ لم تكن مجالس الوعظ جميعها تعقد في المساجد ، فقد كانت تعقد في الأسواق والطرقات كذلك ، فبعضهم اتخذ لـه منبـراً يجلس عليه وقد ألبسه الثياب الملونة وعلق على الحائط مصلى مما يوجب في القلـوب هيبة القائل أكثر [2] ، كما استنكر ابن الجوزي على بعضهم أنه إذا صعد المنبر غطى وجهه وارتعد حتى يفرغ القراء من القراءة ومنهم من يتبخر بالزيت والكمون ليـصفر وجهه ومنهم من يمسك معه بصلا حتى إذا ما شمه سال دمعه ليظن الناس أنه خاشـع فينال احترامهم [3] . كما قد يقوم الواعظ بأفعال وحركات مستنكرة قال ابن الجوزي ، عن أبي الحسن الخياط أنه مر بأحد الوعاظ وهو في مجلسه وقد قام على أربع ، وحين سأل أهل المجالس قالوا له : هو يحكي عبد الرحمن بن عوف على الـصراط ، قـال ومررت به يوماً آخر وهو ماد يديه حتى انحنى ظهره وحين سأل مـا حالـه قـالوا : يحكي كيف يلقى الله كنفه على عبده يوم القيامة " [4] . كذلك الغناء والتطريـب ممـا استنكره ابن الجوزي على الوعاظ في هذا العصر قال : " تأملت أشياء فـي مجلـس الوعظ يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهي منكرة ، وذلـك أن المقـرئ يطـرب ويخرج إلى الغناء والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى فيصفق هذا أو يخرج ثوبه يعتقدون أن ذلك قربة ... إن الواعظ مأمون بأن لا يتعدى الصواب ولا يتعـرض لما يفسد العوام بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه – إلى أن يقول – ولقـد رأيـت

---

(1) ابن الجوزي : القصاص والمذكرين ، تحقيق محمد لطفي الصباغ ، المكتـب الإسـلامي ، بيـروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١٥٤ .
(2) المصدر نفسه ، ص٢٩٦-٢٩٧ .
(3) المصدر نفسه ، ص٢٩٧ .
(4) المصدر نفسه ، ص٢٩٧ .

الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يخرج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين .. " [١] .

وكثيراً كانت تعمد دار الخلافة في أوقات الأزمات المذهبية وانتشار البدع عـن طريق الوعظ إلى أن تمنع الوعاظ من الوعظ وتصدر " الأعتقاد " وهو المرسوم الذي يصدره الخليفة موضحاً فيه مجال القول بالنسبة للفقهاء والوعاظ ويوقع عليـه القـضاة بعد الخليفة ويوزع على الوعـاظ [٢] ، ففـي سـنة ٥٥٢هـ ـ/١١٥٧م أذن للوعـاظ بالجلـوس بعد أن منعوا مـدة سنة وخمسـة أشهر وذلك لكثـرة المجـالس وتعـدد المذاهب [٣] ، كذلك في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م كثر الرفض وانتشرت البدع ، فـصدر أمر يمنع جميع الوعاظ من الجلوس للوعظ إلا ثلاثة وهم ابن الجوزي مـن الحنابلـة والقزويني من الشافعية وصهر العبادي [٤] من الحنفية [٥] ، كذلك صدر مرسوم يمنـع جميع الوعاظ من الوعظ ببغداد دون استثناء في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وهو ما يوضح لنا مدى تأثير الوعظ والتذكير في نفوس الناس في هذا العصر الأمر الذي لمسته الدولة فكانت هي نفسها تأمر بإقامة مجالس الوعظ وتذكير الناس عند كثـرة البـدع والفـتن المذهبية [٦] ، كذلك عند تتابع الكوارث الطبيعية منها الغرق العام وكثـرة الفيـضانات التي خربت الكثير من بغداد سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م فأمر الخليفة بتعيين واعظ يجلـس بباب بدر يعظ الناس [٧] .

ولم تقتصر مجالس الوعظ على الرجال فقط بل كانت تحضرها النساء أيضاً مع الرجال ، أو في المجالس الخاصـة بالنـساء الواعظـات كالـشيخة شـهده الأبريـة

---

(1) ابن الجوزي : صيد الخاطر ، ص٧٥ ، ١٧٤ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٨ ، ص٥٦ .

(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٩٦ .

(4) العبادي هو الأمير العالم قطب الدين أبو منصور المظفر بن اردشير العبادي الواعظ تميز بالفصاحة قدم بغداد سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م رسولاً من السلطان سنجر ووعظ ببغداد وكان الناس يتسابقون على مجالس وعظـه . ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٨ ؛ البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص١٩٧-١٩٨ .

(5) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٥٩ .

(6) المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٢٥٩ .

(7) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٢٠ .

(ت٥٧٤هـ/١١٨٨م) والتي كانت دارها في رحبة جـامع القـصر مقـراً للتـدريس والوعـظ [1] ، وكان المحتسب يشرف على مجالس الوعظ يتفقدها فلا يـدع الرجـال تختلط بالنساء ، وكان يجعل ستارة تفصل بين الرجال والنساء ، وإذا انفض المجلـس خرج الرجال وذهبوا في طريق ثم تخرج النساء ويذهبن في طريق آخـر [2] ، كـذلك مراقبة الوعاظ فمتى عرف عن بعضهم أنه يسيء القول أو أنه يشتط في أحكامه ممـا يؤدي إلى فتنة مذهبية ، فإنه يمنع من الجلوس للوعظ ويحضر إلى الفقهاء ليناقشوه في أقواله وعلى أساس أقواله يحكم عليه الخليفة ، فقد لا يكتفي بمنعه من الوعظ بل بطرده من العراق مثلما حدث لأبي الفتوح الاسفرائيني سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) [3] ، كذلك ما نقل عن عبد الله بن إسماعيل الواعظ [4] سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م أنه فتن النـاس فحكـم عليه بضربه مائة عصا وقطع لسانه وحمل إلى المارستان العضدي وحبس في حجـرة المجانين [5] .

وقد حفل هذا العصر بالعديد من مجالس الوعظ واشتهر جماعة مـن العلمـاء والوعاظ والمذكرين مما لا يسعنا حصرهم كان من أشهرهم محمد بـن عبـد الله بـن حبيب أبو بكر العامري المعروف بابن الجنازه (ت٥٣٠هـ/١١٣٥م) كان يعظ ويـتكلم على طريقة الصوفية [6] ، أما ابن الجوزي فكان من أبرز الوعـاظ والمـذكرين فـي عصره وفي كتابه " المنتظم " ذكر لنا معلومات مفصلة عن مجالس وعظه التي كـان يصفها ويحضرها الخلفاء ، وكانت تعقد في المساجد أو في الساحات العامة التي تزدحم بالمستمعين له والذين يتركون أعمالهم من أجل حضور مجلـسه ويأسـفون إن فـاتهم

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٨٨ .
(2) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١١ .
(3) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٦ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٩٤ .
(4) شمس الدين أبو طالب عبد الله بن إسماعيل بن علي بن الحسين البغدادي الحنبلي غلام ابن المنمـا ، اشـتغل بالوعظ ووعظ ببغداد ومصر ، وحدث له نظم من الشعر (ت٦٣٤هـ/١١٣٦م) . ابـن العمـاد الحنبلـي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٦٨ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٢٧ .
(6) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٦٤ .

ذلـك [١] ، كما كان يقف بالمرصاد للوعاظ المبتدعين ويفند أقوالهم ويفضح أكـاذيبهم ذكر ذلك في عدة مواضع في كتبه سواء في كتـاب الموضـوعات أو فـي كتـاب " القصاص والمذكرين " .

ولقد حضر الرحالة ابن جبير أثناء زيارته لبغداد عدة مجالس للوعظ كان منهـا مجالس للشيخ رضي الدين القزويني ووصف مجلسه بأنه " مجلس علـم ووعـظ " [٢] كذلك مجالس للشيخ العالم صدر الدين الخجندي ، كذلك حضر مجلس ابـن الجـوزي ووصف شدة تأثر الناس بفصاحته وروعة بيانه وتأثيره في القلوب فيقول : " ثم أنه بعد التفرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشـتياقاً وذابت بها الأنفس احتراقاً إلى أن علا الضجيج وتردد شهقاته النشيج وأعلن التـائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح " [٣] ، وقد سطر ابن جبير شدة إعجابه بمجالس الوعظ ببغداد وخاصة مجالس ابن الجوزي مقارنة بمجالس الوعظ التي حضرها أثناء رحلته " بأنها صغرت أمام مجلس وعظ ابن الجوزي " [٤] وأن أهـوال الرحلة ومتاعبها تهون في مقابل الاستمتاع بحضور مجلس وعظ لابن الجوزي ، ومن الوعاظ الذين كانت مجالسهم تعج بالمستمعين مجلس نظام الدين محمد بن عبد الكـريم السمعاني [5] .

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢٥٩ .

(2) ابن جبير : الرحلة ، ص١٧٥ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٧٦-١٧٧ .

(4) المصدر نفسه ، ص١٧٩ .

(5) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١٦٨ .

المبحث التاسع : عادات مختلفة ومتنوعة .

إن العديد من العادات والتقاليد المتعلقة بالحياة الاجتماعية للمجتمع البغدادي لم تكن وليدة هذا العصر ، وإنما كانت موروثة من العصور العباسية السابقة ، ومنها الكثير بقي إلى فترة الدراسة ببغداد ، ومن تلك العادات كانت عادات الجنائز والمآتم فتشييع الجنازة تعتبر سنة بالنسبة للمسلمين غير أن العديد من العادات البدعية غلبت على تشييع الجنائز في هذا العصر ، فكان الرجال يخرجون مخرقين الثياب حفاة كما كن النساء يخرجن لتشييع الجنائز إلى المقابر وهن منثرات الشعور يلطمن وينظمن الأشعار بطريقة الغناء [(١)] ، أو يؤتى بنائحات ومنشدين من أصحاب الأذكار يسيرون خلف الجنازة وهم يرتلون بالألحان [(٢)] خاصة إذا كان المتوفي من الخلفاء أو الأغنياء من الناس ، أما إذا كان المتوفى رجلاً فقيراً فإن العدد يكون قليلاً [(٣)] وكان من عادة أهل بغداد دفن موتاهم خارج أسوارها [(٤)] أما الخلفاء فإنهم كانوا يدفنون في مقابر قريش بالرصافة [(٥)] كما كان من عادة الأغنياء يدفنون مع موتاهم التابوت الذي تحمل فيه الجنازة وملابس المتوفي ويبنون عليها القبور بالجص والآجر وهي خاصة بالشيعة [(٦)] .

وبعد دفن الميت كانت تعقد مجالس المآتم على نوعين منها الخاصة بالرجال والأخرى خاصة بالنساء ، تقرأ فيها بالقرآن ويختار لمجالس النساء قراء عميان أو قارئات [(٧)] ، وعادة ثياب كانت العزاء سوداء ، ويبقون بها ولا تغير مدة الشهر ، ثم يتم تغييرها ، وإذا توفي خليفة فإن كبار رجال الدولة يبقون بثياب العزاء ولا يجتازون

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٤٩ .
(2) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٦٤٦ .
(3) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٤٧٨ .
(4) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٣٨٥ .
(5) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٥٧ .
(6) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص٣٨٥ .
(7) السقطي : آداب الحسبة ، ص٦٨ .

البلد ولا بلباسهم الرسمي ، ولا يغيرون ثياب العزاء إلا بأمر الخليفة ، وتقدم لهم الخلع من دار الخلافة [١] .

كما انتشرت عادة بناء القباب فوق الأضرحة ، ومن الخلفاء من يعمـل علـى الضريح صندوقاً ، كذلك بناء الخلفاء والكبراء الترب لهم ولموتاهم [٢] ، كذلك كانـت عادة موسم زيارة الترب والأضرحة ، فكانوا يقصدون الأئمة والشهداء من آل البيـت وأئمة العلماء ، فيركب الوزير وكبار رجال الدولة والكبراء من الناس في موكب إلـى الرصافة ، وكانت مدافن الأئمة والخلفاء ، يجتمع فيها القراء بالـدعاء ، وفـي الليـل يجتمع فيها المتصوفة والفقهاء وقد أوقدوا الشموع ويقرأ القراء ، ثم يـشرع الوعـاظ بالوعظ إلى وقـت أذان الفجر ، وبعـد الصلاة تـوزع الحلواء وأنواع الطعـام مـا يتجاوز حد الإكثار [٣] . وتلك العادات هي من عادات الشيعة الدخيلة على المجتمـع ، والتي جمع فيها الشيعة كثيراً من المعتقدات المسيحية واليهودية إضافة إلى معتقـداتهم الشيعية .

وكانت تنفق أموال كثيرة على أضرحة الشخصيات المهمة في المجتمـع مـن الأئمة والعلماء ، منها ما صرفه الناصر عند زيارته هو ووالدته لمشهد سر مـن رأى فكان يعطى صناديق الحلواء والفاكهة للأمراء كل يوم ، وانفق عشرين ألـف دينـار إضافة إلى الأغنام والأبقار التي كانت توزع على الجند كل يوم [٤] .

وعند زيارة الخليفة المستنصر لقبر الإمام موسى بن جعفر أعطى ثلاثـة آلاف دينار لنقيب الطالبين لصرفها على العلويين المقيمين في مشهد الإمام علـي بـن أبـي طالب والحسين وموسى بن جعفر وهو ما يسمى بمشهد الأئمة [٥] ، كذلك كان النـاس يقصدون المشهد الكاظمي ويزدحمون فيه حتى مات مـن شـدة الزحـام فـي سـنة

---

(1) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٣٤ .
(2) ابن الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ، ص٢٦-٢٧ .
(3) الأيوبي : مضمار الحقائق ، ص٥٧ .
(4) المصدر السابق ، ص١٧٨ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص٨٦ .

٦٠١هـ/١٢٠٤م سبعة عشر رجلاً وامرأتان وطارت عمائم الناس وذهبت أحذيتهم[1]، ولقد استمرت هذه العادة حتى بعد سقوط بغداد فذكر ابن بطوطة أنه في زيارته لبغـداد سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م كان أهل بغداد يزورون قبور الأئمة أبي حنيفة والإمام أحمد ابن حنبل وغيرهم من العلماء ، وكان لهم في كل يوم من الأسبوع زيارة لشيخ من هـؤلاء المشايخ إلى آخر الأسبوع [2] .

ومن العادات التي ظهرت في هذا العصر الاعتقاد فـي المنامـات وتـصديقها خاصة حكايات الجن ، فقد كان العامة يصدقونها ويعتقدون بها ، منها ما حـدث سـنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م حين أصاب أهل بغداد مرض الخناق وزعمت امرأة أنها رأت فـي المنام امرأة من الجن تكنى بأم عنقود قالت : " إن ابني مات في هذا البئر – وأشـارت إلى بئر داخل سوق السلطان – ولم يعزيني أحد فلهذا أخنقكم " [3] وشاع خبـر هـذه المرأة في الناس فقصد العامة الرجال والنساء البئر ونصبوا عندها خيمة وأقاموا هناك العزاء لأم عنقود ، وكن النساء ينحن وينظمن الأشعار ، كما القـى النـاس بالثيـاب والحلي والدراهم واللحم المطبوخ والدجاج في البئر ، وأشعلوا عندها الشموع ، وحـين عاب العقلاء وأكابر الناس ذلك وأنكروه أمر الخليفة بمنع الناس وحضر الشحنة إلـى البئر وقال : الديوان أمر بإعفاء عنقود من العزاء " [4] مما يدلنا على شدة تعلق الناس بتلك الأمور ثم أمر بسد البئر وتفرق الناس عنها [5] .

وقد كانت المـرأة لا تخرج كاشفة لوجهها أو حاسرة الرأس في الطرقات فإنها كانت تغطي وجهها [6] . فقد كان المحتسب يتفقد أماكن تجمع النساء مثل سوق الغـزل والكتان وشطوط الأنهار وأبواب حمامات النسـاء حتـى لا يختلـط النسـاء بالرجال

---

(1) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ص١٤٦ .
(2) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢٠١-٢٠٢ .
(3) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٨٧ .
(4) المصدر نفسه ، ص١٨٩ .
(5) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٨٩ .
(6) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٢٣٠ .

الغرباء [١] ، ومن العادات أيضاً إعارة الملابس والحلي بعضهم البعض في المناسبات للظهور بمظهر حسن خاصة في الأعراس ، فإذا تزوج أحد فقراء العامة أو الفقيـرات استعارت الملابس والحلي من الأقارب أو المعارف [٢] ، كما كان جلوس الناس علـى أبواب دورهم للتفرج على المارة عادة أعتاد المجتمع البغدادي عليها [٣] .

---

(1) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٠٩ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٢١ .

(3) ابن الجوزي : ذم الهوى ، ص٢٥٨ .

الخاتمة

الحمد لله وحده المتفضل بالنعم والصلاة والسلام على من لا نبي بعـده مبـشر الأمة وهاديها ومخرجها من الظلمات إلى النور سيدنا محمـد وعلـى آلـه وصـحبه أجمعين.

وبعد ،،

إن دراسة الحياة الاجتماعية تُعد من الدراسات الشيقة ذلك أنها تعنـي بالتـاريخ الاجتماعي الذي يهتم بحياة الشعوب ومظاهر الحياة الإنسانية بها ، وتطور اتجاهاتهـا وأحوالها الاجتماعية والحيوية وطرق ووسائل معيشتها ، لاسـيما إذ كـان موضـوع الدراسة هو مدينة بغداد حاضرة الإسلام وكعبة العلم فقد كانت بغداد رمزاً للحـضارة والمدنية ، إضافة لما ورثته من تركة غنية بالتقاليد والعادات الاجتماعية المختلفة مـن الحضارة الفارسية والتركية جراء تعدد العناصر العرقية بها التي ظهرت واضحة فـي الحياة الخاصة داخل القصور والحياة العامة التي يحياها الناس .

أنه من خلال تناولنا بالبحث لموضوع " الحياة الاجتماعية ببغداد من بداية القرن السادس حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م " توصلنا إلى جملة من الاسـتنتاجات ندرجها فيما يلي :

- أنه من خلال دراسة البنية الاجتماعية لسكان مدينة بغداد اتـضح أن المجتمـع البغدادي كان مجتمعاً مفتوحاً لا توجد به الحواجز الطبقية بدليل تدرج الرقيـق في المناصب العليا في الدولة إلى أن وصلوا إلى درجة الإمارة .
- تنفس المجتمع البغدادي في هذا العصر الصعداء بعد إزالة سلطة السلاجقة بعـد أن نالهم العسف والقهر جراء وطئة الضرائب التي تجمع منهم ، ومحاولة الدولة في تحسين الحالة المعيشية للشعب من خلال ما قدمته من مساعدات وصدقات .
- لحمة المجتمع البغدادي وقوة العلاقة فيما بينهم وبين الخلفاء ظهرت في محبـة العامة واحترامهم للخلفاء من خلال مشاركتهم في أفراحهم وأحـزانهم ، ولقـد

استمرت ذكرى الخلفاء ومحبتهم في قلوب العامة خلال العهد الايلخـاني فعنـد وفاة الست خديجة ابنة الخليفة المستعصم سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م تذكر الناس أيام الخلافة وكثر النواح والندب [١] .

- كان هناك غموضاً كبيراً حول حياة الأمراء من البيت العباسي الـذين حجبـوا داخل قصور دار الخلافة على الرغم من كثرة ما كتب عن الجوانب الـسياسية خلال هذه الفترة ، إلا أن المصادر تفتقر إلى أخبارهم .
- ظهور قوة الرأي العام للعامة خلال هذه الفترة مما جعل الخلفاء يأخذون ذلـك بعين الاعتبار ويلبون رغباتهم ويراعون معتقداتهم الاجتماعية والخاصة .
- تمتع العلماء ببغداد بمكانة اجتماعية رفيعة في المجتمع فقد كان لهم نفوذهم على العامة والخاصة ، ظهر ذلك جلياً في استعانة الخلفاء بهم لحل مشكلات الـبلاد الداخلية ، وفي حل المشكلات وتنقية العلاقات في الأقطار المجاورة سواء فـي مصر أو بلاد الشام .
- انتشار الفقر والجهل في أوساط العامة بحيث سهل التأثير عليهم .
- رقي المجتمع البغدادي ووصوله إلى درجة عالية من المدنية والتنظيم خاصة في التنظيم الاجتماعي للنقابات المهنية على الرغم مما كان يـشوبها مـن عـادات أصحاب المذهب الشيعي ظهرت في حفلات اختيار النقيب وما يـصاحبها مـن مظاهر احتفالية نرى أنها اختصت بالشيعية كثيراً .
- انتعاش الحياة الاجتماعية للمجتمع بكافة فئاته خلال هذه الفترة وما اتسمت بـه من حب الخلود للراحة والاستمتاع بالمنتزهات ، ولعل أهم ما يميزها هو كثـرة اتخاذ الخلفاء لأماكن النزهة والاستجمام .
- بطء التبدل الاجتماعي في العادات والتقاليد والذي استمر عبر القرون ، ومـن العادات ما ظل حاضراً إلى وقتنا الحاضر .

---

(1) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٨ ، ص١١ .

- الدور الاجتماعي الخفي الذي لعبه المتآمرون بالتواطؤ مع القوى الأجنبية فـي إثارة التعصب المذهبي للعامة ، فقد كان له أثره السيئ فـي كيـان المجتمـع البغدادي الذي مزقته كثرة الفتن المذهبية ، فأنقسم إلى سنة وشيعة ، وكان السنة منقسمين إلى حنابلة وشوافع وحنفية ، فقد كانت الفتن المذهبية قبيل سقوط بغداد من أهم الأمور التي كانت تنخر في جسم المجتمع البغدادي وكانت أحد عوامـل الضعف التي تنذر بتصدع الدولة .
- أظهرت الدراسة كم كان كبيراً انتقال العادات والتقاليد والأعراف وسائر الأمور المادية بين المجتمعات البشرية فقد تأثر مجتمع بغداد كثيراً بالعناصر الأجنبيـة في كل شؤون الحياة الاجتماعية .

الملاحق

ملحق رقم (١)

الخلفاء العباسيون في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي

(٤٨٥-٦٥٦هـ/١٠٩٢-١٢٥٨م)

- المستظهر بالله . ٤٨٥هـ/١٠٩٢م
- المسترشد بالله بن المستظهر . ٥١٢هـ/١١١٨م
- الراشد بالله بن المسترشد . ٥٢٩هـ/١١٣٤م
- المقتفي لأمر الله بن المستظهر . ٥٣٢هـ/١١٣٧م
- المستضيء بالله . ٥٥٦هـ/١١٧٠م
- الناصر لدين الله بن المستنجد . ٥٧٥هـ/١١٧٩م
- الظاهر بن الناصر . ٦٢٢هـ/١٢٢٥م
- المستنصر بن الظاهر . ٦٢٩هـ/١٢٣٢م
- المستعصم بالله . ٦٤٠هـ/١٢٤٢م

ملحق رقم (٢)

سلاطين السلاجقة في إيران والعراق من

(٤٩٨-٥٧١هـ/١١٠٤-١١٧٥م)

- محمد بن ملكشاه . ٤٩٨هـ/١١٠٤م
- محمود بن محمد بن ملكشاه في العراق . ٥١٣هـ/١١١٩م
- سنجر بن ملكشاه في خراسان . ٥١٣هـ/١١١٩م
- ملكشاه . ٥٤٧هـ/١١٥٢م
- مسعود . ٥٥٢هـ/١١٥٧م
- سليمان شاه . ٥٥٥هـ/١١٦٠م
- أرسلان بن طغرل الثاني . ٥٥٦هـ/١١٦١م
- طغرل الثالث بن أرسلان . ٥٧١هـ/١١٧٥م



شكل (١)

طرحة يرتديها أحد القضاة

صلاح العبيدي في الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية



شكل (٢)

شاشية في صحن من الخزف يرجع إلى حوالي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي

صلاح العبيدي : الملابس العربية



شكل (٣)

قلنسوة فراء ترجع إلى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي

صلاح العبيدي : الملابس العربية



شكل (٤)

رصافية يرتديها والي بغداد ومؤرخة من سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م

صلاح العبيدي : الملابس العربية



شكل (٥)

قلنسوة فراء يرتديها أحد الأمراء مؤرخة من سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م

صلاح العبيدي : الملابس العربية



شكل (٦)

إزار في تصويره مؤرخ من سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م

صلاح العبيدي : الملابس العربية

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

المصادر الخطية :

- السيوطي : جلال الدين .
  - **المستطرب من أخبار الجواري** ، مصور بمكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٨/١٥٤ عدد ١٦٥ق ، ضمن مجاميع أولها الوشاح في فوائد النكاح.
- مؤلف مجهول : من رجال القرن السادس الهجري .
  - **إنسان العيون في مشاهير سادس القرون** ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، رقم (١٣١٠) تاريخ، عن مصور مكتبة جامعة بغداد ، دراسات عليا رقم ٢٤٨ .

المصادر المطبوعة :

- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن السعدي (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م) .
  - **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، شرح وتحقيق د. نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم محمد بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .
  - **الكامل في التاريخ** ، تحقيق خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .
  - **اللباب في تهذيب الأنساب** ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ .
- ابن الإخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م) .
  - **معالم القربة في أحكام الحسبة** ، عني بنقله وتصحيحه روبن لوى ، مطبعة دار الفنون ، كمبرج ، ١٩٣٧م .

- ابن بسام : محمد بن أحمد المحتسب (د.ت) .
  - **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** ، تحقيق الدكتور حسام الدين السامرائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .
- ابن بطلان : أبي الحسن المختار بن عبدون البغدادي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).
  - **رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد** ، منشورة ضمن المجموعة الرابعة من نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي المعروف بابن البيطار .
  - **الجامع لمفردات الأغذية والأدوية** ، بغداد ، ١٩٠٠م .
- ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الداني (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) .
  - **تحفة النظار في غرائب الأمصار المسمى (رحلة ابن بطوطة)** ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو العباس أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) .
  - **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة** ، ١٢ج ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .
- ابن جبير : محمد بن أحمد الكتاني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) .
  - **رحلة ابن جبير** ، دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٩٨م .
- ابن جماعة : بدر الدين الشيخ إسحاق إبراهيم بن السيد العارف أبي الفضل سعد الله ابن جماعة الكناني (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) .
  - **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت597هـ/١٢٠٠م) .
  - **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، ٦ج ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .
  - **أخبار الحمقى والمغفلين** ، تحقيق محمد شريف سكر ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
  - **تلبيس إبليس** ، تحقيق السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
  - **صفة الصفوة** ، تحقيق محمد فاخوري ، دار الوعي ، حلب ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
  - **صيد الخاطر** ، الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
  - **أخبار الظراف والمتماجنين** ، باعتناء طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .
  - **مناقب بغداد** ، تحقيق محمد زينهم ، محمد عزب ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
  - **أخبار الأذكياء** ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، مطابع الأهرام ، ١٩٧٠م.
  - **المدهش** ، مطبعة الآداب ، بغداد ، ١٣٤٨هـ .
  - **المصباح المضيء في خلافة المستضيء** ، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم ، مطبعة الشعب ، بغداد ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م .
  - **ذم الهوى** ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ومراجعة محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

- **لفتة الكبد في نصيحة الولد** ، تعليـق د. مـروان قبـاني ، المكتـب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- **تنبيه الغمر في مواسم العمر** – ضمن كتاب التحفـة البهيـة والطرفـة الشهيـة ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، ١٣٠٢هـ .
- **كتاب القصاص والمذكرين** ، تحقيق محمد مصطفى الصباغ ، المكتـب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

• ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

- **العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العـرب والعجـم والبربـر ومـن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، جمال للطباعة والنشر ، بيـروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

• ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٣م).

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، ٨ج ، تحقيق إحسان عبـاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٩٧م .

• ابن الدبيثي : عبد الله محمد بن سعيد بن يحيـى بـن الـدبيثي (ت٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م).

- **المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي** ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

• ابن رافع السلامي : أبو المعالي محمد (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .

- **تاريـخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار** ، انتخبه التقـي الفاسـي المكي ، نشره عباس العزاوي ، الدار العربية للموسوعات ، بيـروت ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

• ابن رجب : الفرج عبد الرحمن شهاب الـدين أحمـد الحنبلـي (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) .

- **الذيل على طبقات الحنابلة** ، ٢ج ، دار المعرفة ، بيروت .

- ابن الزبير : القاضي رشيد أبو الحسين أحمد بن الرشيد القاضي (عـاش فـي القرن الخامس الهجري) .
  - **الذخائر والتحف** ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت ، ١٩٨٤م .
- ابن الساعي : أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين المعـروف بـابن الـساعي الخازن (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) .
  - **الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير** ، تعليق مصطفى جواد ، دار المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م .
  - **نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء مـن الحرائـر والإمـاء** ، تحقيق مصطفى جواد ، دار المعارف ، مصر .
- ابن سعد : محمد الزهري (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م) .
  - **كتـــاب الطبقـات الكبـــرى** ، ٩ج ، دار بيـروت ، دار صـادر ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م .
- ابن السيدة : أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م).
  - **المخصص** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن الطقطقى : محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠١هـ/١٣٠١م) .
  - **الفخري في الآداب السلطانية** ، حققه عبد القادر مايو ، الطبعة الأولى ، دار العلم العربي ، حلب ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- ابن طيفور : أبي الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (ت٢٨٠هـ/٨٩٣م) .
  - **كتـاب بغـداد** ، مكتبـة الخـانجي ، القـاهرة ، الطبعـة الأولـى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .
- ابن عبد الحق : صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٢٣٨م).
  - **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** ، ٣ج ، تحقيق علي محمـد البجـاوي ، ط١ ، دار إحيـاء الكتـب العربيـة ، القـاهرة ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .

- ابن العبري : أبو الفرج غريغوريوس بن أهدون الطيب الملطي (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) .
  - **تاريخ مختصر الدول** ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .
- ابن العباس : الحسن بن عبد الله (د.ت) .
  - **أثار الأول في ترتيب الدول** ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٥م .
- ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسين (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) .
  - **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) .
  - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، الطبعة الثالثة ، دار المسرة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- ابن العمراني : محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) .
  - **الأنباء في تاريخ الخلفاء** ، تحقيق قاسم السامرائي ، نشريات المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
- ابن الفقيه : أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق (ت٣٤٠هـ/٩٥١م) .
  - **البلدان** ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
- ابن الفوطي : كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (ت٧٢٣هـ / ١٣٢٩م).
  - **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة** ، تحقيق مهدي النجم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

o **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب** ، ج٤ ، تحقيق مصطفى جواد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مطبوعات مديريـة ، إحيـاء التـراث القديم.

- ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة بن أسد القلانسي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) .

o **ذيل تاريخ دمشق** ، باعتنـاء هـ.ف. امـدروز ، مبطعـة الأبـاء ، اليوسيعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م .

- ابن الكازروني : ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) .

o **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس** ، تحقيـق مصطفى جواد ، وزارة الأعلام ، سلسلة كتب التراث .

o **مقامة في قواعد بغداد** ، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٢م .

- ابن كثير : عماد الدين أبو الفـداء إسـماعيل بـن عمـر القرشـي الدمـشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م) .

o **البداية والنهاية** ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م .

- ابن مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) .

o **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** ، مصر ، ١٣٣٤هـ/١٩١٥م .

- ابن المعمار : أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م) .

o **كتاب الفتوة** ، تحقيق مصطفى جواد وآخرون ، مكتبة المثنى ، بغـداد ، ١٩٥٨م .

- ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) .

o **لسان العرب** ، دار صادر بيروت ، ١٩٩٧م .

- ابن مماتي : أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) .

o **قوانين الدواوين** ، د . ت .

- ابن مهمندار : يزدجرد بن مهندار الفارسي (من أهل القرن الثالث الهجري) .
  - **فضائل بغداد** ، تحقيق ميخائيل عـواد ، مطبعـة الإرشـاد ، بغـداد ، ١٩٦٢م.
- ابن النجار : الحافظ محب الدين أبي عبد الله محمـد بـن محمـود البغـدادي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) .
  - **ذيـل تاريخ بغداد** ، تحقيق عبد القادر عطـا ، دار الكتـب العلميـة ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
- ابن هبل : مهذب الدين أبي الحسن علي بن أحمـد ابـن هبـل (ت٦١٠هـ/١٩٤٣م) .
  - **كتاب المختارات في الطب** ، الطبعة الأولـى ، مطبعـة دار المعـارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٦٢هـ/١٢١٣م .
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) .
  - **مفـرج الكروب في أخبار بني أيـوب** ، ٥ج ، مطبعـة دار الكتـب ، القاهرة ، ١٩٧٢م/١٩٧٧م .
- أبو داود السجستاني : سليمان بن الأشـعث بـن إسـحاق بـن بـشير الأزدي (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م) .
  - **سنن أبي داود** ، دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة .
- أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمـشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) .
  - **تراجم رجال القـرنين الـسادس والـسابع المعـروف بالـذيل علـى الروضتيـن** ، مطبعة وادي النيل ، القاهرة ، ١٢٨٨هـ/١٨٧١م .
- أبو المطهر الأزدي : محمد بن أحمد (القرن الرابع الهجري) .
  - **حكاية أبي القاسم البغدادي** ، مطبعة كردونتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢م .

- أبو يعلى : القاضي محمد بن الحسن الفراء الحنبلي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).
  - **الأحكام السلطانية** ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٦م.
- أخوان الصفا .
  - **رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا** ، دار بيروت للطباعة .
- الإدريسي : محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) .
  - **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
- الأربلي : عبد الرحمن سنبط قنيتو (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .
  - **خلاصة الذهب المسبوك** ، وقف على طبعه وتصحيحه مكي السيد مكي جاسم ، نشر مكتبة المثنى ببغداد .
- الأصبهاني : عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد صفي الدين (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) .
  - **خريدة القصر وجريدة العصر** ، القسم العراقي ، ج١ ، ج٢ ، تحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .
- الاصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).
  - **المسالك والممالك** ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، دار القلم ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .
- الأيوبي : محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م) .
  - **مضمار الحقائق وسير الخلائق** ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٨م.
- البستاني : بطرس .
  - **محيط المحيط** ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م.

- البغدادي : إسماعيل باشا محمد أمين الباني (ت١٣٣٩هـ/١٩٢٠هـ) .
  - **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ، جـزآن ، طبـع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية ، استانبول ، ١٩٥١م ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد .
- البغدادي : محمد بن الحسن بن محمد بن الكريم الكاتب البغدادي (ألفـه سـنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م) .
  - **كتاب الطبـيخ** ، حققه داود الجلبي ، وطبع بالموصل سنة ١٩٣٤م ، ذيل عليه بكتاب المآكل الدمشقية ، نشر دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٤م.
- البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) .
  - **أنساب الأشراف** ، تحقيق محمد عبد الله ، دار المعارف بمصر .
- البنداري : الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهابي (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) .
  - **تاريخ آل سلجوق** ، الطبعة الثانية ، دار الآفـاق الجديـدة ، بيـروت ، ١٩٧٨م .
- البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م).
  - **الآثار الباقية عن القرون الخاليـة** ، بعنايـة دورد سـخاو ، ليبـزغ ، ١٩٢٣م.
- البيهقي : إبراهيم بن محمد (ت٣٢٠هـ/٩٣٢م) .
  - **المحاسن والمساوئ** ، دار صادر ، بيروت .
- البيهقي : محمد بن الحسين أو الفضل البيهقي (ت٤٧٠هـ/١١٧٧م) .
  - **تاريخ البيهقي** ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م .
- التطيلي : بنيامين بن بونه الأندلسي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) .
  - **رحلة بنيامين** ، ترجمة عزرا حـداد ، دار ابـن زيـدون ، بيـروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

- التنوخي : القاضي أبي على المحسن بن علي (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م) .
  - **الفرج بعد الشدة** ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
  - **المستجاد من فعلات الأجواد** ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
  - **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
- الثعالبي : أبي منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) .
  - **تحفة الوزراء** ، تحقيق علي الراوي وابتسام مرهون الصفار ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٧م .
  - **خاص الخاص** ، مكتبة الحياة ، بيروت .
  - **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ، تحقيق قصي الحسين ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ٢٠٠٣م .
  - **فقه اللغة وأسرار العربية** ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٩م .
- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) .
  - **البيان والتبيين** ، دار الفكر ، بيروت .
- الجمحي : محمد بن سلام (ت٢٣١هـ/٨٤٦م) .
  - **طبقات الشعراء** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢م .
- الجهشياري : أبي عبد الله محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/٩٤٢م) .
  - **كتاب الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، البابي الحلبي ، القاهرة .

- الجواليقي : أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر (ت٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) .
  - o **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم** ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، دار بيروت ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
- الجوهري : إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣هـ/١٠٠٣م) .
  - o **الصحاح في اللغة** ، تحقيق عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- الجيلاني : عبد القادر بن موسى (ت٥٦١هـ/١١٦٥م) .
  - o **كتاب الغنية لطالبين طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية** ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٥هـ/١٩٥٦م .
- حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب جلبي (ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) .
  - o **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد .
- الحريري : أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري (ت٥١٦هـ/١١٢٢م) .
  - o **مقامات الحريري** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥م .
- الحسيني : صدر الدين أبي الحسن علي بن ناصر (ت في القرن السابع).
  - o **أخبار الدولة السلجوقية** ، نشر محمد إقبال ، لاهور ، ١٩٣٣م .
  - o **زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية** ، تحقيق محمد نور الدين .
- الخطيب البغدادي : الحافظ أبي بكر بن علي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) .
  - o **تاريخ بغداد** ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- **التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونـوادر كلامهـم وأشـعارهم** ، تحقيـق عبـد الله عبـد الـرحيم عـسيلان ، دار المـدني ، جـدة ، ١٤٠٦هـ-م١٩٨٦م .

- الخفاجي : أحمد بن محمد بن عمر المصري (ت١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) .
  - **شفـاء الغليل في كلام العرب من الدخيل** ، تعليق محمد عبـد المـنعم خفاجي ، مكتبـة الحـرم الحـسيني التجاريـة الكبـرى ، القـاهرة ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- الخوارزمي : محمد بن أحمد بن يوسف (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) .
  - **مفاتيح العلوم** ، تقديم وإعداد عبد اللطيف محمد العبـد ، دار النهـضة العربية ، القاهرة .
- الدلجي : أحمد بن علي (ت٨٣٨هـ/٣٣٤م) .
  - **الفلاكه والمفلكون** ، مطبعة الشعب ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ .
- الدمشقي : أبو الفضل جعفر بن علي (عاش في القرن السادس الهجري).
  - **الإشارة إلى محاسن التجارة** ، مطبعة المؤيد ، دمشق ، ١٣١٨هـ .
- الدمياطي : شهاب الدين أحمد بن أيبك الحسامي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .
  - **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد** ، تحقيق عبد القادر عطـا ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
- الدينوري : أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) .
  - **كتاب النبات** ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٣٦٤هـ/١٩٧٤م .
- الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ/١٢٤٧م) .
  - **دول الإسلام** ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، ومحمود الأرنـاؤط ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٩م .

o **العبر في خبر من غبر** ، تحقيق صلاح المنجد ، وفؤاد السيد ، الكويت ، ١٩٦٠م/١٩٦٦م .

o **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق شعيب الأرنؤط ، ١٩ج ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- الراغب الأصفهاني : أبو القاسم حسين بن محمد (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) .

o **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، دار مكتبـة الحيـاة ، بيروت ، ١٩٦١م .

- الراوندي : محمد بن علي بن سلمان (ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م) .

o **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولـة الـسلجوقية** ، ترجمـة إبراهيم الشواربي وآخرون ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

- الزبيدي : محمد بن محمـد بـن عبـد الـرزاق الـشهير بالـسيد الحـسني (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) .

o **تاج العروس من جواهر القـاموس** ، تحقيـق عبـد الفتـاح الحلـو ، ومصطفى مجازي ، التراث العربي ، الكويت ، ١٤٠٦هـ/١٩٦٦م .

- سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزواغلي علي بن عبـد الله (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) .

o **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** ، ج٨ ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

- السبكي : تاج الدين أبو نصر عبـد الوهـاب بـن علـي بـن عبـد الكـافي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) .

o **طبقات الشافعية الكبرى** ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البـابي الحلبـي وشـركاه ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

- السقطي : أبو عبد الله محمد بن أبي محمد (ت في نهاية القرن الخامس أو أوائل السادس الهجريين) .
  - **في آداب الحسبة** ، باعتناء كولن وليفي ، باريس ، ١٩٣١م .
- السهرودي : أبو حفص عمر بن محمد بـن عبـد الله عمويـة (ت٦٣٢هـ‍ـ/١٢٣٤م).
  - **عـوارف المعارف** ، مكتبة القاهرة ، ١٣٩٣هـ‍/١٩٧٣م .
- السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبـي بكـر (ت٩١١هـ‍ـ/١٥٠٥م) .
  - **تاريخ الخلفاء** ، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي ومحمد العثمـاني ، دار القلم ، بيروت .
- الشابشتي : أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ‍/٩٩٨م) .
  - **الديارات** ، تحقيق كـوركيس عـواد ، مطبعـة المعـارف ، بغـداد ، ١٣٨٦هـ‍/١٩٦٦م .
- الشيزري : عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ‍/١١٩٣م) .
  - **الرتبة في طلب الحسبة** ، دار الثقافة ، بيروت .
- الصابئ : أبو إسحاق إبراهيم بن هلال (ت٣٨٤هـ‍/٩٩٤م) .
  - **المختار من رسائل الصابئ** ، تحقيق شـكيب أرسـلان ، دار النهـضة الحديثة ، بيروت .
- الصابئ : أبو الحسين هلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ‍/١٠٥٦م) .
  - **رسـوم دار الخلافة** ، تحقيق ميخائيل عـواد ، دار الآفـاق العربيـة ، القاهرة ، طبعة ١٤٢٤هـ‍/٢٠٠٢م .
  - **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** ، دار الآفـاق العربيـة ، القـاهرة ، ١٤٢٤هـ‍/٢٠٠٣م .

- الصفدي : صلاح الدين خليل أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) .
  - **نكت الهميان في نكت العميان** ، المطبعة الجمالية بمصر ، ١٣٢٩هـ/١٩١١م .
  - **الوافي بالوفيات** ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- الطبري : محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) .
  - **تاريخ الأمم والملوك** ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- العطار الهمذاني : فريد الدين محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت٦٢٧هـ/١٢٢٩م) .
  - **تذكرة الأولياء** ، طهران ، ١٣٢١هـ/١٩٠٢م .
- العمري : ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى القاضي (ت٧٤٩هـ/١٣٨٤م) .
  - **التعريف بالمصطلح الشريف** ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
  - **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، تحقيق أحمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٢٤هـ/١٩٢٤م .
- الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) .
  - **فضائح الباطنية** ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت .
  - **إحياء علوم الدين** ، دار شعب ، القاهرة .
  - **هدية المريد في تقليب العبيد** ، منشور ضمن المجموعة الرابعة من نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- الغساني : أبو العباس إسماعيل بن العباس بن رسول (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) .
  - **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك** ، ٢ج ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، دار البيان ، بغداد ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

- الفارقي : أحمد بن علي الأزرق (ت٥٧٧هـ/١١٨١م) .
  - **تاريخ الفارقي** ، تحقيق بدري عبد اللطيف ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٤م .
- الفاسي : تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م).
  - **شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام** ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- الفيروزآبادي : الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م) .
  - **القاموس المحيط** ، ٤ أجزاء ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- القرشي : محي الدين أبي محمد بن عبد القادر (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) .
  - **الجواهر المضيئة في طبقات الحنيفية** ، جزآن ، طبعة حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٧٢هـ .
- القشيري : أبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت٤٦٥هـ/١٠٧٢م) .
  - **الرسالة القشيرية** ، تحقيق عبد الحليم محمود ، محمود الشريف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- القفطي : جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) .
  - **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** ، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
  - **المحمودون من الشعراء وأشعارهم** ، تحقيق رياض عبد الحميد مراد ، دمشق ، ١٣٩٥هـ .
- القلقشندي : أبي العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) .
  - **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- **مآثر الأنافة في معالم الخلافـة** ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عـالم الكتب العلمية ، بيروت .

- الكاساني : علاء الدين أبي بكر مسعود (ت٥٨٧هـ/١١٩١م) .
  - **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** ، دار الكتـاب العربـي ، بيـروت ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

- الكتبي : ابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) .
  - **عيـون التواريخ** ، ج١٢ ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبـد المـنعم داود ، وزارة الإعلام ، سلسلة كتب التـراث ، بغـداد ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
  - **فوات الوفيات** ، تحقيق محي الـدين عبـد الحميـد ، مكتبـة النهـضة المصريـة ، القاهرة .

- الماوردي : علي بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠هـ/١١٥٥م) .
  - **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
  - **أدب الوزير** ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م .

- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) .
  - **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميـد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجـاج القـشيري النيـسابوري (ت٥٦١هـ/١١٦٥م) .
  - **الجامع الصحيح** ، دار القلم ، بيروت .

- المقدسي : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي البنا (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) .
  - **أحسن التقاسـيم فـي معرفـة الأقـاليم** ، الطبعـة الثانيـة ، ليـدن ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

- المقريزي : تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م).
  - **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثـار** ، ج٢ ، دار صـادر ، بيروت .
  - **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، تحقيق عبد القـادر عطـا ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- نظام الملك : قوام الـدين أبـي الحـسن بـن علـي بـن إسـحاق الطوسـي (ت٤٨٥هـ/١٩٧٨م) .
  - **سياسة نامة** ، ترجمة السيد محمد العـزاوي ، دار الرائـد العربـي ، بيروت.
- النظامي العروضي : أحمد بن عمر بن علـي الـسمرقندي (ت آخـر القـرن السادس) .
  - **جهار مقاله** ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، ويحيى الخشاب ، القـاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .
- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) .
  - **نهاية الأرب فـي فنـون الأدب** ، دار الكتـب المـصرية ، القـاهرة ، ١٣٤٩هـ-١٣٦٩هـ/١٩٢٩م-١٩٤٩م .
- الهمذاني : رشيد الدين فضل الله (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) .
  - **جامع التواريخ** ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- الوشاء : أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى (ت٣٢٥هـ/٩٣٦م) .
  - **الموشى أو الظرف والظرفاء** ، عالم الكتب ، بيروت .
- الوطواط : رشيد الدين فهمي محمد (٥٧٣هـ/١٣٣٢م) .
  - **الرسائل** ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٣١٥هـ .

- ياقوت : أبو عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
  - **معجم الأدباء** ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
  - **معجم البلدان** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥م .
- اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضع الكاتب (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) .
  - **البلدان** ، ط٣ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م .
- اليونيني : قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م) .
  - **ذيل مرآة الزمان** ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

المراجع العربية والمعربة :

- أبو النصر : محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر .
  - **السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري** ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
- ادي شير :
  - **الألفاظ الفارسية المعربة** ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- إبراهيم : رجب عبد الجواد .
  - **المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية إلى العصر الحديث** ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
- إبراهيم : ناجية عبد الله .
  - **ريف بغداد** ، دراسة تاريخية لتنظيماته الإدارية وأحواله الاقتصادية (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م) ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٨م .

- آل ياسين : محمد مفيد .
  - **الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري** ، الطبعة الأولى ، الدار العربية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- الباشا : حسين .
  - **الألقاب الإسلامية في التاريخ والآثار** ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .
- حسن : حسن زكي محمد .
  - **دليل متحف الفن الإسلامي** .
- الحسيني : السيد عبد الرزاق كمونه .
  - **موارد الإتحاف في نقباء الأشراف** .
- الخازن : وليم .
  - **الحضارة العباسية** ، منشورات الجامعة اللبنانية ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، ١٩٨٤م .
- الدخيل : سليمان .
  - **الفوز بالمراد في تاريخ بغداد** ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .
- الدهمان : محمد أحمد .
  - **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي** ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- رانست .
  - **الفن الإسلامي** ، ترجمة أحمد موسى ومراجعة إبراهيم الدسوقي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

- الرحيم : عبد المحسن مهدي .
  - **الخدمات العامة في بغداد** ، دار الشؤون الثقافية ، آفاق عربية ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .
- الزبيدي : محمد حسن .
  - **العراق في العصر البويهي** ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
- الزهراني : ضيف الله يحيى .
  - **موارد بيت المال في الدولة العباسية** ، الطبعة الأولى ، الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- زيدان : جورجي .
  - **تاريخ التمدن الإسلامي** ، منشورات دار مكتبة الحياة .
- سعد : فهمي عبد الرزاق سعد .
  - **العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين** ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- سعد الدين : منير .
  - **العلماء عند المسلمين ودورهم في المجتمع** ، الطبعة الأولى ، دار المناهل ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- شبارو : عصام محمد .
  - **السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٤م .
- الشرقي : طالب علي .
  - **قصور العراق العربية والإسلامية حتى نهاية العصر العباسي** ، ٦٥٦هـ ، دار الشؤون العربية العامة ، بغداد ، ٢٠٠١م .

- شلبي : أحمد .
  - o **التربية الإسلامية - نظمها - فلسفتها - تاريخها** ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
- الشيخلي : صباح إبراهيم سعيد .
  - o **الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها** ، بغداد ، وزارة الأعلام ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .
- عبد المولى : محمد بن أحمد .
  - o **العيارون والشطار البغادده** ، في التاريخ العباسي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
- عثمان : محمد عبد الستار .
  - o **المدينة الإسلامية** ، دار الآفاق العربية ، القاهرة .
- العسيري : مريزن بن سعيد .
  - o **الحياة العلمية في العراق** ، في العصر السلجوقي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- العلي : صالح أحمد وآخرون .
  - o **العراق في التاريخ** ، بغداد ، ١٤١٠هـ/١٩٨٣م .
- عواد : ميخائيل ، عواد .
  - o **صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي** ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨١م .
- الغامدي : عبد الله بن سعيد .
  - o **جهاد المماليك ضد المغول والصليبين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري** ، جامعة أم القرى ، مكة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- فهد : بدري محمد .
  - o **تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير** ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٣م .

- **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري** ، مطبعة الإرشـاد ، بغـداد ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

- فييه : جان موريس .
  - **أحوال النصارى في خلافة بني العبـاس** ، دار المـشرق ، بيـروت ، ١٩٩٠م .
- الكتاني : محمد بن جعفر الكتاني الحسيني .
  - **الدعامة لمعرفة سنة العمامة** ، مطبعة الفيحاء ، دمشق ، ١٣٤٢هـ .
- الكردي : إبراهيم سليمان .
  - **طبقات المجتمع في العصر العباسـي الأول** ، مؤسسة شباب الجامعـة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م .
- الكرملي : استانس ماري .
  - **النقود العربية وعلم الثميات** ، مكتبة لويس كركيس ، القاهرة ، ١٩٣٩م.
- ماسينون .
  - الإسلام . Masin on : **Islamic craile** Ess vol . pe
- متز : آدم .
  - **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، ترجمـة محمـد عبـد الهادي أبو ريده ، جزآن ، مكتبة الخـانجي ، القـاهرة ، دار الكتـاب العربـي ، بيروت .
- المسري : حسين علي .
  - **تجارة العراق في العـصر العباسـي** ، الكويـت ، جامعـة الكويـت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- معروف : ناجي .
  - **تاريخ علماء المستنصرية** ، جزآن ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

- **المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكـة** ، ط١ ، مطبعـة الإرشـاد ، بغـداد ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- **مـدارس قبـل النظاميـة** ، مطبعـة المجتمـع العلمـي العراقـي ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

• مقدسي : جورج .

- **خطط بغداد في القرن الخامس الهجري** ، ترجمة صالح العلي ، مطبعة المجتمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٤م .

• النجار : محمد رجب .

- **حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي** ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

• اليوزبكي : توفيق سلطان .

- **تاريخ أهل الذمة في العراق** ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنـشر ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

الندوات والمؤتمرات :

• بغداد مدينة السلام ، أقامها مركز إحياء التراث العلمي بجامعة بغداد ، ١٩٩٠م.

• الحفيظ : عماد محمد .

- **حدائق ومنتزهات بغداد** .

• الشيخ : عماد محمد علي حسين .

- **حدائق الحيوانات في بغداد مدينة السلام في العصر العباسي الأول** .

• العميد : طاهر .

- **منتزهات الجانب الغربي لبغداد** ، في العصر الأول .

الموسوعات :

- **دائرة المعارف الإسلامية** ، الترجمـة العربيـة ، ١٤ جـزء ، دار الـشعب ، القاهرة.

الرسائل الجامعية :

- ياغي : سوزان حسين .
  - o **الحياة الاجتماعية في بغداد منذ تأسيسها حتى ٣٣٤هـ/٩٤٦م** ، رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير في التاريخ ، كليـة الدراسـات العليـا ، الجامعة الأردنية ، كانون الثاني ٢٠٠١م .

المجلات والدوريات :

<u>* مجلة بيت الحكمة :</u>

- العاني : نوري عبد الحميد .
  - o **علماء العراق بين القرنين السابع والحـادي عشر الهجريين** ، العـدد ٢٢ ، الأديب البغدادية المحدودة ، ١٩٩٨م .

<u>* المجلة التاريخية المصرية :</u>

- مليحة : رحمة الله .
  - o **الملابس في العراق خلال العصور العباسية** ، المجلد الثالـث عـشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
  - o **صور من الحياة الاجتماعية في المجتمع العباسي في العراق** ، المجلـد السابع عشر ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

<u>* مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية :</u>

- العسيري : مريزن سعيد مريزن .
  - o **الوزير العالم يحيى بن هبيـرة** ، العـدد الـسابع عـشر ، الريـاض ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* مجلة الرسالة :

- برانق : محمد أحمد .
  - o **الوزراء العباسيون** ، العدد (٨٣٥) ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .
- جواد : مصطفى .
  - o **قضية ابن العلقمي الوزير** ، العدد(٢٦) ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م .
- الدوري : عبد العزيز .
  - o **النقابات الإسلامية** ، العدد (٣٣٦) ، القاهرة ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .
- المنجد : صلاح الدين .
  - o **مآكل الخلفاء العباسيين** ، العدد (٦٥٣) ، القاهرة ، ١٩٤٦م .
  - o **الخلفاء العباسيون والتجسس** ، العدد (٦٧٨) ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

* مجلة سومر :

- مصطفى جواد .
  - o **الربط البغدادية** ، المجلد العاشر والمجلد الحادي عشر ، ج٢ ، ١٩٥٥/١٩٥٤م .

* مجلة العصور مجلة علمية تصدر عن دار المريخ للنشر ، لندن :

- السنيدي : عبد الرحمن .
  - o **التأديب والتثقيف الموجه نحو الخلفاء العباسيين وأبنائهم في مرحلة ما قبل العهد البويهي (٢٧٩-٣٣٤هـ)** ، المجلد الثاني عشر ، ج١ ، ٢٠٠٢م .
- القدحات : محمد عبد الله .
  - o **الاهتمامات العلمية للخلفاء العباسيين في فترة (٥٧٥هـ-٦٥٦هـ/١١٧٩م-١٢٥٨م)** ، المجلد الثاني عشر ، ٢٠٠٢م .

* مجلة كلية الآداب :

- الدوري : عبد العزيز .
  - o **نشوء الأصناف والحرف في الإسلام** ، العدد الأول ، مطبعة العـاني ، بغداد ، ١٩٥٩م .

* مجلة المجمع العلمي العراقي :

- إبراهيم : ناجية عبد الله .
- ابن الجوزي .
  - o **فهرســت كتبــه** ، المجلــد الواحــد والثلاثــين ، ج٣ ، بغــداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
- سوسة : أحمد .
  - o **الفيضانات وغـرق بغـداد فـي العـصر العباسـي** ، العـدد (١٠) ، ١٣٨٢هـ/١٩٨٢م .

* مجلة المورد تصدرها وزارة الثقافة والإعلام العراقية :

- السوداني : عبد الله .
  - o **أسوار بغداد** ، المجلد (٨) ، العدد (٤) ، بغداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .
- العلي : أحمد صالح .
  - o **الدواوين والوزارة في العهود العباسية** ، المجلـد (٨) ، العـدد (٤) ، بغداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .
  - o **ملامح الحضارة العربية في بغداد** ، المواصـلات والجـسور ببغـداد ، المجلد (٨) ، العدد (٤) ، بغداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .
- الراوي : حسن أحمد .
  - o **دار الخلافة العباسية** ، المجلد السادس عـشر ، العـدد (٢) ، بغـداد ، ١٤٠٧هـ/١٩٧٨م .

- رؤوف : عماد عبد السلام .
  - **تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة ببغداد** ، المجلد (٨) ، العـدد (٤) ، بغداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .
- الهيتي : صبري فارس .
  - **تخطيط مدينة بغـداد عبر العصور التاريخية** ، المجلـد (٨) ، العـدد (٤) ، بغداد ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .

فهرس المحتويات

الباب الثاني

دور فئات المجتمع في الحياة العامة

الموضوع	الصفحة

* * *